القرون والناس

الجديد حول الشرق القديم







دار التقدم



الجديد حول الشرق القديم

باشراف العضو المراسل فى اكاديمية
العلوم للاتحاد السوفييتى
بونغارد — ليفين

دار التقدم موسكو

ترجمة : د . جابر ابى جابر (المقدمة والفصول ١ — ٦)
وخيرى الضامن (الفصول ٧ — ١٤)

НОВОЕ О ДРЕВНЕМ ВОСТОКЕ

На арабском языке

قامت بوضع الكتاب مجموعة المؤلفين : كلوتشكوف وبونغارد-ليفين — المقدمة ، شنيرلمان — الفصل ١ ، كلوتشكوف — الفصلين ٢ و٤ ، بيلوفا — الفصل ٣ ، بونغارد-ليفين — الفصلين ٥ و١٣ ، غريازنيفسكى — الفصل ٦ ، سافرونوف — الفصل ٧ ، بونغارد-ليفين وغوروف — الفصل ٨ ، رايبفسكى — الفصل ٩ ، ساريانيدى — الفصلين ١٠ و١٢ ، كوشيلينكو — الفصل ١١ ، غامكريليدزه وكوشيلنكو — الفصل ١٤ .

طبع فى الاتحاد السوفييتى

H $\frac{0504010000-057}{014(01)-88}$ 227-88

ISBN 5-01-000749-5

المقدمة

المؤلفان: كلوتشكوف و بونغارد - ليفين
ترجمة: د. جابر ابي جابر

ان تاريخ الشرق القديم هو اول فصل من تاريخ البشرية . فقد ارسيت فى الشرق القديم الاسس التى حدّدت الى امد بعيد المسيرة اللاحقة للتاريخ العالمى . فتمت فى تلك المرحلة بالذات اكتشافات هامة جدا فى ميدان الحضارة المادية ونشأت المدن والمجتمعات الطبقية الاولى وظهرت الكتابة والآداب والعلوم . وقد كان لحضارات الشرق القديم اعظم التأثير على الحضارة الاغريقية-الرومانية والحضارة العربية الاسلامية وأثرت أيضا من خلالهما على الحضارة العالمية فى العصور الحديثة . وبالنسبة للعديد من بلدان الشرق لا تزال التقاليد العريقة فى القدم حية حتى الآن وهى تواصل تأثيرها الملحوظ على حياة ملايين الناس . ولذلك يبدو مفهوما الاهتمام الجاد الذى توليه أوسع اوساط الجمهور لتاريخ وحضارة شعوب الشرق القديم .

وليست دراسة الشرق القديم وليدة الأمس . فمنذ أكثر من ألفى عام كان الاغريق يتطلعون باهتمام الى جيرانهم الشرقيين . وقد تضمنت أعمال المؤرخين اليونان

والرومان القدماء معلومات قيمة جدا حول تاريخ وحضارة وديانات المصريين القدماء والبابليين والفرس والهنود وشعوب أخرى . ولكن الدراسة العلمية الحديثة للشرق القديم لم تبدأ فى أوروبا ، بالطبع ، الا فى عصر التنوير . وطوال القرن التاسع عشر كان العلماء الأوروبيون يعكفون على فك رموز الكتابات الشرقية القديمة الواحدة تلو الأخرى — المصرية (الهيروغليفية) والفارسية القديمة والبابلية والحثية . وقد جرت فى مصر وبلاد ما بين النهرين وايران اكتشافات أثرية مدهشة . وجاء القرن العشرون بنجاحات جديدة فى مجال دراسة حضارات الشرق القديم اذ تطورت طرق وأساليب القيام بالحفريات الأثرية وارتقى المستوى النظرى للدراسات والابحاث المكتبية . كما اكتشفت مراكز جديدة لحضارات الشرق القديم (اورارتو ، مارى ، اوغاريت الخ .) واتسع ، الى حد كبير ، نطاق المناطق التى كانت تجرى فيها اعمال التنقيب بحيث شملت وادى السند (منذ العشرينات) والصين وفيتنام وبلدان جنوب شرق آسيا والجزيرة العربية والقارة الافريقية مع تراكم المادة الوقائعية كان يزداد عمقا فهم العمليات التاريخية التى كانت تجرى فى الشرق القديم . وللمرة الاولى اصبح عالم الشرق القديم الضخم والمتنوع للغاية يمثل وحدة كاملة متماسكة العناصر . وغدا واضحا انه حتى المراكز المتباعدة لمختلف الحضارات كانت مرتبطة ببعضها البعض بعلاقات ووشائج ثقافية واقتصادية وثيقة

ان الابحاث التى جرت خلال العقود الاخيرة

احدثت تعديلات هامة جدا فى لوحة حياة مجتمعات الشرق القديم التى كان العلماء يعيدون رسمها . وفى تلك السنوات لم تظهر اكتشافات ذات اهمية بالغة فحسب بل واجريت بعض التعديلات فى مجمل العلوم التى تتناول الشرق القديم . كما اتسعت ، الى حد ملحوظ ، قاعدة المراجع والموضوعات العلمية نفسها . وظهرت مسائل جديدة وامكانيات جديدة لحلها . واصبح علماء الآثار والمؤرخون وعلماء اللغة يستعملون طرقا جديدة تماما لمعالجة المصادر الاثرية والتاريخية ويستخدمون بصورة واسعة منجزات العلوم الطبيعية وغيرها مما اتاح لهم تناول المادة على نحو جديد واستخلاص معلومات غزيرة من ادلة الماضى التى لم تؤخذ سابقا بعين الاعتبار اطلاقا او لم يؤبه لها . فان علم النباتات القديمة ، مثلا ، يتيح استرجاع الظروف البيئوية التى كانت تعيش فيها القبائل الزراعية الباكرة . كما ان استخدام الوسائل التكنيكية الحديثة لدراسة الادوات الحجرية القديمة يعطى امكانية تحديد وظائف هذه الادوات تبعا لدرجة تحاتّ اطرافها القاطعة الخ .

فى كل عام تنطلق عشرات البعثات الكبيرة من مختلف بلدان العالم بحثا عن معطيات جديدة حول الماضى القديم للبشرية وتجرى دراسة المواد التى تحصل عليها هذه البعثات فى أحدث المختبرات . اما نتائج المعالجة فتنشر فى عدد لا يحصى من المجلات العلمية . ان هدف هذا الكتاب يكمن فى تعريف القارئ غير المختص بوضع الامور الحالى فى مجال علم تاريخ الشرق القديم

واطلاعه على آخر واهم اللقايا والاكتشافات للعلماء العاملين فى هذا الميدان واعطائه صورة واضحة عن القضايا التاريخية — الحضارية التى يجرى حلها فى المرحلة الراهنة والمهام التالية التى تنهض اليوم امام الباحثين .

وليس «الشرق القديم» فى تصور العلماء المعاصرين مفهوما جغرافيا ولا زمنيا بقدر ما هو مفهوم تاريخى حضارى . وان لهذا المفهوم ، الذى لم يحصل حتى الآن على صيغة دقيقة متعارف عليها لدى الجميع ، تاريخه الطويل ويجرى تناوله عادة فى اطار قضية أوسع وهى قضية العلاقات بين الشرق والغرب .

ان التصورات حول انقسام المعمورة الى جزئين غربى وشرقى قد تشكلت ، على ما يبدو ، فى عصر الحروب اليونانية—الفارسية عندما سيطرت على العقول فى اليونان بشدة خاصة فكرة تصارع الهيلينيين والبرابرة ، الغرب والشرق . وهكذا فان التعارض بين «الشرق — الغرب» ظهر كمحاولة لتفسير الفروق الحضارية من خلال الاختلافات الاثنية — الجغرافية . وفيما بعد كانت حدود مفهوم «الشرق» تتغير تبعا للجهة التى كانت تتحدث عن «الشرق» . فبالنسبة للرومان كان «الشرق» ، فى البداية ، يعنى كل ما كان يقع شرق ايليريا ثم اصبحوا فى عصر الامبراطورية يقصدون بـ «Oriens» مصر والاقاليم الواقعة فى آسيا الامامية وكذلك جزءا من تراقيا ثم انحصر هذا المفهوم ، فى وقت لاحق ، بسورية فقط . ولم يقل هذا التباين فى تحديد فحوى مفهوم «الشرق» أبان القرون الوسطى

وفى العصر الحديث ، علما بأنه كان يختلف من شعب لآخر . فعند الاغريق كان يقصد به شيء آخر مما لدى الفرنسيين . وكان مفهومه عند الروس مختلفا عما لدى الانجليز .

وبمرور الزمن ومع توسع الآفاق الجغرافية أصبح مفهوم «الشرق» يتسع شيئا فشيئا . والامر ذاته كان يجرى فى العلم ايضا بالنسبة لمفهوم «الشرق القديم» حيث شمل حدودا جغرافية وزمنية جديدة واخرى وامحت معالمه بمعنى ما . ولذلك فان «الشرق القديم» يبتعد ، اكثر فأكثر ، عن كونه شرقا حيث ان الاطر «الكلاسيكية» لمفهوم «الشرق القديم» ، التى اعطاها له العلم فى القرن التاسع عشر وفى مطلع القرن العشرين ، شملت المجتمعات القديمة لمصر وبلاد ما بين النهرين وفلسطين وفينيقيا وايران . وبنتيجة الاكتشافات الاثرية ، التى جرت فى مطلع القرن الحالى ، توسعت هذه الاطر على نحو ملحوظ واصبحت تضم ايضا هضبة الاناضول والقفقاسز والجزيرة العربية . وادخلت الى هناك ، وللمرة الاولى فى علم التاريخ العالمى ، مجتمعات الهند والصين القديمة فى مؤلفات العالم السوفييتى فاسيلى ستروفه . وقد ازدادت اللوحة تعقيدا عندما بينت اعمال العقود الاخيرة على نحو مقنع ان الظواهر الاجتماعية ـــ الحضارية المتشابهة النمط يمكن ان تنشأ مستقلة عن بعضها البعض فى حضارات مختلفة وبرهنت على ان الفروقات بين ظواهر الحضارة تكمن فى المكان اكثر منها فى الزمان وان كل ما اعتبره الغرب

المعاصر تجليا بحتا لتقاليد وحضارات الشرق ، قد بقى هناك ، فى حقيقة الأمر ، حتى عهد قريب نسبيا بينما زال فى الغرب رغم انه كان موجودا فيه فى غابر الزمان . والآن يمكن ان نسوق مبررات كافية لكى ندرج فى مفهوم الشرق بعض بلدان جنوب شرق آسيا وآسيا المركزية ومنغوليا ورحاب آسيا الوسطى وسهوب شمال البحر الاسود وعالم بحر ايجه وحتى المناطق الواقعة غرب وشمال حوض البحر الابيض المتوسط

وتبدلت ايضا ، مع مرور الوقت ، الحدود الزمنية لهذا المفهوم . ولا يوجد حتى الآن اتفاق فى الرأى حول الحد الاعلى لتاريخ الشرق القديم . وبمثابة خط فاصل تجرى الاشارة الى احتلال الاسكندر المقدونى لبلدان الشرق الاوسط (اواخر القرن الرابع ق . م .) والى بداية انتشار المسيحية (القرن الاول الميلادى) واخيرا الفتوحات العربية فى القرنين السابع والثامن للميلاد . اما الحد الاسفل لهذا التاريخ فقد كان يعتبر فى السابق الالف الخامس ق . م . اما الآن فان الباحثين يخفضونه الى الالف الثامن بل وحتى الالف العاشر ق . م .

وقد جرت العادة على اعتبار ان التاريخ في المعنى الحقيقي للكلمة يبدأ بظهور النصوص الكتابية الأولى ، اى فى تخوم الالفين الرابع والثالث ق . م . اما كافة المراحل قبل هذا الزمن فيطلق عليها عصور ما قبل التاريخ . ولكن منطقة الشرق الاوسط كانت قد شهدت سلسلة طويلة من الحضارات الاثرية الرائعة الخالية الكتابة التى

سبقت عصر الآثار الكتابية الاولى وارتبطت ارتباطا وثيقا مع الحضارات «التاريخية» اللاحقة بحيث يستحيل فصلها عن بعضها البعض . ففى الالف الرابع وقبل ذلك فى الالفين الخامس والسادس ق . م . بالذات كانت ترسى اسس حضارات الشرق القديم . ولذلك فان كل ما يتسنى معرفته حول هذه المرحلة يندرج اندراجا عضويا فى نطاق تاريخ الشرق القديم . وفى الآونة الاخيرة تزداد معلوماتنا اكثر فأكثر عن حياة هذه المجتمعات الشرقاوسطية القديمة بفضل تطوير طرق ووسائل الدراسة الاثرية واللغوية للتاريخ . زد على ذلك ان الكتابة نفسها ، كما اتضح مؤخرا ، قد جاءت بعد مرحلة تمهيدية تاريخية طويلة تمتد جذورها الى الالفين الثامن والسابع ق . م . وفى الاعمال الاخيرة لعلماء التاريخ السوفييت نجد أن عرض احداث تاريخ الشرق الاوسط يبدأ من عهد «ثورة العصر الحجرى الحديث» فى الآلاف ١٠ ـــ ٨ ق . م .

وكان عالم الآثار الماركسى الانجليزى غوردون تشايلد قد أدخل فى الاربعينات والخمسينات مصطلح «ثورة العصر الحجرى الحديث» للاشارة الى التحول الهام جدا الذى طرأ على حياة المجتمع البشرى خلال الآلاف ١٠ ـــ ٧ ق . م . فبعد ان قام بتعميم نتائج العديد من الابحاث الاثرية المتعلقة بآثار العصر الحجرى المتوسط والعصر الحجرى الحديث فى الشرق الاوسط وصل تشايلد الى استنتاج مفاده انه فى هذا الوقت بالذات كانت تتم اعادة بناء جذرية لمجمل حياة المجتمع الاقتصادية

ويجرى الانتقال من الاقتصاد الاستهلاكى الى الاقتصاد المنتج .

واذا استحضرنا الطريق الذى قطعته البشرية تبين على الفور أنه طوال كافة مراحل حياة الانسان على الارض تقريبا اقتصر الناس على ممارسة الصيد وجمع الثمار . اما الجماعات الزراعية والرعوية فقد ظهرت منذ عهد قريب نسبيا اى منذ عشرة الآف سنة «فقط» . ومع ذلك فان التحولات التى جرت خلال هذه الآلاف من السنين كانت عميقة ومدهشة اذ اصبحت المجتمعات البشرية أكثر ضخامة وغدت بنيتها الاجتماعية أكثر تعقيدا وازدادت سرعة العمليات الاثنية والتفاعلات الحضارية ونشأت الدول وقامت المدن وظهرت الحضارة . وقد ارتبط هذا ارتباطا مباشرا بتحطيم النظام الاقتصادى القديم للصيادين وجامعى الثمار وبتحولهم الى زراع ومربى مواش . وهناك حالات معروفة كان فيها اقتصاد الصيادين وجامعى الثمار وصيادى السمك يصل الى فعالية عالية وكانت تظهر لديهم بنية اجتماعية معقدة ولكن لم يكن يرافق ذلك اطلاقا نضوج عملية تشكل الطبقات وظهور الدولة . فالانتقال الى الزراعة والرعى دون سواه هو الذى فتح آفاقا غير محدودة للتطور الاجتماعى . وعلى هذا الاساس الاقتصادى وحده كان بوسع الحضارات القديمة ان تنهض .

وجاء هذا الانتقال نتيجة لازمة اقتصاد الصيادين التى نشبت فى العصر الحجرى المتوسط من جراء تزايد السكان وتقلص عدد رؤوس الحيوانات البرية التى جرت

ابادة قسم كبير منها على نحو بربرى بطرق الصيد العشوائية . وقد اضطر الصيادون القدماء الى القيام بصيد القوارض الصغيرة والجراذين وجمع الحلزون والدود وجنى الحبوب البرية من اجل استكمال وجباتهم الغذائية . وفى تلك الاماكن التى كانت الحبوب تنمو فيها بكميات كبيرة (فى سفوح جبال زغروس مثلا) اكتسب جنى الحبوب المختلفة ثم زراعتها اهمية متعاظمة . وفى نفس الوقت كانت تسير عملية تدجين الحيوانات . ففى البداية اصبح الناس يحتفظون بالحيوانات الفتية ، التى امسكوا بها اثناء اعمال المطاردة ، ويدجنونها لكى يكون لديهم فى متناول اليد احتياط دائم من اللحوم ثم بدأوا بتربية الحيوانات فى ظروف اصطناعية . . .

ان الانتقال الى نمط الحياة الزراعى-الرعوى فى العصر الحجرى الحديث كان يجرى بأشكال متنوعة ففى مختلف المناطق كانت تتشكل مقدمات وشروط وظروف فريدة للانتقال الى الاقتصاد المنتج لا بد من اخذها بعين الاعتبار . وينبغى ، قبل كل شىء ، التمييز بين البؤر الاولية حيث تم تدجين بعض انواع النباتات والحيوانات على نحو مستقل والبؤر الثانوية التى وصلت اليها هذه الانواع عن طريق التبادل او فى سياق نزوح جماعات معينة من السكان . وكان مفهوم البؤر الاولية والثانوية قد طرحه للمرة الاولى عالم النبات السوفييتى نيكولاى فافلوف الذى اشتغل خلال العشرينات والثلاثينات فى دراسة نماذج النباتات المزروعة وبفضل الابحاث الاثرية

العديدة حصلت هذه الفرضية فى الوقت الحاضر على تأكيدات وادلة ساطعة . وبامكاننا الآن ان نحدّد ، سواء من حيث الزمن او من حيث المكان ، جملة من البؤر الاولية والثانوية الاساسية لنشوء الزراعة والرعى وان نتتبع على نحو مفصل عملية تشكلها وان نظهر طابع العلاقات المتبادلة المعقدة القائمة بينها . فان المعطيات المتوفرة لا تدل فقط على اصالة مختلف الطرق المؤدية الى الاقتصاد المنتج فى شتى مناطق العالم بل وتشير ايضا الى الفعالية الابداعية لسكان البؤر الاولية والثانوية على حد سواء ، ففى البؤر الثانوية لم يجر مجرد اقتباس آلى للمركبات التى تشكلت بصورة نهائية . فالانظمة الاقتصادية الدخيلة كانت تتلاءم وتتكيف على نحو خلاق مع الظروف المحلية . وفى الوقت نفسه استمرت عملية استنبات وتربية انواع جديدة ومناسبة من النباتات والحيوانات وكانت البؤر الثانوية تمارس ، فى احيان كثيرة ، تأثيرا عكسيا على البؤر الاولية (انظر الفصل الاول) .

وتشكل معطيات علم تاريخ اللغات اهمية فائقة بالنسبة لبعث بعض مراحل ما قبل التاريخ البشرى . وهنا تجدر الاشارة بشكل خاص الى بعض الفرضيات الهامة جدا التى طرحها العلماء السوفييت والى المشاريع التى يقومون بتحقيقها . وربما كانت اهم هذه الاعمال وانجحها الابحاث المتعلقة بعلم اللغة التاريخى المقارن وخاصة فى مجال النسابة اللغوية البعيدة . ففى الستينات شرع

فلاديسلاف ايلّيتش–سفيتيتش فى وضع الفرضية ، التى سبق ان طرحت فى اوأخر القرن الماضى ، حول النسابة البعيدة للمجموعات الاساسية من لغات اوروبا وآسيا وشمال افريقيا التى تدخل ضمن ما يسمى بـ«الاسرة النوستيرية» (من الكلمة اللاتينية "noster" التى تعنى ضمير المتصل للجمع أى لغاتنا ، لغات نصف الكرة الارضية الشرقى) . وبعد وفاة هذا العالم الشاب قامت مجموعة من زملائه المؤيدين لافكاره العلمية بمتابعة عمله ونشرت قاموسا مقارنا للغات المذكورة أعده ايلّيتش–سفيتيتش . وقد ادرج انصار ايلّيتس–سفيتيتش فى هذه الاسرة العليا المجموعات اللغوية الهندية–الاوروبية والاورالية (الفنلندية–الاوغورية–الصامودية) ولغات منطقة ألطاى (الطورانية والمنغولية والتنغوسية–المانشورية) والمجموعات الدراودية (لغات جنوب ووسط الهند) والمجموعة الكرتويلية (اللغة الجورجية وغيرها) والمجموعة السامية الحامية او الافروآسيوية (اللغات السامية والمصرية القديمة والبربرية–الليبية والتشادية والكوشيتية) . وعلى اساس بعث الالفاظ والمفردات داخل كل مجموعة جرى تحديد المطابقات الصوتية بين الانظمة النطقية للغات الجد ، كما اعيد انشاء زهاء ٤٠٠ جذر من الاسرة العليا والتى تعود الى المفردات الاساسية والثقافية .

ويمكن اعتبار الموضوعة ، التى طرحها العالمان اللغويان الشابان — ستاروستين ونيكولاييف حول وجود اسرة عليا صينية–ققفازية ، حدثا هاما فى علم اللغة المقارن . فقد توصلا ، اولا ، للبرهان على وحدة المنشأ لمجموعتين

من لغات شمال القفقاز وهما : المجموعة الناخية-الداغستانية والابخازية-الاديغية ثم حاولا اظهار الصلة الوراثية لهذه اللغات مع اللغات الينيسية والصينية-التيبيتية (هذه المسألة لا تزال قيد البحث) .

كما ان وضع القاموس التاريخي — المقارن للغات الافروآسيوية باشراف الخبير البارز فى تاريخ الشرق الاوسط القديم ولغاته البرفسور دياكونوف يأتى ايضا ضمن المشاريع الهامة لعلماء اللغة السوفييت علما بأنه لم يصدر منه حتى الآن سوى جزئين باللغة الروسية وتم اعداد الجزء الاول باللغة الانجليزية فى الولايات المتحدة . ويقوم معاونو البرفسور دياكونوف وتلاميذه بوضع قاموس الاشتقاق للغات السامية

ويتطور فى الاتحاد السوفييتى بنجاح خلال الفترة الاخيرة اتجاه جديد للدراسات يستند الى فروع علمية مختلفة ، وهو تنسيق معطيات الاسترجاعات اللغوية ، من جهة ، ومعطيات التاريخ القديم وعلم الآثار وعلم الحيوان القديم وعلم النباتات القديمة والجغرافيا القديمة والانتروبولوجيا من جهة اخرى وان اسماء النباتات والمصطلحات الايكولوجية التى جرى استرجاعها بغية تصور الحالة الاصلية الاولية لهذه اللغة القديمة ام تلك (التركيب القديم للغات السامية او بالاحرى اللغات الافروآسيوية) تتيح خلق لوحة معينة لحياة المجتمع البشرى الذى كان يستخدم هذه اللغة القديمة جدا (ان اسماء النباتات وادوات العمل واجزاء عدة الدابة الخ . تعطى الكثير للغاية من اجل

معرفة مستوى تطور مثل هذا المجتمع القديم) . وان المنهج ، الذى وضعه سفوديش فى الخمسينات لتحديد زمن انقسام اللغات القريبة على اساس حساب نسبة الكلمات الباقية من القاموس الاولى والمستخدمة للاشارة الى جوانب وظواهر الحياة اليومية الاكثر استعمالا ، يسمح بتحديد العهد الزمنى المطلق لمثل هذه اللغات الأم القديمة ولو بصورة تقريبية جدا . ان هدف الاتجاه الجديد الذى اصطلح على تسميته «علم الآثار اللغوى» يكمن فى النفوذ الى الماضى البشرى فى مرحلة ما قبل الكتابة عن طريق مقارنة لوحة حياة مجموعة لغوية ما تم ترميمها بالطرق اللغوية ، مع الادلة الاثرية التى حصل عليها العلماء من تلك المناطق التى يفترض ان ممثلى هذه المجموعة كانوا يقطنونها . وقد قام دياكونوف (بالنسبة للمجموعة الافروآسيوية) وغامكريليدزه وفياتشيسلاف ايفانوف (بالنسبة للمجموعة الهندية-الاوروبية) بأول محاولة لتحديد اماكن البؤر الاولية الكثيفة للمجموعات اللغوية («الاوطان الأصلية القديمة») وتعيين طرق انتشار اخلافها فى الاماكن التاريخية لسكنها

ولا تزال تدور حتى الآن نقاشات حامية فى اوساط علماء اللغة والآثار والمؤرخين والمستشرقين حول الموطن الاصلى القديم للشعوب الهندواوروبية . وكان العلماء قد بينوا ان لغات المجموعة الهندية الاوروبية قد انتشرت فى العصر التاريخى بمناطق شاسعة تمتد من اقصى غرب اوروبا وحتى هندستان (وفى قارات اخرى ايضا خلال القرون

الخمسة الاخيرة) . ومن الواضح انه كلما توغلنا فى عمق التاريخ فسنقترب ، فى مرحلة ما ، من الزمن الذى ظهرت فيه هذه اللغات فى منطقة محدودة نسبيا اصطلح على تسميتها بالموطن الاصلى القديم للشعوب الهندوا اوروبية .

ومنذ نشوء علم اللغة التاريخى المقارن فى مطلع القرن التاسع عشر وحتى ايامنا هذه كانت مسألة الموطن الاصلى القديم للشعوب الهندواوروبية تقع مرارا فى مركز اهتمام الباحثين الذين استخدموا من اجل حلها معطيات عدة فروع علمية مثل علم تاريخ اللغات وعلم الآثار والانتروبولوجيا والجغرافيا القديمة وغيرها

وقد اصبح من المتعارف عليه الآن ، حسبما يبدو ، ان الاسبقية فى اعادة بناء لوحة الحضارة الهندواوروبية (فى المعنى الواسع للكلمة) — اى فى المرحلة الاولى من حل مسألة حصر الموطن الاصلى القديم للشعوب الهندواوروبية — تعود الى المادة اللغوية حيث ان علم اللغة التاريخى المقارن قد توصل الى وضع طريقة للاسترجاع تتيح تحديد ما اذا كانت الكلمة المعنية ترجع الى الحالة الاصلية الهندواوروبية القديمة او الى فترة ظهور الكيان المنفرد لهذه المجموعة او تلك من اللهجات المحلية الهندواوروبية ان الطابع الهندواوروبى المشترك لطائفة من اسماء الحيوانات والنباتات (مثل «الثور» و«الشاة» و«الحبّة» و«الكتان» وغيرها) وظواهر الطبيعة والبيئة المحيطة وادوات الانتاج وتسميات المعادن وصفات الوضع الاجتماعى («ملك» و«حرٌ») الخ ؛ تقودنا الى استنتاجات هامة

للغاية حول الظروف الايكولوجية لمناطق اقامة الشعوب الهندواوروبية القديمة ونظامها الاجتماعى ونمطها الاقتصادى ومنظومة تصوراتها .

غير ان دور المفردات اللغوية فى دراسة تاريخ الشعوب قبل عصر الكتابة لا يقتصر على ذلك . فلا يقل عنه اهمية تحليل المفردات الحضارية اى الكلمات التى تشير الى المواد والمفاهيم والتى يمكن ان تكون قد اقتبست اثناء الاتصالات اللغوية المختلفة وان معرفة قوانين التطور الصوتى للغات تساعد على تحديد تسلسل المراحل الزمنية النسبى لهذه الاتصالات . وهذا ، بدوره ، امر هام جدا لاجل تحديد اماكنها ولدى البحث عن المناطق القديمة لسكن الشعوب الهندواوروبية تؤخذ كذلك بعين الاعتبار فئة اخرى من الكلمات وهى تشمل مختلف التسميات المحلية وقبل كل شىء اسماء الانهار التى غالبا ما يعود تاريخها الى عدة آلاف من السنين .

ان وجهات النظر العديدة بخصوص الموطن الاصلى القديم للشعوب الهندواوروبية تتجمع فى وقتنا الحاضر حول بضع فرضيات اساسية تضع الموطن المذكور فى المنطقة الواقعة بين جبال الكاربات والبلقان او فى بعض مناطق اوروبا الوسطى او فى سهوب اوروبا الآسيوية وكذلك فى آسيا الامامية

ويمكن الاشارة بدون التوقف عند الحجج التى يسوقها انصار فرضية الاصل البلقاني بأنها (كما هو مبين فى الفصل السابع من هذا الكتاب) تتناقض مع المقاييس

الايكولوجية ففى هذه المنطقة لا نصادف اكثر من نصف انواع النباتات والحيوانات الهندواوروبية . كما ان هذه الفرضية تترك أيضا بلا حل مسألة هامة من الناحية المبدئية وهى زمان ومكان الصلات الطويلة الامد للشعوب الهندواوروبية مع الاسر اللغوية الاخرى (الكارتويلية والقفقازية الشمالية والسامية) واللغات القديمة لآسيا الامامية (السومرية والعيلامية) وهو الامر الذى رافقه اقتباس للمفردات الحضارية وتشكل الاتحادات اللغوية الخ .

وتشهد لصالح حصر الموطن الاصلى القديم للشعوب الهندواوروبية فى اوروبا الوسطى وقائع كثيرة مثل الطابع الهندواوروبى لمعظم اسماء انهار المنطقة المرتبطة بأماكن انتشار الحضارات الاثرية مثل حضارة «ليندييل» وحضارة «الكعاب المخروطة» (النصف الاول من الالف الرابع — الالف الثالث ق . م .) وكذلك دخول أسماء النباتات والحيوانات المنتشرة هناك فى الرصيد المعجمى الهندواوروبى العام . ولكن بعض الباحثين طرحوا فرضية تشير الى ان حضارة ليندييل ترجع الى شمال القفقاز وذلك استنادا الى تحليل المفردات الاساسية (اى بقايا اللغات المندثرة التى تعود للسكان القدماء) لمنطقة الدانوب وتشهد الادلة اللغوية ضد الطابع الهندواوروبى لهذه الحضارة وخاصة الصلات العديدة المذكورة آنفا للأسرة الهندواوروبية مع الوحدات اللغوية الأخرى والتى تحتاج حتما الى تماس جغرافى . زد على ذلك ان الفرضية الدانوبية تضع بعض الصعوبات الاضافية امام نظرية «الاسرة النوستيرية» التى ،

رغم الطابع الافتراضى للكثير من المسائل الخاصة ، لا يمكن اسقاطها من الحسبان لدى استرجاع المراحل الاقدم زمنيا للمجموعات اللغوية المعنية .

وقد يكون من الافضل الاقرار بأن ثمة مناطق فى اوروبا الوسطى (اماكن انتشار الاسماء الهندواوروبية للانهار) تمثل الموطن الاصلى القديم لجزء من اللهجات الهندواوروبية (الاوروبية الغربية والبلطيقية-السلافية) المرتبطة بحضارات أثرية اقدم من حضارة ليندبيل (وتذكر ضمن مثل هـــــذه الحضارات ، فى الدرجة الاولى ، حضارة بادين التى تعود الى منتصف الالف الثالث ق . م . والنصف الثانى منه) . اما بالنسبة للمراحل المبكرة لنشوء وحدة اللهجات الهندواوروبية فانه من المستحيل ، كما يبدو ، استبعاد الاصقاع الشرقية القصوى من منطقة انتشارها .

وتذهب فرضية اخرى الى ان الموطن الاصلى القديم للشعوب الهندواوروبية كان يقع فى سهوب اوروبا الآسيوية حيث انتشرت فى الالفين الرابع والثالث ق . م . حضارة اثرية حفرية . وتشير بعض الادلة الى انه كان بوسع هذه المناطق ان تغدو مكانا «ثانويا» لتوزع وانتشار الشعوب الهندواوروبية (وذلك بعد تفكك الرابطة الهندواوروبية) .

ومنذ السبعينات يعكف عالما اللغة السوفييتيـــــان ت . غامكريليدزه وف . ايفانوف على وضع نظرية تذهب الى ان المنطقة الاولية لسكن الهندواوروبيين فى الالفين الخامس والرابع ق . م . كانت تقع بين شرق الاناضول وجنوب القفقاز وشمال بلاد ما بين النهرين . وللبرهان على

ذلك تستخدم ، بالاضافة الى المادة اللغوية الضخمة ، معطيات علم النباتات القديمة وعلم الحيوانات القديمة وعلم الآثار وعلوم مجاورة اخرى . ومن المهم جدا ان الباحثين المذكورين لا ينظران ، فى نهاية الامر ، الى حركة اصحاب اللهجات الهندواوروبية بقدر ما يتطلعان الى حركة اللهجات نفسها التى تشكل طبقات سطحية عند أقوام مختلفة . ولدى ذلك فان جزءا معينا من القوم ينتقل من منطقة الى اخرى وينضم الى السكان المحليين لهذه المناطق حيث تبدل فى كثير من الاحيان لغة هؤلاء وبعض السمات الاخرى . ان هذه النظرية تتطابق بصورة جيدة مع الوقائع التى تشهد على الصلات الخارجية الوراثية او الجغرافية للغات الهندية الاوروبية . وقد تمت معالجة وتعميم نتائج اعمال هذين العالمين السوفييتيين المختصين بالمجموعة الهندية الاوروبية ثم جمعت معا فى مجلد ضخم (ت . غامكريليدزه وف . ايفانوف . اللغة والشعوب الهندواوروبية ، تبيليسى ، ١٩٨٤) .

أما فكرة «منطقة السواحل البحرية» (ن . ميربيرت وغيره) فتمثل موقفا مغايرا من مسألة الموطن الاصلى القديم للشعوب الهندواوروبية . فيشار الى ان التطورات الاثنوغرافية — الحضارية فى تطور منطقة الدانوب–البلقان فى النصف الثانى من الالف الرابع قد رافقها ظهور منظومة جديدة من الحضارات مرتبطة الى الحد الادنى بالحضارات السابقة . لقد تم الكشف عن الصلات التاريخية المعقدة ، وكذلك الصلات الوراثية فى بعض الحالات ، مع مجموعة

من الوحدات الحضارية بما فى ذلك الحضارات الرعوية للسهوب الواقعة قرب شواطئ البحر الاسود وبحر قزوين . ويفترض وجود اطراد اتصالى معين وتكامل حضارى لا فى نطاق انتشار الحضارات الحفرية القديمة فحسب بل والى الجنوب من البحر الاسود حيث يمكن تتبع عناصر المنظومة الجديدة للحضارات حتى القفقاز . ويرى بعض الباحثين انه فى هذه المنطقة الشاسعة كان يمكن أن تحدث عملية تشكل مجموعات هندواوروبية ملموسة تلك العملية المعقدة للغاية التى تشمل انقسام المجموعات الاصلية الموحدة وتقارب المجموعات المنجرة الى منطقة الاتصال . ومن المفترض أنه كان بوسع الجماعات الرعوية المتنقلة ان تكون بمثابة «حلقة ايصال» . ومن جهة اخرى فان هذه المنطقة كانت تتاخم اقدم المراكز الحضارية للشرق الاوسط وحوض البحر الابيض المتوسط وغيرهما . ان فكرة «منطقة السواحل البحرية» تغدو ، الى حد كبير ، فكرة واعدة لكنها لا ترفع مسألة المنطقة الاصلية الاقدم لسكن الهندواوروبيين اى وطنهم الاول بالمعنى الحقيقى للكلمة .

ولكن مهما كانت اهمية علم اللغات والعلوم الطبيعية كبيرة بالنسبة لحل العديد من قضايا تاريخ الشرق القديم فان الاولوية هنا تعود ، بالطبع ، الى علم الآثار حيث ان كافة الادلة تقريبا حول الماضى الغابر ، بما فى ذلك النصوص الكتابية القديمة المدونة على اللوحات الفخارية وورق البردى والشقف الخ . ، تصل الى ايدى الباحثين من علماء اللغة عن طريق علماء الآثار . ولا

يسعنا فى مجلد واحد الحديث عن جميع الاكتشافات الاثرية الكبيرة التى جرت فى العالم خلال العقود الاخيرة . ولكننا حاولنا الاكتفاء بالقاء الضوء على اهمها ، وفى عرضنا التمهيدى هذا نستعرض بايجاز البعثات البارزة والنتائج الاساسية لعملها . ومن الطبيعى انه يولى ، هنا ، اهتمام اكبر لاعمال الباحثين السوفييت اذ انها عادة تبقى غير معروفة بالدرجة الكافية لدى القارئ الاجنبى بينما يجرى الحديث عن اعمال العلماء الاوروبيين الغربيين والامريكان على صفحات المجلات الواسعة الانتشار والطبعات المبسّطة .

وسنبدأ استعراضنا بشمال افريقيا حيث تستمر منذ منتصف القرن الماضى اعمال التنقيب فى مدينة قرطاجة التى اسسها الفينيقيون من سكان مدينة صور فى القرن التاسع ق . م . ومن اهم اكتشافات مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية تأتى الاكتشافات التى قامت بها تحت الماء البعثة الاثرية الامريكية (ف . باس) . وقد عملت هذه البعثة حوالى عشرين سنة فى المياه الساحلية لمختلف مناطق البحر الابيض المتوسط فدرست وانتشلت من قاع البحر عدة سفن قديمة بدءا من المراكب الصغيرة الفينيقية المحملة بالنحاس التى تعود الى الالف الثانى ق . م . ومرورا بالسفن اليونانية والرومانية الكبيرة المحملة بالتماثيل الرخامية والبرونزية الثمينة جدا وانتهاء بالسفن البيزنطية المتأخرة (القرن السابع الميلادى) . وعلى كل حال فان هذا كله يعود على الارجح الى ميدان علم الآثار الكلاسيكية .

خلال الستينات كانت تعمل فى اراضى مصر والسودان عشرات البعثات الاثرية من مختلف بلدان العالم نظرا لبناء مشاريع الرى الضخمة . وقد قامت هذه البعثات على نحو سريع بالتنقيب عن الآثار الواقعة ضمن منطقة الغمر واجراء اعمال الحفريات فيها . والى جانب البعثات الامريكية والالمانية والفرنسية والايطالية التى اشتغلت فى انقاذ الآثار المصرية القديمة تجدر الاشارة ايضا الـــى البعثات الاثرية من البلدان الاشتراكية ــ بولونيا وتشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفييتى . واستطاعت البعثة الاثرية السوفييتية برئاسة بوريس بيوتروفسكى ان تعثر فى مصر العليا على عدد من المستوطنات والمدافن الهامة التى تعود الى مراحل ما قبل التاريخ وقامت بدراسة الثغور الصحراوية والمقالـع الحجرية والمناجم القديمة حيث جمعت مواد غنية عن مختلف النقوش (انظر الفصل الثالث)

ومما لا شك فيه انه ينبغى بالتأكيد ادراج اكتشاف ما يسمى بمخطوطات البحر الميت فى عداد اهم المكتشفات العلمية فى القرن العشرين . ففى عام ١٩٤٧ عثر الفتى البدوى محمد الديب من عشيرة تعامرة على لفائف جلدية مليئة بمختلف الكتابات فى احدى مغارات الشاطئ الشمالى الغربـى للبحر الميت فى منطقة مقفرة بوادى قمران (الاردن) . وتبعت ذلك اعمال البحث والتنقيب الاثرية فى احدى عشرة مغارة من مغارات المنطقة المذكورة (فى منطقة وادى قمران) التى أسفرت عن اكتشاف ٤٠ الف قطعة من المخطوطات تمثل بقايا لحوالى ٦٠٠ من المؤلفات

المختلفة التى تتضمن الكتب المقدسة والاسفار والمؤلفات الدينية التى وضعها افراد طائفة دينية سكنت فى هذه الاماكن المعزولة فى اواخر القرن الثانى ق . م . واصطلح على تسميتها حاليا بجماعة قمران . ولم ينشر حتى الآن الجزء الاعظم من هذه المخطوطات اذ لا يزال العلماء يتابعون ترميم ودراسة وجمع ومقارنة الكمية الهائلة من القصاصات والقطع الجلدية الصغيرة جدا التى لا تتضمن احيانا سوى كلمات معدودة او حتى بضعة أحرف .

ان مقتطفات كتب التوراة المكتشفة فى وادى قمران تتيح تتبع تاريخ النصوص المقدسة (وهذه الكتب اقدم بخمسمائة سنة تقريبا من المخطوطات المعروفة) وتفتح فصلا جديدا فى ميدان نقد التوراة . ان المؤلفات الهامة لجماعة قمران («الميثاق» و«الوثيقة الدمشقية» و«ملف الحرب» و«الاناشيد» وغيرها) تعبر عن ايديولوجية هذه الطائفة الدينية المعارضة لليهودية الرسمية ، وعن نظراتها الاجتماعية ومبادئها التنظيمية .

وقرب المغارات المذكورة تم الكشف عن بقايا ثلاث مستوطنات كان يقطنها افراد هذه الجماعة الدينية حتى عام ٦٨ الميلادى عندما دمرها الرومان اثناء الحرب اليهودية . وتشهد المخطوطات والمكتشفات الاثرية على ان اعضاء جماعة قمران كانوا يعيشون حياة جماعية تسود فيها الملكية العامة وكانوا ملزمين بالعمل الجماعى والجلوس سوية الى مائدة الطعام . وكان مؤسس هذه الجماعة وزعيمها الروحى شخص مجهول الاسم لقب بـ «المعلم الصالح» . . .

وكان القمرانيون يعتقدون ان الاله اودعه الاسرار المجهولة حتى للانبياء . ان النظرات الثنوية والمهدوية والاخروية لجماعة قمران ومبادئهم الاجتماعية والتنظيمية قد مارست ، على ما يبدو ، تأثيرا كبيرا على تشكل الجماعات المسيحية المبكرة فى القرن الاول الميلادى .

وقد جرت فى منطقة البحر الميت مجموعة من الاكتشافات الاخرى الهامة جدا . ففى الجزء الجنوبى الغربى من شاطئ البحر الميت عثر على بقايا قلعة مسدّة التى كانت الحصن الاخير لجماعة السيكاري المتشددة فى معاداتها للرومان والتى قاومت الحكم الرومانى خلال فترة ٦٦ — ٧٣ الميلادية فى سياق الحرب اليهودية . كما اكتشفت فى مغارات الصحراء اليهودية بعض المخطوطات التى تعود الى القرنين الاول والثانى الميلاديين والمدونة باللغات الآرامية والنبطية واليونانية . ونتيجة لاعمال التنقيب التى جرت خلال العامين ١٩٥٢ — ١٩٥٣ فى خربة مرد وقعت فى ايدى العلماء مخطوطات باللغتين السريانية واليونانية وكذلك مخطوطات عربية تعود الى القرون ٤ — ٨ الميلادية ومقتطعات من المؤلفات الانجيلية والاسفار الدينية والوثائق العملية بل وحتى مقطع من مسرحية يوروبيدوس «اندروماخا» (القرن السادس) .

ان مخطوطات البحر الميت ذات اهمية عظيمة بالنسبة لفهم العمليات التاريخية المعقدة التى كانت تجرى فى منطقة شرقى البحر الابيض المتوسط فى اواخر القرن الاول ق . م . ومطلع القرن الاول الميلادى . فهى تلقى

ضوءا ساطعا على الوضع التاريخي والظروف الاجتماعية والمناخ الديني والاخلاقي والفكرى الذى كان يكتنف عملية تكون المسيحية وتقوم بنشر النصوص القمرانية لجنة دولية من العلماء انشئت خصيصا لهذا الغرض . وقد اسست في العديد من بلدان العالم مراكز علمية للدراسات القمرانية وهي فرع جديد من العلوم التاريخية انجبته المكتشفات الرائعة التي جرت على شواطئ البحر الميت .

وتستمر حتى الوقت الحاضر اعمال الحفر والتنقيب التي بدأتها البعثة الاثرية الفرنسية منذ منتصف الثلاثينات في مدينة اوغاريت القديمة على شاطئ البحر الابيض المتوسط والمدينة ــ الدولة ماري الواقعة عند اواسط مجرى الفرات . كما يستمر العمل في نشر النصوص المسمارية الكثيرة التي تم العثور عليها في هاتين المدينتين . ومنذ عام **١٩٦٣** تقوم بعثة جامعة روما برئاسة البروفسور باولو ماتييه بتحرياتها في سورية عند موقع تل مرديخ الذى ترقد فيه مدينة ايبلا القديمة حيث عثر علماء الآثار الطليان على ارشيف ملكي ضخم جدا وهام للغاية يضم وثائق رسمية مكتوبة بالخط المسمارى يرجع تاريخها الى الالف الثالث ق . م . (انظر الفصل الرابع) .

خلال الفترة الواقعة بين اواخر الخمسينات وبداية السبعينات عملت في البحرين والساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية بعثة اثرية انجليزية هولندية مشتركة باشراف ج . بيبي . والمعروف ان البحرين (ديلمون او تلمون) كانت تشغل مكانا خاصا في التصورات الميثولوجية

والتاريخية لسكان ما بين النهرين القدماء . ففى النصوص السومرية القديمة كانت هذه الجزيرة تسمى بـ«ارض السعداء» و«البلد الطاهر» وتعتبر بمثابة الجنة السومرية . وقد تسنى للعلماء ان يبرهنوا على ان البحرين لم تكن عند السومريين مركزا هاما للعبادة فحسب بل وكانت ايضا نقطة عبور هامة للتجارة البحرية التى كان يمارسها التجار السومريون والبابليون فى الالفين الثالث والثانى ق . م . وعن طريق البحرين كانت تعقد الصلات مع مالوه (حضارة حوض السند) وماغان (ساحل الجزيرة العربية) . وعثر علماء الآثار فى البحرين على بعض المعابد الضخمة لشعوب ما بين النهرين التى شيدت فى الآلاف ٣ — ١ ق . م . كما اكتشفوا عند الشاطئ الشرقى لشبه الجزيرة العربية عدة حضارات اثرية شبيهة بحضارات ما بين النهرين يرجع عهدها الى الالف الرابع ق . م . كما ان لقايا الاختام المنبسطة — الطلاسم من طراز هرابا تسترعى اهتماما خاصا لانها تشهد على الصلات النشيطة القائمة بين الحضارات القديمة للهند وسومر .

منذ السبعينات بدأت البعثة السوفييتية–اليمنية الجنوبية اعمالها فى اراضى اليمن الجنوبى . وقد اتسمت ابحاث هذه البعثة بطابع شمولى حيث جرى استقصاء لهجات وفولكلور وسوسيولوجيا اليمن المعاصر والتنقيب عن المدن والمناطق السكنية القديمة . وعثر علماء الآثار على عدد من الخلويات التى ترجع الى العصر الحجرى القديم والعصر الحجرى الحديث . والاهم من ذلك انهم قاموا بجمع مادة

وفيرة من النقوش التى تتضمن مختلف الكتابات تجاوز عددها الالفين (انظر الفصل السادس) .

ويبدو انه لم يحن الوقت بعد لتقييم نتائج الاعمال التى قامت بها البعثات الاثرية العديدة فى العراق والجزء السورى من منطقة ما بين النهرين فى السنوات التى اعقبت الحرب العالمية الثانية . ولذا سنقتصر على الملاحظات العامة . لقد اولى علماء الآثار ، خلال الاعوام الاخيرة ، اهتماما خاصا الى اقدم مراحل تاريخ بلاد ما بين النهرين اى للحقبة التى سبقت ظهور حضارات ما بين النهرين العظيمة . وقام علماء الآثار الامريكان بتنفيذ جملة من المشاريع التى شملت تحريات مكثفة واعمال مسح واسعة لبعض مناطق البلد (حوض نهر ديالى) ودراسة عملية ازدهار المدن وتبيان طابع المدن والصلات القائمة بينها واعادة انشاء لوحة انظمة الرى وتحديد الاسباب التى ادت الى تملح التربة وتدهور الزراعة (اعمال ت . ياكوبسون ور . آدامس) . والى جانب هذه الاتجاهات الجديدة استمرت اعمال الحفر التقليدية فى المدن القديمة المعروفة حيث يتابع علماء الآثار الالمان حفرياتهم فى اوروك . وقد استأنف الامريكان العمل فى نيبور (نفر) اما الانجليز فقد مارسوا اعمالهم فى آشور . وتجدر الاشارة بصورة خاصة الى نجاحات علماء الآثار العراقيين الذين قاموا بأعمال البحث والتنقيب فى اريدو وتل الصوّان . وتصدر فى بغداد مجلة «سومر» باللغتين العربية والانجليزية وهى احدى المجلات العلمية الرئيسية فى العالم المتخصصة

بالدراسات السومرية والاكادية . كما ظهرت فى العراق طاقات علمية جديدة حيث بدأ اعمالهم هناك علماء الآثار اليابانيون والسوفييت .

ومنذ عام ١٩٦٩ تقوم بعثة معهد الآثار التابع لاكاديمية العلوم السوفييتية بأبحاث وتحريات اثرية نشيطة فى شمال منطقة ما بين النهرين . وفى غضون ١٢ موسما حفريا تركزت جهود البعثة المذكورة على وادى سنجار ، قرب مدينة تل الفارة . وبعد ان قام علماء الآثار السوفييت باختيار بعض التلال شرعوا فى اعمال الحفر الثابتة فى مستوطنات يارمتيبه — ١ (الالف السادس ق . م .) ويارمتيبه — ٢ (الالف الخامس ق . م .) ويارمتيبه — ٣ (الالفان الخامس والرابع ق . م .) التى تميز ثلاثة ادوار للحضارات الزراعية المبكرة لبلاد ما بين النهرين وهى «دور حسّون» و«دور حلف» و«دور عبيد» . وقد اسفرت اعمال التنقيب التى اجرتها البعثة المذكورة فى وادى جبل سنجار وعلى سفوحه ، عن اكتشاف حوالى خمسين موقعا اثريا من مختلف الازمنة بما فى ذلك مواقع تعود الى العصر الحجرى القديم الى جانب مستوطنتى تل سوتو وكول‌تيبيه وهما من المرحلة التى سبقت الحضارة الحسّونية . ويسترعى اهتماما كبيرا اكتشاف البعثة السوفييتية لمستوطنة تل مغزلية التـــى يرجع تاريخها الى العصر الحجرى الحديث ما قبل الفخارى وهى اقدم المستوطنات التى شملتها اعمال وابحاث البعثة . وان العثور على قطع فلزات النحاس ومخرز نحاسى مطروق ، التى تشهد على استخدام المعادن المبكر جدا فى بلاد

ما بين النهرين ، كان على الارجح اهم مكتشفات تل مغزلية . وقد جرى هنا ايضا جمع طائفة من بذور الحبوب المزروعة (قمح احادى وثنائى الحبة وقمح قزمى وكذلك شعير متعدد الصفوف) ومواد عظمية تعطى تصورا معينا حول المراحل الاولية لتطور الزراعة والرعى فى هذه المنطقة من الشرق الاوسط . وحسب التقديرات الاولية يحدد تاريخ حضارة تل مغزلية ضمن الفترة الواقعة بين اواخر الالف الثامن والنصف الاول من الالف السابع ق . م .

فى الآونة الاخيرة اجريت ببعض مناطق الاتحاد السوفييتى وخاصة القفقاز وآسيا الوسطى ابحاث هامة وممتعة الى حد كبير حقق العلماء السوفييت خلالها نجاحات ضخمة فى دراسة التاريخ القديم لارمينيا وجورجيا وغيرهما من مناطق ما وراء القفقاز وشمال القفقاز . والمعروف ان علم الاورارتيات ، وهو العلم الذى يعتبر من احدث علوم التاريخ القديم ، مدين بنشوئه وتطوره ، الى درجة كبيرة ، للعلماء الروس والسوفييت . فقد كان من رواده علماء بارزون من امثال ن . مارّ وا . اوربيلى اللذين قاما فى مطلع هذا القرن بحفريات علمية فى مركز مملكة اورارتو ومنطقة بحيرة فان . وعكف على دراسة النصوص الاورارتية علماء سوفييت معروفون مثل ا . ميشانينوف وغ . كابانتسيان وغ . مليكاشفيلى وا . دياكونوف .

ان حل العديد من قضايا الدراسات الاورارتية لم يكن ممكنا بدون الجهد العلمى الفعال الذى بذله خلال سنوات طويلة الاكاديمى ب . بيوتروفسكى . فقد شرع

منذ اكثر من خمسين عاما بدراسة القلاع الاوارتية وما قبل الاوارتية فى اراضى ارمينيا . كما بدأ بيوتروفسكى فى عام ١٩٣٩ بأعمال الحفريات المنتظمة فى مدينة تيشيباينى (القرن السابع ق . م .) التى لعبت دورا معينا فى انشاء القاعدة العلمية لتطور الدراسات السوفييتية اللاحقة حول الحضارة الاوارتية . ان سعة الاطلاع وحدة الذهن والقدرة على ربط المعارف الملموسة بالافتراضات المنطقية قد اقترنت عند الباحث بحظ مدهش . . . لكن اندلاع الحرب اوقف الحفريات الناجحة رغم ان دراسة تاريخ اورارتو لم تنقطع . ففى مدينة لينينغراد المحاصرة كتب بيوتروفسكى بحثه الاساسى «تاريخ وحضارة اورارتو»

وقد اظهرت حفريات تيشيباينى الجديدة فيما بعد الحرب مجموعة كبيرة من البيوت والمنشآت الانتاجية . وتدل رؤوس السهام الاثقوتية العالقة فى الاسوار المحترقة على اشتراك القبائل الاثقوتية فى حصار القلعة . وان الحريق الذى خرب السطح والعوارض لفح ، فى الوقت نفسه ، الطوب الطرى فجعل الجدران متينة مما أتاح حفر قسم كبير من الحجرات بكامل ارتفاعها . وضمن المكتشفات التى عثر عليها فى تيشيباينى مواد كثيرة حفرت عليها نقوش شبيهة بالكتابات المسمارية التى تساعد على معرفة هوية أصحابها وتحديد تاريخها وهذا امر هام للغاية بالنسبة لدراسة تاريخ اورارتو وفنها . كما تتضمن بعض المواد المكتشفة ، ومنها دروع تزيينية برونزية كبيرة ، نقوشا تشير الى انتمائها لمدينة ايريبونى . وقد قامت بأعمال الحفريات

فى هذه المدينة ، التى اخذ منها اسم عاصمة جمهورية ارمينيا السوفييتية يريفان ، مجموعة من خبراء اكاديمية العلوم فى ارمينيا ومتحف بوشكين الحكومى للفنون التشكيلية تحت اشراف ب . بيوتروفسكى العلمى . وقد اسست مدينة ايريبونى من قبل الملك ارغيشتى الاول فى عـــام ٧٨٢ ق . م . وكان سور القلعة الجبار بأجزائه العموديـة النافرة وابراج المراقبة يحيط بمجمعات القصر والمعبد . وان وجود النقوش المحفورة على لوحات بازلتية فى العديد من المبانى التى تعود الى الملوك الاورارتيين الثلاثة — ارغيشتى الاول وساردورى الثانى وروسه بن ايريمين قد اتاح التوصل الى تحديد تاريخ تشييد بعض الابنية ووظيفتها . ان معبد الاله خالدى ذا الاعمدة الكثيرة ومجمع القصر يشهدان على المنجزات الرفيعة لفن العمارة الاورارتى فى مرحلة ازدهاره . كما ان الزخارف الفخمة المتعددة الالوان قد اغنت ، الى حد كبير ، تصوراتنا حول فن الاورارتيين وطريقة عمل صناعهم المهرة .

وقد اكتشف خلال السنوات الاخيرة فى اراضى ارمينيا السوفييتية عدد من الآثار الاورارتية الاخرى . ومن بين هذه الآثار تكتسب اهمية خاصة المدينة الاورارتية الكبيرة التى اكتشفها آ . مارتيروسيان وقربها بمدينة ارغيشتيخينيلى الواردة فى النصوص الاورارتية .

ان اكتشاف الآثار المعمارية الاورارتية وزخارف الانصاب ومصنوعات الحرف الفنية قد ساعد على دراسة الفن الاورارتى وابراز طابعه الخاص واسلوبه الفريد

وقد اثارت نجاحات الدراسات الاورارتية السوفييتية الاهتمام لدى علماء البلدان الاخرى نحو الآثار الاورارتية وان الكثيرين منهم يستندون فى ابحاثهم الى اعمال العلماء السوفييت .

والى عهد قريب لم نكن نعرف الا النزر اليسير عن كولخيدا ذلك البلد القديم الواقع على الساحل الشرقى للبحر الاسود . والمعروف انه كرست لكولخيدا القديمة واحدة من اشهر اساطير اليونان التى تتحدث عن الحملة التى قام بها البحارة الاغريق بحثا عن الجزة الذهبية المحفوظة عند آييتا ملك الكولخيديين الجبار . وان العديد من العلماء كانوا ، مع ذلك ، يعتبرون كولخيدا بلدا خرافيا وثمرة خيال الاغريق الذى لا ينضب . ولكن بفضل اعمال الحفريات المنتظمة فى جورجيا ، التى امتدت على نحو واسع خلال السنوات الاخيرة ، فتحت صفحات مجهولة من تاريخ وحضارة كولخيدا القديمة . وقد ظهرت امام الباحثين (بعثة او . لوردكيبانيدزه) حضارة راقية تعود الى عصر البرونز فى الالفين الثالث والثانى ق . م . والتى مهدت الطريق لازدهار حضارة مملكة كولخيدا الرائعة والاصيلة التى عاصرت حضارتى ايران الاخمينية واليونان الكلاسيكية . وتبرز حضارة كولخيدا على نحو واضح جدا فى فانى (مدينة صغيرة تقع عند ثغر نهر سولورى — الرافد الايسر لنهر فازيس القديم الذى يسمى حاليا ريونى) .

وقد استرعى الاهتمام البالغ اكتشاف سلسلة من المدافن الغنية التى تعود الى القرنين الخامس والسادس

ق . م . اى للفترة التى كانت فيها فانى مركزا لاحدى المناطق الادارية فى مملكة كولخيدا . والى جانب المصنوعات الفخارية والبرونزية والفضية تبرز ضمن مكتشفات المدافن المذكورة الحلى الذهبية بعددها الضخم ومزاياها الفنية الرفيعة . وها هى التيجان الفخمة المزخرفة بالرسومات الدقيقة المتقنة التى تصور الصراع بين الحيوانات ، والاقراط المتنوعة والخواتم الصدغية البراقة ، والاقراط الموشحة او المجوفة ، والاساور الضخمة المرصعة بتماثيل صغيرة لرؤوس الحيوانات ، والاطواق الفاخرة التى تتدلى منها منحوتات صغيرة جدا للطيور والخراف والسلاحف الخ . وهنا نرى بأن المصوغات الكولخيدية الذهبية قريبة من المصنوعات الذهبية لمدينتى ماريليك وزيفييه اللتين كانتا تدخلان فى نطاق الفن المانامیدى . ويبدو ان الكثرة غير الاعتيادية للمصنوعات الذهبية (مئات القطع فى كل مدفن) قد جلبت الى كولخيدا الشهرة كبلد «ملىء بالذهب» وهو الامر الذى دأب المؤرخون الاغريق فى التأكيد عليه اثناء وصفهم لهذا البلد . فهم يتحدثون عن انهار كولخيدا الحاوية على الذهب وعن استخراج هذا المعدن الثمين بواسطة جلود الخراف . وقد ظل هذا الاعتقاد سائدا فى المناطق الجبلية بجورجيا (سفانيتيا) حتى وقت غير بعيد وتعرض علماء الاثنوغرافيا الى وصفه بالتفصيل .

وفى الآلاف ٣ ــ ١ ق . م . اتخذت مدينة فانى وظيفة جديدة اذ اصبحت مدينة معابد . والى هذه الفترة يعود

تاريخ بناء الاسوار الدفاعية الجبارة ذات الابراج ، والمجمع المعمارى المعقد لبوابات المدينة ، والابنية المخصصة للطقوس الدينية ، والمبانى العامة والتماثيل الحجرية والفخارية المحلية والمستوردة من المدن اليونانية . وتنطوى نتائج حفريات هذه المدينة — المعبد الفريدة من نوعها على اهمية بالغة بالنسبة لدراسة المدن المعابد فى الشرق القديم

ان حفريات علماء الآثار الجورجيين فى مدينة فانى لا تزال مستمرة ولا شك فى انها ستغنى العلم بشواهد وادلة جديدة وهامة حول الحضارة القديمة والفريدة لشعوب القفقاز . وقد اتاحت اعمال علماء التاريخ والآثار اعادة النظر فى تقييم مساهمة منطقة ما وراء القفقاز فى تطور حضارات الشرق القديم والحضارة اليونانية الكلاسيكية (انظر الفصل ١٤)

فى عام ١٩٥٤ بدأت دراسة الحضارات القديمة لتركمنستان الجنوبية فخلال الاعوام ١٩٥٤ — ١٩٥٧ قامت بعثة فرع لينينغراد لمعهد الآثار التابع لاكاديمية العلوم التركمانية برئاسة ف . ماسون فى التنقيب عن آثار العصر البرونزى والعصر الحديدى المبكر لمنطقة مارغيانا حيث جرى اكتشاف مدينة ياز — ديبيه الذى اعطى تقسيما معياريا للسويات الحضارية . كما جرت فى الفترة الواقعة بين الاعوام ١٩٥٥ — ١٩٦٤ سلسلة من الاعمال المتعلقة بدراسة القرى الزراعية المبكرة من العصر الحجرى (جيتون) والعصر الحجرى النحاسى (قره ديبيه ، غيوكسيور)

التى تعود الى الالف الرابع ــ مطلع الالف الثالث ق . م .
ومنذ عام ١٩٦٥ تجرى دراسة شاملة للمركز الضخم لحضارات آسيا الوسطى القديمة ــ ألطين دبيبه . وفى سياق هذه الاعمال تم وضع عمود زمنى مفصل لطبقات المجموعات الاثرية التى ترجع الى الآلاف ٤ ــ ١ ق . م . والتى تعتبر نموذجا لا لآسيا الوسطى فحسب بل ولايران المجاورة ايضا .

ان المعالجة التاريخية للآثار المكتشفة ترتبط بثلاث قضايا : اصل الحضارات الزراعية او ثورة العصر الحجرى الحديث ومستوى تطور حضارات المجتمعات الزراعية فى زمن ازدهارها وتشكل الحضارات ذات النمط الشرقى القديم . وقد ادرجت الآثار المكتشفة فى مدار المقارنات الحضارية الواسع مع معطيات الشرق الاوسط وهندستان التى تعكس الاحتكاكات والعلاقات الثقافية والاثنية والاقتصادية القديمة .

وتكتسب الحفريات المكثفة فى مدينة جيتون اهمية خاصة بالنسبة لدراسة العصر الحجرى الحديث حيث انها اتاحت القيام بصورة كاملة باعادة انشاء هذه المستوطنة الزراعية القديمة كمنظومة اقتصادية واجتماعية وتبيان أهمية الانتقال الى الزراعة والرعى باعتباره حدا فاصلا وحاسما فى التطور الحضارى للمجتمع القديم . وفيما يتعلق بالمشاعات الحضرية الزراعية المتقدمة فانه من المهم على نحو خاص دراسة تطورها الاجتماعى استنادا الى حفريات المجمعات السكنية والمدافن

ان حفريات ألطين ديبيه ، حيث تنضد الحضارات المتتابعة من العصر النحاسى حتى العصر البرونزى يشكل ٣٠ مترا ، قد اتاحت اظهار عملية تطور الحضارة منذ المشاعة الزراعية المبكرة القديمة وحتى المنظومة المعقدة ذات الطابع المدينى المبكر او المدينى الاصلى الاولى الذى اصبحت ألطين ديبيه نموذجا عنه خلال الفترة الواقعة بين اواخر الالف الثالث ومطلع الالف الثانى ق. م . ففى ذلك الوقت كان هناك مركز عبادة ذو برج مدرّج اقيم على غرار الزقورات السومرية وكذلك حى منعزل للحرفيين وحى خاص للاشراف الذى يتميز من حيث نماذج ابنيته ومجمل نمط حياة سكانه سواء عن بيوت الحرفيين او منازل اهل المدينة الآخرين الميسورين . وان مثل هذا التركيب الذى اتصف به مجتمع مدينة ألطين ديبيه يمكن اعتباره مقدمة مباشرة للمجتمع الطبقى المبكر . وقد توصل العلماء الى الكشف عن العلاقات الوثيقة بين حضارة ألطين ديبيه وهرابا حيث تدل على ذلك مكتشفات الآثار من الطراز الهرابى فى هذه البلدة . كما ان الحفريات المذكورة اظهرت ان تطور المشاعات الزراعية القديمة فى آسيا الوسطى ، التى كانت تمارس الزراعة المروية ، وكان يسير حسب النمط المعروف فى بلاد ما بين النهرين ولكن على نحو ابطأ فضلا عن انه استخدمت هناك فى مرحلة تشكل الحضارة المقاييس والنماذج القائمة فى مركز منطقة ما بين النهرين . ان منجزات حضارة ألطين ديبيه فى البناء وفن العمارة

وصناعة الفخار والمنحوتات الصغيرة تكمن فى اساس التطور اللاحق لحضارات آسيا الوسطى وان تقاليد الحضارة المذكورة تشكل العنصر المحلى الشرقى فى حضارات بارثيا وباكتريا وسغد القديمة .

كما شهدت السنوات الاخيرة اكتشافات هامة فى اراضى اوزبكستان ايضا حيث ان بعثة معهد حمزة لتاريخ الفن (طشقند) قد ساهمت بقسط كبير فى دراسة تاريخ حضارات هذه المنطقة . وخلال ربع قرن تركزت اعمال هذه البعثة (برئاسة عضو اكاديمية العلوم بجمهورية اوزبكستان السوفييتية البروفسورة غ . بوغاتشينكوفا) فى منطقة سرحان داريا باوزبكستان — فى الاراضى الواقعة شمال باكتريا — طخارستان وامتدت هذه الاعمال فى الآونة الاخيرة نحو غرب سمرقند الى المنطقة التي اصطلح على تسميتها «ميانكال» والتى حافظت حتى مطلع القرن العشرين على اسميها القديمين سغودى — كاليان ونيم — سغد (اى سغد الكبرى وسغد الصغرى) .

ان آثار العصر الحديدى المبكر القت الضوء على عملية تشكل المدن فى شمال باكتريا خلال منتصف الالف الاول ق . م . فقد ظهرت عند التقاء الاقنية الجبلية بالوديان تشكيلات مدينية باكرة ومدن مستطيلة او مستديرة محاطة بالاسوار والخنادق . وتبرز فيها الابنية الفخمة ذات الطابع الادارى — العسكرى وربما الدينى كذلك .

وتتسم مرحلة ما يسمى بالعصر الكلاسيكى لآسيا الوسطى (القرن الثالث قبل الميلاد — القرن الرابع الميلادى)

فى اراضى اوزبكستان المعاصرة بتحول الحياة نحو واحات النهرين الكبيرين سيحون وجيحون وروافدهما . وقد ظهرت هناك فى ذلك الوقت مدن كبيرة تخضع لها المناطق الزراعية التى تحيط بها . وكانت هذه المدن تقع على مفترق الطرق التجارية وتستخدم كمراكز ادارية محلية وفى عهد كوشان ارتفع عدد المدن الباكترية وازدادت احجامها وقد جرت عملية مماثلة فى سغديان ايضا التى لم تكن تدخل ضمن الامبراطورية الكوشانية وانما كانت تابعة لدولة كانغوى .

وتشير دراسة المدن الكلاسيكية ذات النمط اليونانى القديم الى مبادئ فن عمران المدن المتطور . وشهدت اساليب التحصين تطورا ملحوظا بفضل تأثير وسائل بناء القلاع الهلنستية ، التى جاء بها الاغريق فى القرنين الرابع والثالث ق . م . ، ولكنها ، مع مرور الوقت ، وخاصة فى عهد سلالة كوشان ، لقيت تطورا لاحقا . وقد اقتبست بعض تفاصيل العمارة الباكترية من الفن المعمارى اليونانى (قواعد الاعمدة الآتيكية وتيجان الاعمدة الكورنثية والزخارف الفخارية) لكنها تعرضت جميعها للتعديل وفقا لتركيب عام متناسق للاشكال وتقييم جديد لعناصر التزيين المختلفة . اما فى العمارة السغدية فان العنصر الهلنستى غير ملحوظ تقريبا

ان الوحدة العضوية لفن العمارة والنحت والرسم قد شكلت احدى السمات المميزة لثقافة باكتريا الفنية القديمة . ومن خلال الاعمال السابقة اصبحت معروفة المنحوتات

الفخارية لقصر خالتشاى (حوالي مطلع القرن الاول الميلادى) والمنحوتات الفخارية ـــ الجصية من المعبد البوذى فى دالفيرزين ـــ تيبيه (القرن الاول الميلادى) (الدراســـات باشراف البروفسورة غ . بوغاتشينكوفا) . وضمن الاكتشافات الجديدة يمكن الاشارة الى المعبد البوذى الثانى الذى يقع داخل المدينة وهو بالمقارنة مع المعبد الاول اضخم من حيث الحجم واكثر ابهة من حيث الشكل الخارجى . ان التماثيل ، التى يرجع العلماء تاريخها الى القرنين الثالث والرابع الميلاديين استنادا الى اسلوب صنعها وكذلك الى القطع المعدنية الكوشانية ـــ الساسانية المكتشفة هناك ، كانت تزين ثلاث حجرات على الاقل . ففى القاعة الكبيرة كان ينتصب تمثال بوذا وربما كان هنـــــــاك ايضا تمثالا اندرا وبراهما . وهذه التماثيل اعلى بمرة ونصف من الطول الطبيعى . وقد صنعت من الفخار على هيكل داخلى وكسيت بطبقة سميكة من الجص التى انجزت عليها الصياغة النهائية للموديل المطلوب بألوانه المعينة . وثمة مجموعة اخرى من التماثيل اصغر مرتين من الحجوم الطبيعية وقد تم انجازها بنفس الطريقة المذكورة او باستخدام مادة الجص فقط . وهى تصور بناة هذه القصور وبينهم نساء فى ثياب تلف اجسامهن برقة ووداعـــة ، ومحارب ذو خـــوذة وشـــاب ذو عمامة .

ان الاسلوب المشترك لهذه التماثيل يقترب من تماثيل غندارا وخاصة هادا ولكن ليست هنالك أية اشكال مماثلة

باستثناء صور بوذا الشائعة المعتمدة اما فن النحت الدالفيرزينى فيتصف بمهارة فنية رفيعة . وعلى الرغم من استخدامه الواسع للقوالب التى كانت تستخدم لطبع تفاصيل التسريحات والزينة وخصلات الشعر والربطات واحيانا قناع الوجه نفسه فانه لم تكن هنالك معايير صارمة او مقاييس محددة . وتشير الحفريات الجديدة الى ان حضارة باكتريا قد شهدت فى عهد كوشان تشكل طبقة اخرى فوق الاساس الباكترى المحلى ذات اصل هندى رغم ان المؤثرات الهلنستية لم تكن قد زالت بعد .

وتسترعى اهتماما كبيرا الالواح العظمية ذات الرسومات المحفورة التى عثر عليها فى مدفن اورلات الذى يعود تاريخه الى القرنين الثانى والاول ق . م . والواقع قرب كورغان ـــ تيبيه . ويلفت النظر على نحو خاص لوحـــان مصنوعان من عظام حيوان ضخم رسم على احدهما مشهد صيد اما اللوح الثانى فيصور معركة . ان كلا المشهدين يحفلان بنزوة جامحة . فالفرسان الراكبون على ظهور الخيول الجامحة يطلقون السهام من اقواس مشدودة فى اثر الايائل المندفعة امامهم . وتمثل اللوحة الثانية معركة بين فرسان يرتدون دروعا وخوذات متماثلة . ومن الواضح ان المجموعة الآتية من اليسار تنتصر على خصومها الذين ترجل معظمهم . وتتضمن اللوحات الصغيرة ، بصورة اساسية ، رسومات لحيوانات من منطقة آسيا الوسطى . ويلاحظ ان سمات الاسلوب الاسقوثى فى رسم الحيوانات لا تزال قوية فيها . كما انها حافظت على تعبيرية هذا الاسلوب على الرغم

من غياب الشبه التام للتقليد الزخرفى الذى يكاد يحدد تأثيره الجمالى الرئيسى
ان هذه الاكتشافات هامة بالنسبة لحل قضية مساهمة الشعوب الرحل فى تكوين الحضارة الباكترية وينبغى الاشارة ايضا الى النقوش الباكترية الجديدة . فقد حافظت الكتلة المنحوتة المكتشفة فى آيرتام على النصف السفلى من تمثال الزوجين الهنديين وكذلك القاعدة التى حفرت عليها كتابة باكترية من ستة اسطر . وتتحدث هذه السطور عن أعمال البناء المتعلقة باعادة انشاء «ماليزو» (القسم المحصن) من قبل المدعو شوديا (وهو ، على الارجح ، الذى يصوره التمثال مع زوجته) فى العام الرابع من فترة حكم الملك خوفشكى وهو ثانى نقش باكترى بالغ الاهمية (وقام بفك رموزه وقراءته الخبير المعروف فى تاريخ ايران البروفسور ف . ليفشيتس) بعد النقش السورخكوتالى الشهير .

لقد اطلق المؤرخون الاغريق اسم «بلد الالف مدينة» على باكتريا التى كانت تضم شمال افغانستان وجزءا من منطقة سرحان داريا باوزبكستان وكذلك جنوب طاجكستان . ومن الطبيعى ان العلماء السوفييت يولون اهتماما كبيرا بدراسة آثار باكتريا القديمة وقد اثار اكتشاف معبد اوكسوس فى تاختى — سانغين («المدينة الحجرية») ضجة علمية حقيقية . وقامت بأعمال التحريات هناك فرقة البعثة الاثرية لجنوب طاجكستان برئاسة ا . بيتشيكيان . وتركزت مهمة هذه الفرقة فى التنقيب عن آثار العصر الهلنستى

(القرون ٤ ـــ ٢ ق . م .) ودراستها وخاصة الآثـــار اليونانية ـــ الباكترية . ولقد نقلت الينا المصادر اليونانية والرومانية معلومات حول النشاط العمراني الواسع الذى قام به الاسكندر المقدونى والسلوقيون فى الشرق . وان اكتشاف علماء الآثار الفرنسيين لمدينة آى ـــ خانم اليونانية الواقعة على الضفة الجنوبية لنهر آمو داريا (جيحون) جعلت مسألة البحث عن آثار مماثلة فى اراضى طاجكستان السوفييتية اكثر اهمية .

وخلال عشرة مواسم حفرية تم بصورة كاملة الكشف عن المعبد الذى يمثل تصميمه مخططا كلاسيكيا متطورا لمعبد النار الشرقى . وتتوسط المعبد قاعة ذات اربعة اعمدة (٨×٨) ومذبح ضخم ويحيط بالقاعة ممران بهيان على شكل « Γ » يبلغ عرض كل منهما ثلاثة امتار وطول الاول ٢٥ م والثانى ١٢ م . ومن الواجهـة ينكشف المعبد المتوجه نحو الشرق بايوانه ذى الاعمدة الثمانية الذى يشرف على ساحة المعبد الكبيرة . ومن جميع جهات الساحة يمكن تتبع المبانى الفخمة الاخرى لمجمع القصر والمعبد التى يرجع عهدها الى العصور الكلاسيكية والتى لا تزال امام الباحثين مهمة كشفها . وتتصل بايوان المعبد من الشمال والجنوب حجرات ـــ خزانات للنار المقدسة وكانت تملأ بالرماد والفحم . وغالبا ما كان يجرى تطيين وتعلية جدرانها .

وقد كانت دعائم القاعة الرئيسية والايوان من الطراز الشرقى ـــ الهلنستى . وتنتصب الاعمدة الحجرية ، التى

يبلغ طول كل منها ستة امتار ، والمتوجة بالرؤوس الايونية على قواعد عريضة من الطراز الشرقي . واستنادا الى امثال هذه المعابد (المعبد الذى اقامه فى بريين الاسكندر المقدونى على شرف الآلهة آثينا ومعبد مدينة سارد ٣٣٠ — ٣٠٠ ق . م .) يمكننا أن نحدد بثقة كافية تاريخ انجاز بناء معبد اوكسوس . وان هذا المعبد افضل من المعابد المثيلة الاخرى من حيث محافظته على حالته الاصلية والكمال الهندسى وهو الى جانب ذلك فريد من نوعه . وقد ساعد اكتشافه على توضيح الجوانب المبهمة او المفاهيم الخاطئة حول التراكيب الهندسية لبعض معابد النار . ان الكتابات اليونانية القديمة المنقوشة على احد مذابح المعبد العديدة تشير الى ان المعبد كان يحمل اسم اله نهر اوكسوس الذى كان يقع على ضفته . وعلى مذبح آخر بقيت فى صورة واضحة حروف يونانية حسب الترتيب الابجدى

وقد عثر فى المعبد على اكثر من خمسة آلاف هدية من الذهب والفضة والنحاس والحديد (ان مجموعة الاسلحة لا تتجاوز من حيث العدد كافة المواد الاثرية المكتشفة فى آسيا الوسطى فحسب بل وفى اليونان ايضا خلال ١٥٠ عاما من الحفريات) . وتثير الاهتمام البالغ سلسلة كاملة من لوحات وجوه الحكام اليونانيين — الباكتريين فى التيجان الملكية . وقد انجزت هذه اللوحات من الفخار وطليت بالآجر المشوى الملون والمحلى بالذهب وقد اكتشفت ايضا ادوات كثيرة مصنوعة من العاج

وتمثل الآثار التى عثر عليها فى المعبد ثلاث مراحل زمنية تغطى ٨٠٠ عاما من تاريخ حضارة ايران الشرقية اعتبارا من القرن الخامس ق . م . وحتى القرن الثالث الميلادى . وتتسم هنا بأهمية خاصة الاعمال الفنية التى تعود الى عصر الاخمنيين (٥٠٠ — ٣٣٠ ق . م .) والتى اكتشفت للمرة الاولى فى آسيا الوسطى (باستثناء كنز آمو داريا او ما يسمى بـ«كنز اوكسوس») .

وقد قام الباحثان ب . ليتفنسكى وا . بيتشيكيان ، اللذان عكفا على دراسة المعبد ، بنشر سلسلة من الابحاث فى الاتحاد السوفييتى والخارج ، يتناولان فيها العديد من القضايا المرتبطة بهذه الحفريات . كما نشرا فى الوقت نفسه جملة من المواد المتعلقة بالمكتشفات

ان التمثال النصفى النافر المحفور من العاج ، الذى يصور الاسكندر المقدونى فى خوذة ، يشغل مكانا خاصا ضمن المواد الاثرية التى تعود للعصر الهلنستى . فهو يكمل مجموعة التماثيل الهلنستية لهذا القائد العسكرى التى نحتها الفنانون البارزون والتى لم يصلنا منها سوى عدد قليل . لقد كان الاسكندر المقدونى معجبا جدا ببورتريتات ليسيبوس . ومن الواضح ان الاختام على القطع النقدية المعدنية تصور تمثال ليسيبوس الرائع الذى لم يصلنا والذى يصف الاسكندر فى خوذة — قناع على هيئة اسد ومخالبه مربوطة على صدره على طريقة عقدة هرقل . والى هذا النموذج بالذات تعود طريقة رسم الشخصيات المتبعة فى لوحة تاختى — سانغين العاجية التى تصور وجه القائد العسكرى اليونانى

الشهير . وان الاختلافات القائمة بين لوحات البورتريه والصور التى نجدها على القطع المعدنية النقدية التى يعطى فيها عادة رسم جانبى للاسكندر تجعل هذه الصورة رائعة وفريدة من نوعها . فأمامنا بلا شك «مشهد تنكرى» يحفل بالصفات المميزة التى تمنح الاسكندر المقدونى سمات البطل الاسطورى الجبار هرقل . ان اهمية هذه اللقايا المكتشفة فى اعماق آسيا الوسطى تكمن كذلك فى ان صورة الاسكندر قد لعبت دورا بارزا لا فى تكوين الفن اليونانى ــ الباكترى فحسب بل وفى تطور فن غاندارا بما فى ذلك الفن البوذى ايضا

ويشير الباحثان ب . ليتفنسكى وا . بيتشيكيان الى ان وفرة العاج وكثرة الاشياء المصنوعة من هذه المادة النادرة والثمينة تشهدان على ارتباط باكتريا بعلاقات تجارية ــ اقتصادية وثيقة مع الهند . وتؤكد ذلك أيضا القطع النقدية المعدنية البيضوية والمستطيلة ذات الدمغات المسكوكة فى عهد اسرة ناند وسلالة ماورى فى الهند من القرن الخامس وحتى القرن الثانى ق . م . كما ان بعض المكتشفات العاجية تعود بلا شك الى الاعمال الفنية ذات الاسلوب الهندى ــ الغاندارى

وهكذا تبدو بوضوح تام العناصر المكونة للفن اليونانى ــ الباكترى فى ضوء المواد الاثرية المكتشفة فى «معبد اوكسوس» التى تضم تقدمات الاهالى والسلاح والادوات المستخدمة فى الطقوس الدينية وهى : العنصر الشرقى الاصلى والعنصر الهلنستى المستورد ، والعنصر الغاندارى

المنصهر فى بوتقة واحدة ضمن التركيب اليونانى ـــ الهندى .
ان حفريات معبد اوكسوس قد اعطت العلم مئات التحف الفنية التى لا مثيل للكثير منها . وبفضل حفريات تختى ـــ سانغين سجل فصل جديد وزاه فى تاريخ حضارة باكتريا خاصة وآسيا المركزية عامة . لقد اسهمت هذه المكتشفات فى اغناء معارفنا حول الهندسة المعمارية فى باكتريا القديمة وحضارتها المادية وفنها وتصوراتها الدينية الخ . واستنادا الى كمية كبيرة من المعطيات الميدانية تسنى للعلماء ان يبرزوا على نحو واضح دور التقاليد المحلية فى نشوء الحضارة الهلنستية الباكترية . ان دراسة المجموعة المذكورة قد زودتنا بمعلومات حول شتى جوانب العلاقات بين شعوب هذه المنطقة ومختلف مناطق الحضارات القديمة الممتدة من الهند الى البحر الابيض المتوسط . وان حجم وفعالية هذه العلاقات تؤكدهما بوضوح خاص الآثار الفنية التى عثر عليها فى باكتريا والتى رفدت ذخائر الحضارة العالمية .

ان منجزات الحضارة الباكترية اصبحت ممكنة بفضل هذه الصلات الحضارية الواسعة والمتنوعة بالذات . ففى ظل تأثيرها المباشر «حصل» ذلك التركيب الابداعى الذى اعطى حوافز قوية جدا لتطور الحضارة . وكان المنحى الباكترى ـــ الهلنستى واحدا من اتجاهات هذا التطور . وان تجلى تركيب هاتين الحضارتين لا ينحصر فى ميدان الاشكال المعمارية والحياة المادية . ففى الضفة اليمنى لنهر اوكس ـــ آمو داريا لم يكن الناس يكتبون ويتكلمون

باللغة اليونانية فحسب بل وكانوا يعبدون آلهة يونانية ، وقد تشكلت هناك حضارة باكترية — هلنستية متماسكة وموحدة . فمثلا اكتشف الزملاء الفرنسيون فى «أى — خانم» على ضفة آمو داريا عند مصب كوختشا داريا مسرحا مدرجا يونانيا ومدرسة يونانية وغيرهما من المبانى والمنشآت المعمارية الهلنستية الصرف . ويبدو ان المؤلفات اليونانية (الادبية والعلمية والفلسفية) كانت منتشرة فى باكتريا على نطاق واسع حتى فى فترات لاحقة . وليس من المستبعد ان بعض عناصر هذه الحضارة استطاعت ان تبقى حتى بعد سقوط الدولة الكوشانية .

وفى ضوء اعمال العلماء السوفييت بما فى ذلك بعثة ليتفنسكى تنتصب امامنا حضارة باكتريا الكوشانية كحضارة مدينية راقية بعمارتها وفنونها الرائعة ومصنوعاتها الحرفية الممتازة . انه عصر التركيب الهلنستى — الباكترى — الهندى . ومن السمات المميزة الهامة لهذا العصر انتشار البوذية فى باكتريا وبعض مناطق آسيا الوسطى الاخرى . وبهذا الصدد فان حفريات بعثة ب . ستافينسكى فى قــــره تيبيه وبعثة ول . الباوم فى فايز — تيبيه (قرب ترمذ) تثير اهتماما خاصا .

منذ اواخر الستينات وحتى نهاية السبعينات كانت تعمل فى شمال افغانستان بعثة اثرية سوفييتية—افغانية مشتركة . وخلال هذه السنوات اجرت البعثة المذكورة اعمال التنقيب والحفر فى عدة مواقع اثرية هامة تعود الى العصر البرونزى . وفى نهاية عام ١٩٧٨ قام علماء الآثار باكتشاف

مدهش حيث عثروا على عدة «قبور ملكية» غنية يرجع عهدها الي المرحلة الهلنستية (انظر الفصلين العاشر والثانى عشر) .

كما جرت اكتشافات ضخمة فى مجال دراسة تاريخ وحضارة هندستان القديمة . ويعود الفضل فى ذلك ، قبل كل شيء ، الى البعثات العديدة للعلماء الهنود وكذلك اعمال علماء الآثار الباكستانيين والفرنسيين والامريكان والطليان فى باكستان وبفضل الابحاث الكثيرة التى قامت بها بعثة البروفسور ج . جاريج فى مهرغارها (اقليم بيلوجستان قرب بلدة كفيتا) أصبح معروفا انه كان يوجد فى هندستان واحد من اقدم مراكز الزراعة والحضارة المدينية المبكرة . ففى الالفين السابع والسادس ق . م . كان السكان يزرعون مختلف انواع الحبوب ويمارسون الرعى على نحو فعال . كما كانت الحياة المدينية هنا تسير فى طريق الازدهار .

وقد اسهم علماء الآثار الهنود والباكستانيون فى الآونة الاخيرة بقسط وافر فى مضمار دراسة حضارة هرابا من حيث منابعها ، ومراحل تطورها ، واسباب انقراضها ، وكتابتها ولغتها الى جانب دراسة ما يسمى بـ «القضية الآرية» (ونذكر هنا ، على وجه خاص ، اعمال البروفسور ج . جوشى فى البنجاب الشرقية) . كما تقدم الى حد كبير حل مسألة الوطن الاصلى القديم للدراويين (انظر الفصل الثامن) .

وان المشروع الهندى ــ السوفييتى المتعلق باجراء دراسة

مقارنة لحضارات الهند وآسيا الوسطى القديمة يفتح ايضا آفاقا واسعة فى تقصى مراحل قديمة جدا من تاريخ الهند . وقد وضع هذا المشروع عام ١٩٨٠ بمبادرة العلماء الهنود ، ولمدة عشرين سنة . وسرعان ما بدأ يعطى نتائج ملموسة حيث اقيمت ندوات مشتركة ونشرت مجموعات مقالات للعلماء السوفييت والهنود . وسيبقى عصر كوشان الموضوع الرئيسي لعدة سنوات قادمة . ومن المقرر اجراء تنقيبات اثرية مشتركة فى الاتحاد السوفييتى والهند ودراسة فنون هذا العصر وخاصة فنون ماتهورا (الهند) وباكتريا .

خلال الخمسة عشر عاما الاخيرة ظهرت عدة اكتشافات هامة فى مضمار الدراسات الاثرية لتاريخ الصين القديم التى تنطوى على اهمية كبرى بالنسبة لفهم خصائص تطور هذه المنطقة الشاسعة او شرق آسيا بأكمله على حد سواء فى الآلاف ٤ ـــ ١ ق . م .

وكان يعتقد فى السابق ان حضارة يانشاو هى اقدم حضارات العصر الحجرى الحديث فى شمال الصين التى اسسها الزراع الحضر الذين كانوا يزرعون بعض اصناف الحبوب فى مناطق الطمى على ضفاف نهر خوانخه وروافده ويصنعون اوانى فخارية مزخرفة ذات نوعية ممتازة . ان الحفريات التى جرت عام ١٩٧٦ فى مستوطنة قريبة من تسيشان (مقاطعة خيبيه) وعام ١٩٧٧ فى ليبيغان (مقاطعة خينان) قد اعطت مواد اثرية تشهد على ظهور حضارات زراعية قبل حضارة يانشاو تميزت باستعمال الخزف غير المزخرف والمناجل ومطاحن الحبوب الحجرية . وتعــود

اولى آثارها ، حسب معطيات الفحص الاشعاعى ، الى الالف السادس ق . م .

ان مسألة صحة الرواية الصينية القديمة التى تتحدث عن اول دولة فى اراضى الصين ــ مملكة سيا لا تزال فى طليعة القضايا الاكثر اثارة للجدل والتى تجذب اهتمام الخبراء منذ فترة طويلة . وقد جنح بعض العلماء الى ربط سيا بآثار العصر الحجرى المتأخر المنتشرة فى جميع ارجاء مقاطعة خينان . لكن حفريات مستوطنة ارليتو (مقاطعة خينان) التى تجرى منذ اواخر الستينات اظهرت ان بعض طبقات هذه المنطقة الاثرية لا يمكن ارجاعها لا للعصر اللونشانى ولا للعصر الاينى المبكر . واغلب الظن ان هذه الطبقة الحضارية لارليتو يمكن ربطها بمجتمع سيا .

وان حفريات المستوطنة القريبة من ارليتو ، التى اكتشفت عام ١٩٨٣ والتى تعود الى المرحلة المتوسطة من حضارة «اين» (حوالى القرن الخامس عشر ق . م .) ، تفتح آفاقا كبيرة ايضا . وتكمن خاصية هذه المستوطنة بأن سكانها قد هجروها ، وذلك خلافا لما كان يجرى فى معظم المدن الصينية القديمة فانها لم تدفن حتى الوقت الحاضر تحت المنطقة السكنية القائمة هناك حاليا . ان دراسة هذه المستوطنة القديمة الواقعة قرب مدينة يانشى قد اتاحت الكشف عن اساس سور المدينة ذات البوابات ومجمعات القصور الذى لا يزال على حالته الاصلية .

ومن اهم نتائج حفريات السنوات الاخيرة فى موقع العاصمة الاينية المتأخرة فى آنيان قرب سياوتون (مقاطعة خينان) كان اكتشاف كمية كبيرة من النقوش الاينية المحفورة على عظام الرجم . وهى اول لقية من هذا النوع بعد استئناف حفريات سياوتون فى بداية الخمسينات . وان نشر هذه المجموعة يوسع الى حد كبير من امكانية استخدام النقوش الاينية كمصدر تاريخى . اما الحدث البارز الآخر فى ميدان الاعمال الاثرية المتعلقة بالحضارة الاينية فهو اعداد ونشر قائمة شاملة للنقوش الاينية المحفوظة فى مختلف المتاحف ومعاهد البحث العلمى فى الصين واوروبا وامريكا . وقد قامت مجموعة من الباحثين العاملين فى معهد التاريخ التابع لاكاديمية العلوم الاجتماعية فى الصين الشعبية بأعمال كثيرة فى مجال تصنيف النقوش وتبويبها ووصفها وتحديد تواريخها (ويشرف على هذا العمل عالم النقوش الصينى الشهير خو خوسيوان) . والى جانب المجلدات الثلاثة عشر التى صدرت حتى الآن والتى نشرت فيها النصوص الاصلية ستصدر كذلك قوائم للتعابير الصوتية وفهارس .

ان حفريات عام ١٩٧٧ فى مقاطعة شينسى ، التى اسفرت عن اكتشاف نقوش الرجم من عصر تشاو الغربية الذى اعقب الحضارة الاينية ، قد احدثت تعديلات جوهرية فى التصورات التقليدية حول الانواع الاساسية للمراجع الصينية القديمة . ومع ان كمية النصوص المكتشفة تقتصر على بضع مئات فان اهميتها بالغة جدا ان

فك رموز هذه النقوش يتيح النظر الى احداث القرن الحادى عشر ق . م . ، التى اتسمت بالصراع بين الاينيين والتشاويين ، بمنظار التشاويين ومقارنة ما كانوا ينقلونه من معلومات بالرواية الاينية لهذه المعلومات .

خلال السنوات الاخيرة ازداد الى حد كبير عدد الكتابات التشاوية على الاوانى البرونزية الطقسية ، المستخدمة فى البحث العلمى وفى الوقت الحاضر يعكف معهد التاريخ التابع لاكاديمية العلوم الاجتماعية فى الصين الشعبية على اصدار قائمة للنقوش التشاوية التى ستتضمن للمرة الاولى جميع النصوص من هذا النوع .

والى عداد اهم اكتشافات العقود الاخيرة ينبغى ان نرجع حفريات القبور الواقعة على مقربة مباشرة من ضريح اول موحد للصين القديمة الامبراطور تسين شيخوان . وكانت المواقع التى تم الكشف عنها تدخل فى مجمع مقبر الملك رغم انها كانت تشغل فيه مواضع ثانوية . ومع ذلك فقد زودت العلم بمواد كانت مجهولة من قبل اتاحت استعادة العديد من الجوانب السياسية والاجتماعية والثقافية لتاريخ الصين فى القرن الثالث ق . م . ومنها تماثيل الجنود التى وضعت فى خنادق خاصة فى حالة الاستعداد القتالى وكذلك طقوم الاسلحة وتماثيل الخيل والمركبات الخ . ان هذه المكتشفات تشهد على المستوى الرفيع لفن النحت الصينى القديم الذى مهد الطريق بصورة مباشرة نحو خطوة جديدة الى الامام فى عصر خان .

ان الاهتمام البالغ الذى أولاه علماء الآثار الصينيون

خلال السنوات الاخيرة لدراسة آثار عصر الخان (القرن الثالث ق . م . ـ القرن الثالث الميلادى) يعود الى الاثر العميق الذى احدثته نتائج اعمال البحث والتنقيب وتجرى بشكل منتظم الاعمال المتعلقة بدراسة العاصمتين الصينيتين القديمتين اللتين تعودان الى هذا العصر وهما تشانانى ولويان . وقد اكتشفت هناك قبور ذات رسوم جدرانية ونقوش مرافقة تتضمن معلومات قيمة عن خصائص الحضارة المادية والروحية لذلك العصر . وقد اسفرت حفريات القلاع الحدودية من عصر خان فى منطقة تسيويان عن العثور على اكثر من عشرة آلاف وثيقة مدونة على لوحات خشبية صغيرة . كما اكتشفت ايضا نصوص مماثلة فى المناطق الداخلية للصين . ويكتسب اهمية كبرى اكتشاف مدفن لاحد الاشراف فى ماوندويا قرب شانش (مقاطعة خونان) حيث بقيت بحالة سليمة تقريبا كافة الاشياء التى وضعت فيه ، وذلك بفضل الظروف الخاصة التى تم توفيرها فى حجرة الدفن . وبين الاشياء المذكورة تأتى آنية لمّاعة والبسة حريرية واقمشة ووثائق طقوسية مدونة على شرائح خشبية وغيرها . وبعد حفريات ماوندويا ظهرت امكانيات جديدة من حيث المبدأ لدراسة الحضارة المادية للصين القديمة . وقد عرضت المواد الاثرية التى عثر عليها بماوندويا فى العديد من بلدان آسيا واوروبا وفى معارض اثرية اقيمت خصيصا لهذا الغرض .

* *

لقد كان من الممكن التوسع فى هذا الاستعراض ، الى حد كبير ، لكننا نأمل بأن ما ذكرناه هنا يكفى لاعطاء القارئ تصورا عاما حول المستوى المعاصر للدراسات والابحاث المتعلقة بالشرق القديم والقضايا التى تسنى للعلماء حلها والمهام التى تنهض اليوم امامهم . ومن الطبيعى اننا اولينا اهتماما كبيرا بأعمال الباحثين السوفييت ومساهمتهم فى حل مسائل تاريخ الشرق القديم . ونحن على يقين من ان القارئ لن يرى فى ذلك تقليلا لمآثر علماء البلدان الاخرى . وان علم الشرق القديم يبقى ، رغم الاختلافات الايديولوجية والمنهجية فى اوساط العلماء ، ميدانا للتعاون العلمى بين الباحثين من كافة بلدان العالم . اذ ان معرفة ماضى البشرية القديم هى ، فى نهاية المطاف ، واجب انسانى عام سواء امام الماضى او تجاه المستقبل

* * *

قام بوضع المقدمة ا . كلوتشكوف وغ . بونغارد — ليفين . اما فصول الكتاب فقد كتبها على التوالى : الفصل الاول — ف . شنيرلمان ، الفصل الثانى — ا . كلوتشكوف ، الفصل الثالث — غ . بيلوفا ، الفصل الرابع — ا . كلوتشكوف ، الفصل الخامس — غ . بونغارد — ليفين ، الفصل السادس — ب . غريازنيفيتش ، الفصل السابع — ف . سافرونوف ،

الفصل الثامن — غ . بونغارد — ليفين ، ن . غوروف ، الفصل التاسع — د . راييفسكي ، الفصل العاشر — ف . ساريانيدي ، الفصل الحادي عشر — غ . كوشيلنكو ، الفصل الثاني عشر — ف . ساريانيدي ، الفصل الثالث عشر — غ . بونغارد — ليفين ، الفصل الرابع عشر آ . غامكريليدزه وغ . كوشيلنكو .

الفصل الاول

بدايات الزراعة والرعي

المؤلف: شنيرلمان
ترجمة: د. جابر ابي جابر

ان المراكز الاولى لتشكل الاقتصاد المنتج وتطوره كانت تقع ضمن اراضى الشرق القديم الممتدة من شمال شرق افريقيا حتى شرق وجنوب شرق آسيا . ففى هذه المناطق بالذات بدأت زراعة معظم مزروعات العالم القديم وتم تدجين الانواع الاساسية من الحيوانات والطيور . وهنا ايضا كانت تقع مراكز التهجين الاولى حيث استنبطت من الانواع القديمة المؤهلة اصناف جديدة من المزروعات والحيوانات الاليفة .

ومن المعروف ان النظرية المتعلقة بالمراكز الاصلية ، التى انحدرت منها النباتات المزروعة ، طرحت للمرة الاولى من قبل عالم النبات السوفييتى الشهير نيكولاي فافيلوف . وقد قام فافيلوف وتلاميذه برحلات علمية عديدة فى شتى ارجاء الكرة الارضية وحصلوا على مجموعات رائعة من مختلف انواع النباتات المزروعة وقريباتها البرية . وساعدت هذه المعطيات فى الكشف عن المراكز الاكثر تنوعا لاصناف النباتات . وقد ذهب فافيلوف الى انه

فى هذه المراكز بالذات ينبغى البحث عن جذور الزراعة القديمة . وفى وقت لاحق طور العالم السوفييتى فرضيته فأصبح يميز ضمن هذه المراكز بين المراكز الاولية والثانوية التى تشكلت عبر آلاف السنين من التاريخ المعقد للانتاج الزراعى . وكان فافيلوف طوال حياته كلها يعكف على تطوير نظريته وتدقيق مواقع المراكز الاولية . وقد تابع اعماله فيما بعد علماء النبات السوفييت والغـــربيـون (ب . جوكوفسكى ، وا . سينسكايا ، وج . هارلان ، وس . دارلينغتون ، وج . بارو ، وب . بورتر وغيرهم) .

وتشير معطيات العلم المعاصر الى ان آسيا كانت تضم ثلاثة مراكز اولية هامة للاقتصاد المنتج القديم كانت تقع فى اسيا الامامية وجنوب شرق آسيا وشرقها . وظهر فى افريقيا مركز واحد على الاقل (شمال شرق افريقيا) . كما نشات مراكز ثانوية فريدة للزراعة القديمة ذات طابع خاص فى افغانستان وايران وشبه الجزيرة الهندية وبعض المناطق الاخرى .

لقد كان مركز آسيا الامامية من اقدم مراكز الزراعة المبكرة فامتد من آسيا الصغرى الى الحدود العراقية ــ الايرانية (جبال زغروس) ومن فلسطين حتى ما وراء القفقاز . وفى العديد من مناطق آسيا الامامية كانت تنمو بعض اصناف الحبوب البرية والنباتات القرنية وقد اتسمت النباتات البرية فى بعض المناطق بوفرة المحصول ، وكانت الحياة الحضرية هنا قد ظهرت قبل المرحلة الزراعية على اساس الجنى الفعال للنباتات . اما السمة الاخرى للانتقال

الى الزراعة فى آسيا الامامية فانها تجلت فى ان هذا الانتقال قد حصل هنا بسرعة كبيرة نسبيا خلال الآلاف ٩ ــ ٧ قبل الميلاد . وفى البداية جرى تشكل الزراعة فى عدة مراكز صغيرة تتمتع باستقلالية معينة رغم الصلات الوثيقة القائمة بينها منذ فترة مبكرة نسبيا . وفى عداد هذه المراكز الصغيرة يبرز مركز الساحل الشرقى للبحر الابيض المتوسط (فلسطين وجنوب غرب سورية) والمراكز الواقعة فى شمال سورية وجنوب شرق الاناضول وجنوبها وزغروس (من شمال العراق حتى جنوب غرب ايران) ومركز ما وراء القفقاز .

وقد ظهر المركز الصغير الواقع شرقى البحر الابيض المتوسط فى الالف الثامن ق . م . وذلك خلال الانتقال الى زراعة القمح ذى الحبتين والشعير ذى الصفين المستنبطين من الغلال البرية . وعلى نحو مبكر ايضا بدأ الناس بزراعة الحمص والعدس فى الجزء الشمالى من هذا المركز . وبفضل الصلات الاثنية القوية انتشرت زراعة الحمص والعدس فى فلسطين خلال الالف السابع ق . م . وفى الوقت نفسه ادخل القمح ذو الحبة الواحدة من المناطق الشمالية الى منطقة الساحل الشرقى للبحر الابيض المتوسط . وعلى تخوم الالفين السابع والسادس ق . م . ظهر فى جنوب غرب سورية الكتان الحقلى القديم الذى كان يزرع فى البداية من اجل الحصول على بذوره المستخدمة كمادة غذائية .

وفى الالف السابع ق . م .. مارس مركز الساحل الشرقى

للبحر الابيض المتوسط بعض التأثير على المنطقة الافريقية المجاورة له ففي تلك الفترة بالذات نشأت الزراعة القديمة فى مصر السفلى والتى كانت قائمة على القمح ذى الحبة الواحدة والشعير والبقول .

وقد تشكل فى جنوب شرق الاناضول وشمال سورية مركز مبكر للزراعة القديمة فريد من نوعه . وفى غضون الالفين الثامن والسابع ق . م . انتشرت هنا زراعة القمح ذى الحبة الواحدة والشعير والعدس والحمص والكرسنة والكتان . وينقسم هذا المركز من وجهة النظر التاريخية الحضارية الى منطقتين جنوب شرق الاناضول وشمال سورية . فالمعروف ان سكان شمال سورية فى العصر الحجرى الحديث المبكر كانوا يرتبطون بصلة القربى مع اهالى الساحل الشرقى للبحر الابيض المتوسط ويجرون معهم تبادلا تجاريا نشيطا كان يشمل بشكل خاص المنتجات الزراعية . وفى الوقت نفسه كان هؤلاء السكان يقيمون علاقات وصلات مع سكان الجبال الشمالية والشرقية التى ساعدت على وصول الغنم والماعز الاليفة

ولعب سكان شمال سورية دورا هاما فى الاستصلاح الزراعى لبلاد ما بين النهرين . وتم اثبات ذلك منذ وقت غير بعيد بفضل الابحاث الاثرية الواسعة التى اجراها العلماء السوفييت فى شمال العراق . فقد اظهرت اعمال التنقيب التى قامت بها البعثة السوفييتية على سفوح جبل سنجار وفى القطاعات المجاورة لها من وادى الرافدين ان هذه المناطق كانت تقع ضمن منطقة انتشار الزرّاع

السوريين الشماليين وانه تشكلت هنا بالذات فى النصف الاول للالف السادس الوحدة البشرية التى ارست بداية سكن واستقرار الزرّاع فى مختلف ارجاء بلاد ما بين النهرين .

اما المركز الصغير الثالث فقد كان يقع فى جنوب الاناضول . وفى مطلع العصر الحجرى الحديث تقاربت الجماعات القاطنة فى هذه المنطقة حضاريا مع سكان جنوب شرق الاناضول وتحت تأثيرهم . على ما يبدو ، ظهرت الزراعة فى اراضى المركز المذكور . فمنذ الالف السابع كانت تجرى هنا زراعة القمح ذى الحبة الواحدة والشعير ذى الصفين والمتعدد الصفوف والعدس . وبدأت تنتشر تدريجيا زراعة البقول . وقام السكان المحليون للمرة الاولى فى العالم بزراعة الجودار . كما انتقلت الى هنا من المنطقة الجنوبية الشرقية الحنطة الرومية بفضل الصلات الاثنية

وفى مركز زغروس الصغير بدأ الناس على تخوم الالفين الثامن والسابع ق . م . بزراعة القمح ذى الحبة الواحدة والشعير ذى الصفين والحنطة الرومية والعدس . وعلى الرغم من انه كانت تنمو هناك ايضا النباتات البقولية البرية فان دورها الانتاجى كان ، على ما يبدو ، اقل مما هو عليه فى المناطق الواقعة الى الغرب .

ان اقدم المعطيات حول الزراعة فى القفقاز تعود الى منطقة داغستان حيث انتشرت منذ الالف السادس ق . م . زراعة القمح والشعير اللذين وصلا الى هنا بالتأكيد من المناطق الجنوبية . وقد تجلت خاصية المركز الصغير

القفقازى بالتنوع الكبير لاصناف القمح التى تجاوز عددها منذ الالفين الخامس والرابع سبعة اصناف فى اراضى الزرّاع المحليين . والى جانب القمح كانت معروفة هناك عدة انواع من الشعير والعدس والحمص وحتى الشوفان ايضا . كما ادخلت فى مناطق ما وراء القفقاز زراعة الدخن الذى لا حاجة — بالرغم من التصورات السائدة — الى اثبات انه يتحدر من شرق آسيا .

لقد كان زرّاع آسيا الامامية القدماء بارعين فى اصطفاء النباتات الزراعية ، اذ استطاعوا خلال الالفين السابع والسادس استنباط عدة اصناف جديدة من الغلال الحقلية واهمها القمح اللين الذى اصبح الآن اكثر اصناف القمح الحقلي انتشارا . وكانت آسيا الامامية ايضا من اهم مراكز تدجين الحيوانات واصبحت منطقة تاوره — زغروس المركز الاساسى لتدجين الماعز والاغنام حيث ظهر الرعى فى الالف الثامن قبل الميلاد . وانحصرت عملية تدجين الماعز ، بلا شك ، فى جنوب جبال زغروس بينما كان تدجين الاغنام يجرى فى شمالها . ومن المحتمل ان تكون عملية تدجين هذين النوعين قد استمرت لاحقا فى الاناضول ايضا . ففى جنوب الاناضول وربما ايضا فى شرقه كان الناس على تخوم الالفين السابع والسادس قد دجنوا التيوس الجبلية ثم انتقلوا الى تربية الابقار . وبعد ذلك بقليل جرى تطوير هذه العملية لاحقا فى منطقة ما وراء القفقاز . اما مناطق سورية وبلاد ما بين النهرين السهلية وكذلك الساحل الشرقى للبحر الابيض المتوسط

فقد كانت تقع خارج منطقة التدجين الاولية للحيوانات . وبدأت هناك تربية الاغنام ثم الابقار فى الالفين السابع والسادس بتأثير المناطق الجبلية . وفى الالف السابع ظهرت فى فلسطين وزغروس الخنازير الاليفة . ولكن تربية الخنازير فى آسيا الامامية كانت لها عموما اهميـــة محلية صرفة وكانت تنتشر بصورة خاصة عند بعـــض المشاعات السهلية القاطنة فى المناطق ذات الميـــاه الوفيرة .

وقد تم الآن اثبات ان الحمار البرى كان موجودا فى سورية . وهناك على ما يظهر تم تدجينه فى البداية . وفى شمال ما بين النهرين عثر على عظام قديمة للحمير الاليفة تعود الى الالف الخامس .

اما بالنسبة للحصان فالامر اكثر تعقيدا ، اذ وجد الحصان البرى فى المناطق الشمالية لآسيا الامامية ولكن لم يتضح حتى الآن ما اذا كان قد دجّن هناك أم لا .

لقد كان مناخ الجزيرة العربية خلال الآلاف ٦ ـــ ٣ الطف بكثير مما هو عليه الآن . وتوفرت هنا فى العديد من الاماكن الظروف الملائمة لتطور الزراعة والرعى . وللاسف لا يزال تاريخهما المبكر جدا غير مدروس حتى الوقت الحاضر . ولكن من المعروف ان مستوى مجتمعات الجزء الشرقى من الجزيرة العربية لم يكن ادنى ، الى حد ملحوظ ، من مستوى حضارات ما بين النهرين . وكانت تزرع هناك آنذاك اشجار النخيل وبعض النباتات الاخرى . وفى المناطق الداخلية للجزيرة العربية كان السكان يمارسون

الرعى ومع مرور الزمن استطاعو تدجين الجمل ذى السنام الواحد .

ولم تكن آسيا الامامية من اقدم مراكز الزراعة والرعى فحسب بل وكانت الموطن القديم لصناعة التعدين ، اذ توفرت هنا فى الالف السابع المقدمات الانتاجية لنشوء التعدين . فان الناس الذين كانوا يمارسون استخراج الجير تعلموا منذ مطلع العصر الحجرى الحديث طريقة الحصول على الحرارة الضرورية لصهر خامات النحاس (٧٠٠ — ٨٠٠ درجة مئوية) . ومع ذلك فان المصنوعات النحاسية المعروفة حاليا والتى تعود الى الالف السابع كانت قد صنعت باسلوب الطرق البارد . وهى عبارة عن ادوات الزينة الصغيرة والإبر والاسلاك التى عثر عليها فى المدن والمستوطنات القديمة الواقعة بين جنوب الاناضول وجنوب غرب ايران . وتشير المعلومات المتوفرة الى ان المعالجة الساخنة للنحاس الفطرى وصهر الخامات (فى بداية الامر صهر حجر القصدير للحصول على الرصاص) قد ظهرت فى آسيا الامامية فى الالف السادس . ولم يبدأ صهر خامات النحاس وانتشار صناعة الصب الا خلال الالف التالى

وفى غضون الالف الخامس نشأت صناعة التعدين فى المناطق المجاورة لآسيا الامامية وهى مصر واوروبا وايران وافغانستان وحتى بيلوجستان .

واذا كان تشكل الزراعة فى مصر السفلى مرتبطا بالنبضات الآتية من شرقى البحر الابيض المتوسط فان مصر العليا كانت تدخل ، خلال حقبة طويلة ، فى منطقة حضارية–

تاريخية مغايرة تماما يمكننا ان ننسبها الآن بثقة مطلقة الى المركز الزراعى القديم لشمال شرق افريقيا . ان تاريخ هذا المركز كان يسير على نحو خاص للغاية . ففى غضون العصر الحديث الاقرب (بليستوسين) كانت اراضى شمال شرق افريقيا تدخل فى نطاق منطقة الشعير البرى ، وكان السكان المحليون يزاولون جمعه فى بعض الاماكن على نحو فعال . وفى مطلع العصر الجليدى المتأخر (هولوسين) استمر انتشار الشعير المقاوم للجفاف فى الواحات المتاخمة لوادى النيل . وهنا بالذات بدأت زراعته فى اواخر الالف السابع على الاقل . وبعد الف عام اصبحت مصر العليا ضمن منطقة التأثير المباشر او غير المباشر لمركز آسيا الامامية ، اذ وصلت من هناك الحنطة الرومية الحقلية والاغنام . ولكن الامور فى مركز شمال شرق افريقيا كانت تسير اجمالا بطريقها الخاص ، وفى منتصف الالف الرابع ق . م . جرى هنا تدجين نباتات افريقية بحتة مثل السرغو والداغوس والتبف وبعض انواع الدخن المحلية . وفى اراضى السودان كان الناس فى تلك الفترة يستخدمون الفونيو وثمار نخلة الزيت التى وصلت الى هنا من غرب ووسط افريقيا حيث كان يوجد مركز آخر للزراعة المبكرة .

وقد جاءت الخنازير الاليفة الى مصر ، شأنها شأن الماعز والاغنام من آسيا ، وانتشرت تربيتها فى دلتا النيل منذ عصر ما قبل الصوان . وبالمقابل فان التيوس الجبلية المتواجدة آنذاك فى شمال افريقيا كانت على الارجح قد دجنت هنا بشكل مستقل . وثمة حيوان مفيد آخر جرى

تدجينه بمنطقة النوبة فى اواخر الالف الرابع وهو الحمار . وفى نفس الوقت تعرّف المصريون على الجمال الاليفة . ولكن انتشار تربيتها كنظام اقتصادى راسخ لم يبدأ فى شمال شرق افريقيا الا فى اواخر الالف الاول ق . م . وظهر الحصان هناك في اواخر القرن السادس عشر ق . م . وارتبط انتشار استخدامه بغزوات الهكسوس .

ان مركز الزراعة القديمة الممتد من جنوب تركمانيا حتى شمال غرب الهند كان يحمل طابعا ثانويا وفرعيا . فان تشكله قد ارتبط ، الى حد كبير ، بنزوح الزرّاع من مناطق زغروس . وفى اواسط المركز المذكور (جنوب افغانستان وبيلوجستان) كان الزرّاع القدماء منذ الالف السادس يزرعون طائفة من المزروعات المنتشرة فى آسيا الامامية مثل الحنطة اللينة ، والحنطة الرومية ، والحنطة ذات الحبة الواحدة وبعض اصناف الشعير . وفى الالف السادس بدأت هنا زراعة القطن والنخيل . وقام السكان المحليون فى اوائل الالف الثالث باستنباط الحنطة ذات الحبة المستديرة التى اصبحت فيما بعد الصنف الرئيسى من الحبوب فى الحضارة القديمة .

وفى الجزء الشمالى من هذه المنطقة كانت مجموعة النباتات الحقلية ضئيلة جدا فخلال الالفين الرابع والثالث لم يكن يزرع هناك سوى الحنطة اللينة والحنطة القزمة والشعير ذى الصفين . وفى النصف الثانى من الالف الثالث ظهر الشعير المتعدد الصفوف ثم الجودار بجنوب تركمانيا

وعلى العموم فان النباتات البقولية سواء فى منطقة زغروس او فى المنطقة السالفة الذكر لم تكن تلعب دورا كبيرا على مدى مرحلة طويلة . ففى بيلوجستان ووادى الهندوس لم يظهر الحمص والنوت الا فى مرحلة ازدهار الحضارة الهندية القديمة على تخوم الالفين الثالث والثانى . وفى اواخر هذه المرحلة وبفضل الاتصالات النشيطة مع المناطق الواقعة غربى هذين المركزين وصل اليها من آسيا الامامية الكتان والدخن ومن افريقيا السمسم والصرغو. وتجدر الاشارة الى انه على تخوم الالف الثالث والالف الثانى كانت زراعة السرغو تمارس فى عمان التى كانت ، على ما يبدو ، حلقة اتصال فى منظومة العلاقات بين افريقيا وجنوب آسيا . وفى الوقت نفسه بدأ الرز يأتى من الشرق الى مناطق جنوب غرب آسيا .

وقد انتشرت تربية الابقار والاغنام فى المركز المذكور بفضل تأثير آسيا الامامية . ولكن هذه المنطقة شهدت فيما بعد التدجين المحلى للحيوانات . وفى الالف السادس ظهر فى بيلوجستان البقر الهندى المدجن . وفى الالف الرابع بدأ سكان المنطقة الواقعة بين شمال ايران وجنوب تركمانيا بتدجين الجمل ذى السنامين

وتكمن خاصية تشكل المركز الزراعى القديم الثانوى فى شبه الجزيرة الهندية فى ان مزروعات آسيا الامامية ذات الدورة الشتوية كانت تصل بصعوبة الى هنا . وفى الوقت نفسه فان النباتات المتكيفة لفترة نمو قصيرة والامطار الصيفية تأقلمت بصورة جيدة مع ظروف المنطقة . وبين

هذه النباتات انتشرت فى هندستان بصورة خاصة خلال الالف الثانى بعض الاصناف الافريقية مثل الداغوس والسرغو واللوبيا والدخن البنسيتوم . وفى هذه الفترة بالذات بدأت تصل الى هناك زراعة الرز من حوض نهر الغانغ .

كما انتشرت فى شبه الجزيرة الهندية تربية الابقار المسنمة والجواميس وبعض انواع الخنازير المحلية .

ان المركز الاولى لمنشأ المزروعات فى جنوب شرق آسيا ، الذى امتد من حوض الغانغ الى المقاطعات الصينية الجنوبية ، لعب دورا بالغ الاهمية خلال المرحلة الزراعية المبكرة من تاريخ آسيا الشرقية وجنوب شرق آسيا واوقيانوسيا . فمنذ اواخر العصر الجليدى كانت تقطن هذه المناطق مجموعات تعتمد فى حياتها الانتاجية اعتمادا كبيرا على جنى الثمار البرية من الاشجار والاحراش وجمع حبوب بعض الاعشاب الى جانب الاستفادة من الدرنيات . وفى غضون الفترة الواقعة بين الآلاف ١٠ ـــ ٦ ق . م . بدأ السكان المحليون يستخدمون فى غذائهم الجوز واللوز والكستناء والخيزران وجوز الهند ، والقرع الرقبى الخ . كما ظهرت هناك عادة مضغ التانبول التى انتشرت بعد ذلك على نطاق واسع فى المناطق الغربية لاوقيانوسيا . ويبدو ان الناس قد بدأوا فى هذه المرحلة بالذات فى استعمال الرز والتارو (نوع من زنبق الماء) واليامس . وعلى كل حال فان زراعة الرز ظهرت فى المناطق الشمالية للمركز المذكور فى فترة لا تتجاوز الالف السادس ق . م .

وفى الالف الخامس انتشرت زراعة الرز فى اسافل نهر يانزا ولكن الانتشار الواسع لزراعة الرز من بيلوجستان وفيتنام حتى شمال الصين وكوريا لم يبدأ الا فى الالفين الثالث والثانى ق . م . ، وان وصوله الى الشمال من نهر يانزا لم يصبح ممكنا الا بعد استنباط اصناف الرز اليابانية المقاومة للبرد والتى يعود ظهورها الى الالف الثالث ق . م .

ومثل الزراعة ، نشأت تربية المواشى فى مركز جنوب شرق آسيا بصورة مستقلة تماما . ففى بداية الامر كان السكان هنا يربون الخنازير ثم اصبحوا يدجنون الثيران المحلية ثم شرعوا فيما بعد بتربية الجواميس والدجاج . وكانت هذه المنطقة المركز الرئيسى لتدجين الدجاج ومنها انتشر فى الالف الثالث حتى ما بين النهرين وشمال الصين ثم وصل فى الالف الثانى الى مصر .

وكانت السمة المميزة لمركز جنوب شرق آسيا تكمن فى ان الزراعة وتربية المواشى خلال المرحلة المبكرة انتشرتا هنا وسط صيادى الاسماك الحضر الذين لم يكن لهما فى غضون فترة طويلة سوى دور ثانوى فى حياتهم الاقتصادية . ولذلك فان عملية الانتقال الى نمط الحياة الزراعى كانت تسير هنا ببطء شديد . وجاء الانتصار النهائى للزراعة فى الحياة الاقتصادية متأخرا ، الى حد كبير ، بالمقارنة مع آسيا الامامية

فى الالف الثانى ق . م . انتشر صب المصنوعات البرونزية فى جنوب شرق اسيا . وكان صنع السبائك البرونزية وتكنولوجيا الصب يتطلبان مجموعة كاملة من المعارف

العميقة والمهارات العديدة استغرق تشكلها مدة طويلة .
ولكن بؤر الميتالورجيا فى المنطقة السالفة الذكر لا تزال ، ويا للاسف ، مجهولة حتى الآن .

وضمن المراكز الاولية للزراعة القديمة يأتى مركز شرق آسيا الذى كان يقع فى شمال الصين ومنغوليا وحوض نهر آمور . وكانت الدرة المزروعة الرئيسية فى هذه المنطقة ، وبدأ سكان الصين العائدون الى العصر الحجرى الحديث بزراعتها منذ الالف السادس ق . م . كما كانوا يزرعون ايضا الملفوف والقنب وبعض المزروعات الاخرى . وعلى تخوم الالفين الثالث والثانى وصلت زراعة الدرة الى كوريا . وانتشرت زراعة فول الصويا فى اواخر الالف الثانى ضمن الجزء الشمالى الشرقى للصين .

وكانت الكلاب والخنازير اقدم الحيوانات الاليفة التى ظهرت فى مركز شرق اسيا

وفى الالف الثالث ق . م . ازدادت فى القارة الاسيوية الصلات والتفاعلات الاثنية . وشهدت بعض المناطق نزوحات واسعة للشعوب . وبفضل هذه النزوحات وصل على تخوم الالفين الثالث والثانى ق . م . الى مركز شرق آسيا القمح والشعير والماعز والاغنام والدجاج ثم بعد ذلك الابقار والاحصنة .

وترجع بداية صناعة البرونز فى آسيا الشرقية وانتشارها الواسع هناك الى الالف الثانى ق . م .

وهكذا فقد تكونت فى كل مركز من المراكز المذكورة آنفا خلال المرحلة البدائية مجموعة خاصة من النباتات

المزروعة والحيوانات الاليفة . وكانت هذه المجموعات أساس الانظمة الزراعية والرعوية المحلية التى شملت الى جانب ذلك معارف خاصة واساليب معينة للتعامل مع النباتات والحيوانات .

وكان بوسع الزراعة القديمة ان تبرز فى اشكال عديدة منها زراعة الحواكير والزراعة البعلية والزراعة المروية البدائية . وكانت هذه الاشكال تظهر فى بعض الاماكن بصورة منفردة وفى اماكن اخرى معا . وقد قامت زراعة الحواكير استنادا الى زراعة النباتات الدرنية فى اراضى القرية او بالقرب منها . وعند ذلك كانت تجرى فلاحة الارض على نحو دقيق للغاية وتولى عناية خاصة لكل نوع من انواع المزروعات . ولقد ظهرت الزراعة البعلية على اثر عمليات الحرق المتعمد للنباتات ، التى كان يقوم بها فى المناطق القاحلة الصيادون وجامعو الثمار والغلال ، والتى كانت ترتبط بحاجات الصيد . وكانت اعمال الحرق هذه تهدف بصورة خاصة الى تجديد الغطاء النباتى . ومع مرور الوقت لجأ الناس الى التعجيل بهذه العملية واخذوا يزرعون الحبوب فى الاراضى المسمدة بالرماد . وعلى هذا النحو ظهرت الزراعة . وكانت الزراعة المروية البدائية منتشرة فى اماكن المستنقعات المنخفضة او فى سفوح الجبال حيث لم يكن من الصعب على الناس انشاء خزانات او سدود اصطناعية والقيام بتسوير مؤقت للرقع الزراعية . وفى بعض الاماكن اقيمت مثل هذه المنشآت للمرة الاولى من اجل تلبية حاجات صيد الاسماك

وهو الامر الذى كان يحدث ، مثلا ، فى جنوب شرق استراليا .

ان الزراعة المرتبطة بعمليات حرق البساط النباتى فى السهوب اصبحت اساسا لنشوء الزراعة «القطعية ـــ الحرقية» التى ادت الى انحسار الغابات والى احداث تغييرات كبيرة فى الطبيعة . اما وسائل الرى البدائية فقد ساعدت على ظهور الرى الحقيقى . وكان لكل منظومة زراعية بدائية محاسنها ومساوئها . وبالمقارنة مع الزراعة المروية لا تحتاج اقل البعلية والزراعة القائمة على القطع والحرق الى جهود كثيرة ولا تتطلبان بذل جهود منتظمة ومستمرة وليس من النادر ان تعطيا نتائج سريعة فضلا عن قدرتهما ، فى حال توفر ظروف ممتازة ، على اعطاء محصول لا يقل عما تقدمه الزراعة المروية . وعلى سبيل المثال فان محصول الشعير فى ظروف الرى بجنوب ما بين النهرين كان يتراوح طبقا لحالة الاراضى بين ٢٠٠ وحتى ١٢٠٠ ـــ ١٤٠٠ كيلوغرام للهكتار الواحد . اما فى الاراضى البعلية فقد كان الهكتار الواحد يعطى هنا ٥٥٠ ـــ ٨٠٠ كيلوغرام . ويبين مثال كاليمنتان بصورة واضحة الفروق القائمة بين هذين النظامين . فان محصول الرز المزروع فى الرقع الثابتة قرب المستنقعات يتجاوز المحصول الذى تقدمه الاراضى ذات الزراعة «القطعية ـــ الحرقية» فى الجبال (١٩٠٣ كغ للهكتار الواحد فى الحالة الاولى و١٥٧٨ كغ فى الحالة الثانية) . ولكن النظام الاول يتطلب جهودا اضخم بكثير مما يتطلبه النظام الثانى (٢١٦٥ و١٦٦٣ شخص/ساعة

على التوالى فى الهكتار الواحد) . ومع ذلك فان العيب الاساسى للنظام الآخر الذى لا يعتمد على الرى يتجلى فى الانخفاض السريع للمحصول وضرورة ابقاء هذه الاراضى البعلية فترة طويلة بدون استثمار لكى تسترجع نشاطها ولذلك فان هذا النظام يحتاج الى مناطق زراعية اوسع الى حد كبير من نظام الزراعة المروية . وعلى سبيل المثال فان الاسرة عند بعض شعوب جنوب افريقيا المؤلفة من خمسة او ستة اشخاص ، الذين يمارسون الزراعة حسب طريقة القطع والحرق ، كانت تحتاج فى السنة الى ١ ــ ١,٥ هكتار من الاراضى ذات الحراثة الجيدة ناهيك عن الاراضى البور . وبالمقابل فان مثل هذه الاسرة لدى بعض شعوب جنوب آسيا لم تكن تحتاج الى اكثر من ٠,٥ ــ ٠,٨ هكتار من الحقول الدائمة فى ظروف الزراعة بطريقة المدرجات او الزراعة السهلية المروية .

وهكذا فانه كان لجميع هذه الانظمة الزراعية المبكرة مزاياها ومساوئها . ومن المستبعد انه كان بوسع الرى البدائى القديم فى المرحلة المبكرة ان ينافس بنجاح الاشكال الاخرى للممارسة الزراعية التى استطاعت التلاؤم والتعايش خلال وقت طويل فى اطار نظام اقتصادى موحد .

ان اقدم المعطيات المتعلقة بنشوء الزراعة المروية تأتى حاليا من مناطق آسيا الامامية وخاصة بلاد ما بين النهرين وجنوب غرب ايران وجنوب الاناضول حيث ظهرت هندسة الرى منذ حوالى سبعة آلاف سنة . وقد تسنى

لعلماء الآثار العثور على اقنية اصطناعية فى المنطقة الوسطى من وادى الرافدين تعود الى النصف الثانى من الالف السادس قبل الميلاد . ولم تكن هذه الاقنية كبيرة فى البداية اذ لم يتجاوز عرضها المترين ولكن حفرت هنا فيما بعد قناة رئيسية بعرض يصل الى عشرة امتار واستخدمت مرارا على مدى الآلاف التالية من السنين مما يشهد على ظهور منظومة ذات فعالية كبيرة قادرة على اعطاء محاصيل ضخمة

وفى ما وراء القفقاز كان الرى البدائى قد نشأ ، على ما يبدو ، فى المناطق الاكثر جفافا ، منذ العصر النحاسى . فقد عثر علماء الآثار السوفييت ببلدة اروخلا الجورجية على اقنية قديمة جدا يحتمل انها كانت مخصصة للرى وهى تعود الى مطلع الالف الخامس ق . م . وعلى كل حال فان الزراعة المروية لم تكن تلعب فى جورجيا دورا كبيرا . ان استصلاح الزرّاع للجبال القفقازية فى الالفين الثالث والثانى ق . م . ادى الى انتشار استخدام المدرجات الزراعية . وقد ظهرت منشآت الرى الضخمة بشكل خاص خلال الالف الاول قبل الميلاد فى ارمينيا واذربيجان .

اما فى منطقة الساحل الشرقى للبحر الابيض المتوسط فقد ظهرت انظمة الرى الاولى فى المناطق الاكثر جفافا منذ العصر النحاسى .

وفى مصر اكتسبت مراقبة الفيضانات وضبطها اهمية بالغة بالنسبة للزرّاع القدامى . ونظرا لعجزهم عن مجابهة نزوات نهر النيل الهائج كانوا يتجنبون الاستقـــرار فى

وادى النيل ويفضلون السكن فى الواحات المجاورة له . اما الاستصلاح الزراعى للوادى نفسه فقد جرى فى وقت متأخر نسبيا . ويفترض ان هذه العملية قد اتخذت ابعادا كبيرة فى الالف الرابع ق . م . عندما بدأ المصريون ببناء الاقنية واقامة السدود والجسور والقناطر المدعوة الى ضبط وتنظيم منسوب مياه النهر . لكن اعمال الرى الضخمة لم تبدأ الا فى عصر الفراعنة فضلا عن انها لم تظهر فى اول العصر المذكور .

وعلى سفوح جبال كوبت-داغ الواقعة بجنوب آسيا الوسطى نشأت منذ العصر الحجرى الحديث منظومة اخوار للرى ذات منشآت بسيطة على شكل سدود وحواجز غير مرتفعة وترعات للصرف . وفيما بعد ، وعلى تخوم الالفين الرابع والثالث ق . م . ، اقيمت هناك شبكات كاملة من اقنية الرى . وفى منتصف الالف الثانى ق . م . ظهر مركز جديد للزراعة المروية فى جنوب الاورال .

لا يزال الجدال دائرا حتى الآن فى اوساط العلماء حول الاساس الاقتصادى الذى قامت عليه الحضارة الهندية القديمة . ويرى بعضهم ان الخصوبة الفائقة لاراضى الهند قد اتاحت الامكانية لابسط اشكال الزراعة ان تعطى هناك محاصيل مرتفعة جدا . ويعتقد البعض الآخر ان الحضارة الهندية القديمة لم تزدهر الا بفضل وجود شبكة رى ضخمة . وتساعد المعطيات حول الزراعة القديمة فى حوض الهندوس على حل هذه المسألة . فقد ذكرنا آنفا ان القمح ذا الحبة المستديرة كان الصنف الرئيسى

الشائع فى تلك المنطقة . ولكن هذا الصنف لم يكن بوسعه ان ينمو الا فى ظروف الرى الاصطناعى . والدليل الآخر على ذلك ظهر منذ فترة وجيزة اثناء حفريات بلدة شورتوغاى بشمال شرق افغانستان حيث اكتشفت قناة للرى . ويبدو ان الزراعة المروية قد انتشرت فيما بعد خلال الالف الاول ق . م . فى جنوب شرق آسيا والصين .

وهكذا يتضح عدم صحة الاعتقاد السائد الذى يرى ان الزراعة المروية كانت مقدمة ضرورية لقيام الدول الاستبدادية الاسيوية . ففى شتى المناطق كانت منشآت الرى تنشأ خلال مراحل مختلفة تارة قبل ظهور الدولة وتارة اخرى بعد ذلك . وعلى كل حال فان منشآت الرى التى ظهرت فى مرحلة ما قبل الدولة كانت فى بداية الامر بسيطة تستخدمها مجموعات عائلية صغيرة اما شبكات الرى الضخمة فقد كانت تبنى عادة بمبادرة السلطة المركزية . ولذا فانها جاءت لا كمقدمة لظهور هذه السلطة وانما كنتيجة لها .

وقد اسهمت الادوات الزراعية بدور ملحوظ فى تطور الزراعة واتسم تاريخها بخاصية معينة وكانت العصا المستخدمة لحفر الارض او الوتد المستعمل لعزق التربة الاداة الاساسية لدى المزارعين القدماء ولم يظهر المعول الا فى مرحلة متأخرة وفى مناطق محددة . وان درجة فعالية عصا الحفر والمعول فى مختلف الاراضى كانت متفاوتة . وكانت عصا الحفر تتمتع ببعض المزايا فى ظروف التربة الصلبة التى تصعب فلاحتها . وبالمقابل

كان المعول متفوقا على العصا بمرة ونصف او مرتين فى الاراضى اللينة . ولهذا السبب نجد ان استخدام المعاول فى بعض المناطق جاء مبكرا نوعا ما بينما كان فى اماكن اخرى نادرا ام معدوما تماما .

ومع تطور الزراعة فى المناطق المختلفة ظهرت ادوات جديدة اكثر تخصصا ومعدة لصنع الاخاديد وشق قنوات الرى . وفى بعض مناطق ما بين النهرين وما وراء القفقاز وجنوب الجزيرة العربية وكوريا وآسيا المركزية لا تزال المجارف المجرورة تستخدم حتى الآن فى بناء منشآت الرى البدائية . وفى منطقة شاسعة تمتد من شمال افريقيا وحتى جنوب شرق آسيا لا يزال بعض السكان يستعملون ادوات الحراثة البسيطة . وقد كانت هذه الادوات تستخدم لفلاحة الارض فى المجتمعات الطبقية المبكرة فى الصين وجنوب شرق آسيا . وفى بعض المناطق الاخرى كانت المعاول ذات القبضة الطويلة تستعمل لنفس الغرض . وان استخدام جميع هذه الادوات تقريبا كان يتطلب قوة جر معينة . ولكن كان يربط بهذه الادوات آنذاك الناس انفسهم وليس الحيوانات الداجنة .

وهكذا بالضبط ، حسبما يبدو ، ظهرت ادوات الحراثة البدائية . وان اقدم الادوات القرنية لشق التربة المعروفة حاليا اكتشفت فى بلدة اروخدو — ١ (جورجيا) . وهى تعود الى اوائل الالف الخامس ق . م . وتعتبر مثل هذه اللقى تحفة نادرة . وفى بعض المناطق ومنها اوروبا كانت تصادف خلال المرحلة المبكرة بشكل خاص بقايا الرقع

المحروثة . وعادة يجد العلماء هذه الرقع المغطاة بالاخاديد اثناء حفريات تلال المقابر القديمة التى كانت تقام فى موضع الحقول الابكر . وقد جرى فى آسيا حتى الآن اكتشاف واحد فقط من هذا النوع . فقد اكتشفت قطعة من حقل محروث فى شمال غرب الهند خلال حفريات مستوطنة كاليبانغان التى تعود الى الالف الثالث ق . م . واستنادا الى طابع الاخاديد يمكن الاستنتاج بانه كان يستخدم هنا لفلاحة الحقل المحراث اليدوى .

لقد كانت ادوات شق التربة ضئيلة الفعالية ومن المستبعد انه كان بوسعها ان ترفع انتاجية العمل الى درجة ملحوظة . وقد كانت تستخدم عادة لفلاحة الاراضى المعزوقة بالمعاول او لحراثة الاراضى اللينة جدا وذلك لاقتلاع الجـــذور والاخشاب ، وشق الترعات ، وتنظيم احواض الزرع الصغيرة ، وتسوية الحقل المعد للزراعة الخ . ولا ينبغى الاعتقاد بأن ادوات الحراثة البدائية كانت اكثر فعالية الى حد كبير من ادوات الشق القديمة المذكورة . فقد استخدمت ايضا فى جنوب ما بين النهرين ومصر من اجل اجراء العزق السطحى للتربة وشق الاخاديد ووضع البذور فى التربة . ومع ذلك فان ادوات الحراثة القديمة كانت تتفوق من حيث انتاجية العمل على المعاول رغم ان هذا التفوق كان على ما يبدو ضئيلا فى البداية . فمثلا كانت فلاحة الارض فى بعض مناطق اندونيسيا بالمحراث الذى تجره الجواميس تسير على نحو اسرع بمرة ونصف من طريقة الفلاحة بالمعاول .

ان اقدم ادوات الحراثة المعروفة لنا تعود الى جنوب بلاد ما بين النهرين حيث كانت ترسم على اللوحات الطينية فى اواخر الالف الرابع ومطلع الالف الثالث . ويبدو ان هذه الادوات ظهرت هناك قبل ذلك بكثير . ويفترض بعض العلماء ان ادوات الحراثة استخدمت للمرة الاولى فى شمال ما بين النهرين ولم تصل الى الجنوب الا بعد فترة طويلة . وفى مصر شرع السكان باستعمال ادوات الحراثة فى عهد الفراعنة من السلالتين الثانيـة والثالثة . وكان بوسع هذه الادوات ان تصل الى منطقة ما وراء القفقاز من بلاد ما بين النهرين خلال الالف الثالث ق . م . ولكن لم يعثر هناك حتى الآن على مثل هذه اللقى القديمة . ويرجع تاريخ النماذج البدائيـة المكتشفة من ادوات الحراثة فى ما وراء القفقاز الى العصر البرونزى المتأخر . وفى باكتريا تعود اقدم رسومات الحراثة بواسطة الثيران الى الالف الثانى ق . م . بينما لم تظهر هذه الادوات الزراعية فى الصين الا فى النصف الثانى من الالف الاول ق . م . كما كانت تستخدم آنذاك ، بلا شك ، فى جنوب شرق آسيا . ثم ان معلومات طريفة غير مباشرة حول الاستخدام المحتمل لادوات الحراثة فى العصر الحديدى المبكر تأتى من تايلاند حيث سجلت لدى دراسة عظام الجواميس اعراض مرضية فـــى مفاصل اطرافها التى يعتقد العلماء انها جاءت مـن جراء استخدام هذه الجواميس للاعمال الجسديــة الشاقة .

لقد اصبحت البستنة ، بمرور الزمن ، من اهم ميادين الزراعة القديمة حيث كانت تتيح استخدام رقع الأراضي المتوفرة استخداما اكثر فعالية . ومن اقدم فروع البستنة زراعة الكروم التي ظهرت للمرة الاولى في منطقة ما وراء القفقاز منذ الالف الخامس ق . م . وفي هذه الفترة ايضا بدأت زراعة النخيل في بيلوجستان . ولكن انتشار البستنة لم يتخذ نطاقا واسعا في بلدان الشرقين الادنى والاوسط الا خلال العصر الحجري الحديث والعصر البرونزي . فالى جانب الكرمة والنخيل انتشرت هناك زراعة الزيتون والتين والرمان والكستناء والجوز وكذلك مجموعة من مختلف الاشجار والشجيرات المثمرة التي كانت منطقة ما وراء القفقاز غنية بها على وجه الخصوص . ومن المعتقد ان البستنة لعبت دورا هاما في رفع انتاجية العمل وظهور التخصص الزراعي وتطور عمليات التبادل مما ساعد على تسريع تشكل الطبقات .

اما بالنسبة لبدايات البستنة في بلدان شرق آسيا وجنوب شرق آسيا فلا تزال معلوماتنا ضئيلة حتى الآن حول ذلك . ولا يستبعد ان الاعتناء بالاشجار المفيدة قد بدأ هناك في ابكر مراحل الزراعة وان ثمار الاشجار كمادة غذائية لعبت في بعض المناطق دورا لا يقل عن الحبوب والدرنيات . وفي مناطق معينة من اوقيانوسيا كادت ثمار شجرة الخبز التي احضرها الى هناك اوائل المستوطنين القادمين من جنوب شرق آسيا تصبح النوع الرئيسي للغذاء النباتي وبالاضافة الى ذلك ادخلت

فى جنوب شرق آسيا زراعة الحمضيات والعديد من الاشجار والشجيرات الاخرى .

والى جانب تطور الزراعة كانت تجرى تحولات معينة فى وسائل واساليب الرعى . وقد سارت هذه العملية على نحو فعال فى جنوب غرب آسيا . وثمة رأى شائع جدا يذهب الى ان الرعاة الاوائل كانوا من الرجال فقط . ولكن على ضوء المعطيات الاثنية العديدة يبدو هذا التصور بعيدا عن الواقع . فاذا كان الرجال يقومون باصطياد صغار الحيوانات البرية ويحضرونها الى القرية فان مهمة رعاية هذه الحيوانات الصغيرة وتربيتها كانت تقع على عاتق النساء والاطفال . وهناك حالات معروفة كانت النساء يلجأن خلالها حتى الى ارضاع هذه الحيوانات . وفى البداية كان عدد رؤوس الماشية غير كبير وكانت تستخدم بصورة رئيسية لدى اقامة الحفلات والولائم والمقايضة ودفع المهر الخ . وسرعان ما اصبحت الماشية رمزا للثراء .

وكان قوام الماشية يرجع الى الظروف الطبيعية المحلية والتقاليد القائمة وخصائص اللوحة التاريخية لنشوء الرعى وانتشاره . ففى المرحلة المبكرة كان الناس ، فى اغلب الاحيان ، يتركون الحيوانات ترتع لوحدها نهارا ويحفظونها ليلا فى القرية داخل زريبة خاصة او فى الحجرات السكنية . ولكن فى بعض المناطق الجافة بدأ الناس تدريجيا يجعلون القطيع يسرح اثناء فصل الصيف الى اماكن بعيدة وخاصة الى المراعى الجبلية . وكان يعهد بذلك فى الغالب للفتيان والفتيات .

في المرحلة القديمة كان الناس يحتفظون بالحيوانات الداجنة من اجل الحصول على اللحوم بشكل خاص . والى جانب ذلك كانوا يستخدمون استخداما واسعا جلود هذه الحيوانات وعظامها وقرونها وشعرها الخ . كمادة اولية للانتاج الحرفي . وفيما بعد ، ومع تطور الزراعة ، بدأت بعض الجماعات من السكان باستخدام الماشية بصورة فعالة لاعمال الزراعة (فلاحة الارض بالحوافر وغرس البذار في التربة وجر ادوات الحراثة) ولدرس المحاصيل ونقل البضائع . وكانت بعض الاساليب الزراعية ذات المردود الكبير تتطلب زيادة خصوبة التربة عن طريق الاستفادة من الزبل كسماد حيواني ولهذا الغرض كان الناس يحتفظون بالحيوانات في اصطبلات خاصة يجري فيها تجميع الزبل او يرعون الماشية بشكل منتظم في الحقول المحصودة . وفي بعض مناطق آسيا وافريقيا التي كان الزرّاع فيها مهتمين برعي القطيع في حقول محصودة جاءت هذه الطريقة كأساس لقيام نوع من علاقات التكامل بين الزرّاع والرعاة .

ومع مرور الزمن ازدادت ايضا انواع المنتجات الرعوية . فقد ظهرت صناعة مشتقات الحليب وحياكة الصوف . وان جميع هذه الجوانب الجديدة في تطور الرعي كانت تتشكل في آسيا الامامية وشمال شرق افريقيا على مدى الالفين الرابع والثالث ق. م. وكان الناس ، في بداية الامر ، يقتصرون على حلب الماعز والاغنام فقط . اما حليب الابقار فقد بدأ الحصول عليه في مرحلة لاحقة .

ومع ذلك فان استهلاك الحليب ومشتقاته لم يكن يخص كافة الشعوب التى تمارس الرعى . وحتى الآن لا يزال استهلاك الالبان غير شائع فى العديد من المناطق الشرقية والجنوبية والجنوبية الشرقية من القارة الاسيوية . ويسترعى الانتباه واقع انه خلال حقب تاريخية معينة اتيحت لسكان المناطق المذكورة فرصة التعرف على مهارات وطرق الحصول على الحليب ومشتقاته ولكن هذا النوع من الانتاج لم يتأصل هناك . ويعزى بعض العلماء ذلك الى انعدام الآليات الفيسيولوجية الضرورية لهضم الحليب فى اجسام ممثلى العديد من شعوب العالم .

ان استنباط الانواع الخاصة الممتازة من الماشية ، وتهجين انواع جديدة من الحيوانات (الحمير والجمال والاحصنة) ، وظهور طرق جديدة لاستخدام الماشية ، وتطور الاساليب الفنية ووسائل النقل ، وتحسن اشكال الزراعة الفعالة ، وتبدل ظروف تربية القطيع تطلبت اجراء تعديلات معينة على الاساليب التقليدية السابقة لتربية الماشية وخلق المقدمات اللازمة لظهور الانتاج الرعوى المتنقل وانتشار نمط حياة القبائل الرحل فى بعض المناطق وكان اقدم نماذج حياة البداوة مرتبطا بالترحل «العمودى» حيث كانت المراتع الشتوية والصيفية تقع فى الجبال والسفوح على ارتفاعات مختلفة . وقد ظهر هذا النمط خلال الالف الرابع ق . م . فى بعض مناطق جبال زغروس . وكان الانتقال الى الرعى العمودى يجرى فى منطقة ما وراء القفقاز ابتداء من العصر البرونزى المبكر

عندما اخذ الناس يتعودون على السكن فى المناطق الجبلية العالية .

اما اشكال الترحل «الافقى» فهى تعود الى مرحلة متأخرة نسبيا . واصبح معروفا الان ان تشكل هذا النوع من الرعى فى جنوب فلسطين كان يجرى فى غضون النصف الثانى من الالف الرابع والنصف الاول من الالف الثالث ق . م . وتشير المصادر الكتابية القديمة الى ان اشباه البدو الرحل كانوا يعيشون فى اطراف مناطق حضارات آسيا الامامية القديمة خلال الالفين الثالث والثانى ق . م . وكان هؤلاء يقومون بتربية الماعز والاغنام بصورة اساسية دون التوقف فى الوقت نفسه عن زراعة الارض . ولم يكن بوسعهم آنذاك استصلاح مناطق السهوب والصحارى النائية كما انهم لم يتمتعوا باستقلال ذاتى كامل .

وفى المناطق الجنوبية من آسيا الوسطى كان السكان الحضر المشتغلون بالزراعة يمارسون فى غضون العصر البرونزى كله تقريبا مختلف اشكال الرعى وتربية المواشى التى ظهرت هناك ، على ما يبدو ، خلال العصر النحاسى الحجرى . ولكن فى اواخر العصر البرونزى انتقلت بعض مجموعات السكان فى باكتريا الى نمط حياة اشباه الرحّل .

وفى الهند بدأت بعض المجموعات خلال الالف الثانى ق . م . بالتخصص فى تربية الماشية لكنها بقيت تعيش حياة الحضر وتمارس الاعمال الزراعية . ونجد ذلك ، على سبيل المثال ، عند سكان ديكان فى العصر الحجرى الحديث الذين كانوا يمارسون على نحو نشيط

تدجين الابقار الهندية المسنمة . وظهرت جماعات القبائل الرحل فى مناطق الهند القاحلة فى الالف الاول ق . م .
اما آسيا الشرقية فقد شهدت نمط الرعى المتنقل منذ منتصف الالف الاول ق . م . عند تخوم الصين الشمالية

ان اهمية الانتقال الى الزراعة والرعى لم تقتصر على المجال الاقتصادى البحت ، اذ احدث ظهورهما وتطورهما انقلابا كاملا فى اسلوب حياة الناس وعلاقاتهم الاجتماعية . كما نشأت المقدمات الضرورية للحياة الحضرية المستقرة وازداد عدد السكان وكثافتهم وارتفع ، الى حد كبير ، حجم الانتاج وظهر فائض مستمر من المنتوج ، وبرز توجه نحو الانتاج المتخصص وتعميق تقسيم العمل الاجتماعى ، وبدأت تتفرد المهن طبقا للوظائف الاقتصادية والاجتماعية والدينية المختلفة ، وتعقد نظام الادارة وظهرت مؤسسات وقواعد اجتماعية جديدة ، كما اعيد النظر فى مجمل العقائد السابقة . وبفضل الانتقال الى الزراعة والرعى ارسيت المقدمات المادية الثابتة لتشكل الحضارة . وبهذا المعنى كان نشوء الزراعة والرعى ظاهرة ثورية .

الفصل الثانى

الجديد حول اصل الكتابة

المؤلف: كلوتشكوف
ترجمة: د. جابر ابي جابر

يعيش الانسان المعاصر فى عالم اصبحت فيه الكتابة — الكلمة الحية المجسدة فى اشارات معينة — ظاهرة مألوفة واعتيادية للغاية . فالرموز الكتابية تحيط به فى كل مكان ، اذ ان كتابات الاعلانات الخاطفة واللافتات والصحف والمجلات والكتب تصادفه حتى فى ابعد الاماكن .

وفى الوقت الحاضر تستخدم البشرية اكثر من مئة من شتى الانظمة الكتابية ، ابتداء من الهيروغليفية الصينية ، التى تحتوى على عشرات الآلاف من الرموز المعقدة ، وانتهاء بالابجدية اللاتينية المؤلفة من احرف قليلة وبسيطة نسبيا من حيث الشكل الكتابى . وتلبى بعض هذه الانظمة حاجات مئات الملايين من الناس (الكتابة الصينية واللاتينية والروسية) بينما هنالك لغات اخرى يقتصر استخدامها على بضع مئات بل وعشرات من الاسخاص . وان لبعض اشكال الكتابة تاريخها الطويل الذى يمتد آلاف السنين حيث ارتبط ظهورها ارتباطا عضويا وثيقا بانظمة الكتابة السابقة واجتازت طريقا طويلا فى تطورها

الطبيعي . وثمة انظمة كتابية اخرى وضعت حديثا بنحو اصطناعى لمختلف اللغات غير المألوفة (وعلى سبيل المثال من قبل المبشرين المسيحيين بهدف تسهيل مهمتهم الدعائية) وتبين ان معظمها عديم القوة الحيوية . وقد صدر بهذه اللغات كتاب او كتابان لم يقرؤهما احد تقريبا ثم طواهما النسيان فيما بعد . وعلى كل حال فان مثل هذا المصير قد ادرك ايضا العديد من الانظمة الكتابية لحضارات الماضى العظيمة التى كانت فى حينها منتشرة على نطاق واسع (الكتابة المصرية القديمة وكتابة حضارة مايا وغيرهما) .

منذ زمن طويل يعكف العلماء على دراسة تاريخ الكتابة . وبالرغم من انه لم تتضح بعد اشياء عديدة فى هذا المجال ، فقد تسنى تحقيق الكثير فيه . فقد استطاع العلماء ان يبينوا كيفية نشوء بعض الابجديات وان يتقصوا اصل العديد من الانظمة اللغوية وطرق تطورها وان يظهروا الترابطات والتعاقب القائمة بينها . وهم يفترضون ان اقدم انظمة الكتابة قد ظهرت بمعزل عن بعضها البعض وذلك فى عدة مراكز — مصر وبلاد ما بين النهرين (جنوب العراق الحالى) ثم فى الصين خلال فترة لاحقة . ويبدو انه كانت ثمة مراكز اخرى مبكرة لتشكل الكتابة : فى اوروبا بشمال شبه جزيرة البلقان وترانسيلفانيا ، وفى شبه الجزيرة الهندية بمنطقة وادى الهندوس .

كان اختراع الكتابة من اعظم منجزات العصر القديم ، ولا يمكن المبالغة فى تقدير اهمية هذا الاختراع . وكان

القدماء انفسهم يدركون هذه الحقيقة تمام الادراك : فليس عبثا انهم اعتبروا الكتابة هبة من الآلهة . فقد كان الاله طوطا عند المصريين خالقا لفن الكتابة وراعيا له ، وعند البابليين — الاله نابو ، وعند الهيلينيين — الاله هرميس . ولم تصبح الكتابة مجرد وسيلة لحفظ وتخزين المعلومات وأداة لمساعدة الذاكرة البشرية المحـــدودة الامكانيات فحسب بل وغدت كذلك قوة فعالة وعاملا من اهم العوامل لتحويل حياة المجتمع وثقافته . ومع ظهور الكتابة اصبح من الممكن ادخار المعلومات فى حجم كان يستحيل تصوره فى السابق ، وتأمين انتقالها الاكيد من جيل الى آخر . وكان تشكل الانظمة الكتابية الاولى يجرى فى وقت واحد وبارتباط وثيق مع تعقد البنية الاجتماعية وانبثاق الدولة . كما كانت حياة المجتمع البدائى تشهد تحولات جذرية فقد نشأت اشكال جديدة من النشاطات وظهر اشخاص (منظمون واداريون وموظفون وكتبة) يتمتعون بنمط وعى جديد تماما وقريب الى حد كبير ، على الارجح ، من نمط وعى الانسان المعاصر ويختلف اختلافا شديدا عن وعى ممثلى الجماعات التقليدية ما قبل عصر الكتابة . فمن المعروف ان ممارسة الكتابة والقراءة تغير طابع تفكير الانسان المرتبط بها . ومع ظهور الكتابة اصبح النشاط المعرفى — الفكرى ميدانا خاصا من ميادين الممارسة والحياة العملية له استقلالية ملحوظة وانفصل عن تيار حياة الجماعة القديمة الذى كان ، حتى ذلك الوقت ، غير متفكك تقريبا . وان ظهور الدولة

والكتابة يفصل العصر القديم عن العصور البدائية ويشير الى فجر الحضارة وبداية تاريخ البشرية الحقيقى .

وتعتبر كتابة ما بين النهرين اقدم كتابة فى العالم . واغلب الظن ان الفضل فى اختراع هذه الكتابة يعود الى السومريين وهم شعب كان يعيش فى جنوب العراق الحالى خلال الألفين الرابع والثالث ق . م . وفى اوقات لاحقة استخدمت هذه المنظومة الكتابية ايضا شعوب آسيا الامامية القديمة الاخرى كالأكاديون والعيلاميون والايبلائيون والحثيون والاوغاريتيون والاورارتيون والميديون والفرس وذلك بعد تبسيطها وتكييفها مع حاجات لغاتها . وقد استمر استعمال الكتابة السومرية اكثر من ثلاثة آلاف سنة . وترجع آخر النصوص المعروفة المدونة بالخط السومرى الى منتصف القرن الاول الميلادى اما اقدم هذه النصوص فتعود الى حوالى عام ٣١٠٠ قبل الميلاد .

ومن الواضح تماما ان هذه الكتابة لم يكن بوسعها ان تبقى حقبة طويلة كهذه دون ان تتعرض لتغييرات وتعديلات جوهرية . ففى الكتابة البابلية الجديدة ، التى ظلت منتشرة اثناء خضوع بلاد ما بين النهرين لسلطة اليونانيين ثم البارثيين (القرن الرابع ق . م . — القرن الاول الميلادى) ، كان يستخدم ثلاثمئة ونيف من الاشارات البسيطة نسبيا . وكما كان الامر فى المراحل الابكر تابع كتبة ما بين النهرين استخدام اللوحات الطينية لاغراض الكتابة عن طريق رسم الاشارات بواسطة عصا من القصب ذات نهاية حادة تتخذ شكل موشور ثلاثى وتترك على

الطين الطرى بصمات مميزة اسفينية الشكل (ولذلك فان اوائل العلماء من المستشرقين الاوروبيين اطلقوا على هذه الكتابة تسمية الكتابة المسمارية) . وقد كان يجرى تجفيف اللوحة تحت اشعة الشمس مثلما يجفف الطوب الرطب وفى بعض الاحيان كانت اللوحة تشوى للحصول على نوع صلب .

واذا كانت الاشارات البابلية الجديدة تقتصر على تراكيب لبضعة «اسافين» فان اشارات الكتابة السومرية الكلاسيكية والبابلية ــ الآشورية فى اواخر الالف الثالث وحتى مطلع الالف الاول ق . م . جاءت اكثر تعقيدا الى حد كبير ، اذ كان بعضها يضم اكثر من عشرين «اسفينا» ، ناهيك عن ان عدد الاشارات قد تجاوز الخمسمائة ! وفى النصف الاول من الالف الثالث ق . م . كان عددها اكبر من ذلك ، لكنها كانت ابسط من حيث الكتابة واكتسبت شكلا آخر الى حد ما ، اذ ان الكتبة لم يلجؤوا آنذاك الى تكوين رموز من الرسومات المسمارية وانما كانوا ينقشون رسوما مبسطة للاشياء بلمسات مستقيمة . وفى بعض هذه الاشارات يمكن التعرف تماما على صور الطير ورأس الثور والسنبلة والمحراث وقدم الانسان الخ . وعلى هذا النحو فان الخط السومرى تطور من الرسومات ذات الصور التخطيطية المبسطة نحو الاشارات المسمارية المجردة التى ابتعدت ابتعادا شبه تام عن الاصل .

ولم يتبدل المظهر الخارجى للاشارات فحسب ، بل والشكل الداخلى للكتابة نفسها ففى بداية الامر

جدول الاشارات

مرحلة ما قبل الكتابة	مرحلة السلالة المبكرة	الألفان الثانى والأول قبل الميلاد • الخط		ما هي الاشياء التى يصورها	معنى الكلمة			معنى المقطع
		البابلى	الآشورى		ماذا يعنى	بالسومرية	بالأكادية	
				القدم	" مشى " " وقف " " جلب "	دو غين آرا غوب توم	الاقو اوزو زو وابالو	دو ، غين غوب ، غوپ را ، توم
				اليد اليسرى	الأيسر	كاب كوب غوب	شميلو	كاب ، قاپ غوب ، غوپ حوب حوپ
				ركيزة لتثبيت الحصيرة	" ركيزة " " شيد "	غاغ دو	سيقّاتو بانو	غاغ ، كاك دو
				النجمة	" السماء " " الاله "	ان دنغير	شامو ايلو	آن
						اشارة قبل أسماء الآلهة		
				السمكة	" السمكة "	كوا حا	نونو	حا
						اشارة بعد أسماء السمك		
				الجبال	" البلد " " الجبل "	كور غين كور	شادو ماتو	كور ، غيك شاد ، شات ماد ، مات ناذ ، نات لاد ، لات
				ثور برى	" البطل "	شول	ايتلو	شول
				السنبلة	" الشعير "	شى	شيو	شى
				المحراث	" المحراث " " الزارع " " حرث "	اپين انغار اورو	اپينو ايكّارو إريشو	پين

كانت امكانيات الكتابة فى بلاد ما بين النهرين محدودة جدا اذ ان كل اشارة كانت تعنى كلمة او بضع كلمات قريبة فى المعنى . فمثلا كانت الاشارة — الصورة لقدم الانسان تدل فى آن واحد على الكلمات «ذهب» و «وضع» و«جلب» الخ . وكان اختيار المعنى المطلوب لهذه الاشارة او تلك اثناء القراءة يتحدد بسياق النص وغالبا ما يسبب صعوبات كبيرة . زد على ذلك انه اذا كان بالامكان الاعراب عن المفاهيم المجردة والفكرة العامة للفعل بواسطة رموز معينة فان التعبير بمثل هذه الكتابة عن اسماء العلم وصيغة الفعل الدقيق («جَلَبْتُ» او «سيجلب») كان امرا صعبا للغاية . ولذلك نجد ان الوثائق التى سجلت احالة الممتلكات والمدونة فى النصف الاول من الالف الثالث ق . م . كانت الغازا بكل معنى الكلمة لا يفهمها الا الاشخاص الذين شهدوا عملية عقد الصفقة وتسجيلها .

ولكن مع مرور الزمن تم ايجاد مخرج لهذه المسألة ، اذ اصبحت كافة الاشارات تقريبا تستخدم لا للدلالة على هذه الكلمة او تلك فحسب وانما ايضا كاشارات صوتية بحتة بمعزل عن معناها الاصلى . وهكذا ظهرت امكانية الاعراب عن مختلف المفاهيم التى يستحيل التعبير عنها بواسطة الرموز ، والكلمات المساعدة ، والاهم من ذلك العناصر النحوية للكلمات ، مما ساعد على تحويل الخط المسمارى الى كتابة حقيقية تمثل نظاما من الاشارات التى تعكس الالفاظ . ومع ذلك لم يكن الكتبة حتى منتصف الالف الثالث ق . م . يتقيدون دائما

بوضع جميع الاشارات النحوية ، ولهذا السبب فان العديد من وثائق ذلك العصر تذكرنا ببعض النصوص الحديثة التى تتألف برمتها من كلمات مختزلة . وثمة صعوبة اضافية تكمن فى ان كل اشارة كانت تتضمن عمليا عدة معان لفظية (صوتية) . ويمكن ان نقرأ الاشارة البسيطة المدونة بمسمار (اسفين) افقى على الشكل التالى : aŝ, dil, Rum, in وهلمجرا . ويبلغ مجموعها ١٨ من المعانى الصوتية وبضعة معان معجمية . ولتسهيل عملية القراءة كان الكتبة فى بلاد ما بين النهرين يضعون اشارات خاصة (فى بعض الحالات قبل الكلمة وفى حالات اخرى بعدها) التى كانت تشير الى ان الحديث هنا يدور حول مادة مصنوعة من الخشب او انه سيعقب ذلك اسم رجل او اسم بلد الخ . ومن الطبيعى ان الخط المسمارى ظل حتى فى الفترات اللاحقة نظاما كتابيا معقدا وثقيلا مع انه كان يمكن بواسطته التعبير عن اية فكرة

فى منتصف الثلاثينات قام المستشرق الكبير المختص بالحضارة السومرية آدام فالكنشتين باصدار بضع مئات من اللوحات الطينية القديمة التى عثر عليها اثناء حفريات مدينة اوروك القديمة (الوركاء حاليا) ومستوطنة جمدة نصر . وقد وجدت هذه اللوحات (٦٢ لوحة فى اوروك و٣٦ لوحة فى جمدة نصر) فى السويات التى تعود الى القرن ٣١ ق . م . ، وتبين انها اقدم اللوحات المعروفة . وقد نشر العالم المذكور صورا لهذه اللوحات الطينية وقائمة بالاشارات الواردة فيها ثم قارنها بالاشارات المسمارية

المتأخرة . ولم يتجاوز مجموع اشارات اللوحات الاوروكية التى قيدها فالكنشتين الالف بينما كان يعتقد ان عددها كان يجب ان يبلغ الالفين ! (وقد قام الباحثون اللاحقون بتدقيق بعض المطابقات التى اقترحها فالكنشتين وكذلك حساباته . وفى الوقت الحاضر يفترض العلماء ان عدد الاشارات التى تتضمنها الكتابة السومرية الاولية وصل الى حوالى ١٥٠٠ اشارة) .

واعتبر فالكنشتين السومرية لغة الشواهد والكتابات حيث ان اللوحات كانت تمثل فى اعتقاده سجلات حسابات المعبد او القصر وقوائم بالكلمات ذات طابع تعليمى . وقد تسنى للعالم مطابقة القوائم المذكورة بمثيلاتها من قوائم الحضارة التى تعود الى مرحلة لاحقة (القـــرن ٢٧ ق . م .) وكذلك قوائم العصر الاكادى (القرون ٢٤ — ٢٢ ق . م .) . ولكن فالكنشتين لم يجرأ على المضى ابعد من ذلك كما انه رفض ترجمة النصوص . وقد حصر اهتمامه كله فى دراسة الخط واعطى وصفا دقيقا لابعاد وشكل اللوحات الصغيرة وطرق ترتيب النص على سطح اللوحة كما حدد اتجاه الكتابة وكشف العلامات التى يمكن بواسطتها التمييز بين وجه اللوحة وقفاها وعلى ضوء هذا العمل توصل فالكنشتين الى الاستنتاجات التالية : اولا ، ان هذه اللوحات تعطى تصورا حول الكتابة فى بلاد ما بين النهرين فى صيغتها الاصلية الاولى . ثانيا ، لم تسبق الاشارات الواردة فى اللوحات الاوروكية كتابة مخصصة للاعراب عن الافكار — الجمل بواسطة

رسم معقد . ثالثا ، لم تكن الكتابة الاوروكية مفهومية وانما كانت معجمية ثم رفدت فى وقت لاحق باستخدام قسم من الاشارات المعجمية لاجل التعبير عن الاقترانات الصوتية وحدها

وقد بقيت استنتاجات فالكنشتين المذكورة فترة طويلة مقبولة بدون تحفظ لدى جميع العلماء تقريبا . ومع ذلك ابدى عالم المسماريات السوفييتى دياكونوف بعض الاعتراضات حول ذلك . كما طرح العالم الامريكى ادوارد كييرا فى الثلاثينات افتراضا مفاده انه كان بوسع السومريين ان يستخدموا فى كتاباتهم الاولى مادة اخرى غير الطين سريعة العطب معرضة للتعفن والانحلال ولذلك ليس غريبا ان بواكير الكتابات لم تصلنا . على كل حال فان كل هذا كان مجرد تخمينات وافتراضات ومحاكمات نظرية عامة فلم تكن آنذاك فى حوزة خصوم فرضية فالكنشتين اية براهين ووقائع مقنعة . لم يكن العلماء يستبعدون ، من حيث المبدأ ، وجود اشكال اخرى للكتابة ابكر من الكتابة القديمة المنقوشة على اللوحات الاوروكية ، ولكنهم استمروا فى اعتبار الكتابة السومرية الاولية مرحلة بدائية لظهور الكتابة المسمارية فى بلاد ما بين النهرين . وعلى هذا النحو فقد بدأ تاريخ الكتابة على تخوم الالفين الرابع والثالث ق . م . وبلغ خمسة آلاف سنة . ولكن منذ وقت قريب — فى اواخر السبعينات — استطاعت الباحثة الامريكية دينيزا شماندت — بيسيرا البرهان على ان تاريخ الكتابة ، الذى يمتد خمسة آلاف سنة ،

سبقته مرحلة تمهيدية لا يقل طولها عن طول هـــذا التاريخ .

وتجدر الاشارة الى ان اكتشاف شماندت ـــ بيسيرا لم يكن ، بمعنى ما ، مفاجأة كبيرة ، اذ ان شيئا من هذا القبيل كان متوقعا ، فهجس وساور العديد من العلماء . ولكن احدا لم يتوقع ، بطبيعة الحال ، ان الكتابـة السومرية شهدت حقبة تمهيدية طويلة تعود جذورها الى العصر الحجرى او الاهم من ذلك انه سيتسنى تقصيها ودراستها على احسن وجه واسترجاع مراحلها الاساسية بصورة اكيدة .

فبرغم الشروحات التى قدمها فالكنشتين بقيت اللوحات الاوروكية فى كثير من النواحى لغزا . فان الطين ليس افضل مادة للكتابة لانه ثقيل الوزن ويشغل مكانا كبيرا ويتطلب تسجيل النص كله على الفور . وطبعا لا يمكننا ان ننكر ان بوسع اللوحات الطينية حتى غير المشوية ان تبقى تحت الارض آلاف السنين فى حالة سليمة وبفضل ذلك وصلتنا بهذه الكمية الكبيرة ولكن هيهات ان يكون هذا الجانب القيم قد اكتسب مثل هذا القدر من الاهمية عند الكتبة القدماء فى بلاد ما بين النهرين . ومع ذلك نجد ان اختيارهم قد وقع لسبب ما على الطين بالذات كمادة اساسيـة للكتابة . ويثير الدهشة ايضا الشكل غير الاعتيادى الذى اتخذته اللوحات القديمة . فقد كانت محدّبة ذات اطراف شديدة الانحناء مثل المخدات الصغيرة . واخيرا أليست الاشارات ذاتها التى يبلغ عددها ١٥٠٠ كثيرة جدا بالنسبة

لكتابة فى بداية عهدها ؟ كما ان الاشارات الاوروكية كانت بعيدة الشبه بالاشارات الاولية ـــ رسومات المرحلة الباكرة من تطور الكتابة . أليس من المحتمل ان سكان ما بين النهرين القدماء كانوا فعلا يكتبون فى بداية الامر على الخشب او على مواد اخرى لم تصلنا ، ثم بعد ذلك انتقلوا الى استعمال الطين ؟

وقد ساعد فى الاجابة على هذه الاسئلة البروفسور فى جامعة شيكاغو ادولف اوبينهيم . ففى عام ١٩٥٩ نشر باحدى المجلات العلمية مقالة حول نظام الجرد القائم فى قصر مدينة نوزى (الواقعة شمال بابل) فى منتصف الالف الثانى ق.م. حيث اشار الى ان ناظرى القصر كانوا الى جانب استخدامهم الواسع للمسماريات يلجؤون الى طريقة قديمة فى اجراء الحسابات بواسطة فيش حسابية خاصة . وكان يرمز الى كل بهيمة من البهائم العائدة الى القصر بفيشة معينة . وفى حال سوق القطيع الى مرتع آخر او تسليمه الى راع جديد كان يجرى فى ادارة المحاسبة بمدينة نوزى تحويل الكمية اللازمة من الفيش الى مكان آخر . وقد عثر المنقبون فى نوزى على ٤٨ فيشة من هذا النوع ضمن لوحة طينية مجوفة شبيهة بالمغلف كتب على جدرانها بالاشارات المسمارية ما يلى : «٢١ نعجة ، ٦ حملان ، ٨ خرفان ، ٦ عنزات » الخ ، مما بلغ مجموعه ٤٨ بهيمة . وللاسف فان المنقبين الذين فتحوا هذا «المغلف» لم يحفظوا الفيش نفسها ولذلك ليس لدينا تصور واضح عن شكلها .

ان مقالة اوبينهيم قد حملت العالم الفرنسى بيير آمييه على الرجوع الى الكرات الطينية المجوفة المحفوظة فى متحف اللوفر والمليئة بالمصنوعات الطينية الصغيرة المتعددة الاشكال وكان المنقبون الفرنسيون قد وجدوا حوالى خمسين كرة من هذه الكرات المجوفة فى مطلع القرن الحالى اثناء حفريات مدينة سوسه فى ايران . وحدد العلماء تاريخها التقريبـى بعام ٣٣٠٠ ق . م . اما آمييه فقد توصل الى استنتاج مفاده ان طريقة الجرد المتبعة فى مدينة سوسه لا تختلف مطلقا عن الطريقة التى استخدمت فى نوزى قبل مئتى عام من ظهور اللوحات الاوروكية الاولى . وكانت الفيش ذات الاشكال المتباينة تستعمل للدلالة على شتى انواع الممتلكات قيد الجرد مثل المواشى والمحاصيل الزراعية او السلع

ولا تزال مثل هذه الطريقة للجرد او حتى للحساب البسيط منتشرة على نطاق واسع فى المجتمعات المتخلفة التى لا تعرف الكتابة . ففى امريكا الجنوبية كانت قبائل الاينك القديمة تسجل الجزية التى تحصل عليها بــل وتقوم ايضا بالتدوين التاريخى عن طريق ربط عقد غير بسيطة على اشرطة متعددة الالوان كانت تشبك بعضها ببعض وفقا لطريقة خاصة . وكان الصينيون ايضا يعرفون الكتابة العقدية . ومن المعلوم تماما لدى علماء التاريخ والاثنوغرافيا الاشكال المتنوعة لما يسمى بـ«الكتابــة الاشيائية» ، حين كان «الكاتب» يلجأ الى تجميع شتى المواد الصغيرة ويتوصل على اساسها الى صياغة اخبار

او رسائل طويلة* . وقد كانت قبائل اليوربا او الهنود الحمر فى امريكا الشمالية يرصعون الشريط باصفاد بيضاء وسوداء وحمراء من مختلف الاشكال ويربطونه بالخرز والعصى والريش ثم يبعثون «رسالة» تتضمن اعلان الحرب او تحمل خبر الاستعداد لتوقيع الصلح وهلمجرا . ومما لا شك فيه ان السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين كانوا ايضا مضطرين قبل اختراع الكتابة للجوء الى طريقة مشابهة من اجل نقل هذه الفكرة او تلك . وقد دفعت مشاهدات اوبينهيم وآمييه العلماء الآخرين الى الاتجاه الذى يجب ان تجرى فيه الابحاث العلمية المتعلقة بهذه المسألة واظهرت ان آثار ما قبل الكتابة القديمة فى الشرق الادنى بقيت مع ذلك فى بعض الاماكن .

* يتحدث المؤرخ الاغريقى هيرودوتس عن حالة كهذه فيقول : عندما اقتحم ملك الفرس داريوس بلاد الاسقوثيين بجيوشه بعث له الاسقوثيون رسالة من نوع خاص مؤلفة مما يلى : طير وفأر وضفدعة وخمسة سهام . وقد فسر احد المقربين من الملك هذه الرسالة على النحو التالى : «ان لن تختفوا فى السماء مثل الطيور او تتواروا فى الارض كالفئران او تختبئوا فى الماء كالضفادع فلن تفلتوا من هذه السهام» . ولكن داريوس من جهته فهم رسالة الاسقوثيين على نحو آخر ، اذ قرر ان الاسقوثيين يضعون انفسهم تحت سلطته ويقدمون اليه الارض والماء رمزا للخضوع حيث ان الفأر يعيش فى التراب والضفدعة تعيش فى الماء بينما يشبه الطائر من حيث سرعة طيرانه قبل كل شيء الحصان . اما السهام فهى تعنى ان الاسقوثيين يتخلون عن المقاومة . ان هذه «القراءة» الخاطئة التى اقترحها الملك داريوس كلفت الفرس غاليا .

كانت عالمة الآثار الامريكية د. شماندت — بيسيرا تهتم منذ اوائل السبعينات بفيش الشرق القديم. ولدى دراسة مجموعات المصنوعات الفخارية القديمة — الطوب والاوانى والتماثيل الصغيرة لاحظت الباحثة انه تكدس فى المتاحف، الى جانب المكتشفات الاثرية المذكورة، العديد من المصنوعات الطينية الصغيرة التى لم يكن مفهوما على الاطلاق الغرض الذى صنعت من اجله. وفى الادبيات العلمية لم يتطرق احد الى هذا الموضوع قبل الباحثة السالفة الذكر. فبعد الاطلاع على كمية كبيرة من المواد وتصنيفها توصلت شماندت — بيسيرا الى استنتاج مفاده ان القسم الاعظم من هذه المصنوعات ليس سوى فيش كانت تستخدم فى عملية جرد المؤن الواردة والموزعة.

وتمثل هذه الفيش من حيث المظهر اشكالا هندسية صغيرة (١ — ٣ سم) مصنوعة من الطين الممتاز ومشوية على النار. وان الانواع الاكثر انتشارا هى الفيش الكروية والمخروطية والاسطوانية والقرصية والهرمية الثلاثية السطوح ولكن تصادف ايضا الفيش المعينة الشكل وغيرها الى جانب تماثيل للحيوانات. وقد استطاعت شماندت — بيسيرا ان تفرز خمسة عشر نموذجا اساسيا من الفيش. ويظهر على العديد من هذه الفيش تحفيرات وتجاويف واخاديد انجزت بالعصا قبل الشوى. اما الفيش الاخرى فتحتوى على ثقوب معينة. ويمكن تقسيم النماذج الاساسية الى عدة نماذج فرعية تبعا للطابع الذى تتسم به مثل

هذه «التزيينات» الاضافية للفيش . وتعتقد شماندت ـــ بيسيرا ان لكل شكل معناه الدقيق ولكل اشارة اضافية مدلولها الخاص .

ويرجع تاريخ اقدم الفيش التى عثر عليها حتى الآن الى النصف الاول من الالف الثامن ق . م . وقد جاءت من المستوطنات التالية : تل اسود وتل مريبط (سوريا) وغانج داريه تيبه وتيبه اسياب (ايران) . وهى من حيث الشكل كروية وقرصية ومخروطية واسطوانية ومربعة وتصادف احيانا فيش بيضوية وتماثيل ورسومات لحيوانات . وثمة بعض الفيش المزخرفة (المنمنمة) بعلامات اضافية وفى الالف السابع ق . م . انتشرت الفيش فى جميع ارجاء الهلال الخصيب تقريبا من غرب سوريا الى اواسط ايران . وقد عثر المنقبون اثناء حفريات مستوطنة جارمو فى العراق (حوالى عام ٦٥٠٠ ق . م .) على ١١٥٣ كرة و٢٩٦ قرصا و١٠٦ مخاريط . ويثير الدهشة والاستغراب تماثل نماذج الفيش التى تصادف فى مستوطنات قديمة تبعد الواحدة عن الاخرى آلاف الكيلومترات .

ماذا كانت ترمز اليه هذه الفيش ؟ وما هى اسباب ظهورها ؟ للاجابة على هذين السؤالين ينبغى ، قبل كل شيء ، ان نتصور جيدا الظروف التى شاع فيها استعمال الفيش ومهن الناس الذين كانوا يستخدمونها ومجمل نمط حياتهم . وقد لاحظت شماندت ـــ بيسيرا ان رقعة انتشار الفيش تتطابق مع منطقة تشكل الاقتصاد المنتج ، اذ كانت الفيش تظهر حيث كان الناس ينتقلون من الصيد

وجمع الثمار والحبوب البرية الى الزراعة والرعى ويتحولون من اسلوب الحياة المتنقل الى النمط الحضرى . وقد كانت المريبط والمستوطنات الاخرى قرى حقيقية يسكنها الزراع القدامى ببيوتها المستديرة وحفرها الكبيرة المستخدمة لحفظ المؤن الغذائية الخ . وتشير اللوحات الحجرية الصغيرة العديدة ، التى تصنع منها انصال المناجل ، الى الدور الهام الذى كانت تلعبه الحبوب فى اقتصاد سكان هذه المستوطنات كما ان بعض هذه الادوات الحجرية كان يصنع من حجر الاوبسيديان المستورد من مناطـــــــق بعيدة مما يدل على التطور الكبير الذى بلغته آنذاك تجارة المقايضة الخارجية .

لقد كان الصيادون وجامعو الثمار القدماء يكتفون اثناء ترحلهم من مكان الى آخر بادنى كمية من الاشياء حيث لم يكن لديهم آنذاك حيوانات نقل . وعلى كل حال لم يكن هنالك على الارجح ما يمكن نقله عليها ، اذ ان توقف الصيادين القدماء التام على غنيمة الصيد جعلهم يعيشون على الطوى ، وكان توفير فائض فى المواد الغذائية امرا نادرا . ولكن مع الانتقال الى الزراعة والحياة الحضرية المستقرة ارتفع مستوى رفاهية الناس ارتفاعا ملحوظا . فقد بدأت تتطور الحرف المختلفة على نحو سريع ، كما ان المحاصيل الزراعية الجيدة اصبحت تتيح امكانية تأمين احتياطات لا بأس بها من المواد الغذائية واستخدام الفائض منها للتبادل الخارجى . وتجمعت ثروات كبيرة فى المستوطنات وبهذا الصدد طرح المختصون

بتاريخ الرياضيات افتراضا قريبا من الحقيقة يقول ان بواكير الانظمة الحسابية كانت تظهر انطلاقا من الحاجة الي ضبط وتسجيل تبادل الخبرات المادية . ولكن من اى نوع كان هذا التبادل ؟ ومن هم الاشخاص الذين كانوا يقومون بهذه العملية وما هى الاشياء التى كانت قيد التبادل ؟

يعتقد علماء الاثنوغرافيا ان اهم حـــــالات احالة الممتلكات فى المجتمعات القديمة والبدائية هى دفع مهر العروس . وفى معظم الاحيان لم يكن الدفع يتم فورا وانما كان يسدد بالتقسيط يستغرق فى بعض الاحيان سنوات عديدة . ولكن شماندت — بيسيرا توصلت الى استنتاج مفاده ان اختراع الفيش لم يحدث لضرورة تثبيت شروط عقود الزواج ومراقبة مراعاتها ، بل ان ظهور الانظمة الحسابية وانتشارها السريع كان ينبغى ان يرتبطا بعمليات اخرى لاحالة الممتلكات يشترك فيها فى وقت واحد عدد كبير من الناس . وترى الباحثة ان المقايضة الخارجية لم تكن ، بدورها ، السبب الرئيسى لاختراع الفيش . لقد كان الزراع القدماء يحصلون على حجـر الاوبسيديان القيم جدا بالنسبة لهم من القبائل الرحل ويدخلون معهم فى مقايضات . وتشير الدراسات والمشاهدات الاثنوغرافية الى انه اثناء المقايضة بين القبائل الرحل والزراع كان الزراع فى اغلب الاحوال يدفعون مقدما او يؤجلون التسديد حتى الانتهاء من جنى المحصول . وكان منطقيا ان نفترض ان الاتفاق الذى توصل اليه الطرفان

فى مثل هذا النوع من المبادلات ينبغى ان «يسجل» على نحو ما ، ولو عن طريق علامات او فيش . وبعد ان درست شماندت — بيسيرا المواد الاثرية باهتمام وجدت ان انتشار الفيش وتوزع لقى الادوات المصنوعة من حجر الاوبسيديان لا يتطابقان الا جزئيا . فقد بدأ وصول الحجر المذكور الى العديد من المستوطنات قبل وقت طويل من ظهور الفيش الاولى . كما رفضت الباحثة الفكرة القائلة بان نظام الفيش الحسابية نشأ عند الرعاة من اجل تعداد رؤوس القطعان — فمن جهة لم يعثر على عظام الحيوانات الاليفة فى اية مستوطنة من المستوطنات الزراعية الباكرة الآنفة الذكر والتى ترجع الى الالف الثامن ق . م . ومن جهة اخرى لم يجد المنقبون اية فيش فى كهوف ومغارات الرعاة القدماء (آثار الحضارة النطوفية التى ترجع الى الالف العاشر ق . م . ومكتشفات زاوى تشيمى التى تعود الى الالف التاسع ق . م .) . وفضلا عن ذلك هناك ايضا مانع ذو طابع سيكولوجى . فالمعروف ان الرعاة الفطريين مثل سكان نويرى فى افريقيا يلاحظون فى الحال اختفاء الدابة ، حتى اذا كانت ضمن قطيع كبير ، دون اللجوء لدى ذلك الى اعادة تعداد رؤوس الماشية ، شأنهم شأن المعلم المتمرس الذى يكتشف على الفور غياب احد تلاميذه . ويعود ذلك الى ان الرعاة يحفظون كل دابة بصورة فردية بحتة (حسب العمر واللون والعلامات الاخرى) ولذلك فانه ليس من المحتمل جدا ان يكون نظام العد قد ظهر للمرة الاولى من اجل تعداد القطيع .

وتعتقد الباحثة ان الاشياء المحسوبة بواسطة الفيش الاولى كانت معدومة السمات الفردية وكانت تمثل سلسلة من الوحدات او الاشياء المتماثلة التى من الصعب تذكر كل واحدة على انفراد .

وهكذا بدأت تلوح الظروف العامة التى ادت الى ظهور الفيش الحسابية : فقد كانت تجرى فى تلك المرحلة عمليات تبادل وتسليم اشياء عديدة مألوفة يشترك فيها اناس كثيرون واغلب الظن ان هذه العمليات كانت تجرى بوساطة مجموعة معينة من الوسطاء — المراقبين والموزعين . وانطلاقا مما نعرفه حول ظروف حياة سكان مستوطنات مريبط واسود واسياب وغيرها استنتجت شماندت — بيسيرا انه لم يكن ممكنا فى بداية الامر ان تحسب بمثل هذه الطريقة الا المنتجات الزراعية وخاصة الحبوب .

ان جميع المستوطنات الآنفة الذكر تقع فى مناطق حيث كان على منحدرات التلال السفحية ولا يزال ينمو الشعير والحنطة الرومية والحنطة ذات الحبة الواحدة . وقد اجرى علماء الآثار تجربة خاصة برهنت على ان الانسان يستطيع بمنجل حجرى قديم ان يوفر لنفسه مؤونة عام من الغلال البرية خلال ثلاثة اسابيع من الحصاد . وقد كان جنى محصول الحبوب وتخزينه من اكبر هموم الزراع القدماء . ولم يقتصر الامر على تأمين الاحتياط الغذائى لكل بيت ، اذ ان جزءا معينا من المواد الغذائية كان يذهب الى «الحصالة» المشتركة لاهل القرية . وان بقايا الحفر الضخمة فى السويات الحضارية المعينة لمواقع

المستوطنات القديمة تدل على وجود مستودعات مشاعية كان يشرف عليها ، كما يبدو ، شيوخ القرى المكلفون باحصاء مقادير الاحتياطات العامة من الحبوب ، وتسجيل الكميات الواردة او الصادرة والاشخاص الذين احضروها او استلموها ، والقيام بالحسابات المعقدة ، وتحديد الكمية المخصصة لهذا الغرض او ذاك ، وعلى سبيل المثال للبذار والتبادل مع اهالى القرية المجاورة وهلمجرا ويبدو ان الفيش الاولى قد ظهرت من اجل تسهيل حساب وجرد الكمية الضخمة من سلاّت الحبوب المتماثلة . وفى وقت لاحق اصبحت الفيش تستخدم كذلك لحساب المنتجات والاشياء الاخرى مثل جرار الزيت والمشروبات ، والحيوانات ، وقطع القماش .

وترى شماندت ــ بيسيرا ان الاعياد المشتركة لسكان القرى القريبة وما رافقها من تضحيات وولائم طقوسية قد لعبت دورا هاما للغاية فى تشكل وانتشار نظام الفيش الحسابية . وكان التحضير لمثل هذه الاعياد يبدأ قبل وقت طويل من الموعد المقرر حيث كان شيوخ المستوطنات المختلفة يعينون الاشخاص مسبقا ويحددون مقادير وانواع المنتجات التى ينبغى عليهم جلبها . وكما يعتقد بعض الاثنوغرافيين فان «البيروقراطية» بدأت تظهر عندما استأثر اشخاص معينون بممارسة وظيفة الاشراف على اجراءات التحضير للاحتفالات المشتركة وكانوا يمثلون مصالح كل جماعة من الجماعات المشتركة فى العيد . فهم الذين وضعوا حدا لـ«الاتصالات العملية» المباشرة التى كان

يقوم بها المشاركون فى الطقس المذكور . ولم تتِح الفيش للقائمين على تنظيم هذه الاحتفالات فرصة تقدير الكمية الاجمالية للمواد الغذائية فحسب بل وسهلت عليهم ايضا تخطيط توزيعها وتتبع التزام الجهات المختلفة بتعهداتها . وهكذا فان نظام الفيش الحسابية الناشئ ، الذى شكل مرحلة تمهيدية خاصة لظهور الكتابة ، كان اكثر من مجرد طريقة جديدة للحفظ والتذكر . فقد تحول فى ايـــدى السلطة المركزية الفتية (السلطة المشتركة للجماعات المشاعية المختلفة) الى وسيلة للرقابة وبالتالى للاشراف على توزيع الخيرات المادية .

ان نظام الفيش الحسابية الذى ظهر حوالى عام ٨٠٠٠ ق . م . بقى عمليا على حاله فى غضون الاربعة آلاف سنة التالية مما يدل على البطء الشديد لعملية تطور اقتصاد الجماعات الزراعية المبكرة ومجمل نمط حياتها حيث اقتصر الامر على انتاج وحساب وتوزيع بضعة اصناف من المنتجات الحيوية الهامة نفسها كالشعير والقمح والحبوب الاخرى والزيت والجعة والمنسوجات والاغنام والماعز والماشية .

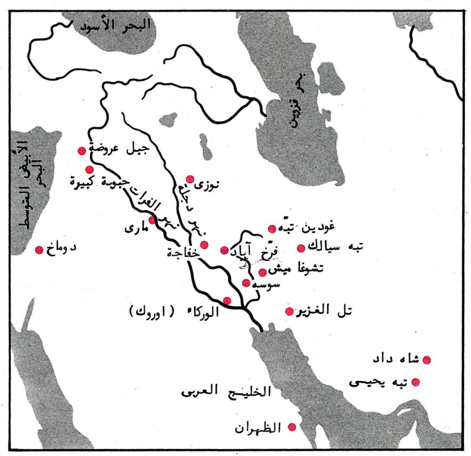
وفى الالف الرابع ق . م . طرأت تعديلات جوهرية على هذه اللوحة مع ظهور المستوطنات الضخمة ذات الكثافة السكانية الكبيرة وتحولها عمليا الى مدن حقيقية . وجرى تقسيم العمل اللاحق بوتائر عاصفة حيث تطورت صناعة الفخار والنسيج والتعدين وازدادت البنية الاجتماعية تعقيدا . كما غدت عمليات انتاج وتوزيع المواد الغذائية اكثر تعقيدا ايضا وتشكل جهاز متقدم للادارة . ان التنوع

المتزايد للمواد والسلع المنتجة ، وازدهار المقايضة الداخلية والخارجية ، واشتداد الرقابة على الحياة الاقتصادية للمجتمع من جانب السلطة قد تطلب جميعها نظاما للجرد أكثر تطورا ومرونة . وان التحسين اللاحق لنظام الفيش الحسابية ارتبط ارتباطا وثيقا بهذه العمليات . وقد ظهرت نماذج جديدة من الفيش (شبه معين ومثلثة وغيرها) مزودة باشارات وعلامات اضافية (حفر وتظليل الخ) وقادرة على اعطاء معلومات مفصلة عن نوعية المواد الغذائية المرموز اليها بالنماذج الاساسية من الفيش . ويبلغ مجموع النماذج الفرعية من الفيش التى حددتها شماندت — بيسيرا حوالى المئة .

وكانت كل فيشة تقابل تماما وحدة معينة من المنتوج المحتسب — «سلة حبوب» ، «جرة جعة» ، «جزة صوف» . ولم تكن هناك فيش للدلالة على الاعداد بمعزل عن المواد المحسوبة . وتعتقد الباحثة ان عد كل صنف من المحاصيل الزراعية والسلع بفيش من النموذج الذى يخصه دون سواه ربما يشهد على وجود انظمة حسابية مختلفة لشتى المواد . وان هذا الاحتمال قد يبدو ضئيلا بالنسبة للانسان المعاصر الذى اعتاد على الارقام المجردة والنظام الموحد للاعداد . ولكن معطيات اللغات «البدائية» تؤكد امكانية وجود ما يسمى بالحساب الملموس فى العديد من اللغات القديمة حيث لا تنفصل الاعداد عن الاشياء قيد الحساب . وكان «المحاسبون» القدامى على هذا النحو او ذاك يلجؤون من اجل الدلالة على عدد معين من سلات الشعير الى استخدام مثل هذا العدد بالضبط

من الفيش ذات النموذج المعنى
ولا نزال نجهل حتى الآن كيف كان المحاسبون القدامى يحتفظون بمجموعات الفيش اللازمة لهم . وكانت بعض الفيش تحتوى على خُرَم تتيح ربطها ببعض بالخيط . اما شكل الفيش الاخرى فانه يجعل من الصعب ربطها ببعضها البعض او بفيش ذات اشكال اخرى . ويمكن ان نصادف كافة انواع الفيش بصورة مبعثرة فى السويات المبكرة . ومنذ منتصف الالف الرابع اصبحت الفيش الحسابية توضع داخل مغلفات طينية كانت تتخذ عادة شكل كرات مجوفة بحجم كرة التنس . وقد ظهرت هذه الكرات فى وقت واحد عمليا (حوالى عام ٣٥٠٠ ق . م .) ببلاد ما بين النهرين وسوريا وعيلام (مدينة الوركاء وحبوبة كبيرة وسوسه وتشوغا ميش) .
وبفضل هذه المغلفات الفريدة تسنى الاحتفاظ فى مكان واحد بجميع الفيش التى يسجل بها المحضر الخاص بتسليم المواد المعينة . وبعد وضع الفيش داخل الكرة المجوفة كانت تلصق الخُرَم على سطح «المغلف» الطرى وتوضع دمغات الاختام الشخصية لممثلى الاطراف المشاركة فى الصفقة والشهود مما يضمن حفظا امينا للمعلومات الواردة فى الفيش ، اذ لم يكن يحق لاحد فتح «المغلف» وسحب او اضافة قسم من الفيش ثم اغلاقه وختمه من جديد بدون علم اصحاب الصفقة . ولكن عند ذلك كانت تظهر الصعوبة التالية بعد وضع الفيش وختم «المغلف» لم يبق لدى الناس سوى الاعتماد على الذاكرة

مواقع الحواضر التى تم فيها العثور على الفيش ، والمغلفات المحتوية على الفيش ، واللوحات القديمة



ففى حال ظهور شكوك ما كانت تتعذر اعادة حساب الفيش دون اللجوء الى كسر الكرة وما يتبع ذلك من اجراءات معقدة لختم «المغلف» من جديد بحضور الاطراف المعنية والشهود . ومن الواضح ان الحاجة للقيام بمثل هذه الخطوة لم تظهر الا عند نشوء خلافات جوهرية بصدد العملية المسجلة . وكان الاشخاص القائمون بالجرد يجدون انفسهم فى حالة عجز تام . فهل كان يستحق الامر اختراع نظام باكمله للعودة من جديد الى الطريقة القديمة التى تتطلب الاحتفاظ بكل شىء فى الذاكرة ؟

ولكن سرعان ما وجد مخرج بسيط جدا لهذه المسألة . فقبل وضع الفيش وختمها اصبحوا يطبعونها على السطح الخارجى «للمغلف» وكان كل نموذج من الفيش يترك بصماته الخاصة المميزة على الجدار الطينى السميك للكرة . ويجب ان يكون عدد البصمات مطابقا لعدد الفيش الفعلية التى وضعت داخل «المغلف» ، وعند ذلك يصبح من الممكن تعدادها فى اى وقت . ولدى الضرورة القصوى يمكن بالطبع كسر هذا «المغلف» ومطابقة عدد البصمات والفيش . ولكن مثل هذه الضرورة لم تكن تنشأ لدى القائمين بعملية الجرد الا نادرا . كما قل تدريجيا ، على ما يبدو ، عدد الراغبين فى الدخول بجدال مع الادارة القوية وسرعان ما زالت الحاجة الى حصر الفيش الفعلية داخل «المغلف» . فكان يكفى دمغ العدد اللازم من هذه البصمات او تلك على كتلة الطين لتصبح القائمة الحسابية جاهزة . وبواسطة طقم من الفيش ذات النماذج المختلفة المستخدمة كأختام كان المحاسبون القدماء يسجلون بسهولة نسبيا عملية استلام وتسليم المواد الغذائية والسلع . وعلى هذا النحو ظهرت اللوحات الاولى ذات البصمات التى كانت غليظة فى بادئ الامر والتى سميت خطأ من قبل بعض الباحثين بـ «لوحات الارقام» .

ان الانتقال من المغلفات ـــ الكرات «العمياء» (بدون بصمات) الى اللوحات ذات البصمات قد تم خلال قرنين او ثلاثة (فى الاعوام ٣٥٠٠ ـــ ٣٢٠٠ ق . م . تقريبا) . وطيلة هذا الوقت كانت الكرات «العمياء» والمغلفات ذات

البصمات واللوحات ذات البصمات تتعايش جميعها بسلام . ولكن فى اواخر المرحلة المذكورة اخذت اللوحات ذات البصمات تزيح من طريقها المغلفات المحتوية على الفيش لكى تتنازل بدورها بعد وقت قصير للوحات الرموز الاخدودية الاكثر تطورا .

وقد اصبح معروفا الآن زهاء ٢٠٠ مغلفا يعود اصلها الى عشرات المستوطنات القديمة المنتشرة فى جميع ارجاء الشرقين الادنى والاوسط . وقد وجد فى ايران حوالى ١٠٠ مغلف كامل وزهاء ٧٠ من المقتطفات يرجع معظمها الى مدينة سوسه (٦٠ مغلفا كاملا و٥٧ من الحطام) وحوالى ٣٠ مغلفا فى تشوغا ميش ومغلف واحد فى كل من فاروخ آباد وشاه داديه وتيبيه يحيى . وعثر المنقبون فى اراضى ما بين النهرين على ٢٥ مغلفا فى اوروك وواحد فى نوزى (ويعود الاخير الى منتصف الالف الثانى ق . م) . كما وجدت مغلفات فى سوريا بمستوطنة حبوبة كبيرة وواحد او اثنان فى مدينة دوماخ قرب حبرون وواحد قرب الظهران فى العربية السعودية وعثر ايضا على اربعين من الكرات المجوفة المماثلة فى ابيدوس بمصر التى كانت لها ، على الارجح ، وظيفة اخرى .

وتعتبر شماندت ـــ بيسيرا مغلف فاروخ آباد ، الذى يعود الى سوية ٣٥٠٠ ـــ ٣٣٠٠ سنة ق . م . ، اقدم المغلفات ذات التاريخ الدقيق نسبيا . وتعود مغلفات تشوغا ميش الى عام ٣٣٠٠ ق . م . تقريبا اما مغلفات اوروك فيرجع تاريخها الى الاعوام ٣٢٠٠ ـــ ٣١٠٠ ق . م .

والى الفترة ذاتها ينبغى ارجاع مغلفات سوسه (ويرجع العالم آميه تاريخها الى حوالى عام ٣٣٠٠ ق . م .) . اما بالنسبة للمغلف المكتشف قرب حبرون ولقى تيبيه يحيى وشاه تيبيه والظهران فانها تعود ، على الارجح ، الى الاعوام ٢٨٠٠ — ٢٦٠٠ ق . م .

ويتبين من كشف اللقى الذى اوردناه آنفا ان المغلفات قد ظلت تستخدم خلال حقبة طويلة من الزمن تمتد من منتصف الالف الرابع ق . م . وحتى منتصف الالف الثانى ق . م . وانها كانت منتشرة فى رقعة شاسعة . ومع ذلك فقد جاءت متشابهة الى حد مدهش سواء من حيث المظهر الخارجى — المادة وطريقة التصنيع والشكل والحجم — او من حيث نماذج الفيش التى تحتويها . وهنا ينشأ انطباع مفاده انه فى شتى رحاب المنطقة الممتدة من شمال سوريا وفلسطين حتى اواسط ايران كان الناس فى حينه يستخدمون نظاما موحدا «للحساب والجرد» مفهوما للجميع .

ومن الصعب جدا حتى الآن تحديد اهمية هذا النموذج او ذاك استنادا الى قوام مجموعات العلامات التى تصادف فى المغلفات * . ويبدو ان الطريقة الوحيدة

* زد على ذلك انه ليس فى حوزة الباحثين حتى الآن سوى جزء صغير من المواد اللازمة . كما ان محاولات الكشف عن الاشياء ، التى كانت تحتويها المغلفات المغلقة ، عن طريق اشعة رونتجين لم تتكلل بالنجاح . ولم يتجاوز عدد المغلفات التى سمح لعلماء الآثار ان يفتحوها ١٣ مغلفا من اصل ١٣٠ مغلفا كاملا

لتحقيق ذلك هى طريقة الرسومات التى تكمن فى العمل على مطابقة الفيش باشارات الكتابة الاوروكية التى تتماثل مع الاشارات المسمارية المتأخرة . وتقف بصمات اللوحات والمغلفات كحلقة وصل هامة بين الفيش واشارات الكتابة الاوروكية . وبالاستناد الى هذه البصمات يمكن على الدوام تقريبا ان نتصور بدقة شكل الفيش . وفى نفس الوقت فان اللوحات ذات البصمات كانت بلا شك الاساس الذى قام عليه مجمل نظام الكتابة فى بلاد ما بين النهرين . وفى بداية الامر كان يجرى تصحيح وتدقيــــق وتعقيد بصمات اللواحات بلمسات اضافية تخطط بعصا رفيعة ثم انتقلوا نهائيا الى استخدام الرموز الاخدودية . والجدير بالذكر انه خلال فترة من الوقت استمر كالسابق

نظرا لانه لا يمكن سحب الفيش دون الحاق الضرر بالمغلف المغطى كله تقريبا ببصمات الاختام الاسطوانية . وهناك ١٣ مغلفا اخرى وصلتنا فى حالة غير سليمة ولكن بفيشها او على الاقل بجزء من الفيش . وقد اخرجت ٢٨٠ فيشة من ٢٦ مغلفا . وهى تمثل جميع النماذج الاصلية للفيش التى تصادف على نحو مبعثر ومنفرد فى السويات الاقدم . والطريف فى الامر ان كافة الكرات الاسطوانية جاءت من المغلفات المكتشفة فى مدينة سوسه بينما لم تكن مغلفات حبوبة كبيرة تحتوى الا على فيش كروية ذات نقوش وحفر. و بما يدل هذا على ان بعض المستوطنات كانت تتخصص فى الغالب بانتاج نوع واحد من المحصول .

ومن المؤسف ايضا انه لم تبق اية علامات من مغلف سوسه ، اذ كان بوسعنا ، فى حالة العكس ، ان نعرف على الاقل الفيش التى كانت تدل على النعاج والخراف فى العصر المتأخر .

طبع بعض الاشارات بالضغط على الطين بدلا من رسمها .
لقد درست شماندت ـــ بيسيرا ١٨٥ لوحة ذات بصمات من اللوحات المنشورة ومجموعات المتاحف . ويرجع اصل هذه اللوحات الى ايران (٩٠ ـــ من سوسه ، و٤٢ ـــ من غودين ـــ تيبيه ، و١٣ ـــ من تيبيه سيالكا ، و٥ ـــ من تشوغا ميش ، ولوحة واحدة من تل الغزير) وبلاد ما بين النهرين (١٧ ـــ من اوروك ، ولوحة واحدة من خفاجة وواحدة من مارى على مجرى الفرات) وشمال سوريا (١٠ من حبوبة كبيرة ، و٥ ـــ من جبل عروضة) . ان كافة هذه المستوطنات كانت تقع عند طرق التجارة الرئيسية لذلك العصر . ومن الصعب ان نحكم على مدى دلالة مثل هذا التوزع لاماكن اللقى المذكورة . ويمكن تفسير الرجحان الكمى للوحات الايرانية بالنجاح الكبير الذى حققه المنقبون الذين عملوا فى ايران . وفى بعض الحالات وجدت اللوحات هناك داخل اوانى تخص بلاد ما بين النهرين ولا تشبه من حيث الشكل الاوانى المعروفة فى سوريا وعيلام (المناطق الغربية والجنوبية لايران القديمة) . ويرى بعض علماء الآثار والتاريخ ان اكتشاف اوانى بلاد ما بين النهرين فى منطقة بعيدة يتيح الحديث عن وجود تجار سومريين فى المستوطنات السورية والعيلامية وحتى فصائل عسكرية سومرية كانت تقوم بحراسة طرق القوافل .

وقد وجدت شماندت ـــ بيسيرا فى هذه اللوحات ١٩ نوعا من البصمات وحددت بدقة الفيش التى استبدلت

بها هذه البصمات . وتمثل الفئة الاولى من البصمات حفرا دائرية عميقة التى تركتها كرات من مختلف الحجوم وكرات زوائد وهلمجرا . اما الفئة الثانية من البصمات فهى عبارة عن حفر مستديرة صغيرة من الكرات القرصية . وتتضمن الفئة الثالثة اخاديد مسمارية من آثار الكرات المربعة الكبيرة والصغيرة المقلوبة برؤوسها نحو بعضها البعض وغيرها . وتحتوى الفئة الرابعة على آثار فيش على شكل شبه معين ، وتمثل الفئة الخامسة اخاديد من الكرات ذات الشكل البيضوى وتمثل الفئة السادسة آثار الكرات المثلثية والكرات البسيطة ذات الحفر . وقد اقترحت الباحثة كذلك عدة متطابقات للبصمات مع اشارات الكتابة الاوروكية . وطبعا من الصعب ان نعتبر مطابقاتها امرا اكيدا لا يقبل الجدل . كما ان الاهمية التى يعزيها فالكنشتين وغيره من العلماء لبعض الاشارات الاوروكية لا تزال ايضا بعيدة عن ان تلقى الاعتراف الشامل من قبل العلماء . وعرضت الباحثة نتائج عملها فى احدى المقالات وفقا للجدول الوارد فى ص ١١٧ .

وبصرف النظر عن صحة او خطأ القراءات التى اقترحتها الباحثة للبصمات والفيش الملموسة فان اللوحة العامة التى وضعتها لكتابة ما بين النهرين لا تثير الشك . وان المراحل الهامة لنشوء اول نظام كتابة فى العالم ينبغى ترتيبها كما يلى :

١ ــ اختراع الفيش بشكل الرموز الثلاثية الابعاد ، حوالى عام ٨٠٠٠ ق . م .

جدول متطابقات بصمات الفيش ومدلولاتها المحتملة

أ)

كرات

فيش							
بصمات							
المعنى المفترض	مقياس الحبوب	مقياس الحبوب	مقياس الحبوب	مقياس المساحة	؟	؟	؟
فى الاشارات الكتابية للألف الثالث قبل الميلاد							

ب)

	فيش اسطوانية		فيش مخروطية				
فيش							
بصمات							
المعنى المفترض	مقياس الحبوب	عشرة حيوانات	مقياس الحبوب	مقياس الحبوب	مقياس الحبوب	مقياس المساحة	مقياس الحبوب
فى الاشارات الكتابية للألف الثالث قبل الميلاد							

جـ)

	فيش على شكل شبه معين	فيش بيضوية الشكل	فيش اسطوانية	فيش مثلثة	
فيش					
بصمات					
المعنى المفترض	؟	؟	حيوان	مقياس الحبوب	مقياس الحبوب
فى الاشارات الكتابية للألف الثالث قبل الميلاد					

٢ — ظهور «المغلفات» المحتوية على الفيش ذات البصمات ، حوالى عام ٣٣٠٠ ق . م .

٣ — ظهور اللوحات الاولى ذات البصمات ، حوالى ٣٣٠٠ — ٣٢٠٠ ق . م .

٤ — بداية الكتابة التصويرية فى اوروك ، حوالى عام ٣١٠٠ ق . م .

لقد جاء اختراع اللوحات ذات البصمات انعطافا هاما فى نشوء الكتابة : فعند ذلك بالذات بدأ الانتقال من الرموز الثلاثية الابعاد الى الرموز الثنائية الابعاد . وكانت البصمات على المغلفات المحتوية على الفيش والبصمات على اللوحات متماثلة من حيث الشكل والمحيط . لكن البصمات على المغلفات هى دائما بصمات الفيش ، فى حين انها على اللوحات كانت ، فى اغلب الاحيان ، تصحح جزئيا بالقلم او منذ البداية تطبع بالضغط بواسطته . واخذت الاشارات على اللوحات تنفصل للمرة الاولى عن الرموز الثلاثية الابعاد وتصبح عمليا رموزا ثنائية الابعاد حيث تبدأ تطورها الخاص مستخدمة فى ذلك امكانيات شتى اشكال الجمع بين الرسومات الثنائية الابعاد على السطح . ان رسم مخروطين متقابلين برأسيهما لم يعد مجرد استبدال بسيط لمخروطين فعليين وانما يمثل اشارة جديدة من نوع خاص .

ان الطريقة الجديدة فى رسم الاشارات على سطح اللوحة تكونت نتيجة لتطور اسلوب التعديل البسيط لبصمات الرموز وخاصة رسم العلامات غير الواضحة (بالتظليل وغيرها) .

ان الاشارات المطبوعة بالضغط والمرسومة بالقلم كانت تقرأ بصورة اوضح من بصمات الفيش الفعلية . والاهم من ذلك انها ادت الى ابتعاد سيكولوجى عن الفيش . وقد ادرك «الكتبة» انه ليس من الضرورى الاكتفاء بوضع عدد محدود من رسومات الفيش التقليدية على اللوحة فحسب بل العمل ايضا على نقل المفاهيم الاخرى .

وكان عدد الاشارات ـــ الرموز ينمو بسرعة فظهرت على اللوحات رسومات الحيوانات واعضاء الجسم البشرى الخ ، التى لم يكن لها نماذج ـــ رسوم اولية ثلاثية الابعاد . وبواسطة الرسوم التخطيطية وتجميعاتها اصبح ممكنا نقل المفاهيم والكلمات المعقدة التى تدل على الفعل . فمثلا ، كان رأس الانسان المنتصب الشعر يعنى «الغضب» ، اما صورة الفم وقطعة الخبز فتدل على فعل «يأكل» . وعندما استنفدت الكتابة التصويرية كافة امكانياتها اتجه تطور الكتابة فى بلاد ما بين النهرين ، كما ذكرنا آنفا ، نحو منح الالفاظ ما يقابلها من اشارات .

لقد حلت المغلفات الطينية المحتوية على الفيش محل اللوحات الاولى مما يفسر الشكل الغريب للوحات القديمة والاسباب الموجبة لانتقاء مادة الكتابة نفسها ويبدو ان الرسم المبسط ، ان لم نقل الطابع التجريدى ، لبعض الاشارات التصويرية الاوروكية كان يرتبط جزئيا بالشكل المجرد للفيش

وعلى العموم فان الكتابة ، كما اصبح الآن واضحا ، لم تظهر بصورة مفاجئة وعجيبة ، لم تنشأ من العدم ،

اذ يتعدى تاريخها آلاف السنين وتضرب جذورها فى العلامات الطينية الغليظة ذات الشكل البائس التى يمكن التقاطها فى منحدرات التلال المجترفة . وعندما نقرأ الكتب التى تجسدت فيها روح عباقرة البشرية العظماء يجدر بنا ، على الارجح ، ان نتوقف احيانا ونذكـر بالامتنان والعرفان رواد الكتابة الاوائل وان نتصور ولو مرة واحدة يوما قائظا وبرجا مستديرا لعنبر يجلس تحت ظلاله نفر من الشيوخ شبه العراة يكومون الكرات الطينية باصابعهم غير المثنية بينما كان رتل من ابناء قريتهم يحملون على رؤوسهم سلات القمح .

الفصل الثالث

منجزات علم المصرويات السوفييتى

المؤلف: بيلوفا
ترجمة: د. جابر ابي جابر

اسهم علماء المصرويات الروس بقسط كبير فى دراسة تاريخ مصر القديمة . ومن ابرز مؤسسى المدرسة المصروية الروسية العالم غولينيشيف ، الذى قام بجولات عديدة فى وادى النيل عكف خلالها على دراسة الشواهد الاثرية ونسخ الكتابات القديمة والتنقيب عن الآثار .

وفى غضون العامين ١٨٨٤ — ١٨٨٥ زار العالم المذكور وادى الحمامات ودقق هناك كافة النقوش . كما قام برحلة طويلة فى مختلف ارجاء مصر اطلع اثناءها على عدد من الاماكن التاريخية . وقد صدر لغولينيشيف عدد كبير من الاعمال باللغتين الالمانية والفرنسية التى كانت معروفة جيدا لدى الاوساط العلمية فى العالم المهتمة بدراسة تاريخ مصر القديمة*

* Die Metternichstele, Lpz., 1877; Sur un ancien conte égyptien, 1882; Sur un ancien chapitre du Livre des Mortes, 1880; Les pap., 1115 de l'Ermitage Impér., RT 28, 1906; Le conte du Naufrage, Biblioth. d'étud. 1912; Les pap., hiérat. 1115, 1116 A et 1116 B dé l'Ermitage Impérial, 1913.

لقد ذاع صيت غولينيشيف بصورة خاصة بعد احضاره الى روسيا مجموعة الآثار المصرية القديمة (المعروفة حاليا فى جميع انحاء العالم) والتى اصبحت مفخرة متحف الفنون التشكيلية فى موسكو .

وقد اشاد على وجه الخصوص بمآثر العالم الروسى فى دراسة تاريخ مصر القديمة العالم الانجليزى بريستيد ، الذى اهدى مجلدى كتابه «تاريخ مصر القديمة» الى غولينيشيف .

ولعب الباحث الروسى الكبير ذو الشهرة العالمية طورابيف (١٨٦٨ ـــ ١٩٢٠) دورا هاما للغاية فى تطوير علم المصرويات الروسى ، اذ وضع طائفة كبيرة من الابحاث التى تتناول شتى ميادين المصرويات . والمعروف انه كان يهتم على حد سواء باللغتين المصرية القديمة والقبطية ، وتاريخ مصر ودياناتها . وقام طورابيف بوصف وجرد كافة الآثار المصرية تقريبا الموجودة فى مختلف المتاحف والمجموعات الروسية وكذلك فى متاحف برلين وباريس ولندن وقد عثر طورابيف فى المتحف البريطانى على نشيد مجهول كتب تكريما للاله توت واختار البحث «الاله المصرية توت» موضوعا لرسالة الماجستير .

ومن انجازات طورابيف الهامة انه ارسى بداية الترجمات العلمية من اللغة المصرية القديمة بشروعه فى اصدار سلسلة «الآثار الثقافية والتاريخية للشرق القديم» حيث ظهرت ترجمته لواحدة من ابرز مؤلفات الادب المصرى القديم ـــ «قصة المصرى سينوحيت» (١٩١٥)

كما ان كتاب طورايف «الادب المصرى» (١٩٢٠) ، الذى يمثل بحثا واسعا فى تاريخ آداب مصر القديمة ، يتسم كذلك بمستوى علمى رفيع وباسلوب جذاب وشيق . وكان طورايف يعتزم ان يقدم فى المجلد الثانى ترجمات لكافة النصوص التى ورد ذكرها فى البحث . ولكن المنية وافته قبل ان يتمكن من تحقيق هذا العمل .

ان محاولات ممثلى المدرسة الروسية للمصرويات — وخاصة غولينيشيف وطورايف — التى حازت بجدارة على تقدير واحترام الاوساط العلمية الدولية ، لتناول تاريخ مصر القديمة كعملية تاريخية واحدة قد حصلت على ايضاح جديد وتفسير اعمق فى اعمال علماء التاريخ السوفييت .

وخلال السنوات الاخيرة ساهم هؤلاء العلماء بقسط وافر فى دراسة تاريخ المجتمع المصرى القديم . ومن المهم للغاية ان هذه الابحاث لم تحمل طابعا «مكتبيا» صرفا . فمنذ عام ١٩٦٠ وحتى عام ١٩٨٠ جرت فى مصر والسودان اعمال تنقيب وحفر اتخذت ابعادا لا مثيل لها . وقد شاركت فى عملية انقاذ آثار النوبه من الغمر بمياه النيل اثنتا عشرة بعثة اثرية اجنبية ، بما فى ذلك بعثة اكاديمية العلوم السوفييتية (معهد الآثار ومعهد الاثنوغرافيا) باشراف الاكاديمى بوريس بيوتروفسكى (مدير متحف الارميتاج) ، التى قامت خلال موسمين (الاعوام ١٩٦١ — ١٩٦٢ و١٩٦٢ — ١٩٦٣) باعمال التنقيب فى منطقة جرف حسين مهراقى وضمنها وادى العلاقى .

ولقد سبق ان جذبت هذه المنطقة اهتمام العديد

من علماء الآثار . ففى الاعوام ١٩٠٨ — ١٩١١ اجرى هنا حفرياته عالم الآثار الامريكى فيرس . لكنه لم يهتم الا ببعض المدافن والمستوطنات المنفردة التى لم يتسن للباحثين السوفييت العثور عليها . ومن المرجح انها تعرضت للغمر قبل ان تبدأ البعثة اعمالها

وهكذا فان التنقيبات الاثرية فى اراضى المنطقة المذكورة قد جرت فى الواقع بدون دراسة استكشافية تمهيدية . وكان هدف البعثة السوفييتية يكمن فى القيام بدراسة مفصلة ومنهجية للمنطقة باكملها . والمعروف ان النوبه كانت تجذب اهتمام المصريين بثرواتها الغنية خلال مختلف مراحل تاريخ مصر القديمة . ففى عهد المملكة القديمة كانت تنقل من هنا ، قبل كل شىء ، الاحجار والصخور بشتى انواعها ، وبدءا من عصر مملكة كوش الجديدة اصبحت النوبه مصدرا اساسيا للحصول على الذهب . وقد اقام المصريون هنا المستوطنات وبنوا القلاع والمعابد ، كما انطلقت الفصائل العديدة الى اقصى اركان البلاد بحثا عن الثروات الباطنية . وشهدت المنطقة المذكورة التقاء لحضارتين واغتناءهما المتبادل . ان كل هذا التنوع الكبير للآثار الباقية كان موضع اهتمام بالغ من قبل البعثة السوفييتية . وكان من الضرورى دراسة الحضارة المحلية القديمة والكشف عن خصائصها المميزة وتحديد مدى مساهمة المصريين القدماء فى تطور هذه المنطقة وتمازج التقاليد وتلاقيها

وبفضل نجاحات وانجازات علم الآثار والابحاث

اللغوية الاثنوغرافية يتمثل تاريخ افريقيا امامنا فى ضوء جديد يختلف عما كان عليه فى مطلع القرن الحالى .
وكما اكد مرارا العضو المراسل لأكاديمية العلوم السوفييتية اولديروغيه ، استنادا الى مواد البعثة الفرنسية — المصرية ، التى عملت فى غضون سنوات عديدة بوادى النيل والمناطق المحيطة به ، فان الصحارى الحالية كانت قديما مأهولة بالصيادين وجامعى الثمار والغلال البرية ، الذين كانوا يمارسون ايضا صيد السمك والزراعة . وقد اضطرت مجموعات قليلة منهم الى تغيير مكان سكنها بقدر تبدل الظروف المناخية وتكرر فترات القحط . ولم يقطن الناس فى مناطق وادى النيل الا فى مرحلة لاحقة . ففى الالفين السادس والخامس تجمع السكان عند ضفاف النيل وروافده التى اصبحت الآن مجرد وديان جافة . وان نتائج اعمال البعثة الاثرية باشراف الاكاديمى بيوتروفسكى قد اكدت تأكيدا تاما استنتاج اولديروغيه الذى يشير الى ان ازدهار الحضارة المصرية لم يتم الا بعد ان سبقته مرحلة معينة من حضارة الصيادين وجامعى الثمار والغلال وحضارة رعاة جبال الصحراء الليبية وصحراء الجزيرة العربية .
ويمكن اعتبار اكتشاف المنقبين لمستوطنة حور داوود ذات النمط الجديد ، والتى تعود الى السلالة الاولى (حوالى عام ٣٠٠٠ ق . م .) ، من انجح المكتشفات . ورغم اختلافها الملحوظ عن مستوطنات مصر العليا والنوبه المعاصرة لها والمعروفة حاليا فان هناك ، مع ذلك ، تماثلا كبيرا فيما يتعلق بالمصنوعات الفخارية المكتشفة

فى مدافن النوبه التى يرجع عهدها الى المرحلة المتأخرة لما قبل السلالات او الى مرحلة السلالات الباكرة . وان مثل هذه الآثار لم تتعرض حتى الآن الى دراسة منهجية ولم تحصل ، بالتالى ، على التفسير العلمى الوافى . والمعروف ان الحفرات القليلة المليئة بالاوانى الشبيهة بتلك التى اكتشفت فى حور داوود ، والتى عثر عليها للمرة الاولى عالم الآثار المعروف رايزنير ثم فيرس من بعده قد ارجعت فى بداية الامر وباجحاف كبير الى المدافن . وان احد التفسيرات الذى يتطرق الى وظيفة المستوطنة يعود الى بيوتروفسكى ، الذى وجد ان هذه المستوطنة كانت مكانا مؤقتا لسكن الرعاة الذين كانوا يصنعون مشتقات الالبان قبيل نقلها الى اماكن السكن الاساسية . وكانت مثل هذه المستوطنات تنتشر عادة فى اماكن الرعى البعيدة وقد اتصفت بوجود مستودعات على شكل حفر . (قام باعمال الحفريات فى حور داوود عالما الآثار السوفييتيان المعروفان ميربيرت وبولشاكوف) .

ولدى البحث عن الآثار المتنوعة فى منطقة دكة كتمان عثرت البعثة السوفييتية على اكثر من عشرة مواقع اثرية موستية* . ومما لا شك فيه ان اللقى المكتشفة تستدعى ، بالرغم من قلتها ، اهتماما علميا كبيرا نظرا لانها تقدم للمرة الاولى وصفا كافيا للجزء المتوسط من النوبه المصرية فى عصر الموستيه .

* حقبة الموستيه ــ حقبة الحضارة المتأخرة لاوائل العصر الحجرى القديم . ــ **المعرب** .

ان المأثرة الكبيرة لبيوتروفسكى وزملائه تكمن فى ان هؤلاء العلماء قد كشفوا خلال موسم الحفريات الاول ودرسوا العديد من الآثار الجديدة للحضارتين المصرية والنوبية التى يمتد تاريخها من المرحلة السابقة للسلالات الملكية الفرعونية وحتى السلالة العشرين (القرون ٣٠ — ١١ ق . م .) .

ان دراسة الكتابات التى تركها فى الكهوف والمغارات المشاركون فى البعثات المصرية القديمة والحملات العسكرية تحظى بالدرجة الاولى من الاهمية بالنسبة لاعادة بناء تاريخ النوبة . وهذه الكتابات ، التى وضعت خلال مراحل مختلفة بدءا من عصر المملكة القديمة ، كانت تعود الى اناس من مختلف المراتب الاجتماعية مثل الملوك والوجهاء والجنود والكتبة وهى بالذات تسلط الضوء ، الى حد كبير ، على طابع السياسة المصرية فى هذه الحقبة او تلك . كما انها تلعب دورا هاما بالنسبة لدراسة التصورات الدينية . وكانت نصوص التأبين او التهليل مدعوة الى ابعاد الخطر عن المصريين وتخفيف مشقة حياتهم فى الغربة . والى جانب ذلك فان الطريق الى هذا البلد المنسى لم يكن سهلا ابدا .

وكان الهدف الاساسى لاعمال موسم الحفريات الثانى هو دراسة النقوش الصخرية فى وادى العلاقى . وقد تمكن علماء الآثار التوغل عبر المجرى الجاف مسافة ٧٠ كم فى اعماق الصحراء . والمعروف ان منطقة وادى العلاقى كانت ، منذ القدم ، تجذب اهتمام المصريين

بمكامن الذهب المنتشرة فيها . وبالاضافة الى ذلك فان طريق القوافل المتجهة نحو الجنوب كان يمر بوادى العلاقى ثم بوادى حبحاب . ولذلك فليس من المستغرب ان المختصين فى النقوش قد افلحوا فى العثور على حوالى مئتين من الشواهد الكتابية المصرية القديمة . ويعود الفضل فى نشرها باكملها الى رئيس البعثة الاكاديمــى بيوتروفسكى *

ان النقوش التى تركها ، بصورة اساسية ، المشاركون فى بعثات البحث عن الذهب تشهد على ان الحياة فى المناجم لم تنقطع على مدى قرون عديدة . وقد زار هذه المنطقة فى مرحلة المملكة القديمة اثنان معروفان من وجهاء السلالة السادسة وهما حونيس واونا . ان صحة المعلومات عن مجىء اونا الى النوبة اكثر من مرة ، الواردة فى الكتابة العائدة له ، التى تحمل طابع السيرة الذاتية ، والمحفورة على لوحة والتى عثر عليها فى ابيدوس ، قد لقيت تأكيدا لها فى لوحة فحمية صغيرة لاحد الموظفين اكتشفت فى الطريق المؤدية الى المناجم . كما ان اسم حونيس معروف ايضا تماما للعلماء المصريين . وان النقش الذى تركه فى مستوطنة طُعمة يذكرنا بان اونا جاء الى بلاد ايرتشيت بناء على امر من الفرعون بيبــى الاول .

وترجع معظم نقوش وادى العلاقى الى السلالات

---

* بوريس بيوتروفسكى . وادى العلاقى ـــ الطريق نحو مناجم الذهب فى النوبة . موسكو ، ١٩٨٣

١٨ ـــ ٢٠ (القرون ١٦ ـــ ١١ ق . م .) وفى نقوش عصر السلالتين ١٩ ـــ ٢٠ قلما نصادف ذكر الناس الذين يخدمون فى الحرس العسكرى حيث ان التنقل فى منطقة الوادى كان آنذاك محفوفا بالخطر وخاصة فى اوائل عهد رمسيس الثانى (القرن ١٣ ق . م .) الذى قام بتشييد بئر فى الوادى . وان العثور على جزء من المصطبة الحجرية ، التى وضعت تكريما لبناء البئر ، لم يتح حل مسألة تحديد موقعه فحسب ، بل وساعد على استرجاع تسميته تماما

وفى سياق اعمال البعثة خصص حيز كبير لدراسة النقوش الصخرية فى النوبه . وان العديد منها معروفة بالطبع من خلال المؤلفات العامة المكرسة لتاريخ الحضارة القديمة عن طريق بعض التماثيل والرسومات المطبوعة . ولكن ينبغى الاعتراف بان نقوش هذه المنطقة لم تدرس حتى الآن على النحو المطلوب وان تحديد تواريخها لم يكن دائما مثبتا ومدعما بالحجج والبراهين ومما لا شك فيه انه يجب الترحيب بكل طبعة جديدة للنقوش الصخرية التى تعتبر مصدرا هاما للمعلومات المتعلقة بسكان النوبه الاصليين .

ان التقارير الكاملة المنشورة فى حقبة الستينات ـــ الثمانينات حول بعض التنقيبات والحفريات الاثرية فى مصر والنوبه وكذلك الاعمال الاساسية الصادرة خلال الفترة المذكورة قد ارغمت العلماء والمختصين على اعادة النظر بعين نقادة لا فى بعض الصيغ المنفردة فحسب

بل واحيانا بمجمل منظومة الآراء حول طائفة من قضايا تاريخ مصر القديمة .

وشهد العقدان الاخيران اكتشافات علمية جديدة هامة قام بها علماء المصرويات السوفييت المختصون فى التاريخ واللغة . ويعود قصب السبق هنا بجدارة الى الاكاديمى ستروفه (١٨٨٩ — ١٩٦٥) والباحث بيريبلكين (١٩٠٣ — ١٩٨٢) والباحث كوروستوفتسيــــف (١٩٠٠ — ١٩٨٠) الذين لم تدخل مؤلفاتهم الرصيد الذهبـى للعلم السوفييتى فحسب بل والعلم العالمى ايضا .

لقد بذل الاكاديمى ستروفه جهودا حثيثة من اجل نشر وترجمة الآثار المصرية القديمة وخاصة تلك التى كانت تتضمنها المجموعات الروسية . وصدرت هذه الاعمال ضمن مطبوعات الارميتاج ومتحف الفنون التشكيلية واكاديمية العلوم ، وكذلك فى العديد من الدوريات الاجنبية .

وللمرة الاولى استطاع القراء التعرف على النصوص الطقسية لعصر المملكة الجديدة المنقوشة على الشقف الموجودة فى الارميتاج الى جانب نقوش الاختام وتماثيل الجعلان التى تعود الى هذه المرحلة فضلا عن الوثائق العملية . ويستحق الاهتمام بشكل خاص نقش مصطبة حورمحيب ومخطوطة موسكو الرياضية * وترجمة فريدة لـ«مواعظ نفرتيتى» وفيما يتعلق بالابحاث التاريخية فان ستروفه ساهم مساهمة كبيرة فى معالجة القضايـا

* Struve W. W. Mathematischer Papyrus des Staatlichen Museum der Schönen Künste in Moskau, B., 1930.

المتعلقة بالتسلسل الزمنى النسبـى وخاصة فى عهد اسرة تحوتمس وتعرض بالنقد لرأى زيتيه الشائع آنذاك واستبق الاستنتاجات الاساسية لعلم المصرويات المعاصر .

اما الباحث السوفييتى يورى بيريبلكين فقد اصدر العديد من الاعمال فى مجال المصرويات واهمها مؤلفاته المتعلقة بدراسة عصر امينوفيس الرابع او اخناتون * وهو الملك ـــ المصلح ، الذى شملت اصلاحاته الدينية المجتمع والدولة والفنون والدين والكتابة . وكان هذا العصر يجذب دائما اهتمام العلماء لكن منهج البحث الذى استخدمه العالم السوفييتى واستنتاجاته ادخلت تعديلات جوهرية على التصورات السابقة واتاحت النظر من زاوية جديدة الى طابع اصلاحات اخناتون والى حالة المجتمع والدولة والثقافة فى ذلك العصر عامة . وقد تسنى لبيريبلكين ان يحدد بدقة تاريخ بعض الآثار العائدة الى هذه المرحلة ، وذلك على اساس اظهار التبدلات الطارئة فى المفردات المتداولة (جاء ذلك كما بين الباحث المصروى السوفييتى نتيجة للتخلى عن طريقة الكتابة التقليدية لاسماء الآلهة القديمة) . وقد احرز المؤلف نجاحا كبيرا فى تصنيف تاريخ حكم امينوفيس الرابع حيث ابرز ثلاث مراحل هى : «المبكرة» و «الانتقالية» و «المتأخرة» تختلف فيما بينها بشكل كتابة الزخارف وعبارات التبجيل التى تصطحبها . ومن المهم كذلك اظهار خصائص وسمات القاب اخناتون .

---

* يورى بيريبلكين . انقلاب امينوفيس الرابع ، الجزء الاول ، موسكو ، ١٩٦٧

ان المسائل التى طرحها بيريبلكين اتاحت له التوصل الى استنتاجات عامة حول طابع التحولات التى جرت فى عهد امينوفيس الرابع كما ان تنظيم وترتيب عشرات الآلاف من المعلومات الواردة فى المصادر المصرية قد ساعدا العالم السوفييتى على التوصل الى استنتاج جديد مبدئيا حول درجة انتشار المستجدات : فان مصر ، باستثناء اربع مدن ملكية طبقت فيها الاصلاحات عنوة ، استقبلت هذه الاصلاحات باستنكار مكتوم واستهجان خفى . وقد مست الاصلاحات بدرجة متباينة مختلف ميادين الحياة ، لكنها بمعظمها لم تستوعب الا فى الظاهر وسرعان ما اعرض الناس عنها . وفى مجال الفن وحده استقر للابد الاسلوب الجديد — «العمارنى» — الذى يتصف بالاهتمام بالجانبين العقلى والاخلاقى لشخصية الانسان

ويعود للبروفسور بيريبلكين بجدارة الفضل فى حل لغز المومياء التى تم العثور عليها عام ١٩٠٧ فى المقابر الملكية بمدينة طيبة . ان الافتراض الذى طرح آنذاك بخصوص عائدية الرفاة للملكة تييه قد اختفى على الفور تقريبا حيث اتضح ان الهيكل العظمى يعود الى رجل . وبدا الامر وكأن الشكوك قد زالت فالكتابات المنقوشة على الناووس الذى يضم المومياء وعلى لوازم الميت قد حافظت على القاب امينوفيس الرابع (اخناتون) . لكن الفحص الطبى حدد عمر الميت بـ٢٥ — ٢٦ سنة . وان التسليم بهذا الامر كان من شأنه ان يرغمنا على

الاعتراف بان امينوفيس الرابع قد قام باصلاحاته وهو فى العاشرة من عمره تقريبا . ومن الواضح انه ظهرت فرضيات اخرى واقترحت مطابقات جديدة . فقد ذهب عالم المصرويات الكبير ماسبيرو الى ان المومياء المذكورة تعود الى خليفة امينوفيس الرابع اى الفرعون سمنحكار .

فى عام ١٩١٦ طرح عالم المصرويات الفرنسى داريسى فرضية فريدة من نوعها حيث استنتج بعد دراسة عميقة ان التابوت كان مخصصا ، فى بداية الامر ، للملكة تييه ثم عدل ، فيما بعد ، لاستخدامه من اجل حفظ رفاة امينوفيس الرابع . وكانت مقالة زيته ، التى تدحض تطابق المومياء المكتشفة مع اخناتون ، قد ارغمت العلماء على اعادة النظر بالتقرير الطبى المتعلق بتقدير عمر الميت . واذا كان ايلوت سميث وداوسون قد افترضا فى عام ١٩٢٤ ان الرفاة ربما تعود الى رجل مصاب بضعف فى نموه على اثر مرض عضال فان الدراسة المكررة لعظام المومياء التى جرت عام ١٩٣١ اكدت العمر التقريبى للميت . كما تم التوصل ايضا الى الكشف عن وجود تشابه معين بين عظام جمجمة المومياء المذكورة وشكل جمجمة توت عنخ آمون مما جعل فرضية تطابق مواصفات الميت مع سمنحكار قريبة جدا من الحقيقة نظرا لان الفرعونين كانا من الاقرباء . ولكن هذا لم يكن ليوضح حتى النهاية ما اذا كان الناؤوس قد عدل خصيصا لهذا الفرعون

ولم يتوقف الجدال والنقاش حول هذا الموضوع

ففى عام ١٩٣٣ اعرب عالم المصرويات المعروف كارتر من جديد عن اعتقاده بان الحديث يدور فى الكتابات المنقوشة على التابوت عن امرأة وليس عن رجل . ومرة اخرى يتبنى العديد من المختصين فى تاريخ مصر هذا الرأى القيم ويرشحون الى دور صاحبة الناؤوس مرشحات جديدة وجديدة . وعلى سبيل المثال اقترح ادراج كيبا زوجة امينوفيس الرابع غير الشرعية ضمن قائمة المرشحات . ورجح البعض الرأى القائل بان صاحبة التابوت الاولى كانت ابنة اخناتون الاميرة مييوت .

وعلى ضوء الدراسة المفصلة للنقوش المحفورة على التابوت اظهر البروفسور بيريبلكين للمرة الاولى التغيرات التى طرأت على نصوصها . وبعد دراسة النقوش الموجودة على اوانى المخبأ وتحديد التبدلات فى النصوص بمقارنتها مع مثيلاتها ، المحفوظة فى القصر الذى كان يعود فى البداية الى كيبا ، استنتج الباحث ان الناؤوس كان مخصصا لها بالذات ثم «عدل» فيما بعد من اجل زوجها الحبيب امينوفيس الرابع الذى دفن فيه من جديد فى عهد توت عنخ آمون نظرا لتعرض المدفن للدمار . ولكن لماذا اذن كانت الرفاة تعود الى سمنحكار ؟ لقد برهن بيريبلكين بصورة قاطعة على ان جثة امينوفيس الرابع كانت ترقد فى القبر اثناء الدفن ثم استبدلت هذه المومياء بمومياء فرعون آخر من نفس الاسرة الحاكمة لكى تمحى نهائيا حتى ذكرى هذا الفرعون المصلح

ولكن ابحاث العالم السوفييتى لم تنته عند ذلك .

فبعد نشر كمية ضخمة من المواد الجديدة التى تم العثور عليها فى طيبة وهرموبوليس ظهرت امكانية تفسير الدور الذى كانت تلعبه «حبيبة» اخناتون كييا والبحث بصورة اعمق فى مسألة تعاقب جيل الفراعنة الذين جاؤوا بعد موت اخناتون .

لقد تسنى للعالم السوفييتى البرهان على ان اشهر اللوحات المعروفة التى تصور الفرعونين والتى كانت تعزى الى امينوفيس الرابع وسمنحكار (الذى كان يعتقد انه كان مشاركا لامينوفيس فى الحكم) تعود فى الواقع الى اخناتون وحبيبته كييا . وقد عمل الفنانون بشتى الوسائل على اخفاء جمالها الخلاب وانوثتها الفتّانة فصوروها كفرعون ثان . ولكن هذه «الحيلة» لم تغب عن نظر البروفسور بيريبلكين الثاقب . فقد برهن على ان سمنحكار لم يحكم ابدا فى عهد المصلح اخناتون ولم يتبوأ العرش الا بعد موته وكان يحكم بشكل مستقل . اما بالنسبة لذكر اسمى الفرعونين معا فان ذلك جاء ، على ما يبدو ، كبادرة احترام وتقدير من قبل سمنحكار لسلفه المعبود .

وقد استطاع بيريبلكين لاول مرة فى تاريخ علم المصرويات اعادة انشاء المنظومة الكاملة لالقاب سمنحكار وبين عن طريق ذلك ان العديد من الآثار الهامة تعود اليه بالذات بينما كانت تعزى فى السابق الى مالك آخر (ومنها ، مثلا ، منشآت بشكل مصليات بسيطة فى مدفن توت عنخ آمون) . وان الكتابات المنقوشة على هذه الآثار تكشف النقاب عن التصورات الدينية السائدة فى

البلاط الملكى اثناء المرحلة الانتقالية . ولا يظهر سمنحكار من عبدة الشمس الا فى بعض الصور ، بينما يلاحظ منذ السنوات الاولى لاعتلائه العرش احياء التصورات الدينية القديمة . اما افكار «عبادة الشمس» فتتحول الى مجرد رواسب للماضى

ويمثل عصر سمنحكار فى الواقع تخليا واضحا عن الافكار التى جاءت بها اصلاحات اخناتون ، وارتدادا عن «مذهب الشمس» وعودة الى تقديس الآلهة المتعددة .

ان الدراسات التى قام بها عالم المصريات السوفييتى قد ساعدت كذلك على توضيح دور كيبا — غريمة زوجة اخناتون نفرتيتى التى لا تزال حتى اليوم تدهشنا بجمالها الرائع . والمعروف ان نفرتيتى كانت قد حافظت على وضعها كملكة حتى وفاة زوجها . ولكن مشاعر اخناتون نحو عشيقته كانت اقوى . وقد انتقل اليها احد رموز السلطة الفرعونية وهو الاكليل الازرق ومع ذلك فان الايام «الذهبية» لكيبا لم تدم طويلا ، اذ ان فرعون ما لبث ان هجرها . وعلى اثر ذلك احدثت تعديلات فى الانصاب المبنية تكريما لها لتكون من اجل ابنة اخناتون ونفرتيتى

ان الاستنتاجات الجديدة ، التى توصل اليها العالم السوفييتى خلال دراسته لاحدى المراحل الاساسية فى تاريخ مصر القديمة ، تتجاوز نطاق الابحاث المصروية الصرفة لا نها تشمل مجموعة كاملة من قضايا النظام الاجتماعى والحكومى والدين والسياسة وان اهميتها

اضخم بكثير حيث انها اظهرت بوضوح مكانة عصر اخناتون فى تاريخ الشرق القديم اجمالا ، وقد دخلت مجال العلم المصادر الادبية والنقوش المختلفة التى درست بدقة وامعان

لقد كان تلميذ طورايیف وستروفه الاكاديمى ميخائيل كوروستوفتسيف واحدا من افضل علماء العالم المختصين فى لغة وكتابة وديانة وحضارة مصر القديمة ، ادخل الى البحث العلمى مجموعة من الآثار الادبية والتاريخية الفريدة لمصر القديمة وترجمها بنفسه للمرة الاولى الى اللغة الروسية . ويعود له شرف نشر ودراسة سفر البردى المصرى الكهنوتى رقم ١٢٠ المحفوظ فى متحف بوشكين الحكومى للفنون التشكيلية فى موسكو ، الذى يتضمن قصة المدعو اون ــ آمون حول رحلته الى مدينة جبيل * . وكان ورق البردى هذا قد وصل الى المتحف مع مجموعة كاملة من الآثار المصرية القديمة التى جمعها غولينشيف . وقد برهن كوروستوفتسيف على نحو ساطع ان هذا الاثر ، الذى يعود الى عصر المملكة الجديدة ، ليس نصا فولكلوريا وانما يمكن ارجاعه الى الوثائق التى تصف وصفا صادقا الوضع فى ذلك العصر . ولدى دراسة النظرة الدينية البارزة ، التى تتخلل هذا الاثر الكتابى كله والتى تعود بالتأكيد الى طيبة ، توصل العالم الى استنتاج مفاده

---

* ميخائيل كوروستوفتسيف . «رحلة اون ــ آمون الى جبيل» . سلسلة الآثار الادبية لشعوب الشرق . موسكو ، ١٩٦٠ .

ان هذه النزعة المتميزة لا تعرض للشك ابدا القيمة التاريخية لهذه الوثيقة بمجملها والتى تلقى الضوء على العلاقات السياسية والتجارية بين مصر وسورية .

وبعد دراسة وتحليل الشكل الذى كتب فى اطاره هذا الاثر اتضح لكوروستوفتسيف ان هذا النص يمثل تقريرا حقيقيا حرر على نسخة واحدة وهو الامر الذى لم يكن من الممكن توقعه لو كنا نتعامل مع نص ادبى . ان اهمية هذا النص كمصدر تاريخى لا يرقى اليها الشك . فهو يصف علاقات مصر مع البلدان الواقعة على الساحل الشرقى للبحر الابيض المتوسط قبل ان تكتب «الاوديسا» .

فى عام ١٩٦٢ صدر كتاب كوروستوفتسيف القيم «الكتبة فى مصر القديمة» . وقد تسنى للعالم ان يبرهن على ان كلمة «كاتب» فى اللغة المصرية لم تكن تعنى فقط الناسخ المحترف او المترجم وانما اكتسبت مدلولا اشمل واعم وهو الانسان «المتعلم» . وكان الكتبة يشكلون عموما جهازا بيروقراطيا ضخما يتمتع بامتيازات كافية ويمارس ، فى الدرجة الاولى ، الاعمال الادارية والاقتصادية رغم انه كان يتشكل من ممثلى كافة فئات السكان . وضمن هذه الفئة «المثقفة» القديمة برز أُناس موهوبون اصبحوا فيما بعد ادباء وعلماء ، وكان هؤلاء ، فى الواقع ، مؤسسى الادب المصرى

ويعالج الكتاب بمنحى جديد مسائل عديدة مثل تأثير الحضارة المصرية على العالم المحيط (بما فى ذلك تأثيرها على الحضارة الاغريقية) ، ومؤلفات الكتبة والتعليم

والمدارس ، ودور شخصية مؤلف الآثار الادبية فى تاريخ الحضارة المصرية الخ .

ووضع كوروستوفتسيف مجموعة كاملة من الاعمال المكرسة للغة المصرية القديمة . ففى عام ١٩٦٣ كتب دراسة كشف فيها مختلف المراحل التى مرت بها هذه اللغة فى مسيرة تطورها وبيّن ارتباطها باللغات الليبية — البربرية والكوشية . وقد ادلى المؤلف اهتماما خاصا بتطور الكتابة الهيروغليفية حتى العصر اليونانى — الرومانى .

ولكن الشهرة الاوسع لكوروستوفتسيف كخبير ضليع فى اللغة المصرية جاءت بعد صدور كتابه الاساسى «قواعد اللغة المصرية الحديثة» * باللغة الفرنسية فى موسكو عام ١٩٧٢ . ومما لا ريب فيه ان اللغة المصرية الحديثة تشغل مكانا مستقلا فى التاريخ الطويل لتطور اللغة المصرية . واذا كانت المصرية الكلاسيكية — المتوسطة قد درست كافية الى حد ما (هناك كتاب القواعد الرائع الذى وضعه العالم الانجليزى المعروف غاردينير) فان اللغة المصرية الحديثة كانت تخسر فى هذا الخصوص بالتأكيد .

لقد اظهر المؤلف بجلاء الاختلاف القائم بين قواعد اللغة المصرية الحديثة واللغة المصرية المتوسطة فأشار الى بعض الاستنتاجات الخاطئة ، التى قام بها العديد من علماء المصرويات الكبار بما فى ذلك العالم المصروى الشهير زيتيه ، واكد على ان الفرق الاساسى بين هاتين

* Korostovtsev. Grammaire de Néo-Egyptien. M., 1973.

اللغتين يكمن فى البنية التحليلية للمصرية الحديثة اى فى رجحان العناصر التحليلية فى اللغة المصرية الحديثة .

وكانت اللغة المصرية الحديثة قد اتخذت صيغتها النهائية اثناء حكم السلالة التاسعة عشرة وبقيت سائدة حتى السلالة الرابعة والعشرين (القرون ١٤ — ٨ ق . م .) ومع ان عناصرها بدأت فى الظهور قبل هذا الوقت بكثير فليس هناك ما يبرر ارجاع نصوص العمارنة الى قواعد اللغة المصرية الحديثة ، كما قام بذلك عالم مصروى بارز مثل اريمان ، نظرا لانه يمكننا بوضوح تام ان نلمس فى هذه النصوص المصرية الكلاسيكية باستثناء بعض العناصر الهامة من اللغة المصرية الحديثة . ويذهب كوروستوفتسيف الى ان هذه العناصر قد ظهرت حتى قبل الفترة التى كانت تحدد حتى الآن (فى نصوص مدفن فاخيرى فى الكعبة الذى عاش خلال فترة حكم تحوتمس الاول) . وتمثل نصوص العمارنة مرحلة انتقالية من اللغة المصرية المتوسطة الى اللغة المصرية الحديثة . وكانت اصلاحات اخناتون قد مست جوانب هامة جدا من الحياة الاجتماعية والثقافية للمجتمع المصرى واحيت اللغة المصرية الحديثة بعد ان ازاحت من طريقها اللغة السابقة . واصبحت اللغة المصرية الحديثة اللغة الرسمية لعصر الاصلاح .

لقد طرح العالم السوفييتى خصيصا مسألة هامة جدا مثل منشأ اللغة المصرية الحديثة . وان تناول كوروستوفتسيف لهذه المسألة يفتح طرقا جديدة لحلها فهو يربطها بمشكلة وجود اللهجات فى اللغة المصرية مبينا الاختلافات

الجوهرية القائمة بين لغة سكان الدلتا ولغة اهالى جزيرة الفنتين .

وضمن نطاق اهتمامات كوروستوفتسيف دخلت ايضا قضايا الديانة المصرية القديمة . ففى هذا الميدان وضع العالم دراسة شاملة فريدة من نوعها باللغة الروسية حول ديانة المصريين القدماء تحت عنوان «ديانة مصر القديمة» . ويتسم هذا العمل بالاصالة من حيث الاستنتاجات ويتميز بمستوى علمى رفيع وتحليل رائع للنصوص . وقد ادخل الكثير من الامور الجديدة على علم المصرويات العالمى . ويتناول الكتاب بالبحث مختلف اوجه المعتقدات الدينية عند المصريين القدماء مثل عبادة الرقي والطوطمية واللاهوت والكونيات والتصورات حول الحياة الآخرة الخ . لكن كوروستوفتسيف لا يتوقف عند ذلك بل يتطرق ايضا الى المسائل العامة . ويؤكد المؤلف على ان نشوء الاديان هو عملية تاريخية وان الدين ذاته (وفى هذه الحالة الديانة المصرية) هو بناء فوقى ايديولوجى يرتفع فوق القاعدة المادية للمجتمع ، الا انه يكتسب بعد ظهوره نوعا من الاستقلالية تجاه البناء التحتى . ولدى تناوله للاشكال الملموسة لقيام الديانة المصرية وتطورها يعالج كوروستوفتسيف مسائل هامة للغاية تتعلق باصل الديانة المصرية القديمة وجذورها .

وهنا يبيّن المؤلف انه لم تكن فى مصر ابدا عقائد دينية واحدة لكل البلد ، «فقد كانت الديانة المصرية تمثل ظاهرة معقدة جدا تتجلى فى الجمع بين معتقدات

متناقضة غالبا ومتعارضة احيانا وقائمة فى اوقات مختلفة وفى شتى انحاء البلاد»* .

وثمة عالم سوفييتى آخر كرس اعماله ايضا لدراسة اللغة المصرية دراسة عميقة وهو الباحث المعروف بتروفسكى (١٩٢٣ — ١٩٨١) ، الذى يعود اليه الفضل فى وضع اول كتاب تعليمى للغة المصرية القديمة باللغة الروسية . وقد جاء هذا الكتاب كدراسة منهجية موجزة لقواعد اللغة المصرية المتوسطة . ومع ذلك فان المؤلف لم يأخذ فيه بعين الاعتبار منجزات العلماء الغربيين فى حل هذه او تلك من قضايا اللغة المصرية القديمة فحسب بل ويعرض نتائج مشاهداته وملاحظاته الخاصة ودراسته الدقيقة والصعبة . وتتخلل الاستنتاجات الاصيلة والجديدة عمليا كل فصول الكتاب . وقد نجح البروفسور بتروفسكى للمرة الاولى فى المصرويات العالمية فى عرض وتفسير ظواهر اللغة المصرية العويصة مثل التركيبات المعقدة لاسم المفعول وصيغة اسم الموصول .

وتتسم اعمال بتروفسكى كباحث متخصص فى اللغات بالنفاذ الى جوهر الظواهر النحوية من مواقع الدراسات اللغوية العامة الامر الذى ساعده على ان يحل لاول مرة فى الادبيات المصروية بعض المسائل ذات الطابع النظرى العام وخاصة القضايا المتعلقة بمفردات اللغة المصرية القديمة .

---

* كوروستوفتسيف . ديانة مصر القديمة . موسكو ، ١٩٧٦ ، ص ٨ .

ونجد عند بتروفسكى على الدوام صياغة واضحة لشروحات مختلف الظواهر النحوية سواء فى ميدان علم الصرف او فى مجال النحو . وعلى سبيل المثال حدد المؤلف خمس «حالات» للفعل فى اللغة المصرية المتوسطة (وهو الذى ادخل هذا المصطلح — «حالة» الى المصرويات) .

ان العمل الدائب المتواصل مع النصوص قد ادى الى تأليف كتاب اساسى آخر بعنوان «تراكيب الكلمات فى اللغة المصرية» (عام ١٩٧٠) ، حيث عالج المؤلف كمية ضخمة من الآثار الكتابية التى وصلتنا والتى تتيح تقصى وتتبع تطور اللغة المصرية على مدى عدة آلاف من السنين . ومع ان الاستيعاب النظرى للمادة قد انعكس فى كتب القواعد العامة او الابحاث المتعلقة بالمسائل الخاصة للنحو والصرف فاننا غالبا ما نلحظ فى الدراسات المصروية تأثير التناول التقليدى للنحو فى اللغة المصرية الذى يقتصر عادة على دراسة الجملة . وادى الموقف التقليدى فى هذه الحالة الى ظاهرة غير مألوفة ومليئة بالمفارقات ، اذ ان الوثائق المدونة الجديدة التى استخدمت فى البحث العلمى حتى فترة قريبة لم توسع من المعارف فى مجال دراسة تركيب الجملة . ولذلك فان الكشف عن الطريقة التى استطاعت اللغة المصرية بواسطتها ان تعكس العديد من ظواهر العالم الموضوعى لم يتعلق فقط بالتعبير عن هذه الظواهر فى الكلمة والجملة بل ارتبط كذلك بامكانية توافق الكلمات وتمازجها ضمن الجملة .

وعلى هذا النحو فان المهمة الاساسية للعمل المذكور

تكمن فى بحث ودراسة قوانين ترابط الكلمات استنادا الى مادة ملموسة وهى الآثار الكتابية المدونة باللغتين المصريتين القديمة والمتوسطة . وقد اظهرت الدراسة الدقيقة لهذه المادة ان اللغة المصرية تتمتع بقدرة كافية على التعبير عن العلاقات النحوية والمعانى المعجمية عن طريق جمع الكلمات وتراكيبها .

لكن دراسة امكانية ارتباط الكلمات تخرج عن هذه الاطر الضيقة . فهى تساعد المؤرخين فى تحديد تاريخ النصوص على ضوء التبدلات والتعديلات التى طرأت على نظام ترابط الكلمات خلال المراحل المتعاقبة فى تطور اللغة المصرية .

فى عام ١٩٧٨ صدر كتاب آخر لبتروفسكى بعنوان «الرموز الصوتية للكتابة المصرية كمنظومة» . وعلى اساس دراسة كمية ضخمة من الآثار الكتابية واستنادا الى منجزات التناول المنظومى المعاصر يقوم المؤلف بالاجابة على السؤال التالى : هل كانت مئات الرموز الصوتية فى اللغة المصرية القديمة مجرد حشد عرضى للالفاظ المدونة او انها كانت تشكل منظومة معينة ؟ لقد وجد بتروفسكى ترتيبا صارما ودقيقا فى تنظيم الرموز الصوتية . وان كتابه الذى وضعه فى اسلوب حى وممتع وواضح يكشف للقارئ أسس الكتابة المصرية ويبين كيف كانت الرموز الصوتية تعبر عن الالفاظ ويقوم بتصنيفها وفى محصلة الدراسة يتوصل المؤلف الى ضرورة النظر الى نظام الكتابة المصرية كنظـــــام كونسونانتـى ــــ مورفيمى ــــ ايديوغرافى

وللاسف حالت وفاة المؤلف العاجلة دون اتمام دراسته فى هذا الميدان . لكن تلاميذه تابعوا عمله وعالجوا بنجاح قضايا نشوء اللغة المصرية وتطورها . وبين علماء المصرويات الذين ينتسبون الى «الجيل الفتى» ينبغى الاشارة بشكل خاص الى بيرليوف وبوغوسلوفسكى .

ويعود لبيرليوف عملان اساسيان تجرى فيهما دراسة بنية المجتمع المصرى القديم فى عصر المملكة الوسطى وهما «الفئات الكادحة فى مصر فى عصر المملكة الوسطى» (١٩٧٢) و«العلاقات الاجتماعية فى مصر فى عهد المملكة الوسطى» (١٩٧٣) . والمعروف انه وصلتنا من هذه المرحلة المتناقضة جدا والحافلة بالاحداث المختلفة كمية ضخمة من المصادر . وقد تسنى للمؤلف عمليا جمعها كلها ودراستها بدقة وتمعن .

وعلى طريق حل المهمة المطروحة يمتاز عصر المملكة الوسطى عن العصور الاخرى بكونه ينوه فى مصادره فى حالات اكثر وبصورة بارزة بمنتجى الخيرات المادية وقد درس بيرليوف دراسة شاملة فئة «عبيد الملـــوك» وبرهن على انها تشمل سكان المناطق الزراعية والعاملين فى المزارع الخاصة وفى ممتلكات المعابد والقصور . ويستخدم عالم المصرويات السوفييتى بصورة كاملة وللمرة الاولى على الارجح منهج دراسة المصطلحات الذى اعطى فى هذه الحالة نتائج رائعة . وقد استطاع ان يرسم لوحة واضحة ودقيقة لبنية المجتمع المصرى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية حيث كان العديد من علماء المصرويات

يجدون انفسهم فى حالة عجز تام نظرا لاعتقادهم بعدم كفاية المعلومات التى تتضمنها المصادر .

وبفضل الدراسة المفصَّلة للفئة الاجتماعية المذكورة آنفا توصل بيرليوف للمرة الاولى فى علم المصرويات الى استنتاج مفاده ان «عبيد الملـك» مصطلح رسمى دقيق ذو طابع تعميمى لم يكن يستخدم فى الحياة اليومية الا فى حالات نادرة نسبيا حيث كان ممثلو الطبقة العليا يؤثرون الاشارة الى تلك الفئة اما بتسميات مهنية ملموسة او بتعميمات متخصصة او بتسميات ذات طابع غير رسمى مثل «الافراد» و«الرؤوس»

لقد تناول المؤلف بالبحث الدقيق التسميات الاخيرة وكذلك التسميات المميزة لمهـن «عبيد الملـك» التى كانت ، فى اكثر الاحيان ، تقوم مقام المصطلح الاساسى فى الوثائق والشروحات المرفقة بصور والمؤلفات الادبية .

وضمن اعمال بوغوسلوفسكى تجدر الاشارة الى كتاب «خدم الفراعنة والآلهة والاغنياء (حول التاريخ الاجتماعى لمصر فى القرون ١٦ — ١٤ ق . م .)» الذى يتطرق الى بعض قضايا التاريخ الاجتماعى — الاقتصادى والثقافى لمصر القديمة بصدد عبارة «مطيع النداء» المستخدمة كثيرا والتى ظهرت منذ بداية السلالة الثالثة عشرة . واستنادا الى دراسة الشواهد الكتابية التى يرد فيها ذكر هذه العبارة من عصر السلالة الثامنة عشرة تسنى للمؤلف الكشف عن المضمون الملموس لهذا المفهوم بالنسبة لمختلف انواع الاستثمارات (الخاصة والدينية والملكية) .

وعلى اساس تحديد اشكال كتابة هذا المصطلح سواء العادية منها او غير المنتظمة يسعى المؤلف الى تتبع ورصد تطوره خلال فترة السلالة الثامنة عشرة واظهار اماكن انتشار هذه الكتابات او تلك ، اذ من شأن ذلك ان يتيح تعيين تاريخ ومكان الآثار القديمة غير المؤرخة او الآثار المكتشفة حديثا على حد سواء .

وللهدف ذاته يدرس بوغوسلوفسكى فن «الايقونوغرافيا» الذى كان بوسعه ان يحتفظ بتفاصيل خاصة مميزة لتصوير «مطيعى النداء» (ومن شأن ذلك ان يساعد على تمييز فئة «مطيعى النداء» فى الآثار الخالية من التعليقات) .

ان تحديد علاقة مفهوم «مطيع النداء» بالمفاهيم الاخرى وبالقاب المناصب الملموسة ووظائفها قد ساهم مساهمة كبيرة فى دراسة تاريخ مصر الاجتماعى والاقتصادى حيث غالبا ما تنعت مجموعات كاملة من السكان التابعين بـ«مطيعى النداء» الى جانب كبار الموظفين . فمن كان بوسعه ان يصبح سيدا ومن كان يبقى «مطيعا للنداء» وما هى شروط ذلك ؟

ويستنتج بوغوسلوفسكى ان مفهوم «مطيع النداء» لم يكن مصطلحا اجتماعيا ــ اقتصاديا وانما كان فى صيغته العامة يعكس معادلة «السيد ــ الخادم» . وان هذا المفهوم رغم زخمه الاجتماعى كان مبهما وغامضا جدا فى المعنى الاقتصادى . فمن جهة كان يدل فى الغالب على العلاقات غير الاقتصادية ، ومن جهة اخرى كان يعكس ضبابية التفكير الاجتماعى عند المصريين فى ذلك العصر .

ان حل هذه المسائل يساعدنا على بناء تصور حول تاريخ مصر الاجتماعى ـــ الاقتصادى فى قمة ازدهارها العسكرى والسياسى عندما كانت حدودها تمتد من الفرات وحتى اواسط افريقيا .

وفى كتابه الآخر «الصناع المهرة فى مصر القديمة» (١٩٨٣) يتابع بوغوسلوفسكى دراسة المجتمع المصرى القديم استنادا الى دراسة مصادر عصر المملكة الجديدة حيث يقوم على نحو دقيق بتعميم وتبويب وتنظيم المعلومات المتعلقة بالفنانين والنحاتين والمزخرفين وممثلى المهن والحرف الاخرى . وقد سجل المؤلف ١٩ الفا من النصوص المصرية القديمة .

ولدى مقارنة قائمة المهن والوظائف استطاع المؤلف البرهان على ان التطور الاجتماعى الذى جرى على تخوم حكم السلالتين التاسعة عشرة والعشرين والذى ادى الى بروز الصناع المهرة من وسط الحرفيين اقترن باعادة تشكيل الملاك الوظيفى لهذه الفئات الاجتماعية . وعلى سبيل المثال نجد ان النحاسين الذين كانوا حتى نهاية السلالة التاسعة عشرة يدخلون فى عداد الصناع المهرة يتحولون فى اوائل السلالة العشرين الى فئة الحرفيين . وعلى هذا النحو كانت تجرى عملية التوسيع التدريجى لقوام الحرفيين المهنى على حساب ضم وظائف جديدة الى عدادهم كانت تعتبر فى السابق من المهن الماهرة . وفى هذا الوقت بالذات برز خط آخر ، اذ بدأ يلوح بوضوح انفصال النشاط الابداعى عن العمل الجسدى . فبينما كان اى

فنان فى السابق يعتبر ، قبل كل شىء ، من الحرفيين شهد منتصف حكم السلالة العشرين عملية فصل المهن الابداعية عن الاعمال الحرفية

واستنادا الى تحليل عدد ضخم من النصوص بيّن بوغوسلوفسكى ان احدى وظائف السلطة المركزية فى مصر القديمة كانت تكمن فى اعادة توزيع الاحتياط الاساسى من القوة العاملة اثناء التفقد الحكومى العام للمنتجين المباشرين فى نطاق اهم — الفتيان والشباب والبالغين والشيوخ . وقد كشف بوغوسلوفسكى عن جوهر اختلاف الوظائف الانتاجية لشتى فئات الاعمار . ومن استنتاجاته الهامة ان وظيفة الاب لا يمكن ان تنتقل الى الابن بدون تعيين خاص وبالتالى لم تكن ملكية خاصة وكانت الدولة فى شخص فرعون تقدم للافراد المعينين فى الوظائف ممتلكات مشتركة غير قابلة للتقسيم يحق لكل فرد من المجموعة استثمارها . وفضلا عن ذلك كانت لدى الموظفين والصناع ملكية خاصة تشمل سواء الاملاك المنقولة او غير المنقولة .

وقد اظهر بوغوسلوفسكى ايضا عدم التجانس القائم داخل مجموعة الحرفيين حيث ان المستخدمين الاداريين من المراتب الدنيا (النُظّار والخُزّان والحُرّاس و«البوابون») ، الذين ادخلوا فى عداد الحرفيين على تخوم السلالتين التاسعة عشرة والعشرين ، كانوا يشكلون جزءا له امتيازاته الخاصة . ومما لا شك فيه ان الحرفيين العاديين كانوا اقل حقوقا من الاسطوات (فمثلا لم تسجل حالات

مشاركة هؤلاء الحرفيين فى المحاكم باستثناء اصحاب الامتيازات منهم) . ولقد كان الاسطوات يستغلـــون الحرفيين العاديين سواء بالطرق الاقتصادية او غير الاقتصادية . لكن الاشكال المختلفة للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية لم تكن تؤدى بعد الى انضمام الاسطوات الى الطبقة الاستغلالية نظرا لانهم ظلوا فى مكان عملهم الاساسى كشغيلة مباشرين ولم يستخدموا فى عملهم الحرفيين التابعين لهم . وحاول الاسطوات فى سياق نضالهم من اجل الاستقلال عن سلطة الدولة ان يجعلوا حوزتهم الوظيفية مورّثة لكى يرسوا على هذا النحو الاساس المادى لاستقلالهم الشخصى . وكانت الدولة ترد على هذه المحاولات بتحويل جماعى لبعض مهن الاسطوات الى فئة الحرفيين العاديين مما ادى فى نهاية المطاف الى تبسيط النظام الاجتماعى .

ان الاستنتاج الاساسى الذى قام به العالم السوفييتى منطقى وطبيعى . فالمجتمع المصرى لم يراوح فى مكانه ، وانما كان يقوم بالتنظيم الذاتى دوما مبدلا بنيته الاجتماعية .

لقد كانت معالجة قضايا تاريخ السودان القديم وحضارته من اهم منجزات المدرسة المصروية السوفييتية . وينبغى الاشارة هنا بشكل خاص الى اعمال كاتسنيلسون (١٩١٠ — ١٩٨١) . ومن ابرز هذه الاعمال كتاب «ناباتا وميروئى — مملكتان قديمتان فى السودان» (١٩٧٠) المكرس لدراسة دول السودان القديمة . وليس من قبيل المبالغة القول بانه تسنى للمؤلف وللمرة الاولى فى العالم ان يستعيد فى الواقع تاريخ هاتين المملكتين القائمتين فى اراضى

السودان المعاصر فى الفترة الواقعة من القرن الثامن ق . م . حتى منتصف القرن الرابع الميلادى .

واستنادا الى مواد الآثار الكتابية واعمال المؤلفين القدماء وآثار الحضارة المادية تمكن كاتسنيلسون من وصف تاريخهما السياسى واعطاء صورة واضحة عن اقتصادهما ونظامهما الحكومى وقد دحض العالم بحزم تعريف النظام الحكومى فى ناباتا وميروئى كنظام ثيوقراطى يديره رجال الدين . فرغم ان الكهنة كانوا يتمتعون هنا بنفوذ كبير ، فان ذلك كان مجرد قواعد واعراف بقيت كرواسب للنظام العشائرى ــ القبلى ولم يكن لها سوى تشابه خارجى مع شكل الحكم المذكور . ويرى هنا العالم المعروف ان المملكتين القديمتين فى السودان كانتا ، بلا شك ، استبداديتين عبوديتين مبكرتين .

كما تسنى لكاتسنيلسون ايضا دحض التصور الخاطئ عن الحضارة الميروئية بوصفها تقليدا لمصر القديمة لم تعط للعالم شيئا ولم تتمتع بأهميه مستقلة . ويؤكد الباحث ان المملكة الميروئية لم تكن لها حضارتها الخاصة الاصيلة فحسب بل ومارست ايضا تأثيرا اكيدا على افكار افريقيا وحضارتها المادية . كما تمكن العالم من البرهان على خطأ وجهتى نظر متطرفتين : فمن جهة ــ المزاعم القائلة بأن حضارة مصر القديمة جاءت بصورة كاملة من اهالى القارة السود ، ومن جهة اخرى ــ الاعتقاد بان القبائل الافريقية مدينة بعاداتها ومعتقداتها وحضارتها الى مصر .

وعلى العموم فان مساهمة العلماء السوفييت فى تطوير

علم المصرويات كبيرة جدا رغم انه لا تزال هناك العديد من مسائل تاريخ هذا البلد وحضارته التى تنتظر منهم حلها . وقد ارتسمت فى الآونة الاخيرة تطورات ملحوظة خصوصا فى دراسة التاريخ الاقتصادى لمصر والسودان وحضارتهما

الفصل الرابع

تل مرديخ — ايبلا القديمة

المؤلف: كلوتشكوف
ترجمة: د. جابر ابي جابر

ان سجل الحفريات الاثرية فى الشرق الادنى حافل بالعديد من المفاجآت المثيرة . ولا يمكن لعلم الشرق القديم ان يشكو عموما من نقص الاهتمام الذى يبديه نحوه الجمهور الواسع . وقد سارت الامور على هذا النحو منذ زمن طويل حيث ان بواكير التحف الشرقية القديمة الغريبة التى وصلت الى اوروبا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر لفتت اليها انظار ليس فقط هواة التحف والعلماء — المستشرقين القلائل فى ذلك الوقت . ففى مطلع القرن التاسع عشر ازدانت عدة عواصم اوروبية (باريس ، لندن ، بطرسبورغ) بالآثار المصرية القديمة كالمسلات وتماثيل الاسود ذات الرؤوس البشرية . وقد اثار فك رموز الكتابة الهيروغليفية المصرية من قبل العالم الفرنسى فرانسوا شامبوليون جدالا حارا فى الاوساط العلمية والادبية . كما تتبعت هذه الاوساط باهتمام بالغ سير العمل على فك رموز الكتابة المسمارية الفارسية والآشورية — البابلية . وان اللقايا التى عثر عليها بوتا وليارد فى منتصف القرن الماضى داخل انقاض المدن الآشورية قد لفتت انتباه كافة الاوساط المثقفة فى اوروبا . ومنذ ذلك الوقت بدأ الركض وراء التحف الشرقية القديمة

والتهافت عليها . وكانت متاحف العالم الكبرى لا تبخس بالنفقات مفتخرة كل الفخر باقتناء مجموعات لائقة من الآثار المصرية او آثار الرافدين كما لو ان مستوى رقى بلدهم بل وحتى سمعته السياسية متعلقان بهذا الامر . وفى العشرينات والثلاثينات من القرن الحالى احدث اصداء واسعة اكتشاف بعثة السير ليونارد فولى للمدافن الملكية فى مدينة اور الكلدانية وعثور هوارد كارتر على مدفن الفرعون توت عنخ آمون بمصر الذى لم تمتد اليه يد العبث . وكانت الصحف والمجلات الرئيسية تتنافس فى الحصول على المعلومات المتعلقة بآخر تطورات البحوث الاثرية مباشرة من مواقع الحفريات وتنشر هذه الاخبار فى صفحاتها الاولى . وقد اذهلت كنوز توت عنخ آمون الجمهور وشحذت خياله الى حد ان موضة الاشياء «المصرية القديمة» لم تنقطع طيلة سنوات عديدة . فقد كانت النساء تضعن ادوات الزينة التى تقلد الخنافس (الجعلان) المصرية القديمة مثل الاطواق والاساور الخ . كما كن يلبسن الاثواب المصنوعة من الاقمشة الموشحة والمزخرفة بالمشاهد المنقولة عن جدرانيات المدافن القديمة .

ان مثل هذا الاهتمام بالآثار القديمة مفهوم وطبيعى تماما . فقد كانت الكنوز الدفينة تجتذب اليها الناس فى كل الاوقات . اما ادوات الفن المصرى او فن الرافدين فتتمتع بقوة جذب خاصة حيث انها تستوى الناس وتسحرهم بطابعها المبهم وتدهشهم باشكالها الغريبة واناقتها الفريدة ، وتنكشف من خلالها احداث تاريخ البشرية القديم . واخيرا فان اعمال التنقيب عن الآثار كانت ترتبط حتما فى ذهن

الانسان العادى الساذج بالمخاطر والمغامرات الخارقة ولذلك ليس من المستغرب ابدا ان تجد اناسا بعيدين عن التاريخ والاهتمام الكبير بالفن يستمعون بفضول الى ما يروى عن الحفريات ويتطلعون بمتعة طفولية الى الاسلحة الذهبية والمجوهرات المنتشلة من القبور الملكية ويمعنون النظر فى النواويس المزخرفة والاوانى والتماثيل الصغيرة الجميلة والمنحوتات الغامضة .

ولكن فى هذه المرة لم تكن هنالك صخور عليها رسوم نافرة لمشاهدة معارك او صيد او ولائم ، ولا ثيران مجنحة مخيفة ، ولا ادوات ذهبية براقة وانما جرى الحديث عن رُقَم طينية عادية غليظة الشكل مسطرة بالاشارات المسمارية . وقد سبق ان التقطت مئات الآلاف من هذه الرقم من تلال العراق وسورية وايران والتى تحتفظ حاليا فى المتاحف والمجموعات الخاصة بجميع ارجاء العالم . وان مثل هذه الاكتشافات تمر فى اغلب الحالات دون ان تلفت انتباه الجمهور الواسع ومهما كانت درجة الاهمية العلمية للمعطيات الجديدة التى تحملها النصوص المكتشفة . ولكن التقرير الذى قرأه عالم المسماريات الايطالى جوفانى بيتيناتو فى الجمعية العلمية فى صيف عام ١٩٧٦ ثم المقالة التى نشرها فى مجلة علمية صرف حول اكتشاف وثائق مسمارية جديدة صارا فورا محط اهتمام الجميع . وقد وصلت الى وسائل الاعلام الغربية مقتطفات من هذه المقالة مشوبة بالعديد من التفسيرات الخاطئة والمغالطات فأثارت ضجة اعلامية كبيرة . وكان قد حدث ما يشبه ذلك (ولكن

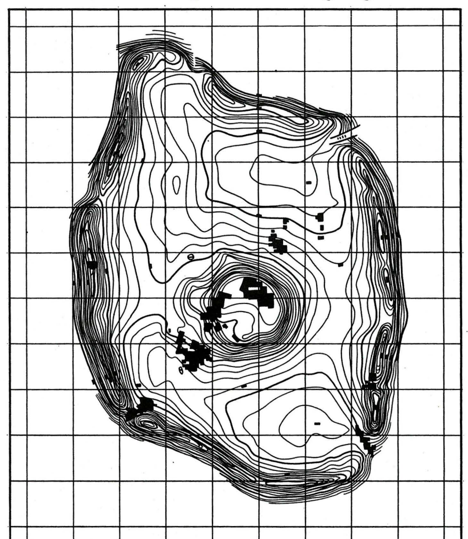
على نطاق اضيق فيما يبدو) منذ قرن من الزمن عندما نشر سميث ترجمته لملحمة الطوفان البابلية التى ظهرت قبل الرواية التوراتية بالف عام . اما الآن فالامر يتعلق باكتشاف «امبراطورية» ضخمة قامت فى آسيا الامامية خلال النصف الثانى من الالف الثالث ق . م . وكانت حتى عهد قريب مجهولة تماما بالنسبة للعلماء . واتضح ان اهالى المدينة الرئيسية لهذه «الامبراطورية» كانوا يتكلمون باللغة «الكنعانية القديمة» التى تعتبر «سلف» اللغتين الفينيقية والعبريـــة القديمة . وضمن الارباب الذين كانوا يعبدونها كان الرب ياوم يشغل مكانا خاصا . كما تبين ان احد ملوك المملكة المكتشفة حديثا كان يدعي ايبريوم مما حدا ببعض العلماء الى مقارنته بجد الساميين «عبر» . وتصادف فى النصوص اسماء اعلام مثل دا ـــ اوـــ دو (داوود) وميكائيل واشرائيل واشماعيل وهلمجرا وكذلك تسميات العديد من المدن الفلسطينية وحتى مدينتى سدوم وعمورة . ولذلك ليس غريبا على الاطلاق ان العثور على مثل هذا الارشيف من الوثائق المسمارية قد اثار نقاشات عنيفة فى محافل العلماء والقاويل وتقديرات خاطئة فى اوساط غير المختصين . ولكن هذه الضجة لحسن الحظ سرعان ما تلاشت حيث فترت الرؤوس الحامية وسقطت من تلقاء نفسها الاستنتاجات المتطرفة والمرتجلة التى طرحت فى وطيس الجدل العلمى . وتابع المنقبون حفرياتهم واستمر المختصون فى الكتابات المسمارية بدراسة ومعالجة النصوص وفك رموزها بدقة وتمعن دون التسرع باعطاء حلول وتفسيرات قاطعة . فما هى اذن

الاسباب التى دعت الى ظهور مثل هذه العاصفة من الآراء الجامحة ، ما الذى كان صحيحا فى مقالات الصحف والمجلات وما الذى كان مفتعلا وباطلا ؟

فى منتصف الطريق تقريبا بين المدينتين السوريتين حلب وحماه وعلى بعد كيلومترين من الطريق العام المزدحم تنتصب هضبة كبيرة تسمى تل مرديخ . ومن المعروف منذ فترة طويلة ان مثل هذه التلال تضم فى ثناياها انقاض المستوطنات القديمة . وفى مطلع القرن الحالى قامت بعثة اثرية فرنسية بحفريات اختبارية فى موقع تل مرديخ . ولم يصادف علماء الآثار آنذاك اية مكتشفات مؤثرة وهامة فتركوا التل وشأنه حوالى ستين عاما ، اذ لم يهتم العلماء به من جديد الا فى خريف عام ١٩٦٣ حين بدأت البعثة الايطالية الاثرية اعمالها فى سورية . وكان البرنامج العلمى الواسع الذى وضعته البعثة يهدف الى دراسة حضارات المدن السورية القديمة . وقد قام افراد البعثة بعملية استطلاع ميدانية تفقدوا خلالها العديد من التلال المنتشرة بين حلب وادلب وحماه ثم وقع اختيارهم على تل مرديخ وتل آفيس حيث بدا لهم ان هذين التلين بالذات اكثر وعدا بالنسبة لدراسة تاريخ ظهور المدن السورية الاولى وعلاقاتها مع مراكز حضارة الرافدين . وفى عام ١٩٦٤ بدأت بعثة جامعة روما اعمال التنقيب الاثرى فى موقع تل مرديخ برئاسة عالم الآثار الشاب باولو ماتييه .

وقد انصب اهتمام البعثة خلال مواسم الحفريات الاولى على التنقيب التمهيدى للموقع الاثرى ودراسة المستوطنات الصغيرة القديمة التى ترقد قربه . ويحتل التل

مخطط تل مرديخ (البقع السوداء تشير الى مواقع الحفريات الاثرية)



مساحة قدرها ٥٦ هكتارا (١٤٠ فدانا) ويتجاوز ارتفاعه فى بعض الاماكن ١٥ مترا . وتعذر هنا ، بالطبع ، الحديث عن حفر كامل لموقع بمثل هذه الابعاد ، ولذلك لزم وضع مخطط تفصيلى للمستوطنة ودراسته بتمعن ثم تحديد مواقع الحفريات التى من شأنها ان تعطى نتائج افضل .

يتخذ تل مرديخ فى المخطط شكلا مخروطيا ترتفع

فى وسطه تلة مركزية صغيرة نسبيا ــ الاكروبول (المدينة العليا) وتنتشر حولها «المدينة السفلى» المحاطة بسور ترابى ضخم . تلاحظ فى السور اربعة منخفضات فى جهاته الاربع (فى الجنوب الغربـى ، والشمال الغربـى ، والجنوب الشرقى ، والشمال الشرقى) تدل على بوابات المدينة الاربع الضخمة . وقد قام المنقبون بحفر عدة سبور استكشافية فى اماكن مختلفة تسنى بفضلها تصور تاريخ المستوطنة فى ملامحه العامة . كما جرى على نحو دقيق تقصى ثمانى سويات اساسية . وعلى ضوء اللقى الاثرية (وخاصة الاوانى الفخارية) تبين ان اقدم سوية وهى «مرديخ ــ ١» تعود تقريبا الى الاعوام ٣٥٠٠ ــ ٣٠٠٠ ق . م . اما السوية التالية : «ما قبل السورية ــ ١» فهى تطابق الحقبة الواقعة بين الاعوام ٣٠٠٠ ــ ٢٤٠٠ ق . م . ففى تلك المرحلة كانت المستوطنة كلها تنحصر ضمن منطقة الاكروبول فقط . وفى مرحلة السوية «ما قبل السورية ــ ٢» (الاعوام ٢٤٠٠ ــ ٢٠٠٠ ق . م .) اتسعت حدود المستوطنة فامتدت خارج الاكروبول وظهرت «المدينة السفلى» . والى هذه السوية ارجع ماتييه فيما بعد القصر الملكى والارشيف المسمارى الذى اكتشف فيه . وهنا ايضا لاحظ العلماء بقايا حريقين كبيرين دمرا المدينة باكملها مرتين وحصل ذلك فى المرة الاولى حوالى عام ٢٢٥٠ ق . م . وفى المرة الثانية حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م . اما السوية السورية القديمة الاولى (٢٠٠٠ ــ ١٨٠٠ ق . م .) فهى تختلف اختلافا كبيرا عن السويات السابقة . واغلب الظن ان هذه الفترة قد شهدت تغييرا

معينا لسكان المدينة . وتأتى السوية السورية القديمة الثانية (١٨٠٠ — ١٦٠٠ ق . م .) استمرارا طبيعيا للسوية السورية القديمة الاولى وتنتهى بتدمير المدينة تدميرا نهائيا . وقد قامت فى تل مرديخ بعض المستوطنات الصغيرة خلال المرحلتين السوريتين المتوسطة (١٦٠٠ — ١٢٠٠ ق . م .) والحديثة (١٢٠٠ — ٥٣٠ ق . م .) . واثناء الاحتلال الفارسى والمرحلة الهلنستية (٥٣٠ — ٦٠ ق . م .) كانت بلدة صغيرة تقوم على المنحدر الشمالى للاكروبول .

ولدى المباشرة فى اعمال التحريات لم يكن علماء الآثار يعلمون شيئا حول المدينة التى كانت عامرة فى هذا الموقع . ولكن الوضع تبدل فى عام ١٩٦٨ عندما عثر المنقبون فى المنحدر الجنوبى الغربى للاكروبول على تمثال نصفى من البازلت يمثل جسم رجل زال رأسه مصحوبا بنقوش مسمارية مسهبة باللغة الاكادية . ورغم ان التمثال لم يكن بالتأكيد موجودا فى مكانه الاصلى بل وكان خارج السوية الاثرية لعصره فقد تسنى ، مع ذلك ، استنادا الى السمات الاسلوبية ، تحديد تاريخه بدقة كبيرة ونسبه الى الفترة المحصورة بين الاعوام ١٩٠٠ — ١٨٠٠ قبل الميلاد . وقد استطاع جوفانى بيتيناتو ، الذى اطلع على صورة للنقش المذكور (اذ ان كافة المكتشفات الاثرية ترد الى متحف حلب وتحفظ فيه) ، ان يقرأه بسرعة . ويقول النص : «تكريما للالهة عشتار قد شيد ابيت — ليم ، ابن ملك ايبلا اجريش حيبا ، حوضا للطهارة فى المعبد . وان ابيت — ليم الذى منحته هذا الاسم عشتار والذى تقع ممتلكاته فى

ايبلا نحت تمثالا من اجل حياته وحياة ابنائه وحيث ان عشتار راضية عنه جدا فقد نصب التمثال امام ربته عشتار . . .» . وهكذا اصبح واضحا ان تل مرديخ يضم فى ثناياه انقاض مدينة ايبلا القديمة وهى المدينة التى يرد ذكرها فى مصادر بلاد الرافدين والمصادر الاوغاريتية والمصرية على انه لم يتسنَّ على اساس ذلك الكشف عن مكانها رغم محاولات العلماء لربط ايبلا بشتى التلال الواقعة على ضفاف الفرات او البليخ او الخابور او العاصى وحتى فى جبال طوروس . اما الآن فقد توصل علماء الآثار اخيرا الى تحديد موقع هذه المدينة الغامضة .

للمرة الاولى يرد ذكر اسم ايبلا فى احد الرقم المسمارية (النقوش ، الكتابات) التى خلفها الملك الاكادى سرجون العظيم مؤسس السلالة الاكادية (الاعوام ٢٣٥٠ — ٢١٥٠ ق . م .) . فلدى حديثه عن حملاته نحو الغرب باتجاه شمال سورية يقول سرجون : «لقد تضرع الملك سرجون للاله دجن فى توتول فمنحه البلاد العليا — مارى ويارموتى وايبلا حتى غابة الارز والجبال الفضية» اى حتى لبنان وجبال طوروس . اما حفيده نارام — سن الذى حكم ٥٦ عاما فيذكر فى كتاباته : «هكذا يقول نارام — سن الجبار ملك جهات الارض الاربع : «لقد منحنى دجن ايبلا و ارمان واخذت اسيرا ملك ارمان رد — حدد وعندئذ نحتّ تمثالا لى ونذرته للرب سن» . وفى وقت لاحق نجد غوديا الذى كان ملكا لمدينة لكش فى جنوب الرافدين (٢١٥٠ — ٢١١٠ ق . م .) يفتخر بانه استورد من بلاد

اورشو الواقعة فى سهل ايبلا جذوع الارز والشوح والدلب وغيرها من الاشجار الجبلية . ويتردد كثيرا اسم ايبلا فى نصوص عصر سلالة اور الثالثة (٢٢١٢ — ٢٠٠٤ ق . م .) . وربما كانت ايبلا تدخل فى ذلك الحين ضمن الامبراطورية السومرية العظيمة ولكنها لم تعمر طويلا . ويأتى ذكر هذه المدينة على نحو اقل بكثير فى الوثائق البابلية والآشورية للالف الثانى قبل الميلاد . وتخبرنا احدى هذه الوثائق عن وصول ساعى الملك من ايبلا الى آشور . كما يمر ذكر ايبلا فى نصوص اوغاريت ، المدينة السورية الواقعة قرب شاطئ البحر الابيض المتوسط ، وكذلك فى احد الرقم العائدة الى القرن الثامن عشر ق . م . الذى جاءنا من مدينة الالاخ (تل عطشانة) الواقعة على ضفاف نهر العاصى حيث نجد الاشارة التاريخية التالية : «فى ذلك العام عندما اختار ملك الالاخ اميتاكو ابنة حاكم ايبلا زوجة لابنه» . كما ادرجت ايبلا فى قائمة البلدان ، التى تدفع الجزية الى مصر ، والتى نصادفها فى نقش الفرعون تحوتمس الثالث فى معبد الاله آمون بالكرنك (القرن ١٥ ق . م . وحسب تقدير زمنى آخر — القرنان ١٤ — ١٣ ق . م .) .

لقد وفق علماء الآثار توفيقا كبيرا باكتشاف تمثال ابيت — ليم ، اذ ان المدينة المجهولة الاسم التى تجرى التنقيبات فيها لم تستعد على الفور اسمها فحسب بل وحصلت كذلك ، ان صح التعبير ، على شخصيتها الفريدة وطابعها المميز وسيرتها التاريخية . واصبح العلماء يتصورون على نحو افضل ما يمكن توقعه من هذا المكان الاثرى وما ينبغى

البحث عنه هناك وما هى الجوانب التى يجب التركيز عليها . ولكن مرت ست سنوات اخرى قبل ان تأتى مساعى الباحثين بالنتائج المرجوة . وخلال هذا الوقت اكتشف فى تل مرديخ حوالى عشرين قطعة من حطامات الرقم الطينية المسمارية ، ولكنها وجدت جميعها فى حالة يرثى لها بحيث كان من المتعذر تبيان او ادراك اى شىء . وفى غضون هذه السنوات كلها كان جوفانى بيتيناتو ، عضو البعثة المتخصص فى فك رموز الكتابات المسمارية ، يتابع العمل فى المتاحف الاوروبية فى انتظار ان تزف ساعته . وفى آب (اغسطس) عام ١٩٧٤ جاءت البرقية التالية : «اكتشف ارشيف يحتوى على اربعين لوحة مسمارية . انتظرك فى سورية — باولو ماتييه» .

وفى احدى ليالى ايلول (سبتمبر) وصل جوفانى بيتيناتو الى مطار دمشق وتوجه فى الحال الى موقع الحفريات . ويحدثنا عن ذلك العالم نفسه فيقول : «فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل وجدت نفسى جالسا وراء الطاولة التى وضعت عليها امامى مباشرة الاربعين لوحة المكتشفة . واحتشد فى الجهة الاخرى من الطاولة جميع اعضاء البعثة الذين تحرقوا لهفة وشوقا لمعرفة ما الذى عثروا عليه بالضبط . وتحت انظارهم كنت اتناول اللوحة تلو الاخرى بدءا باصغرها وانتهاء باكبرها . وساد صمت مطبق لبضع دقائق ثم رفعت عينيّ ونظرت الى الجميع واعترفت بكل صراحة : «يبدو ان الكتابة شبيهة جدا بكتابات بلاد الرافدين لعصر تل الفارة ولكننى لا افهم شيئا منها على الاطلاق» . . . وبعد ذلك بعدة ايام استطاع بيتيناتو ان يتبين فى هذه اللوحات بعض

الكلمات السومرية . ولكنه عجز عن قراءة اى نص قراءة كاملة . وبعد رجوعه الى روما باشر عالم المسماريات بالدراسة المنتظمة والبحث المنهجى للوحات الايبلائية المذكورة . وفى ربيع عام ١٩٧٥ وجد الحل المناسب لهذا اللغز : ان النصوص المدونة بالخط المسمارى وضعت باحدى اللغات السامية القديمة من المجموعة الغربية — الشمالية والقريبة جدا من اللغات الاوغاريتية والفينيقية والعبرية القديمة ان لم تكن السلف المباشر لها . وقد ساعدت العالم فى القيام بالتخمين الاولى ديباجات الختام الواردة فى نهاية لوحتين . فبدلا من الصيغة السومرية الشائعة : dub-gar («تم تحرير الوثيقة») كان هناك ig/k-d/tub . وان الكلمة الاخيرة ، حسب افتراض العالم — يجب ان تعنى «كُتِبَ» (قارن ذلك بالجذر العربى القريب كَتَبَ) . وقد تابع الباحث عمله فحاول ان ينتقى للكلمات غير المفهومة ما يقابلها فى اللغتين الاوغاريتية والفينيقية وغيرهما من اللغات السامية الغربية . . . وسمى بيتيناتو اللغة التى اكتشفها بـ«اللغة الكنعانية القديمة» .

لقد استقبل هذا الاكتشاف فى الاوساط العلمية بارتياب شديد بحيث ان احد العلماء البارزين قال : «ان بيتيناتو يقوم باختلاق لغة جديدة» . كما اشار عدد من هؤلاء العلماء الى ان عملية فك رموز اللوحات الايبلائية التى يقوم بها عالم المسماريات الايطالى لا تخلو من التناقض والتفسيرات الخاطئة واكدوا على المعانى اللفظية للعديد من الاشارات المسمارية السومرية التى يمكن ان تختلف عند النساخ

الايبلائيين عن المعانى الدارجة فى المدارس الكتابية فى وادى الرافدين واعربوا عن اعتقادهم بان اللغة الجديدة ليست سوى لهجة غير معروفة من لهجات اللغة الاكادية القديمة ، اذ جرت العادة فى السابق على اعتبار ان سكان هذه المنطقة لم يكتبوا فى العصور الساحقة بالخط المسمارى السومرى ـ الاكادى فحسب بل وكانوا يتكلمون بلغة سامية من المجموعة الشرقية . واخيرا فان العلماء لاحظوا بكل بساطة ان هذه الكمية القليلة من النصوص المكتشفة لا تكفى للتوصل الى اى استنتاج .

ولكن الاعتراض الاخير لم يصمد طويلا . ففى آب عام ١٩٧٥ ، واثناء العمل فى تطهير حجرات القصر الملكى فى اكروبول تل مرديخ ، عثر المنقبون على حجرة صغيرة تقع بجوار الغرفة التى سبق ان اكتشفوا فيها الرقم الاربعين الاولى ووجدوا فيها حوالى الف رقيم طينى آخر . وفى الاول من تشرين الاول (اكتوبر) من العام ذاته ولدى الانتهاء من موسم الحفريات تم العثور على مكتبة الارشيف الملكى . لقد كان هناك حوالى اربعة عشر الف رقيم ، بعضها كامل وكثير منها محطمة ترقد بمحاذاة الحيطان وتفرش ارضية حجرة صغيرة ملحقة بالمبنى الاساسى للقسم الشرقى من القصر الملكى . وبقيت فى هذه الحجرة كذلك آثار الرفوف الخشبية المتهاوية التى صفت عليها فى وقت ما وبترتيب دقيق هذه الآلاف من الرقم الطينية . وكانت عملية تصنيف وفرز هذه الكمية الضخمة من الرقم وفك رموزها تجرى ببطء شديد مما اضطر العلماء الى ابقاء قسم منها فى مكانها

بعد طمرها ثانية بالتراب . واستأنفت الحفريات فى العام التالى حيث اخرجت من حجرة المكتبة ٦٠٠ شقفة اخرى من الرقم كما عثر فى الغرفة المجاورة على حوالى ٤٥٠ من شقف الرقم وعشرين رقيما كاملا اثناء اخلاء ارض باحة القصر من مختلف المواد المتكدسة . وكانت هذه الرقم ترقد على رف متفحم السطح كان يستخدم ، على ما يبدو ، لنقل الرقم من مكان الى آخر .

وقد بلغ مجموع الرقم الطينية المكتشفة ١٦٥٠٠ . ولكن الرقم الكاملة منها لم تكن تتجاوز الالفين . ووصل عدد الشقف الكبيرة الى حوالى ٤٠٠٠ ، اما العشرة آلاف من الشقف الباقية فقد كانت تمثل قطعا صغيرة وصغيرة جدا من الرقم التى لم تكن تحتوى احيانا على اكثر من بضعة اشارات مسمارية . وكان تنظيم هذه المادة الهائلة ومعالجتها ولصق الاجزاء المبعثرة وتركيب رقم كاملة من الشقف والقطع الصغيرة عملية صعبة للغاية . وقد كرس بيتيناتو لممارسة هذا العمل عدة اشهر وكان خلالها يدرس لغة النصوص ويتعرف ، فى آن واحد ، على محتويات الارشيف .

وقد عرض عالم المسماريات الايطالى نتائج ابحاثه المتعلقة بمحتويات ارشيف ابيلا الملكى فى عدد ايار ١٩٧٦ من مجلة «الاثرى التوراتى» (Biblical Archeologist) الصادرة فى الولايات المتحدة الامريكية . واثارت هذه المقالة ، كما ذكرنا آنفا ، نقاشات كثيرة واستخدمت كذريعة لبدء ضجة اعلامية . واصطدم معظم الافكار والتفسيرات التى طرحها بيتيناتو باعتراضات من جانب

زملائه الخبراء ــ المستشرقين . وقد دار النقاش بين علماء اللغة حول انه الى اية مجموعة من مجموعتى اللغات السامية الشمالية ــ الغربية او الشمالية ــ الشرقية ينبغى ارجاع «اللغة الايبلائية» (هكذا اصبحوا يسمون اللغة المكتشفة حديثا) .
ومن المسائل الهامة الاخرى التى لا تزال تعترض الباحثين مشكلة تحديد تاريخ الارشيف ، اذ ان التقديرات المختلفة تتراوح بين الثلث الاخير للالف الثالث ق . م . ومنتصفه . كما ان الاعتراضات المتعلقة ببعض المشاكل المنفردة لا حصر لها . وفى بعض الحالات كان بيتيناتو يستشهد بنصوص غير منشورة مما عرضه بشكل خاص للكثير من اللوم والانتقاد . فالتحقق من صدق اقواله او صحة قراءة او ترجمة هذا المقطع او ذاك فى حال نشوء شكوك ما لا يمكن ان يتم الا فى المكان الذى تحفظ فيه المكتشفات الاثرية اى بالمجىء الى متحف حلب . وقد اسفرت هذه الظروف فى نهاية الامر عن تشكيل لجنة علمية خاصة لدراسة ارشيف ايبلا من اشهر العلماء والاختصاصيين فى المسماريات من بلدان عديدة . وتكمن المهمة الرئيسية لهذه المجموعة فى نشر كافة الوثائق المسمارية المكتشفة فى تل مرديخ . وقد صدرت منها حتى الآن عدة مجلدات تتضمن النصوص الاصلية وترجماتها . ولكن انجاز هذا العمل الضخم سيستغرق ، بلا شك ، سنوات كثيرة اخرى . ومن حيث جوهر الامر ، فان دراسة الارشيف لا تزال عمليا فى بدايتها . ولم يتوصل العلماء حتى الآن الى اتفاق فى الرأى حول العديد من المسائل الهامة . وربما

سيضطرون فى المستقبل الى اعادة النظر فى بعض الجوانب التى تبدو لنا فى الوقت الحاضر واضحة وثابتة .

فى بداية الامر سنعرض بعض الملاحظات حول ارشيف تل مرديخ بصورة عامة . فحسب تقديرات بيتيناتو سيجرى فى المستقبل تجميع وتركيب حوالى خمسة آلاف رقيم كامل . وربما لا تبدو هذه الكمية من الرقم كبيرة جدا ومع ذلك فان هذا لا يزال حتى الآن اضخم ارشيف من ارشيفات النقوش المسمارية المعروفة التى تعود الى الالف الثالث ق . م . باستثناء محفوظات سلالة اور الثالثة (من عام ٢١١٣ حتى عام ٢٠٠٤ ق . م .) . وتختلف الرقم الطينية الايبلائية اختلافا شديدا عن بعضها البعض من حيث الشكل والابعاد . فهناك الرقم المستديرة والمستطيلة والمربعة ذات الزوايا الملساء قليلا . ويتراوح قطر الرقم المستديرة من ٢ الى ١٠ سم بينما نجد ان كافة الرقم المربعة من حجم واحد تقريبا — ١٥×١٥ سم . اما الرقم المستطيلة فتصل احيانا الى ابعاد كبيرة جدا : ٣٦×٣٣ سم وكانت هذه الرقم تسطر بالستيلوس المصنوع من العظم ثم تجفف تحت الشمس . ورغم انها لم تكن تشوى خصيصا فقد تعرضت كلها تقريبا لتأثير النار اثناء الحريق الرهيب الذى دمر القصر . وعلى كل حال فان الحريق كان مفيدا لها اذ بفضل هذا الشوى غير المقصود حافظت الرقم على حالتها الاصلية بصورة ممتازة .

ويعتبر هذا الحريق الضخم ، الذى اتى على القصر والمدينة كلها ، نقطة انطلاق للحسابات الزمنية . وان بعض

الباحثين يربط هذا الحدث باجتياح سرجون العظيم لمدينة ايبلا وتهديمه لها حوالى عام ٢٣٠٠ ق . م . وعندئذ ينتج ان ملك ايبلا الاول اجريش — حلم الذى اسس مكتبة المحفوظات المكتشفة قد تسلم مقاليد الحكم حوالى عام ٢٤٥٠ ق . م . بينما يعتقد علماء آخرون ان نارام — سن هو الذى قام بحرق القصر وذلك عام ٢٢٥٠ ق . م . فيقربون بداية حكم اجريش — حلم الى عام ٢٤٠٠ ق . م . ويرى باولو ماتييه ان المكتشفات الاثرية تشهد لصالح التاريخ الابعد . وفضلا عن ذلك فان احد نقوش نارام — سن يدعم هذا الرأى على نحو واضح حيث يخبرنا انه : «لم يلجأ اى ملك منذ بدء الخليقة الى احالة ارمان وايبلا للسيف والنار . لقد فتح الرب نرجال الطريق لنارام — سن ومنحه ارمان وايبلا ووهبه امان وجبل الارز والبحر الاعلى (البحر الابيض المتوسط) . . .» وكان من الغرابة بالطبع لو ان الحفيد لم يتذكر مآثر جده . ولكننا ، مع ذلك لن نستعجل باستخلاص الاستنتاجات القاطعة حيث ان معطيات الابحاث الاثرية — الشكل القديم للاشارات المسمارية المسطرة على الرقم الايبلائية — تدعم بالاحرى رأى اولئك الذين يعتبرون سرجون المسؤول عن تهديم ايبلا . امـا بيتيناتو اذ يشير الى قرب نصوص ايبلا من النصوص المكتشفة فى تل الفارة (مدينة شوروباك القديمة) وابو صلابيخ فى بلاد ما بين النهرين فيحدد تاريخ بداية الارشيف فى منتصف القرن السادس والعشرين ق . م . ويعتقد ان القصر كان قد دمر قبل اعتلاء سرجون للعرش الملكى . وتجدر الاشارة الى

ان تسمية آكاد واسم سرجون لا يذكران فى اى نص من نصوص ايبلا بينما تتردد بكثرة اسماء ملوك المدن السومرية فى بلاد الرافدين وحكام مدينة مارى الواقعة على نهر الفرات (حاليا تل الحريرى فى سورية) . ومن الجدير بالذكر انه ليس هناك اى تسلسل تاريخى موحد متعارف عليه بالنسبة لبلاد ما بين النهرين فى الالف الثالث ق . م . حيث توجد عدة نظم لتحديد التواريخ . واذا استخدمنا النظام الاطول على اساس ان بداية حكم سرجون لم تكن لا فى عام **٢٣٣٤** ولا فى عام **٢٣٥٠** وانما فى عام **٢٣٧٠** ق . م . فان تاريخ تشكيل الارشيف الملكى فى ايبلا سيكون قريبا من التاريخ الذى اقترحه عالم المسماريات الايطالى .

يدهشنا ارشيف ايبلا الملكى بالتنوع الكبير للنصوص التى يحتويها . وتشمل الوثائق الادارية والمالية والتجارية الجزء الاكبر من هذا الارشيف . وهى تتضمن اوامر ملكية ، ورسائل الموظفين الكبار المتعلقة بقضايا تسيير شؤون الدولة ، والمعاهدات «الدولية» مع المدن والدول الاخرى فى سورية وبلاد ما بين النهرين ، وقوائم باسماء المدن التابعة لايبلا ، وسجلات تسليم الحبوب والجعة والنبيذ والزيوت النباتية واللحوم (لحوم الضأن والخنزير) الى افراد العائلات الملكية والى كبار الموظفين والسعاة القادمين من البلدان الاخرى . وثمة وثائق تشهد على تسليم المواد الغذائية كأضاحى للالهة ، ووصولات استلام المواد والسلع (الاقمشة والمنسوجات والمعادن وغيرها) وكذلك مراسلات التجار العملية . وضمن الوثائق التجارية تبرز على نحو خاص النصوص المتعلقة بقضايا

لوحة التسلسل الزمني النسبي (حسب جوفاني بيتيناتو)

	مصر	ايبلا	ماري	أكاد	كيش	اور
٢٧٠٠	السلالة الثالثة				اينمينباراغيسي عكّا	
٢٦٥٠						
٢٦٠٠	السلالة الرابعة					مسكالامدوغ
	خوفو	اجريش – حلم				اكالامدوغ
٢٥٥٠	خفرع	اركب – داموا	ايبلول – لى		اخب	مسانيپادا
	منقرع	ار – اينوم				
		ايبريوم	ايكو – شار		ميشليم	
٢٥٠٠		ابى سيبيش	شورا – داموا		جلبوم	
		ذ ويوحو – هدا				
٢٤٥٠	السلالة الخامسة				اينبى – عشتار	عآنيپادا
٢٤٠٠						مسكياغنونا
					ارزبابه	
٢٣٥٠				سرجون		ايلولو
٢٣٠٠	السلالة السادسة پيپى الأول			ريموش		بللولو
				مانيشتوسو		
٢٢٥٠	پيپى الثانى			نارام = سن		
				شار – كالى – شارى		
٢٢٠٠						

التجارة الدولية وخاصة المتاجرة بالاقمشة والمعادن . وفى هذه النصوص لا تجرى الاشارة الى كمية ونوعية السلع المرسلة او المستلمة فحسب بل وتذكر ايضا اسماء وعناوين المرسلين والمرسل اليهم . وتأتى احدى هذه الوثائق على ذكر زهاء ٢٦٠ مدينة ومستوطنة . واستنادا الى مثل هذه النصوص ربما سيتمكن العلماء ، مع مرور الزمن ، من

اعادة انشاء تاريخ العديد من مدن ودول الشرق الادنى . ثم ان لوحات ايبلا تعطى تصورا جديدا حول «الآفاق التجارية» وابعاد التجارة الدولية فى الالف الثالث قبل الميلاد .

ويحتوى ارشيف ايبلا على عدد كبير من النصوص «العلمية» الشبيهة بالموسوعات . وهى تضم جداول تعليمية للاشارات الكتابية وقوائم بتسميات الحيوانات والاسماك والطيور والنباتات وشتى انواع الاحجار والمعادن والاشجار وكذلك اسماء الآلهة وتسميات المدن والوظائف . وتكاد هذه النصوص تتطابق تمام الانطباق مع مثيلاتها من «قوائم» اوروك وتل الفارة وابو صلابيخ مما يشهد على الاتصالات الثقافية الوثيقة بين ايبلا والمراكز القديمة لحضارات ما بين النهرين . ولم يكن كتبة ايبلا وعلماؤها يتوقفون عند الاقتباس من المنجزات الحضارية لجيرانهم فحسب بل وكانوا يضعون بانفسهم بعض القوائم المشابهة ومنها «سجل ايبلا الجغرافى» الذى يضم ٢٨٩ من اسماء المدن والذى وصل فيما بعد الى بلاد ما بين النهرين حيث كان ينسخ فى «الاكاديميات» والمدارس القديمة .

لقد قدم ارشيف ايبلا الملكى لعلماء اللغة الحاليين هدية ملوكية بالفعل والا فكيف لنا ان نقدر على نحو آخر اهمية اكتشاف المعاجم السومرية ـــ الايبلائية التى تحتوى على حوالى ٣٠٠٠ كلمة ! والجدير بالذكر ان هذه المعاجم من اقدم المعاجم اللغوية المعروفة فى العالم وقد وضعت تقريبا بنفس الطريقة التى توضع بها حاليا المعاجـــــــم الحديثة ولكن ، بالطبع ، ليس حسب الترتيب الابجدى

وانما وفق المبادئ الصوتية (الاكروفونية) وفى بعض الحالات تجرى الاشارة برموز صوتية بسيطة جدا الى كيفية لفظ الكلمات السومرية المعقدة وقراءة الايديوغرامات (الاشارات الرمزية) الصعبة الحفظ تماما كما هو الامر بالنسبة للتشكيل فى القواميس المعاصرة . وقد سهل المعجم السومرى ـــ الايبلائى الى حد كبير من دراسة اللغة الجديدة واتاح احيانا تدقيق معانى بعض الكلمات والمصطلحات السومرية . . .

وضمن النصوص الادبية لارشيف ايبلا عثر الباحثون على حوالى عشرين قصيدة ملحمية واسطورية من القصائد السومرية والايبلائية التى ربما ستسلط الضوء فى المستقبل على التصورات الدينية لسكان ايبلا وجيرانهم . وتبرز الآلهة فى بلاد الرافدين ـــ انليل وانكى واوتو وزوين (سن) واينانا (جانانا) كشخصيات رئيسية فى هذه الملاحم . وفضلا عن ذلك فقد وصلنا عدد غير قليل من الاناشيد المكرسة لشتى الارباب ، والرقى ونصوص الطقوس ومجموعات الامثال . ويصطدم فهم النصوص الادبية بصعوبات كبيرة لاسباب معروفة تماما ولا يتجرأ العلماء حتى الآن على التصدى لدراستها ونشرها وترجمتها بصورة جدية . ولكن ليس ثمة اى مجال للشك فى انه تنتظرنا هنا كذلك اكتشافات مذهلة .

وتتيح الشواهد الاثرية اعادة رسم انشاء لوحة حياة الحضارات القديمة فى ملامحها وسماتها العامة . ولكن اكتشاف المصادر الكتابية يفتح امام علماء التاريخ امكانيات مدهشة . ولدى الحديث عن تاريخ سورية فى الالف الثالث

لا بد لنا من الاعتراف انه رغم اكتشاف العديد من المستوطنات السورية القديمة فاننا حتى عام ١٩٧٦ لم نكن نعرف سوى النزر اليسير عن التركيب الاثنى والانتماء اللغوى لسكانها . والاصعب من ذلك كان الحكم على طابع ومستوى الحياة الاجتماعية ــ الاقتصادية للمدن السورية القديمة وعلاقاتها مع البلدان الاخرى . وقد اتاحت نصوص ايبلا اعادة بناء تاريخ هذه الدولة السورية الشمالية وكشفت عن بنيتها الاجتماعية واقتصادها وثقافتها وديانتها . وان دور المعطيات الجديدة يتعدى الاطار المحلى الضيق فهى تشكل اهمية فائقة بالنسبة لفهم الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية لآسيا الامامية باكملها التى كانت فى واقع الامر المسرح الرئيسى للتاريخ العالمى .

ومن الغريب انه لم يعثر فى تل مرديخ حتى الآن على اية نصوص ذات مضمون تاريخى رغم ان مثل هذه النصوص تبقى على العموم امرا نادرا جدا بالنسبة لذلك العصر ، الذى لم يعرف التدوين التاريخى بالمعنى الدقيق للكلمة . فالنصوص «التاريخية» من منتصف الالف الثالث كانت تصادف عادة فى النقوش الرئيسية المحفورة على التماثيل والمصاطب والاعمدة التى تتغنى بشجاعة المحاربين وتمجد انتصارات الملك او ترد فى نقوش النذور التى تتحدث عن بناء المعابد وتزيينها والتقدمات الى الآلهة الخ حيث تذكر بصورة عابرة هذه او تلك من الظروف المواكبة مثل الحملات المتوجهة نحو البلدان البعيدة بهدف الحصول على الاخشاب والحجارة ونقل اهالى المدن المغلوبة الى مواقع اعمال البناء

الخ . ومن المحتمل ان غياب الكتابات «التاريخية» يعود الى انها كانت تحطم عمدا او تنقل من قبل الفاتحين الذين هدموا المدينة . وان نقل مثل هذه الغنائم كان ظاهرة منتشرة على نطاق واسع فى بلدان الشرق الادنى خلال مراحل التاريخ القديم على كل حال فان التماثيل والنقوش الاحتفالية لملوك ايبلا غير موجودة ولذلك فان الباحثين يضطرون الى اعادة بناء تاريخ ايبلا من خلال استخدام النصوص التى لا تتضمن معلومات تاريخية مدونة خصيصا . ومع ذلك يمكن القول بان تاريخ ايبلا قد اصبح الآن معروفا الى حد مقبول على الرغم من ان العلماء لم يتوصلوا حتى الوقت الراهن الى ربطه بالتسلسل الزمنى التاريخى المطلق . فالجميع متفقون على ان وثائق الارشيف تشمل فترة ١٥٠ عاما تقريبا ولكنهم ، كما سبق ان ذكرنا ، يختلفون فى تحديد بداية هذه المرحلة .

ويبدو انه تسنى للعلماء بعد جهد كبير ان يحددوا بدقة تامة تعاقب عهود ستة ملوك حكموا ايبلا خلال مرحلة وجود الارشيف وهم : اجريش — حلم ، واركب — دامو ، وآر — اينوم (عرينوم) ، وايبريوم ، وابى زيبيش ، وذو بوحو — عدا الذى ربما لم يحكم حيث ان النصوص تصفه كـ«ولى للعهد» فقط ولا تتحدث عنه ابدا كـ«ملك» . فان اللقب الرفيع «ملك ايبـــــــــلا» (en-eb-la^{ki}) لا يرد الا بالنسبة لاجريش — حلم واركب — دامو . اما آر — اينوم وايبريوم وابى زيبيش فتقتصر النصوص على تسميتهم بـ«ملك» (en).

من الصعب جدا تحديد طول المدة التى استمر فيها حكم كل واحد من هؤلاء الملوك . كما ان نظام وراثة العرش ليس واضحا تماما اذ ينشأ انطباع بان الانسان فى ايبلا عندما كان يجلس على العرش لم يكن يبقى بالضرورة ملكا حتى آخر ايامه حيث كانت السلطة تنتقل الى الابن . وهذا الامر دفع بيتيناتو الى الاعتقاد بان ملوك ايبلا كانوا ينتخبون لمدة معينة يمكن عند انصرامها انتخاب شخص آخر لاعتلاء العرش لا تربطه صلة القربى بالملك السابق . وان الملك المسن السالف كان ، على ما يبدو ، يمضى بقية حياته متقاعدا ويتمتع بالاحترام والتقدير والامتيازات المختلفة والا فكيف يمكننا ان نفسر انه لدى الحديث عن ايبريوم كملك فى احد النصوص يرد ذكر اجريش ــ حلم واركب ــ دامو كاناس احياء . ويتضح من النصوص الاخرى ان آر ــ اينوم ايضا كان حيا اثناء حكم ايبريوم . ويرى بيتيناتو ان ملوك ايبلا كانوا فى واقع الامر قضاة يحكمون لمدة محددة . ويجد عالم المسماريات الايطالى البرهان على ذلك فى عنصر الاحتفال بمسح الملك بالميرون الذى كان يواكب مراسيم اعتلاء ملوك ايبلا العرش كما كان متبعا فى فترة لاحقة بالنسبة لملوك اسرائيل القديمة . ويبدو ان رغبة بيتيناتو فى جذب انظار الجمهور العريض الى ابحاثه قد جعلته يذهب بعيدا فى سوق المماثلات المختلفة بين محتويات ارشيف ايبلا والتاريخ التوراتى . وكما اشار الى ذلك بانصاف زملاء العالم الايطالى فان عادة مسح الملوك بالميرون عند اعتلائهم العرش لم تكن من الطقوس الخاصة

باليهود القدماء لوحدهم وانما كانت معروفة ايضا لدى الحثيين (وبالمناسبة ، قبل اليهود بفترة طويلة) . وان هذه العادة بحد ذاتها لا تتناقض مع مبدأ التعاقب السلالى للسلطة الملكية . ففى شرق ايبلا ، مثلا ، اى فى بلاد ما بين النهرين كان ملوك بابل يمسحون بالميرون اثناء استلامهم الحكم وراثيا عن آبائهم . كما ان اواخر ملوك ايبلا كانوا بلا شك يسلمون السلطة الى ابنائهم . فقد اورث ايبريوم المُلك الى ابنه ابى زيبيش الذى جعل ابنه ذو بوحو — عدا وليا للعهد ولكن هذا الاخير لم يتمكن من اعتلاء العرش .

ما الذى يمكننا قوله اذن عن تاريخ ايبلا السياسى خلال فترة وجود الارشيف ؟ ثمة بعض التخمينات التى بوسعنا القيام بها حول بداية ظهور الدولة الايبلائية استنادا لتحليل المصطلحات السياسية . فمن المعروف ان الملك فى ايبلا كان يلقب بالكلمة السومرية (en) او الكلمة الايبلائية (malikum) اما فى بلاد ما بين النهرين فقد كان الملوك خلال الالف الثالث يستخدمون اللقب السومرى lugal- او الاكادى šarrum- . وان المدينة — الدولة اوروك الواقعة فى جنوب ما بين النهرين هى المدينة الوحيدة التى كان ملوكها يحملون لقب (en) الذى يعنى «الحاكم المقدس» . وكان حكام اوروك المقدسون («انات») فى القرنين ٢٧ — ٢٦ ق . م . ، وخاصة جلجامش الشهير بطل العديد من الملاحم السومرية والبابلية — الآشورية ، قد قاموا بحملات بعيدة نحو الغرب باتجاه جبال لبنان .

وليس من المستبعد ان حكام اوروك السومريين بالذات هم الذين ساعدوا على ارساء الاسس الاولية لبنيان الدولـــــة الايبلائية . وربما سيتسنى للعلماء فى المستقبل الحصول على الدلائل التى تؤكد مثل هذا الافتراض بعد ان يتم فى تل مرديخ الكشف عن السويات الواقعة تحت القصر الملكى* .

ان التزامن الوحيد الواضح نوعا ما الذى توصل العلماء الى تحديده حتى الآن يقع بين الملك الثالث لايبلا آر— اينوم وايبلول — ايل ملك مارى ، الذى حكم قبل عصر سرجون . وفى نصوص ايبلا المالية والتجارية ترد اسماء المدن الجنوبية لبلاد الرافدين مثل كيش واداب واسم me-sali-im والذى يعود على الاغلب الى ملك كيش مما اعطى المبرر لارجاع ارشيف ايبلا الى عام ٢٥٠٠ ق . م . تقريبا . وتذكر لوحات ايبلا ايضا بعض ملوك جبيل ونجر

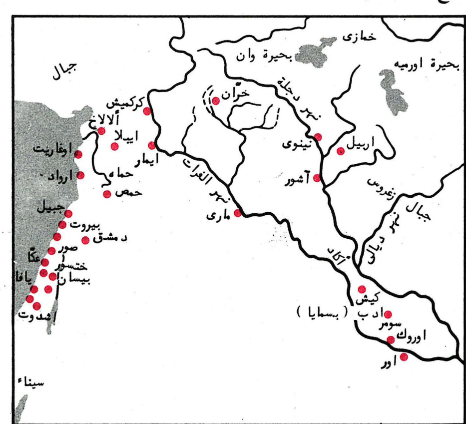
---

* لكن الفكرة تبدلت عندما كشفت البعثة خلال تنقيباتها عام ١٩٨٣ عن معالم معمارية هامة فى اسفل القصر الملكى تدل على ان هذا القصر قد قام على انقاض قصر اقدم عهدا منه . ويعود تاريخ القصر الملكى الى تاريخ السجلات المسمارية الملكية التى ظهرت فيه وهى تغطى فترة ١٥٠ سنة تقدر بين حكم سرجون الاول الاكادى (حوالى ٢٣٠٠ ق . م .) وحكم نارام — سن الاكادى (حوالى ٢١٥٠ ق . م .) . وبناء على ذلك لا بد ان تكون المعالم المعمارية الهامة التى ظهرت مؤخرا من عصر اقدم عهدا ، وهو العصر الذى قامت فيه السلالات السومرية الاولى فى جنوب بلاد الرافدين . — **المعرب**

وحران وخمازى لكننا لا نعرف شيئا حتى الآن عن هؤلاء الملوك ولن تصبح اعادة بناء تاريخ هذه المدن ممكنة الا بعد اعادة بناء تاريخ ايبلا .

قبل اكتشاف محفوظات ايبلا الملكية كان علماء التاريخ يعتقدون ان امبراطورية سرجون كانت اول دولة كبرى فى آسيا الامامية (٢٣٥٠ — ٢١٥٠) امتدت ممتلكاتها آلاف الكيلومترات من جبال ايران الغربية وحتى البحر الابيض المتوسط ، وانه لم يكن هناك قبل ذلك سوى بعض الروابط الهشة للدول — المدن المستقلة او «النومات» (اذا استخدمنا المصطلح الذى يعتمده علماء المصرويات) اى رقع مستقلة غير كبيرة (٢٠٠ — ٣٠٠ كيلومتر مربع) تتمتع باكتفاء اقتصادى ذاتى ولها مركز مدينى ضخم الى حد ما . اما الآن فان العديد من العلماء يرون ان ايبلا لم تكن اقل من امبراطورية سرجون سواء من حيث القدم او من حيث الحجم ، اذ ان موقع ايبلا الجغرافى الهام جدا — على مفترق الطرق التجارية الآتية من الشرق الى الغرب (من ايران وبلاد ما بين النهرين الى البحر الابيض المتوسط) ومن الشمال الى الجنوب (من الاناضول الى مصر) — قد اتاح للايبلائيين بسط سيطرتهم الاقتصادية بل واحيانا نفوذهم السياسى المباشر على رقعة شاسعة تضم سورية برمتها وفلسطين وشمال واواسط بلاد ما بين النهرين وجزءا من الاناضول وكذلك قبرص . ومع ذلك فان بعض العلماء يعربون عن شكهم فى ان منطقة نفوذ ايبلا قد تجاوزت جبال لبنان وامتدت الى قبرص .

لقد ادرك ملوك ايبلا تمام الادراك انه ليس من السهل عليهم ان يحتفظوا بالمناطق البعيدة او المدن الكبيرة عن طريق القوة العسكرية ، ولذلك لجأوا الى سياسة عقد الاحلاف فكانوا يحترمون تقاليد اصدقائهم ولا يتطاولون على استقلالهم المحلى ، ولكنهم فى الوقت نفسه كانوا يحصلون شيئا فشيئا على الاعتراف بالزعامة والخضوع من جانب حلفائهم . وغالبا ما كان ملوك ايبلا يقيمون صلات القربى مع جيرانهم عن طريق الزيجات بين افراد الاسر المالكة . فقد زوّج ايبريوم ابنته تيشيليم الى ملك مدينة ايمار (مسكنة) ذات الموقع الاستراتيجى الهام على نهر الفرات واعطى ابنته الاخرى الى ملك لوبان (وهى مدينة لم يتم حتى الآن الكشف عن موقعها) . كما عثر فى تل مرديخ على عشر معاهدات دولية اهمها ، على الارجح ، تلك المعاهدة الموقعة بين ملك ايبلا وملك آشور حول تنظيم المحطات التجارية الجديدة وحقوق نزلائها المقبلين من تجار ايبلا وآشور . وان هذه المعاهدة التى قد تبدو للوهلة الاولى بانها صيغت على اسس متكافئة تنتهى بديباجة الختام التالية التى لا تترك مجالا للشك بالموضع الفعلى لكل طرف من الطرفين : «اما اذا عمل شرا فليشهد اوتو (اله الشمس) وحود والنجم على ان قراره سيبذر فى السهب ولينقطع الماء عن التجار الرحالة ولتحرم من المأوى وتذهب فى طريق الهلاك يا يادود !» . ويبدو ان عبارة «يادود» التى جاءت فى محلها والمفهومة تماما فى سياق (نص) اللعنة ظهرت نتيجة لقلب اسم توديا ، وهو الاسم الذى



كان يعتبر حتى الآن انه يعود الى ملك آشور الاسطورى* . ولكن لا يرد ذكر اسم ملك ايبلا ، للاسف الشديد ، فى اية من المعاهدات التى تتضمنها نصوص ارشيف ايبلا .

كان ملوك ايبلا يقيمون علاقات وصلات «اخوية» مع الحكام الاقوياء او مع ملوك البلدان البعيدة . وقد وصلتنا

* يفسر العالم الانجليزى ادموند سولبرجر هذا النص على نحو آخر ويعتبر قراءة «آشور» غير صحيحة ويقترح تفسيرا مغايرا للاشارات التى قرأها بيتيناتو يادود (توديا) . [وجدير بالذكر انه فى دراسة اخيرة للنص نفسه . . . تبين ان بيتيناتو قد اخطأ فى تفسير الاشارات المسمارية المتعلقة بكلمة آشور والصحيح هو (ابارسال) ولعلها مدينة الى الشرق من مارى . — **المعرب**] .

نسخة من رسالة اركب ــــ دامو الى ملك خمازى (وتقع هذه المدينة ، على ما يبدو ، فى مكان ما بشمال ايران) زيزى يرجوه فيها ارسال جنود مرتزقة . وجاء فى هذه الرسالة : «اركب ــــ دامو ، ملك مدينة ايبلا واخ زيزى ملك مدينة خمازى» . . . وعندما كان ملوك الدول المجاورة يعقدون فيما بينهم معاهدات او اتفاقيات يمكن ان تلحق الضرر او تشكل خطرا كامنا بالوضع المسيطر لمملكة ايبلا فى هذه المنطقة كان الايبلائيون يسعون على هذا النحو او ذاك الى عرقلة وافشال مثل هذه التحالفات . وقد استطاعوا ، على سبيل المثال ، زرع بذور الشقاق بين مارى وايدو (عادو) بعد ان استمالوا الى جانبهم ملك مدينة ايدو .

كما اضطر الايبلائيون الى خوض الحروب ضد الدول الاخرى . واننا مطلعون بافضل صورة على سير الحرب مع مارى الغريمة الابدية لايبلا حيث ان احد نصوص الارشيف الملكى يتضمن تقريرا مفصلا للقائد العسكرى الايبلائى انا ــــ دجن الذى كتب الى ملك ايبلا يخبره عن هزيمة جيوش ايبلول ــــ ايل «ملك مارى وآشور» . ويبدو ان مدينة مارى ، التى كانت تخضع الى حد ما لايبلا لم تمتنع او تتوقف عن دفع الجزية فحسب بل واخذت بالاستيلاء على المدن الايبلائية حتى وصل الامر الى التهديد بتوجيه حملة عسكرية ضد ايبلا نفسها . وقد تقاضى الفاتحون من مدينة مارى المهزومة «الديون» وفرضوا على سكانها الى جانب ذلك غرامة ضخمة بلغت حوالى طن فضة واكثر من ٦٠ كيلوغراما من الذهب . وذهب قسم من هذه الغنيمة

(حوالى السدس) خصيصا الى لواء الايبلائيين المنتصر انا — دجن الذى اصبح بعد فترة قصيرة ملك مارى . وخلال بضعة عقود فى عهد الملك ابى — زيبيش كان يحكم هذه المدينة شقيقه شورا — دامو .

لقد سبق ان تحدثنا عن دمار مدينة ايبلا اثناء وجود الارشيف . وان جميع العلماء تقريبا يعتبرون سرجون او نارام — سن مسؤولين عن هدم القصر باستثناء بيتيناتو وبعض اتباعه الذين يعتقدون ان ايبلا قد دمرت من قبل ملوك مدينة كيش السومريين وذلك على ما يبدو بعد ان دمروا حليفة ايبلا مملكة خمازى (حوالى عام ٢٥٠٠) .

ويمكن ان نستمد بعض المعطيات من النصوص التى تتعرض الى البنية الاجتماعية لمملكة ايبلا القديمة . لقد كان يقف على رأس الدولة الملك ، الذى كان يقوم بتسيير كافة الشؤون الخارجية والداخلية للبلد وتعيين جميع الموظفين الكبار . وكان الشيوخ (abbu) يلعبون دورا بارزا فى فض المسائل الهامة الى جانب افراد الاسرة الملكية وخاصة الملكة (maliktum) ووالدة الملك (ama-gal-en). . وان رأى والدة الملك ، مثلا ، لعب دورا حاسما لدى بحث مسألة اختيار ابن الملك ايبريوم ابى زيبيش وليا للعهد .

وكان جميع سكان ايبلا ينقسمون الى فئتين اساسيتين — «ابناء ايبلا» (بالسومرية dumu-nita (dumu-nita eb-la[ki]) اى المواطنين ذوى الحقوق الكاملة و«الغربـــــاء» (bar-an bar-an) . وضمن ممثلى الفئة الاولى يمكن الاشارة الى موظفى «الدولة» من مختلف المراتب والتجار —

سواء وكلاء الدولة التجاريين او التجار المستقلين ، وكذلك الحرفيين (حيث تذكر النصوص حوالى مئتين من شتى الاختصاصات) والزراع واخيرا العمال العاديين او الشغيلة (بالسومرية lú- «الرجال» ، و dam- «النساء») . اما فئة «الغرباء» فقد كانت تضم الضيوف المكرمين مثل التجار والكتبة والعلماء والكهنة الاجانب (-na-bí-ú-tum «الانبياء») وكذلك الجنود المأجورين (المرتزقة) والاسرى والعبيد . ويبدو ان جيش ايبلا كان باكمله تقريبا من المرتزقة . وفى كل الاحوال فان دورهم فى قضية الدفاع عن الدولة الايبلائية كان كبيرا جدا بحيث ان الملك ايبريوم لم يجد حرجا فى تزويج ابنته لقائد المرتزقة المدعو تيدينو . ومع ذلك فان وجود جيش من المأجورين لا يشير بالضرورة الى الطابع المسالم الخاص لاهالى ايبلا وكأنهم «تجار بالفطرة» كما حاول التأكيد على ذلك بيتيناتو . . . ومن الواضح ان عدد العبيد كان قليلا الى حد ما حيث كان ثمن العبد باهظا بالنسبة لذلك العصر — ٢ مينا (حوالى كيلوغرام) من الفضة . وقد بلغ العدد الاجمالى لسكان ايبلا ، حسب احد النصوص ، ٢٦٠ الف نسمة . واغلب الظن انه لدى التوصل الى مثل هذه المحصلة اخذ بعين الاعتبار سكان الضواحى ، اذ ان عدد سكان مدينة قديمة مساحتها ٥٦ هكتار لا يمكن ان يتجاوز ٥٠ الف شخص .

تتألف مدينة ايبلا من قسمين رئيسيين يضم الاول الاكروبول مع عدد من القصور والمبانى الادارية . ويضم القسم الثانى «المدينة السفلى» التى تنقسم الى اربعة «اجزاء»

او «احياء» يشرف على كل حى عشرون ناظرا يساعدهم جهاز واسع من المعاونين . وينبغى ، على ما يبدو ، ربط هذه الاحياء الاربعة بابواب المدينة الاربعة التى كانت تسمى باسماء الآلهة — «باب رشف» و«باب زيبيش» و«باب دجن» و«باب بعل» .

واذا نظرنا الى مملكة ايبلا استنادا للوثائق التى وصلتنا فيمكن وصفها بانها دولة تجارية . ولكن الزراعة والرعى هما اللذان ارسيا الاساس الاولى لازدهار المدينة وتطورها اللاحق . واذا صدقنا النصوص المتعلقة بشؤون الارض والزراعة فان الحبوب المخزونة فى مستودعات مدينة ايبلا كانت تكفى لاطعام ١٨ مليون شخص على مدى سنة كاملة . والمعروف ان ايبلا تقع وسط سهل خصب مناسب للممارسة الزراعية المروية نظرا لوجود المستنقعات وتوفر الينابيع الكثيرة مما اتاح جنى محاصيل عالية جدا من الحنطة (وقد عرف سكان ايبلا ١٧ صنفا منها) والشعير . وتتحدث الوثائق عن تصدير ٣٠٠ الف ليتر من النبيذ وكذلك كمية ضخمة من زيت الزيتون من منطقة غزة . ومن الطبيعى ان الفائض من المنتجات الغذائية كان يذهب الى السوق الخارجية . وان زيت الزيتون ، مثلا ، كان يصدر الى ايمار (مسكنة) ومن ثم يعاد تصديره ، على الاغلب ، الى بلاد ما بين النهرين عبر نهر الفرات .

وفى العديد من نصوص المحفوظات الملكية يجرى الحديث عن قطعان ضخمة من المواشى التى يصل عددها الى ١٠ و١٢ بل وحتى ٣٠ الف رأس . وهذه الارقام

عادية تماما ، اذ تضم احدى اللوحات المسمارية جردا لاملاك الملك يشير الى ان ٨٠ الف شاة تعود لملك ايبلا .

وكانت صناعة النسيج اهم مهنة ، على الارجح ، فى مملكة ايبلا وخاصة ـــ انتاج وصباغة الاقمشة الصوفية . وقد كانت ايبلا تنتج المنسوجات الصوفية والكتانية الموشحة بالخيوط الذهبية . وفى عصور متأخرة اى فى القرون الوسطى والعصر الحديث اشتهر هذا النوع من الاقمشة فى اوروبا الغربية وكان يسمى بـ« damask » نسبة الى مدينة دمشق العاصمة الحالية لسوريا . وكان يشتغل فى ميدان الحياكة العدد الاكبر من العمال والعاملات اما الاشراف الاعلى على انتاج المنسوجات فكان من اختصاص الملكة نفسها .

وكانت صناعة التعدين متطورة جدا . فقد عـــــرف الايبلائيون انتاج النحاس والقصدير والرصاص والبرونز . ووصلتنا وصفات تصنيع البرونز التى تحدد الاضافات والنسب المعنية الواجب ادخالها على النحاس . وفى حالات كثيرة تعدد النصوص مختلف انواع المصنوعات البرونزية مثل اطراف الرماح ، والفؤوس والخناجر والمدى والدبابيس وغيرهـــا مع الاشارة الى وزن كل نوع من هذه المصنــــــوعات . وغالبا ما تأتى لوحات ايبلا على ذكر الذهب والفضة زد على ذلك ان الحديث يدور عن كميات تقدر بالكيلوغرامات والاطنان . وان النصوص التى تتضمن جرد حساب نفقات خزانة الدولة من الفضة تشير الى انه سلمت خلال عام واحد فقط ولاغراض مختلفة ٣٧٩٦ مينا فضة (حوالى ٢٠٠٠ كيلوغرام) .

وكان الايبلائيون يسددون قيمة السلع والمواد الغذائية التى يشترونها من جيرانهم بالفضة والذهب . وحسب معطيات النصوص فان الاسعار كانت تبقى مستقرة ثابتة على الدوام . اما نسبة الفضة الى الذهب فقد ظلت كذلك ثابتة بنسبة ستة الى واحد . ويرى بعض الباحثين ان ايبلا كانت تلعب فى حينها دورا رئيسيا فى التجارة الدولية بمنطقة الشرق الادنى كلها . وكان المصريون وسكان بلاد ما بين النهرين محاطين بصحارى وجبال يقطنها اناس شبه همجيين ولذلك كانوا مضطرين للاعتماد على القوة العسكرية بصورة اساسية وبناء علاقاتهم مع جيرانهم انطلاقا من هذه الاعتبارات . اما ايبلا فقد كانت محاطة بحلقة من المدن المتطورة والغنية سواء الواقعة منها على ساحل البحر الابيض المتوسط او فى الشرق على ضفاف نهر الفرات . وان هذه الظروف الملائمة جدا اضفت على علاقات الايبلائيين مع العالم الخارجى طابعا آخر . وقد قامت ايبلا بتنظيم التجارة الدولية البعيدة واصبحت تتحكم بها بفضل موقعها الجغرافى الهام . وان قطع اللازورد المكتشفة فى تل مرديخ او المستوردة كما يعتقد الآن من افغانستان ، تعطينا تصورا واضحا عن الامتداد الواسع لطرق التجارة التى كانت تربط العالم المتحضر فى ذلك الوقت . وتتردد باستمرار فى سجلات المحفوظة الملكية اسماء مدن فلسطينية وسورية ولبنانية . ويجرى الحديث فى حالات كثيرة عن مدينة جبيل التى كانت ترسو فى مينائها السفن المصرية المحملة بالذهب . كما تصادف احيانا فى النصوص المذكورة اسماء مدن اخرى مثل دمشق

وبيروت وصيدا والالاخ وماجيدو ولكيش وعكا ويافا واشدود .
وان التسمية المحلية للنحاس kaparum تتيح لنا الافتراض بان ايبلا كانت تستورد النحاس من قبرص . وفى الشمال ، كما يعتقد بيتيناتو ، كانت تخضع لايبلا مدينة كانيش الواقعة فى اواسط الاناضول .

وفى معرض وصف اقتصاد ايبلا القديمة اجمالا ينبغى القول بان كافة ميادين الحياة الاقتصادية من الزراعة حتى التجارة الخارجية كانت تقع ، على ما يبدو ، تحت رقابة صارمة لا تنقطع من قبل الادارة الحكومية . وكان هناك عدد لا يحصى من مأمورى التنفيذ والنظّار الذين كانوا يكلّفون الزرّاع والصنّاع والعمال بالمهام المطلوبة ويتتبعون سير الامور فى تنفيذ كافة انواع الاعمال بدءا من فلاحة الارض وانتهاء بتصدير واستيراد المعادن الثمينة . وكان شعب ايبلا من الحائك البسيط وحتى الملك يتقاضى حصة معينة من المواد الغذائية والملابس . كما كان الجميع ، بما فيهم الملك ، يدفعون الضرائب الى خزينة المدينة او الى خزينة الدولة ، الخزينة «الإمبراطورية» كما يسمونها احيانا . والى جانب ذلك كان هناك قطاع خاص وتجارة خاصة وملكية خاصة للاراضى والعقارات .

وبما ان كل ما نعرفه عن ايبلا قد كشفته لنا اللوحات المسمارية فسيكون من الانصاف لدى تناول حضارة ايبلا البدء بالحديث عن هذه اللوحات . ومن المعروف ان اختراع الكتابة المسمارية قد جرى فى جنوب بلاد ما بين النهرين على يد السومريين فى مطلع الالف الثالث ثم انتشرت

هذه الكتابة لاحقا فى كافة ارجاء آسيا الامامية حيث استخدمها الاكاديون في شمال ما بين النهرين والعيلاميون فى ايران والحثيون فى آسيا الوسطى والاوغاريتيون على ساحل البحر الابيض المتوسط والاورارتيون فى القفقاس وذلك بعد تكييفها على النحو الذى يساير حاجات لغاتهم . وفى منتصف الالف الثانى اصبحت الكتابتان الاكادية والآشورية — البابلية وسيلة اتصال عالمية فى الشرق الادنى . فحتى المصريون كانوا يستخدمون فى مراسلاتهم مع حلفائهم التابعين فى فلسطين الكتابة الاكادية . وقد اثارت القواعد المعقدة للغة الآشورية — البابلية الكثير من الصعوبات والمتاعب للكتابة فى مصر وفلسطين والاناضول . ونلاحظ فى لوحات ارشيف تل العمارنة بقايا الوان الامر الذى يدل على ان كتبة فرعون كانوا يفصلون الكلمات بعضها عن بعض ويفكون بصعوبة كبيرة رموز الكتابة الاجنبية . كما تحفل رسائل الكتبة الغربيين بالاخطاء الكثيرة . مما اضطر العلماء المعاصرين للعكوف على دراسة هذه الرسائل مرات عديدة من اجل ان يفهموا ماذا كان يريد ان يقوله صاحب هذه الرسالة او تلك .

ويبدو ان شعب ايبلا كان اول من استخدم الكتابة السومرية لتدوين لغته . ولا مفر هنا من الاعتراف بان الايبلائيين برعوا فى استخدام هذه الكتابة الى حد لا يقل عن السومريين والاكاديين ذاتهم . وبالفعل فان النصوص المكتشفة فى ايبلا لا تدع مجالا للشك بوجود مدرسة — اكاديمية خلال الالف الثالث سواء فى ايبلا او فى المراكز

الحضارية الضخمة لبلاد ما بين النهرين مثل اوروك واور وكيش وشوروباك وابو صلابيخ . ولم يكن نشاط هذه الاكاديميات يقتصر على اعداد الكتبة والاداريين ، فقد كان يجرى هنا انشاء مجمل الثقافة المكتوبة لبلاد ما بين النهرين القديمة . وتظهر نصوص ايبلا «العلمية» تشابها مدهشا مع النصوص المماثلة المكتشفة فى شوروباك وابو صلابيخ . فهى نفس الكتابات المقطعية المسهبة (قوائم الاشارات الايديوغرافية والصوتية) وقوائم تسميات المعادن والمهن المختلفة التى يبلغ مجموعها حوالى ٥٠٠ نص والتى كان على الكتبة الماهرين حفظها كاملا . ويتضح من ذلك ان ايبلا كانت واحة فريدة من نوعها للحضارة السومرية تبعد آلاف الكيلومترات عن مراكزها الاساسية وان تقاليد ايبلا الكتابية جاءت استمرارا طبيعيا لحضارة ما بين النهرين القديمة الموحدة . وبالفعل فقد قامت بين مدرسة ايبلا واكاديميات بلاد الرافدين صلات نشيطة ومستمرة كانت تشمل تبادل النصوص والعلماء . وتضم احدى اللوحات التعليمية من ارشيف ايبلا الحاشية الختامية التالية : «عندما وصل الكتبة الناشئون من مارى» . ومما يلفت النظر ان النص الرياضى الوحيد الذى عثر عليه ضمن ارشيف ايبلا الملكى وضعه «ناسخ من كيش» يدعى ايشما ــ ايا . وفى الوقت نفسه فان العديد من كتبة ابو صلابيخ يحملون اسماء سامية غربية مما يدل على انهم كانوا ينحدرون ، على الارجح ، من ايبلا او جاؤوا منها الى بلاد الرافدين لفترة معينة .

ومن الخطأ الاعتقاد بان الايبلائيين قد اقتصروا على اقتباس واستيعاب حضارة الآخرين ولم يبتكروا اى شيء اصيل . وحسبنا هنا ان نشير الى القواميس التى وضعها علماء ايبلا وان نتذكر «سجل ايبلا الجغرافى» او ان نرجع الى التقاويم المحلية ، ونظام حساب السنوات الذى لا يشبه مطلقا الانظمة المعمول بها قديما فى بلاد ما بين النهرين ومصر .

ولدى الحديث عن حضارة شعب من الشعوب القديمة لا مفر من التطرق الى ديانته . فقبل اكتشاف ارشيف ايبلا لم نكن نعرف سوى النزر اليسير عن ديانة سكان سوريا وفلسطين فى الالف الثالث قبل الميلاد . وقد اقتصر ذلك على المعلومات المتفرقة التى حملتها مصادر بلاد الرافدين المختلفة . اما الآن فان اطلاعنا على هذه المسألة اصبح افضل بكثير . وان الاستنتاج الاساسى الذى توصل اليه العلماء المشتغلون فى لوحات تل مرديخ يكمن فى الجوانب التالية : اولا ، كان شعب ايبلا يعبد آلهة متعددة . ثانيا ، كان مجمع الارباب فى ايبلا يضم الآلهة الكنعانية بصورة رئيسية ، اذ تعج نصوص ايبلا بالآلهة الكنعانية القديمة مثل بعل وكيموش اللذين لا نعرف اى شيء عن اصلهما .

وتذكر لوحات الارشيف الملكى فى ايبلا حوالي ٥٠٠ من مختلف الارباب . غير انه لا يمكننا حتى الآن الحديث على نحو واضح ومحدد الا عن بضعة ارباب رئيسية من مجمع الارباب الايبلائية . ويبدو ان دجن كان اهم رب عند الايبلائيين والذى ظل يتصدر لائحة مجمع الارباب

الكنعانية على مدى الالفين الثانى والاول قبل الميلاد .
وقد اطلق اسم دجن على الشهر الاول من اشهر التقويم
الايبلائى وسميت باسمه كذلك احدى بوابات مدينة ايبلا .
كما ان النصوص تسميه بـ«رب الارباب» . وربما كان اسم
دجن يعنى فى البداية «الغيمة» او «المطر» ، اذ يؤكد مثل
هذا الاشتقاق نعت دجن «ندى الارض» (ti-lu ma-tim).
اما نديمة الرب دجن فان النصوص لا تـــدعــوها
باسمها وانما تقتصر على وصفها بالسيدة (belatu).

وتجدر الاشارة الى ان زبيبش اله الشمس عنـــد
الايبلائيين ، شأنه شأن اله الرعد حدد (عدا) والالهين
كورا وكاكاب اللذين لم تحدد هويتهما ، كان يظهر بصفة
شاهد وكفيل لدى توقيع المعاهدات وعقد المعاهدات . ويقول
الملك ايبريوم اثناء تقسيمه لممتلكاته بين اولاده الثلاثة :
«لقد سمع قرار الملك كورا ورب الشمس وحدد وجميع
الارباب» . وضمن الارباب الهامة يأتى كاميش الرب الرئيسى
عند الموآبيين وراساب (رشف فيما بعد) وعشتار — آلهــة
الخصب والحب والحرب . وليما — الاله العمورى المعروف
جيدا فى نصوص مارى التى تعود الى اوائل الالف الثانى ،
والاله الاوغاريتى كاشارو والاله الكنعانى المشترك بعل .
وهناك ربّان بارزان آخران وهما ربا الانهار : ^{d}ba-li-ha-
رب نهر البليخ احد روافد الفرات ، والرب (^{d}ba-ra-du ma-du)
ويعنى رب «النهر العظيم البارد» . وان كلمة ba-ra-du
«التيار البارد» تشير بوضوح الى اصل الاسمين الرافدى والعربى
للفرات purattu / furat وقد كان اهالى ايبلا

يعتبرون الرب دابر حاميا لمدينتهم وهو الرب الذى يرد ذكره فى التوراة ولكن ليس كاله وانما بمعنى «وباء» الاله ، عقابه .

ان الالهين (ايل) و(يا — وه) اللذين يغلب ذكرهما فى اسماء الاشخاص المركبة من اسماء الآلهة يثيران اهتماما بالغا لدى علماء تاريخ الاديان واللاهوتيين . فاذا كان (ايل) كلمة سامية عامة تعنى «الرب» اجمالا وتدل ، فى الوقت نفسه ، على اله معين وهو الاله (ايل) فى التقاليد الاوغاريتية والعبرية القديمة فان (يا) او (يا — وه) ليست ، باعتقاد بعض الباحثين ، سوى تصغير لاسم اطول . ومما يلفت الانتباه ان (يا) فى عهد ايبريوم حلت محل (ايل) فى اسماء الاشخاص . فبدلا من الاسماء : ‘iš-ra-il و ‘iš-má-il و mi-kà-il تظهر الاسماء : ‘iš-ra-ìa و ‘is-má-ìa و mi-kà-ìa . وفى مقالته الاولى لجأ بيتيناتو فى صيغة حذرة الى مقابلة (ياوه) الايبلائى ب(يهوه) التوراتى وافترض بانه جرى فى ايبلا خلال حكم ايبريوم اصلاح دينى هام . وقد التقط هذه الفرضية الصحفيون الذين يسعون وراء المفاجآت المثيرة فاخذوا يكتبون عن الفرضية المذكورة وكأنها واقع ثابت واكيد فى الوقت الذى لم تتوفر هناك الاس والمبررات الكافية لمثل هذا الادعاء . فاذا لم تكن (ìa) المركبة فى مقدمة او مؤخرة اسماء العلم مجرد اداة للتصغير والتدليل كما يشير الى ذلك اسم ^{d}ia-ra-mu فان تطابق (يا) و(يهوه) يبقى ، بالطبع ، مسألة قابلة للنقاش والجدل . ومن الصعب التأكيد بان

الرب (يا) كان يشغل مكانا بارزا فى عالم الارباب الايبلائية . وبهذا الصدد يشير العالم الايطالى الفونسو آركى الى ان العنصر (يا ـــ وه) لا يرد بتاتا فى لوائح الارباب التى كانت تقدم لها الاضاحى والقرابين بصورة منتظمة فى معابد ايبلا .

وينبغى عموما النظر بتحفظ شديد واحتراس كبير الى المماثلات والمقارنات التى غالبا ما ترد فى الاعمال المبسطة . وهذه المماثلات لا تعتمد على اية اسس مضمونة . وقد جرت ، مثلا ، مقارنة ايبريوم بالاسم «عبر» الذى يرد فى التوراة كجد الساميين (سفر التكوين ١٠ : ٢١) او بكلمة "ibri" . وفى الوقت الراهن يعتقد العديد من العلمـاء ان اسم ايبريوم ينحدر من الكلمة الحورية "ewri" التى تعنى (السيد) . وفيما بعد كتب الكثير عن ملوك ايبلا كانوا يطلقون على ولاة (حكام) المدن التابعة اللقب السومرى $(di\text{-}ku_5)$ اى القاضى مما حدا ببعض العلماء الـى مقارنتهم بالقضاة الوارد ذكرهم فى التوراة . والمعروف ان كلمة (دى ـــ كو) ترد كثيرا فى النصوص المسمارية المكتشفة فى العراق والتى يعود تاريخها الى الالف الثالث قبل الميلاد . ولكن هذا اللقب لم يكن يحمل معنى القاضى ومن الصعب جدا تحديد وظائف «قضاة ايبلا» تحديدا دقيقا غير انه من المؤكد تماما ان هؤلاء القضاة كانوا من موظفى البلاط الملكى .

وقد سبق لبيتيناتو ان اشار الى عثوره فى نصوص ايبلا التجارية على تعداد للمدن التاريخية (الاسطورية) الخمس الوارد ذكرها فى التوراة (سفر التكوين ١٤ : ٢) وهى

سدوم وعمورة وادمة وبالع — صوغر وصبوييم . وبالفعل يرد فى احد نصوص ايبلا ذكر مدينتى sa-bí-im^{ki} و sa-dam^{ki} ولكنهما فى واقع الامر ليستا سوى مستوطنتين صغيرتين كان سكان ايبلا يستوردون منهما بعض المنتجات الزراعية وهما بطبيعة الحال لا تمتان باية صلة الى المدينتين التوراتيتين سدوم وصبوييم . اما المدن الثلاث الاخرى فلا يرد ذكرها فى النصوص الايبلائية المعروفة . . .

ويتضح مما قيل آنفا على اية اسس واهية تبنى المقارنات والمماثلات المقترحة العديدة ومطابقات اسماء المواقع والبلدان الواردة فى نصوص ايبلا والتوراة . ومن الطبيعى انه اصبح مفهوما فى الوقت الراهن ان العديد من الظواهر الحضارية — التاريخية التى عرفتها سورية وفلسطين خلال الالفين الثانى والاول قبل الميلاد ترجع جذورها الى الالف الثالث . ولكن لم يحن الوقت بعد للقيام باية استنتاجات قاطعة واستخلاص النتائج النهائية الممكنة . فالمهم الآن شيء آخر ، اذ ان اكتشاف ارشيف ايبلا قد احدث تعديلات جوهرية على اللوحة العامة لتاريخ آسيا الامامية . ففى السابق كان الرأى الشائع فى اوساط العلماء يشير الى انه لم يكن فى ذلك العصر سوى مركزين حضاريين ضخمين قام كل منهما على ضفاف الانهار العظيمة — النيل والفرات ودجلة . وحسب التصورات السائدة قبل عشر سنوات كانت تفصل بين هذين المركزين الحضاريين رحاب شاسعة تسكنها قبائل متخلفة شبه رحل . كما كان العلماء يعتقدون ان المدن المتفرقة الواقعة فى عمق القارة الاسيوية

لم تلعب اى دور حضارى يذكر . فالحياة الحضرية ، فى رأيهم ، لم تزدهر الا فى المدن ـــ المرافئ التجارية الواقعة على الساحل الشرقى للبحر الابيض المتوسط . وقد كشفت حفريات تل مرديخ عن حضارة مدنية عظيمة جديدة ذات تقاليد اصيلة وغنية وعريقة واظهرت الى اى مدى كانت هذه التصورات خاطئة . فان حضارة المدن السورية القديمة لم تكن اقل رقيا من حضارة بلاد ما بين النهرين او الحضارة المصرية . ونأمل ان يؤدى استمرار علماء الآثار فى اعمال التنقيب بتل مرديخ ومتابعة علماء اللغة دراسة لوحات ايبلا الى الكثير من المعطيات الهامة والشيقة التى ستتيح لنا التعرف على صفحة جديدة من اروع صفحات تاريخ الشرق القديم . ولكن بوسعنا الآن ان نقول بكل جرأة انه بفضل اكتشاف ايبلا اضيف فصل جديد الى سفر الحضارات الشرقية القديمة .

الفصل الخامس

الجديد حول المجتمع البابلى (الالف الاول ق . م .)

المؤلف: بونغارد – ليفين
ترجمة: د. جابر ابي جابر

لم يصلنا من اى بلد من بلدان الشرق القديم مثل هذه الكمية الهائلة من المصادر الكتابية التى عثر عليها علماء الآثار فى بلاد الرافدين . وقد نشر حتى الآن اكثر من مليون نص مسمارى باللغتين السومرية والاكادية . وتضم هذه النصوص اعمالا ادبية واسفارا تاريخية ، ولوائح تشريعية ، وكتابات ومراسيم ملكية ، ومراسلات رسمية وشخصية ، ومؤلفات علمية . وان الوثائق المالية والعقود القانونية الخاصة (عقود استئجار ومحاضر البيع والشراء ووصولات تسليم المواد الغذائية للعمال وعقود حول تعليم مختلف المهن الخ) تشكل ثلاثة ارباع هذا الرصيد الضخم من المصادر المذكورة . وعلى الرغم من ان الشواهد الكتابية للحضارة البابلية اصبحت معروفة للعلماء الاوروبيين منذ منتصف القرن التاسع عشر فان دراسة العديد من سمات المجتمع البابلى وخصائصه بقيت ، مع ذلك ، خارج نطاق اهتمامات الباحثين ، الذين كانوا يولون عناية ضئيلة بالنصوص المالية والوثائق القانونية الشخصية ويشتغلون بصورة

رئيسية فى دراسة المؤلفات الادبية والكتابات الملكية واللوائح التشريعية .

لقد اسهم العلماء السوفييت ـــ الاكاديميان ، ستـــروفه وتيومينيف والبروفسور دياكونوف بقسط كبير فى دراسة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية ببلاد الرافدين خلال الالفين الثالث والثانى قبل الميلاد .

وكان العالم السوفييتى البروفسور داندامايف المختص فى تاريخ الحضارة الآشورية ، اول من باشر فى الاتحاد السوفييتى بدراسة النصوص البابلية للالف الاول قبل الميلاد . وثمة حوالى عشرة آلاف وثيقة مالية وعقود قانونية خاصة وكذلك عدد هائل من النصوص ذات المضمون العلمى التى تعود الى حقبة تاريخية قصيرة نسبيا تمتد بين اواخر القرن السابع ومطلع القرن الخامس قبل الميلاد . وتتيح لنا هذه النصوص امكانية القيام بدراسة مستفيضة لاقتصاد وثقافة بابل من عهد الالف الاول قبل الميلاد . ففى غضون العشرين عاما الاخيرة قام داندامايف بتنظيم وتبويب وتدوين وترجمة هذه النصوص الى اللغة الروسية . كما وضع لها فهارس وافية . وان البحث الاساسى الذى وضعـــــه داندامايف «العبودية فى بابل» (القرون ٦ ـــ ٤ ق . م .) الذى نشر عام ١٩٧٤ باللغة الروسية فى موسكو وصدر بالانجليزية فى الولايات المتحدة عام ١٩٨٤* قد ساهم مساهمة هامة فى العلم السوفييتى والعالمى . وقد استخدم المؤلف

* Muhammed A. Dandamaev, Slavery in Babilonia from Nabopolossar to Alexander the Great (626-321 B. C.).

لاجل الطبعة الانجليزية حوالى اربعة آلاف من النصوص الجديدة ، التى نشرت بعد صدور الكتاب باللغة الروسية ، وكذلك المطبوعات العلمية التى نشرت فى السنوات الاخيرة .

ان كتاب العالم السوفييتى يتمتع باهمية كبرى بالنسبة لدراسة التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للشرق القديم . وهذا الكتاب سيكون مرجعا مبينا للمصادر كذلك لكونه يحتوى على حوالى ٢٠٠ وثيقة مسمارية مترجمة الى اللغة الروسية تتعلق بقضايا العبودية . وان المرحلة التى يتناولها الكتاب هى من اهم مراحل التاريخ البابلى اذ شهدت سقوط الدولة الآشورية ونشوء الامبراطورية الفارسية الواسعة التى كانت فيها بابل الاقليم الرئيسى . واثناء اعداد الطبعة الانجليزية جرى تدقيق ومراجعة العديد من النصوص فى متاحف اوروبا والولايات المتحدة .

وفى الوقت الحاضر يعكف دانداماييف على وضع اللمسات الاخيرة لكتابه «المواطنون والغرباء فى بابل خلال الالف الاول ق . م .» الذى يتناول فيه استنادا الى كمية كبيرة من النصوص المسمارية ، القضايا الجذرية لتاريخ بلاد ما بين النهرين الاجتماعى : بنية المدينة ، ومهام المجلس الشعبى ونشاطه ، والوضع الحقوقى لمختلف فئات ومجموعات السكان الاحرار . وبفضل الاعمال الاساسية جرت اعادة رسم لوحة المجتمع البابلى واستخلص بعض الاستنتاجات المبدئية الهامة .

لقد بين دانداماييف باقناع على ان الدور الرئيسى فى اقتصاد بابل خلال الالف الاول قبل الميلاد لم يكن

يعود الى الاستثمارات الملكية انما للمزارع والورشات الخاصة والعائدة للمعابد خلافا لما كان عليه فى المراحل السابقة .

ويذهب مؤلف الكتاب الى ان المجتمع البابلى فى الحقبة المذكورة كان يتألف من مواطنين كاملى الحقوق ، ومن اناس احرار ولكنهم محرومون من الحقوق المدنية ، الى جانب شتى فئات السكان التابعين الذين كان العبيد يشكلون القسم الملحوظ منهم .

وكان المواطنون يعتبرون متساوين من الناحية القانونية ، وكان وضعهم هذا وراثيا . واستنادا الى النصوص يمكن القول ان العلامة الرئيسية لوضعهم القانونى كانت تكمن فى حق الاشتراك فى المجلس الشعبى الذى كان يتولى مهام البت فى مختلف قضايا الادارة المحلية ويقوم بالنظر فى دعاوى الممتلكات بين المواطنين . وفى مختلف مراحل تاريخ بلاد ما بين الرافدين القديم لم يكن للسلطة الملكية طابع استبدادى بل كان المجلس الشعبى يحد منها . وكان مواطنو بابل ونيبور وسيبار وعدد من المدن الاخرى يعفون من اعمال البناء الحكومية والخدمة العسكرية الالزامية وكانت تحظر معاقبتهم بدون محاكمة . وقد جاء فى احد النصوص البابلية السياسية المؤرخ حوالى عام ٧٠٠ ق . م . ان الملك الذى يلجأ الى ارغام سكان المدن ذات الامتيازات على حمل «سلة البناء» ، ويتقاضى الرشاوى ويحل قضايا المحاكم ظلما وجورا ستجره رعيته فى شوارع المدينة . وطبيعى ان هذه التهديدات لا تتفق والصورة الواقعية للامر ، ولكن يظهر هنا الحرص المشترك لدى واضعى النصوص على الدفاع

عن وضع المواطنين الاحرار . وقد وصلنا محضر مباحثات الملك الآشورى آشور بانيبال مع مواطنى مدينة بابل الخاضعة له والذى جاء فيه «ان بابل قلب المعمورة وكل من يدخل اليها يحصل على امتيازات معينة . وحتى الكلب الداخل الى بابل يمنع قتله» .

ان الوضع الاجتماعى والاقتصادى للمواطنين ذوى الحقوق الكاملة لم يكن متشابها البتة . فبعضهم (كبار موظفى الدولة والمشرفون على المعابد والمؤسسات الدينية الاخرى وممثلو كبار ارباب العمل) كان يمتلك بيوتا وحقولا عديدة وكذلك عشرات بل واحيانا مئات العبيد بينما لم تكن تتوفر لدى الآخرين حتى الوسائل الكفيلة بتأسيس اسرة واعالتها . ومن الطبيعى ان مثل هؤلاء الفقراء لم يكن بوسعهم ان يلعبوا اى دور ملحوظ فى المجلس الشعبى .

وخلافا لفئات السكان الاخرى كان المواطنون اعضاء فى المجلس الشعبى الذى كان يتمتع بسلطة قضائية بخصوص شؤون العائلة والملكية وحل مختلف مسائل الادارة المحلية للمدينة . وفى الاوقات التى كانت السلطة الملكية تعيش خلالها مرحلة انحطاط وتدهور كانت صلاحيات المجلس الشعبى وامكانياته تزداد بالطبع . وفى بعض الاحيان كان يجتمع لحل هذه المسائل او تلك ، نيابة عن جميع المواطنين ، الشيوخ فقط ، اى قسمهم الاكثر نفوذا .

لقد اتسمت المدن الرافدية منذ نشوئها فى اواخر الالف الرابع ق . م . وحتى نهاية العصور القديمة بنظام الادارة الذاتية لافراد المجتمع الاحرار والمتساوين شكليا المجتمعين فى

اطار المجلس الشعبى . وفى غضون قرون عديدة لم ينقطع الصراع بين السلطة الملكية والمجلس الشعبى . وحتى حين كانت الدولة الآشورية فى اوج جبروتها عندما اسس ملوك آشور فى القرنين الثامن والسابع امبراطورية ضخمة تمتد من مصر الى ميديا وكانت سلطتهم فى البلدان الخاضعة غير محدودة فانهم كانوا يضطرون ، مع ذلك ، الى خوض صراع مستمر ضد اهالى المدن الآشورية الذين كانوا يذودون عن حقوقهم المدنية التقليدية . وان المدن الآشورية ، بسعيها الراسخ للحفاظ على ادارتها الذاتية القديمة واستقلالها عن دائرة اختصاص الملك ، كانت تسبب لملوك آشور هموما اكثر من البلدان التابعة . وقد وصلتنا اهاج سياسية كانت تستهدف تبرير الطابع الابدى لامتيازات المواطنين وتعزيز شعور الفخر والاعتزاز بحرياتهم . وقد برهن المجلس الشعبى فى بلاد الرافدين على جدارته وحيويته وقدرته على التلاؤم والتكيف فقد عاصر الامبراطوريتين البابلية والآشورية وملوك الفرس والاسكندر المقدونى . وان زوال المجلس الشعبى كان يعنى الانتقال من العصور القديمة الى القرون الوسطى فى آسيا الامامية وفقدان سكان المدن فى المنطقة المذكورة لحقوقهم المدنية ولحرية الفكر السياسية . وبتعبير آخر فان الخط الفاصل بين العصور القديمة والقرون الوسطى يمر بتلك المرحلة التى ادى فيها زوال المجلس الشعبى الى تحول فئة المشاعيين القوية المتماسكة الى طبقة مضطهدة .

وتشير النصوص التى قام بدراستها داندامايف الى ان السكان التابعين المحرومين من الحقوق المدنية لم يستطيعوا

الاشتراك فى اعمال المجلس الشعبى وان هذا القسم من السكان كان يتألف من فئتين منفصلتين ويضم ، قبل كل شيء ، عددا كبيرا جدا من الزراع الذين كانوا يعملون فى اراضى الدولة والاراضى التابعة للمعابد والافراد . ولم يكن هؤلاء يحسبون كعبيد ولذلك حظر بيعهم . ولكن لم يكن لهم الحق فى مغادرة مكان اقامتهم بدون موافقة اسيادهم . وكان عليهم ان يقدموا جزءا كبيرا من المحصول الى مالك الارض . ويبدو ان هؤلاء الزراع كانوا فى البداية احرارا ثم حرموا من اراضيهم ووقعوا تدريجيا فى تبعية اشخاص آخرين .

لقد شغل العبيد مكانا هاما فى المجتمع البابلى . ففى الالف الاول قبل الميلاد ازداد عددهم ازديادا كبيرا بالمقارنة مع المراحل السابقة من تاريخ بلاد الرافدين . وكانت المعابد والدور التجارية والاشخاص الاثرياء يملكون مئات العبيد . اما سكان بابل ذوو الدخل المتوسط فكان كل واحد منهم يملك عددا قليلا من العبيد يتراوح بين الثلاثة والخمسة . وكان العبيد ملكا كاملا لاصحابهم يمكن بيعهم ووهبهم الخ . وعلى الرغم من ان عمل العبيد كان يتمتع باهمية كبرى فى النظام العام للعلاقات الاجتماعية فانه لم تكن فى بابل ورشات ضخمة او عقارات وضياع كبيرة تعتمد على عمل العبيد . ولم تشهد بابل انتفاضات او ثورات للعبيد حيث كان احتجاجهم على النظام الاجتماعى ـ الاقتصادى السائد يتخذ طابعا عفويا . وتذكر النصوص حالات عديدة كان العبيد فيها يهربون من مالكيهم

ويتظاهرون بانهم من افراد المجتمع الاحرار . اما العبيد العصاة الذين قاموا بعدة محاولات للهرب فقد كانوا يوضعون فى بيوت عمل خاصة تسود فيها انظمة السجون . وثمة بعض الحالات المعروفة التى كان العبيد خلالها يهجمون على اسيادهم ويقتلونهم .

ان الدراسة الدقيقة للنصوص قد بينت انه كان فى بابل خلال الالف الاول قبل الميلاد عدد كبير الى حد ما من العبيد الذين خصص لهم اصحابهم ممتلكات معينـــة (بيكوليوم) كانت تضم الحقول والورشات الحرفية ورأس المال اللازم لمزاولة التجارة او الربا الخ . وكان بوسع العبيد التصرف بهذه الممتلكات على ان يقدموا سنويا الى مالكيهم جزءا معينا من المداخيل . وضمن هذه الفئة من العبيد كان هناك قسم كبير من الاغنياء الذين كانوا يشترون عبيدا آخرين او يستأجرون العمال والصناع الاحرار للعمل فى مزارعهم وورشاتهم . ولكن هؤلاء العبيد الميسورين لم يكن بمقدورهم ان يفندوا انفسهم ويحصلوا على حريتهم نظرا لان حق عتق العبد كان ، فى كل الاحوال ، يعود فقط الى مالكه . وكلما ازداد العبد ثراء صعب على سيده اخلاء سبيله . وبالطبع لم يكن يتمتع بمثل هذا الوضع المتميز نسبيا سوى اقلية من العبيد اما القسم الاعظم منهم فقد كانوا يعملون تحت رقابة المالكين او النظار ولم تكن عندهم اية ممتلكات .

وخلال الالف الاول قبل الميلاد طرأت فى بابل تطورات كبيرة على نظام استعباد المستدينين العاجزين عن

ايفاء ديونهم ، اذ لم يعد للدائن الحق فى بيع المدين المفلس الى شخص ثالث وانما كان بوسعه فقط ارغامه على العمل لديه بلا مقابل حتى يسدد دينه . وكان الناس قد توقفوا منذ زمن طويل عن التقيد بقوانين حمورابى التى تحدد مدة معينة لاستعباد المستدينين .

وابتداء من النصف الثانى للقرن السابع قبل الميلاد اصبح التركيب الاثنى لسكان بابل فسيفسائيا الى حد كبير اذ كانت البلاد قد اغرقت بالقبائل الكلدانية والآرامية التى عاش افرادها جنبا الى جنب مع السكان المحليين . وكان هناك ايضا ضمن الغرباء مهاجرون هربوا من بلادهم الى بابل لاسباب مختلفة فضلا عن التجار وفئات اخرى بما فى ذلك العمال الاجراء الموسميون القادمون من البلدان المجاورة طلبا للرزق .

ويتسم تاريخ بابل فى القرون ٧ ــ ٥ قبل الميلاد باشتداد عمليات الاختلاط الاثنى وتعديدية الثقافات والتصورات الدينية لمختلف الشعوب . وعلى سبيل المثال تشير وثائق دار العمل «موراشو» التى وضعت فى نيبور وضواحيها فى النصف الثانى من القرن الخامس ، الى ان حوالى ثلث اسماء الاشخاص المتعاقدين والشهود غير بابلية . وبين هؤلاء الاجانب كان هناك مصريون وايرانيون وعيلاميون وليديون وارمن وعرب وهنود وغيرهم .

ويمكن التوصل الى اصل هؤلاء الاشخاص من خلال ما يرد فى النصوص من اشارات مباشرة الى انتمائهم الاثنى . فمثلا فى طائفة من الحالات تسمى النصوص المستوطنين

المنحدرين من مصر «مصرايا» . وفى حالات اخرى يتبين انتماؤهم الاثنى من اسماء العلم المركبة التى تتضمن اسماء آلهة مصرية مثل آمون وايزيس ، الخ .

وينشأ هنا السؤال التالى : كيف كانت تتشكل العلاقات بين سكان بابل الاصليين والاجانب الذين عاشوا فى بابل ردحا طويلا من الزمن او على مدى حياتهم كلها وكيف كان الوضع القانونى لهؤلاء الاجانب ؟ وقد برهن دانداماييف استنادا الى الوثائق القانونية الشخصية البابلية على ان ممثلى الشعوب المختلفة كانوا يعيشون جنبا الى جنب ويقيمون علاقات عملية مع بعضهم البعض ويتزاوجون فيما بينهم . فمثلا قام احد العيلاميين بتزويج ابنته الى مصرى وفقا لعقد الزواج المحرر ببابل فى عام ٥١١ قبل الميلاد . وكان ضمن شهود العقد فرس وبابليون وآراميون وكذلك عدة اشخاص من ممثلى الشعوب الاخرى .

ويرى دانداماييف ان السمة الاساسية للوضع الدينى فى بابل كانت تكمن فى عدم غرس روح التعصب تجاه معتقدات الشعوب الاخرى . ولذلك فان الاشخاص الذين وجدوا انفسهم لاسباب ما فى الغربة وبقوا على ولائهم لآلهتهم التقليدية كانوا مع ذلك ، يعبدون آلهة ذلك البلد الذى يقيمون فيه . وان الشرق القديم لم يعرف الموقف العدائى من عادات وتقاليد وثقافات الشعوب المجاورة والبعيدة .

وكان الغرباء المقيمون فى بابل يتخذون اسماء بابلية مركبة تتضمن اسماء آلهة مثل ندنتو— بعل («هبة الرب

بعل») وبعل ــ ابنى («مخلوق الرب بعل») الخ او على العكس فقد كان البابليون يسمون اولادهم باسماء مركبة من اسماء آلهة شعوب اخرى (مثلا ، متريدات ــ «عطية الرب مترا» ، نسبة الى اسم الرب الايرانى) .

وقد اتصف المجتمع البابلى بحرية الاديان التى لم تكن تعود الى اسباب او دوافع سياسية وانما جاءت نتيجة لانعدام مفهوم العقيدة الباطلة وغياب التصورات حول اى شكل من اشكال الهرطقة . وكان الغرباء المقيمون فى بلاد الرافدين القديمة يؤمنون بكل سهولة فى الآلــهـــة البابلية التقليدية رغم انه لم يكن احد يرغمهم عــلى ذلك

والى جانب ذلك فان الشرق القديم لم يعرف الخلافات والصراعات القائمة على اساس اثنى او الحقد العرقى والشعور بتفوق شعب على شعوب اخرى . وكان الغرباء يندمجون بسهولة فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية لوطنهم الجديد . ومن الامثلة الساطعة على خلو مجتمعات العصور القديمة من الكراهية العرقية مؤلفات هيرودوتوس الذى نظر باهتمام عميق واعجاب كبير الى المنجزات العظيمة للحضارات الشرقية وخاصة البابلية والمصرية .

ولم تلجأ الدولة فى بابل الى فرض حضارة الطبقات السائدة ولغتها على الشعوب المغلوبة فهذه الطبقات لم تكن بكل بساطة مهتمة بان تزيح لغتها من طريقها لغات الشعوب الاخرى وبالاحرى كانت لامبالية تماما تجاه هذا الامر . ومع ذلك ثمة حالات غير قليلة كانت بعض اللغات خلالها

تخلى الطريق للغات اخرى وكان يجرى تدريجيا استبدال اللغة فى هذه المنطقة او تلك . فعلي سبيل المثال كان السومريون والاكاديون — وهما شعبان مختلفان من النواحى العرقية واللغوية والحضارية — يعيشان جنبا الى جنب منذ الربع الاول للالف الثالث . ومع ذلك فان هذين الشعبين عاشا بسلام فى منطقة واحدة وعلى مدى قرون عديدة الى ان خرجت اللغة السومرية تدريجيا من حيز الاستعمال الواسع فى اوائل الالف الثانى بعد ان تحولت الى لغة العبادة والادب والعلوم ، اما السومريون انفسهم فقد اندمجوا بالاكاديين . غير ان ذلك كان عملية تاريخية طبيعية لم يسع احد الى التعجيل بها او تأخيرها .

والاكثر من ذلك ان الطبقات المسيطرة كانت تستخدم عن طيب خاطر لغات الشعوب المغلوبة . فعلى سبيل المثال عندما انشأ الآشوريون امبراطوريتهم الضخمة فى القرون ٩ — ٧ قبل الميلاد اخذوا ينتقلون بالتدريج الى استعمال لغة القبائل الآرامية المغلوبة وخلال القرون اللاحقة اندمج الآشوريون بالآراميين .

وعلى هذا النحو فان اولئك الذين عاشوا فى بابل كانوا احرارا باستثناء اسرى الحرب الذين سوقوا الى هناك واسترقوا . ولكن كيف كان وضعهم القانونى ؟ ان هؤلاء الناس لم يكونوا يتمتعون بالحقوق المدنية خلافا لسكان المدن البابلية الاحرار الاصليين نظرا لانهم لم يكونوا يمتلكون اراضى فى نطاق الرصيد المشاعى للمدينة ولذلك لم يكن بوسعهم ان يصبحوا اعضاء فى المجلس الشعبى . ولكن قسما من

هؤلاء الاشخاص (عادة فى الجيل الثانى والاجيال اللاحقة) كان باستطاعتهم ان يصبحوا مواطنين بعد ان يقتنوا ارضا ضمن دائرة الرصيد المشاعى للمدينة .

وفى بعض الحالات كان الغرباء يقطنون احياء معينة بمجموعات كبيرة ومتراصة الى هذا الحد او ذاك . وكان بوسع مثل هؤلاء الناس ان يشكلوا تنظيما خاصا للادارة المحلية بمثابة المجلس الشعبى . فمثلا تذكر احدى الوثائق المحررة فى عام ٥٢٩ قبل الميلاد ان مجلس الشيوخ — المصريين اصدر قرارا حول الحصص الزراعية ينص على ان يقوم الاشخاص الواردة اسماؤهم باستخدام هذه الارض بصورة مشتركة وخلال فترة معينة وان يتقاسموا فيما بينهم المحصول الذى يجنونه منها . وقد جرى تحرير هذه الوثيقة فى مدينة بابل العاصمة وهى تشهد على ان المصريين كان لديهم فى هذه المدينة مجلس شعبى خاص بهم . وفى مدينة نيبور خصصت لكل مجموعة اثنية رقعة معينة من الارض كانت تقع تحت اشراف رئيس المجموعة .

ان هيئات الادارة المحلية للاقليات الاثنية فى بابل تذكرنا بنظام «بوليتيغما» فى العصر الهلنستى اى المجلس الشعبى للاقليات الاثنية الذى كان قائما الى جانب المجالس الشعبية للمدن البابلية . وعلى هذا النحو فان البوليتيغما التى يعتبرها علماء التاريخ مؤسسة هلنستية بحتة ظهرت فى الواقع قبل وقت طويل من احتلال الاسكندر المقدونى لبلاد الرافدين .

ويغدو تمازج وتفاعل عناصر الثقافات الشرقية واليونانية

من اهم ملامح الحضارة الهلنستية . ولكن ما هى الجوانب الجديدة التى جاء بها فى هذا الخصوص الفتح المقدونى لبلاد الرافدين ؟ ان الاتصالات الاثنية النشيطة ، التى ساعدت على النشوء التدريجى للحضارة المادية والروحية الجديدة ، كانت قد جرت قبل قدوم الاسكندر المقدونى بفترة طويلة مما سهل فيما بعد انتصار الهلنستية .

وبتعبير آخر فان المؤسسات الاجتماعية ـ الاقتصادية الاساسية والتصورات الايديولوجية التى اتصفت بها المرحلة الهلنستية كانت قد نشأت فى بابل قبل الغزو المقدونى . وان هذا الغزو لم يوقف مطلقا التقاليد المحلية الادارية والاقتصادية والقانونية والثقافية . وطبعا اختلف الامر الآن بعض الشىء ، حيث اصبح يسيطر على البلاد حكام غرباء وظهرت فئة كبيرة من السكان اليونانيين . ومع ذلك فلم يكن هذا شيئا جديدا بالنسبة لبابل . ففى غضون قرنين قبل الاسكندر المقدونى كان يحكم بلاد الرافدين ملوك فرس وكانت البلاد مفتوحة على مصراعيها لاستقبال المهاجرين . ولكن بابل لم تقطع تقاليدها المحلية فى عهد الملوك الفرس واستمرت الحضارة البابلية القديمة فى تطورها الذى لم يتوقف بعد احتلال المقدونيين لبلاد الرافدين .

وبفضل الدراسة التى قام بها البروفسور داندامايف فى كتابه «كتبة بابل» (موسكو ، ١٩٨٣) اصبح ممكنا النفاذ بصورة اعمق الى الحياة الروحية لبابل القديمة . وهذا الكتاب يعتبر الاول من نوعه فى علم الآشوريات الذى يتحدث حول الكتبة والمترجمين والعلماء وكذلك تقاليد الكتابة المسمارية

فى بابل خلال الالف الاول . ويتناول الكتاب ايضا قضايا التعليم واعداد الكتبة فى المدارس وفن الارشيف ومصطلحات صنعة الكتابة والنسخ . كما يسلط الكتاب الاضواء على الوضع الاجتماعى للكتبة وحالتهم المادية ودورهم فى جهاز الدولة ومؤسسات المعابد وفى خدمة الاغنياء . ويورد المؤلف هنا سيرة حياة بعض الكتبة ويتطرق الى اعمارهم .

وقد استخدمت فى الكتاب مصادر مختلفة ومنها آلاف الوثائق العملية ، والحقوقية الشخصية ، والمالية والنصوص العلمية والادبية والمراسلات الخاصة والرسمية لكبار موظفى الدولة والمعابد . ولدى مقارنة وموازنة شتى المصادر توصل العالم السوفييتى الى معلومات قيمة حول حياة ونشاط الكتبة ومنشأهم الاجتماعى .

لقد كانت للكتبة مكانة مرموقة فى حضارة بلاد الرافدين القديمة حيث وضعوا مؤلفات مسمارية غنية . ولم يكن بوسع الحكام والكهنة والاثرياء الاستغناء عن خدماتهم . وشغل بعض الكتبة مناصب هامة جدا وكان بمقدورهم ممارسة التأثير على الملوك . كما كان الكتبة يشاركون فى المفاوضات الدبلوماسية الهامة .

وخلال الالف الاول قبل الميلاد كان قسم من الكتبة البابليين يكتبون باللغة الآرامية على ورق البردى والقضيم . ولكن الفئة الاساسية من الكتبة كانت تضم اولئك الذين كانوا يكتبون على اللوحات الطينية بالخط المسمارى .

والجدير بالذكر ان وظائف الكتبة كانت تتسم بطابع علمانى ولم تكن مرتبطة بنشاط الكهنة . ولكن ذلك لا

يعنى ان جميع الكتبة كانوا مشغولين دائما باعمال الكتابة . فعلى سبيل المثال كان كاتب المعبد ، فى المقام الاول ، موظفا ولم تقتصر مهمته على ممارسة الاعمال الكتابية حيث كان يقوم الى جانب ذلك بانجاز العمليات المالية والتجارية للمعبد . فكان يجمع ايجارات الحقول والبيوت الوقفية ويسلم المواد الغذائية كقرابين غير ذبيحة ويشرف على تنفيذ شتى الاعمال الخ . كما كان العديد من الكتبة يمارسون ايضا وظائف المحاسبين .

وكان الكثير من الكتبة يعملون فى المعابد فترات طويلة جدا تصل فى اغلب الاحوال الى ثلاثين عاما بل وتبلغ احيانا ٤٠ عاما . وان مثل هذه الوظيفة كانت تمثل بالنسبة لهم المصدر الاساسى للدخل . وبالاضافة الى ذلك فقد كان الكتبة يقومون بتأجير الحقول الزراعية ويمارسون التجارة واعمال الربا الخ . وكان يخرج من صفوفهم كبار موظفى المعابد .

ومع ذلك فان نشاط الاغلبية الساحقة من الكتبة لم يكن مرتبطا بالخدمة لدى الدولة او فى مؤسسات العبادة . فقد كان هؤلاء الاشخاص يحررون العقود للافراد العاديين ولذلك يجب الا نخلط بينهم وبين الكتبة الادبيين الذين كانوا يمارسون نسخ النصوص القديمة .

ويعتقد العلماء عادة ان التعليم فى بابل كان يتسم بطابع مغلق وانه كان وقفا على الكتبة دون غيرهم وكان ينتقل بالوراثة فى الاسرة من الآباء الى الابناء . ولكن مهنة الكاتب او الناسخ فى الالف الاول قبل الميلاد لم تكن ، على كل

حال ، تنتقل بالضرورة من الاب الى الابن . وعلى الرغم من ان تقاليد فن الكتابة قد استمرت عند بعض الاسر مئات السنين الا انه لم تكن هناك فئات مغلقة من الكتبة . وان الكثيرين منهم لم ينحدروا من الفئات العليا للسكان ولم يكونوا من اخلاف الكهنة والكتبة بل كانوا ايضا من ابناء الحرفيين وصغار التجار والرعاة وصيادى الاسماك . وكان التعليم منتشرا الى حد واسع نسبيا وكان هناك عدد كبير من الموظفين الذين يعرفون القراءة والكتابة .

وباستثناء بعض الحالات النادرة كان الكتبة من حيث وضعهم الاجتماعى احرارا . ومع ان مهنة الكاتب كانت محترمة فان مستوى معيشة القسم الاعظم من الكتبة لم يكن يتجاوز مستوى حياة الحرفيين والزّرّاع العاديين .

ان التحليل الدقيق لعدد ضخم من النصوص المسمارية قد اتاح بناء تصور اوسع وافضل حول تطور الحضارة الرافدية ومستوى التعليم وطابعه .

ولدى دراسة تاريخ بابل وحضارتها استخدم داندامايف مواد تتعلق بايران القديمة حيث من المعروف ان كلا البلدين (بلاد الرافدين وايران) كانا مرتبطين ارتباطا وثيقا بعضهما ببعض كما ان النصوص البابلية من عصر الاخمنيين تساعد على وضع تصور اكثر تفصيلا عن تاريخ الحضارة البابلية .

وقد نشرت لداندامايف ثلاثة كتب حول تاريخ وحضارة ايران القديمة ومؤسساتها الاجتماعية . ويحمل الكتاب الاول العنوان التالى : «ايران فى عهد الاخمنيين الاوائل» الذى

صدرت منه الى جانب الطبعة الروسية فى الاتحاد السوفييتى طبعة فارسية فى ايران (طهران ، ١٩٧٣) وكذلك طبعة المانية معدّلة وموسعة فى المانيا الغربية * . وقد منح المؤلف لقاء الطبعة الالمانية لهذا الكتاب جائزة الاكاديمية الفرنسية للنقوش والآداب . ويتضمن الكتاب دراسة دقيقة وشاملة لنقش بيهيستون الذى يعود الى الملك الفارسى داريوس الاول . انه نقش جدرانى ضخم كتب حوالى عام ٥١٩ قبل الميلاد باللغات الفارسية القديمة والعيلامية والاكادية وهو يتحدث بصورة اساسية عن الانتفاضات المتعددة لشعوب الامبراطورية الاخمنية ، التى كانت اول امبراطورية عالمية امتدت من بلاد النوبة فى جنوب مصر وحتى آسيا الوسطى وشمال غرب الهند وجمعت تحت سيطرة الملوك الفرس عشرات البلدان والشعوب .

لقد قام المؤلف فى هذا البحث بتحليل المراجع المختلفة ومنها كتابات الملوك الاخمنيين والوثائق العيلامية الادارية ـــ المالية والنصوص البابلية القانونية الشخصية والاعمالية والمخطوطات الآرامية والمصرية المدونة على ورق البردى ومؤلفات المؤرخين الاغريق الخ . ويتناول الكتاب بالتفصيل عمليات تشكل الامبراطورية الفارسية العالمية والصراع السياسى الحاد بين مختلف فئات السكان الاجتماعية والانتفاضات الشعبية العديدة التى عمت الدولة الفارسية خلال السنتين ٥٢٢ ـــ ٥٢١ قبل الميلاد . وان الاستنتاجات التى

---

* M. A. Dandamaev. Persien unter den ersten Achämeniden. Wiesbaden, 1976.

توصل اليها المؤلف تسلط الاضواء من زاوية جديدة على تاريخ الاخمنيين وتعطى تفسيرا جديدا لطابع الحضارة البابلية .

كما اصدر دانداماييف بالاشتراك مع لوكونين كتابا بعنوان «حضارة واقتصاد ايران القديمة» (موسكو ، ١٩٨٠) . وقد صدرت طبعة انجليزية معدّلة لهذا الكتاب فــى عام ١٩٨٦ عن دار نشر Cambridge University Press.

وهذه الدراسة تتناول الحضارة المادية والايديولوجيا والدين عند الميديين والفرس منذ مجيئهم الى الهضبة الايرانية فى القرن الحادى عشر وحتى النصف الثانى من القرن الرابع قبل الميلاد . وفى ضوء المعطيات الحديثة لعلم الآثار والمصادر الكتابية تجرى معالجة قضايا هامة تتعلق بتاريخ واقتصاد الدول القديمة فى اراضى ايران بما فى ذلك الدولة البابلية . وقد بحثت بالتفصيل على نحو خاص المؤسسات الاجتماعية (القرون ٦ ــ ٤ ق . م .) والادارة الحكومية ، والانظمة القانونية ، والعلاقات الزراعية ، ونظام الرق والبنية الاجتماعية ، ونظام الجزية واعمال السخرة الالزامية والانظمة المالية والفنون العسكرية الخ . وقد خصصت فصول مستقلة لدراسة المدينتين الشهيرتين باسارغادام وبرسوبوليس وغيرهما من الآثار التاريخية الضخمة . وللمرة الاولى فى الادبيات العلمية تجرى بصورة منفصلة دراسة كافة الآثار الميدية المعروفة .

لقد برهن المؤلفان على ان المؤسسات الاجتماعية ــ الاقتصادية والتقاليد الثقافية التى تشكلت خلال المرحلة

الاخمنية لعبت دورا كبيرا فى التاريخ العالمى وانها فى فترات لاحقة كانت تخدم دولة الاسكندر المقدونى والسلوقيين والبطالسة والبارثيين والساسانيين الخ . وبيّنا ايضا ان القانون البابلى ، الذى وصل الى اوج تطوره فى المرحلة الاخمنية ، قد مارس تأثيرا معينا على صياغة الحقوق الرومانية وان نجاحات علم الفلك الرياضى البابلى والطب المصرى والفلسفة اليونانية ، التى ظهرت فى البداية وتطورت فى آسيا الصغرى الخاضعة للاخمنيين ، كانت اضخم منجزات الحضارات القديمة وان الاعمال الفنية التى ابدعها الصناع المهرة الايرانيون قبل حوال ٢٥٠٠ عاما دخلت بثبات فى خزانة الحضارة العالمية .

وصدر لدانداماييف ايضا كتاب بعنوان «التاريخ السياسى للدولة الاخمنية» (موسكو ، ١٩٨٥) الذى يتضمن لوحة كاملة لتاريخ الدولة الاخمنية فى القرن السادس قبل الميلاد التى استمرت اكثر من قرنين . وحيث ان الدراسات المتعلقة بايران القديمة تتناول عادة التاريخ السياسى بصورة عابرة وتنقطع عند القرن الخامس فان المؤلف يولى اهتماما خاصا فى كتابه بالقرنين الخامس والرابع اى المرحلة التى تلت الحروب الفارسية ـــ اليونانية الشهيرة . وقد جرت للمرة الاولى فى علم التاريخ دراسة هذه المرحلة على نحو مفصل واستخدام مختلف المصادر الكتابية والشواهد الاثرية .

وعلى العموم فان الدراسة الشاملة التى عكف على وضعها سنوات طويلة المستشرق السوفييتى المعروف المختص بتاريخ

آشور وايران والخبير الضليع فى النصوص المسمارية قد اتاحت بناء تصور جديد حول طابع المجتمع البابلى فى الالف الاول قبل الميلاد وحضارته وحول مساهمة شعوب الامبراطورية البابلية ـــ الآشورية فى حضارات الشرق القديم . كما ان العالم المذكور اضاف تعديلات هامة على فهم القوانين العامة لتطور المجتمعات الشرقية القديمة وخصائصها الفريدة التى تميزت بها بابل وايران .

الفصل السادس

تاريخ حضرموت وحضارتها : قضايا دراستهما والبحوث الاخيرة

المؤلف: غريازنيفسكي
ترجمة: د. جابر ابي جابر

بعد «الاكتشافات التاريخية ــ الاثرية العظيمة» التى جرت خلال القرنين التاسع عشر والعشرين فى بلدان الشرق الادنى ومصر وايران والهند والتى جعلت الآثار الرائعة للحضارات القديمة فى هذه البلدان فى متناول العلم العالمى والحضارة العالمية وساعدت على اعادة رسم لوحة التاريخ البشرى فى مراكزه الرئيسية ، اصبحت دراسة الجزيرة العربية تكتسب اهمية اكبر فاكبر باعتبارها واحدة من ابرز قضايا العلوم التاريخية المعاصرة . ويبدو انه قد حان الوقت فعلا لـ«اكتشاف الجزيرة العربية» ، مهد الاسلام وأحد مراكز الحضارة البشرية غير المدروسة تقريبا وتحويلها من بلاد غامضة الى بلاد معروفة وتحديد مكانتها الحقيقية فى المسار العام للتاريخ العالمى .

واذا كانت اعمال البحث والتنقيب فى الاطراف الشمالية لشبه الجزيرة العربية قد بدأت على تخوم القرنين ١٨ ــ ١٩ فان العلماء لم يتمكنوا الوصول الى المناطق الواقعة فى الجنوب والجنوب الشرقى منها الا منذ فترة قريبة

نسبيا . وان دراسة آثار الماضى المكتشفة هنا تبدل جذريا التصورات السائدة فى السابق حول مضمون تاريخ الجزيرة العربية وتسلسله الزمنى عموما وتؤدى الى تغيير الآراء الشائعة حول الدور الذى لعبته بعض مناطقها فى تاريخ البلدان والشعوب المجاورة لها .

ان الفحص التاريخى ــ الاثرى للقسم الشمالى ــ الشرقى (منطقة حضارات دلمون وبلاد ماغان القديمة) وللقسم الجنوبى الغربى (اليمن) والبحوث التى تجرى حاليا فى اواسط الجزيرة العربية (منطقة قرية الفاو) قد بينت وجود مراكز قديمة للحضارات البشرية هناك اسهمت منجزاتها بقسط كبير فى تاريخ الحضارة العالمية . أن العديد من مصنوعات العصر الحجرى التى عثر عليها فى هذه المناطق من شبه الجزيرة العربية وكذلك الاكتشافات التى قامت بها البعثة السوفييتية اليمنية المشتركة خلال الاعوام ١٩٨٣ ــ ١٩٨٥ تدل على ان الجزيرة العربية ، وقبل كل شىء القسم الجنوبى منها ، كانت مأهولة بالانسان البدائى فى ابكر مراحل نزوحه من افريقيا (قبل اكثر من مليون عام) وبقيت مأهولة على مدى كافة عصور التاريخ البدائى . وقد لعبت هذه المناطق من الجزيرة العربية دورا هاما فى اقامة الاتصالات البرية والبحرية بين دول الشرق القديم وفى عملية تبادل المواد الطبيعية والمصنوعات الحرفية والانجازات الحضارية والتكنولوجية بين شعوب حوض البحر الابيض المتوسط والشرقين الادنى والاوسط والهند وشمال شرق افريقيا فى العصور القديمة وكذلك فى القرون الوسطى جزئيا . وان

مثل هذه الصلات كانت عاملا هاما من عوامل الحياة الاقتصادية والثقافية لهذه الشعوب خلال العصور القديمة والوسطى التى اعطت زخما كبيرا لعملية التقدم العام . واخيرا فان الجزئين الشمالى الشرقى والجنوبى الغربى من الجزيرة العربية لم يقعا على مفترق الصلات التجارية والحضارية الدولية فحسب بل كانا ، ومنذ اوائل العصر الحجرى ، حلقة وصل تارة ونقطة انطلاق تارة اخرى لحـــركات النزوح الكبيرة التى حددت فى نهاية المطاف الملامح العامة للخارطة الاثنية ــ اللغوية للشرق الادنى والبلدان المتاخمة له .

ان نتائج الابحاث المتعلقة بهذه المناطق والتى لا تزال مبعثرة حتى الآن تدل بصورة مقنعة على ان دراسة الجزيرة العربية وخاصة اطرافها الجنوبية الغربية تفيدنـــا بمعلومات لا يمكن بدونها ان نتصور اللوحة الكاملة والمترابطة للتطور التاريخى لكافة شعوب المنطقة الواسعة التى تشمل آسيا الامامية وشمال شرق افريقيا والتى تمثل بالتأكيد مهد البشرية .

ومن هنا تأتى الاهمية العلمية والحضارية العامة للدراسات التى يقوم بها حاليا فى اراضى الجزيرة العربية علماء من مختلف البلدان بما فى ذلك البلدان العربية . وان مهمة البعثة السوفييتية ــ اليمنية المشتركة ، التى بدأت ابحاثها المنهجية منذ عام ١٩٨٣ فى حضرموت وجزيرة سقطرة ، تكمن فى المساهمة باكبر قسط ممكن فى حل هذه المسألة العامة من مسائل العلوم الانسانية المعاصرة .

وهذه البعثة ، التى قام بتنظيمها فى عام ١٩٨٢ المركز اليمنى للدراسات الحضارية وعلم الآثار والمتاحف ومعهد الاستشراق التابع لاكاديمية العلوم السوفييتية ، كانت اول بعثة مشتركة للابحاث الانسانية فى تاريخ العلاقات العلمية والثقافية بين الاتحاد السوفييتى والبلدان العربية . وضمن نطاق برنامجها العلمى يعكف الخبراء السوفييت واليمنيون على جمع المواد وتحقيق البحوث المتعلقة بعدة مسائل اساسية تتيح معالجتها تصور العملية التاريخية فى حضرموت على مدى مراحلها الرئيسية ووقائعها النموذجية التاريخية المتميزة فى مجال النشاط الاقتصادى وفى ميادين تطور المؤسسات الاجتماعية والحضارة المادية والحياة الروحية . ووفقا للطابع المتعدد الجوانب الذى يتسم به برنامج البعثة العلمى يشارك فى اعمالها مؤرخون وعلماء آثار واثنوغرافيون وعلماء لغة وانتروبولوجيون ومعماريون وجغرافيون .

وخلال المواسم الثلاثة الاولى (١٩٨٣ — ١٩٨٥) جمع اعضاء البعثة موادا ضخمة ساعدتهم على الشروع فى دراسة موضوعات كبيرة مثل اتجاهات تغير البيئة الطبيعية بحضرموت (الخلفية الايكولوجية) والموارد الطبيعية ودورها فى تطور المجتمع الحضرموتى القديم والقروسطى ، وتطور فن الصناعة الحجرية ، والمراحل الاساسية لتاريخ المجتمع البدائى فى جنوب الجزيرة العربية ، والمواصفات الانتروبولوجية لسكان حضرموت وسقطرة ، وقضايا الاصل الاثنى لسكان جنوب الجزيرة العربية ومنشأ الحضارة الزراعية والرعوية ومراحل تطورها الاساسية فى حضرموت (الالف الاول قبل الميلاد — القرن

السادس الميلادى) ، وانواع منشآت الرى ، وتنظيم اعمال الرى ، والفن المعمارى واعمال البناء ، والسمات التاريخية — المقارنة لانماط ونماذج السكان الاقتصادية والحضارية ، وطقوس الدفن والمعتقدات الدينية ، وفن بناء المعابد ، ولغات وفولكلور سقطرة وحضرموت ، وجغرافية حضرموت التاريخية ، والسمات التاريخية — الاثنوغرافية والاجتماعية — الاقتصادية للمدن والمستوطنات (القرى) المعاصرة فى حضرموت .

ان المواد الميدانية التى جمعت خلال مواسم الحفريات الثلاثة واسعة ومتنوعة . فهى تضم اكثر من ثلاثة آلاف من مختلف نماذج الادوات الحجرية ومواد الحضارة المادية المكتشفة اثناء الحفريات الاثرية بالاضافة الى اكثر من الف نقش قديم يعود الى الفترة الواقعة بين القرن الثامن قبل الميلاد والقرن الثالث للميلاد ، وشواهد كتابية من العصر الاسلامى ، ومخططات وخرائط طوبوغرافية لمواقع تاريخية واثرية من العصور القديمة والقرون الوسطى ، جرت فيها اعمال البحث والتنقيب بما فى ذلك المدن والقلاع والمستوطنات وابنية المعابد والبيوت السكنية الحديثة ، والرسوم التخطيطية لمنشآت الرى والرسوم ، والصور الفوتوغرافية المتعددة ، والافلام السينمائية ، وشرائط تسجيل العينات اللغوية والفولكلورية ، ونتائج الفحوص الطبية والانتروبولوجية الخ . وتتضمن هذه المواد معلومات واسعة وجديدة فى العديد من الجوانب ، وتتجاوز من حيث المحتوى والاهمية اطار تاريخ وحضارة حضرموت نفسها وتتيح فى بعض القضايا

الانتقال من الفرضيات الى النظريات المدعمة بالحجج والبراهين الكافية .

ان المكتشفات الاثرية من العصر الحجرى التى جرت خلال الاعوام ١٩٣٠ — ١٩٦٠ قليلة وغير مـــدروسة وكانت تحدث عن طريق الصدفة . وقد خلقت تصورا مفاده ان الانسان البدائى سكن بصورة نادرة جنوب الجزيرة العربية وخاصة حضرموت فى مرحلة متأخرة نسبيا (العصر الحجرى المتوسط) كما هو الحال بالنسبة لشبه الجزيرة العربية كلها وان وتيرة تطور صناعة الادوات الحجرية كانت بطيئة هناك .

ولكن الابحاث الميدانية تدحض هذه الاستنتاجات . ففى جنوب غرب حضرموت (وادى دوعن وروافده) وجنوب غرب البلاد (منطقة لحج) اكتشف ٤١ موقعا من مواقع العصر الحجرى وجمعت حوالى اربعة آلاف عينة من الادوات الحجرية . وللمرة الاولى فى شبه الجزيرة العربية يجرى العثور على موقعين للادوات التى ترجع الى اقدم مرحلة من مراحل العصر الحجرى والتى تسمى بالعصر الاولدوى الذى يبلغ عمر الطبقة العليا منه اكثر من مليون عام . وقد اكتشفت بالقرب من هذه المواقع فى وادى الجبر (الرافد الايسر لوادى دوعن) ثلاث مغارات من العصر الحجرى القديم التى تقع قرب بعضها البعض على كلا ضفتى النهر القديم . وخلال دراسة المغارات المذكورة تم العثور على حوالى الف اداة حجرية وبقايا لموقدين للنار وكمية كبيرة من عظام الحيوانات الصغيرة والضخمة التى كان يصطادها سكان المغارات القدماء . كما عثر قرب المغارات على عدد كبير

من البقايا النباتية على شكل بصمات للاوراق وعيدان النباتات وبقايا جذور الاشجار .

وبالاضافة الى الحفريات اجريت هنا ابحاث جيولوجية — جيومورفولوجية وباليومغناطيسية للطبقات الجيولوجية من اجل تحديد العمر المطلق للآثار المكتشفة . كما اخذت عينات للتحليل الغبارى . ان هذه المكتشفات والابحاث ، وخاصة الدراسة الشاملة للمغارات فى وادى الغوزة الجبلى (وهى اول آثار لكهوف من العصر الحجرى القديم يتم العثور عليها فى شبه الجزيرة العربية) ، جاءت كمساهمة هامة فى دراسة تاريخ المجتمع البدائى فى جنوب الجزيرة العربية وتتبع التبدلات التى طرأت على ظروفه الطبيعية — المناخية وتطور العالمين الحيوانى والنباتى فى الدهر الرابع . وهى ترسى الاسس لدراسة آثار العصر الحجرى القديم فى جنوب الجزيرة العربية وتبرهن على المبدأ الاساسى الذى ينص بان حقبة العصر الحجرى ممثلة فى جنوب الجزيرة العربية بكافة العصور الاثرية بدءا من العصر الاولدوى وحتى اواخر العصر الحجرى الحديث (الالفان الثالث والرابع قبل الميلاد) وفترة ظهور الحضارة الزراعية المبكرة هنا . وتتيح الدراسات الشاملة التى جرت تحديد نقطة الانطلاق بالنسبة للتسلسل الزمنى المطلق لشبه الجزيرة العربية . وكما يمكن ان نرى فقد اتضح انها قريبة من فجر التاريخ البشرى عموما .

ومن اصعب قضايا تاريخ الجزيرة العربية واكثرها تعقيدا قضية التوارث الاثنوغرافى الحضارى لدى الانتقال من عهد الى اخر ضمن العصر الحجرى ومن المجتمع البدائى الى

الحضارة الزراعية ــ الرعوية القديمة ، ومن ثم الى الحضارة العربية الاسلامية القروسطية . فما هى القبائل والشعوب التى كانت فى تلك العهود تقطن جنوب الجزيرة العربية وخاصة حضرموت والى اى منها تعود الآثار التى عثر عليها هنا ؟ لقد اعير اهتمام كبير لمعالجة هذه الطائفة من القضايا خلال الابحاث التاريخية ــ الاثرية والانتروبولوجية والاثنوغرافية ــ اللغوية التى قامت بها البعثة المذكورة .

وفى الاعوام ١٩٨٣ ــ ١٩٨٥ اكتشف العديد من الآثار الصخرية الضخمة التى تصادف ايضا فى المناطق الاخرى من جنوب الجزيرة العربية وتمت دراسة جزء منها . كما عثر على مثل هذه الآثار الصخرية فى جزيرة سقطرة . وقد جرى العثور على عشرة منها اثناء التنقيب حيث اعطت مادة اثرية متنوعة تدل على انها مدافن قديمة . وبيّن فحص البقايا العظمية التى تحتوى عليها هذه المدافن ان الدفن قد تم منذ حوالى خمسة آلاف سنة . وعثر بالقرب من المدافن على ادوات حجرية وعلى اماكن تصنيعها ، تعود الى العصر الحجرى الحديث . وتعطى هذه المكتشفات ، وللمرة الاولى ، الاساس الاكيد والمضمون لاعادة انشاء التاريخ القديم لجزيرة سقطرة الاسطرية ولتحديد زمن ظهور الحياة البشرية فيها والمواصفات الاثنوغرافية الحضارية لسكان سقطرة القدماء . كما قدمت هذه المكتشفات عونا كبيرا للابحاث الاثنو ــ لغوية والطبية والانتروبولوجية التى جرت هنا .

فى غرب حضرموت (اودية دوعن وضهر وعمد ورخية) اكتشف نموذج من الاثار التاريخية للمرحلة القديمة لم يكن

معروفا سابقا فى الجزيرة العربية ــ مدافن تتألف من عشرات المنشآت الواقعة على سطح الارض والمبنية من الحجر الخام . وهى تقع فى المنحدرات والاقسام المتدرجة عند سفوح الجبال . وتتخذ كل واحدة من هذه المنشآت شكلا دائريا وتتضمن حجرة دفن مستديرة او بيضوية مركبة من احجار موضوعة عموديا ذات عارضة شبه مقبقبة من الاحجار والصفائح الناتئة (البارزة) فوق بعضها البعض . ويبلغ طول المنشأة من متر الى متر ونصف ويصل طول قطرها الى ثلاثة امتار . وقد عثر داخل حجرات الدفن على بقايا مقابر بسيطة خالية من توابع الميت . وتتميز هذه المدافن بان كل قبر يقع ضمن سلسلة طويلة من المقابر المنفردة (يبلغ عددها ١٠ ــ ٣٠ ويتجاوز احيانا المئة ويصل طول هذه السلسلة الى ١٨٠ مترا) التى تستعيد فى شكل مصغر بنية منشأة الدفن الرئيسية . ولا يعرف حتى الآن تاريخ هذه المدافن والحضارة التى تخصها . ولكن من المؤكد انها لا ترتبط بالحضارة الزراعية لجنوب الجزيرة العربية فى الالف الاول قبل الميلاد وانما تعود ، على الارجح ، الى البدو ــ الرعاة القدامى من سكان حضرموت .

ان المواد التى حصلت عليها البعثة لا تعطى حاليا سوى بواكير الادلة المادية حول سكان جنوب الجزيرة العربية القدامى الذين عاشوا هنا قبل ظهور القبائل التى انشأت الحضارة الزراعية اليمنية القديمة . ومع ذلك فهى ترسم الملامح العامة لاتجاه جديد تماما فى الدراسات التاريخية ــ الاثرية لشبه الجزيرة العربية .

ان البرنامج العام للابحاث الاثرية للبعثة يقضى بانجاز مهمتين اساسيتين . وتتجلى المهمة الاولى فى اجراء حفريات ثابتة لمدينة نمطية بالنسبة للمجتمع الزراعى القديم والقروسطى فى جنوب الجزيرة العربية الذى تقوم بدراسته استنادا الى المواد التى عثر عليها فى حضرموت . اما المهمة الثانية فتكمن فى القيام بمسح اثرى تمهيدى فى كافة اراضى حضرموت من اجل ابراز وتسجيل الآثار ، التى وصلتنا والتى تعود الى مختلف الحضارات ومن اجل جمع المعلومات بصورة فعالة للقيام بدراسة مقارنة لها .

ولاجراء الدراسات الاثرية الثابتة وقع الاختيار على مجموعة واسعة من الانقاض فى غرب حضرموت قرب مصب وادى دوعن ، التى تشغل مساحة حوالى عشرة هكتارات وتسمى ريبون ، وتتضمن اربع مستوطنات ضخمة تحيط بها بقايا حقول قديمة وشبكة رى متطورة ومدافن كبيرة قديمة وعدة معابد تقع قرب المستوطنات وعلى منحدرات الجبال . ويوجد فى المستوطنة الرئيسية «ريبون — ١» (بالابعاد ٤٥٠×١٧٠×٤٥٠ مترا) اكثر من ثلاثين مجموعة بناء وبئران .

ان الحفريات التى جرت فى هذه المستوطنة خلال الاعوام ١٩٨٣ — ١٩٨٥ قد اعطت مواد تاريخية — حضارية وافرة تتيح البدء بالدراسة الشاملة لتاريخ ومختلف جوانب حياة هذه المدينة الكبيرة فى جنوب الجزيرة العربية خلال الالف الاول قبل الميلاد والقرون الاولى للميلاد ، التى كانت بمثابة مستوطنة مركزية لمجموعة كبيرة من السكان

المشتغلين فى الزراعة . وقد تم الكشف عن معبد (١٣,١× ١٥,٥ مترا) فى الضاحية الشمالية مكرس لآلهة الخصب عثترم (عثترم ذات حضران) ومعبد آخر فى الطرف الغربى من المدينة كان قد شيد تكريما لاله الشمس ذات حميم بالاضافة الى اربعة مبان سكنية ضخمة بما فى ذلك منزل لاحد سكان المدينة .

وقد عثر خلال موسمين من الاعمال الميدانية على اكثر من ألف شاهدة من الشواهد الكاملة والحطام التى تعود الى الفترة الواقعة بين الالف الثامن قبل الميلاد والقرن الثالث الميلادى . ويتضح تماما من مضمون هذه الشواهد ان «المبنى ــ ١» كان معبدا لالهة الامومة والحب (؟) عثترم التى كانت حتى الآونة الاخيرة غير معروفة للعلم . اما المبانى ٢ ــ ٤ فقد كانت تشكل مجموعة المعابد التى شيدت تكريما لواحدة من ابرز آلهة جنوب الجزيرة العربية ــ الهة الخصب ذات حميم (وفى بعض الاحيان وخاصة فى النقوش القديمة تلقب بـ«ذات سحِران») . وكانت جدران المعابد الخارجية (والداخلية احيانا) مكسوة بصفائح حجرية متلاصقة تلاصقا جيدا بعضها البعض وذات سطح خارجى املس . وكانت تنقش على هذه الصفائح الكتابات المكرسة للالهة المعبودة حيث يتحدث اصحابها عن الاضاحى المقدمة للمعبد ويضعون انفسهم واملاكهم واولادهم تحت حمايتها (ونجد ضمن اصحاب هذه الكتابات عددا كبيرا جدا من النساء الحرات) .

لقد ظل معبدا ذات حميم وعثترم قائمين لفترة طويلة

من الزمن تتجاوز الستة قرون . وخلال هذا الوقت جدد بناؤهما ورمما وبدلت تكسيتهما عدة مرات . ويلاحظ ان نصوص النقوش المتأخرة لاصحاب الاضاحى التى وضعت بعد تجديد المعبد قد جاءت اكثر تفصيلا . ومنها ، على سبيل المثال ، النقش الذى وضعه المدعو سمحماو فى الجدران الداخلية لمعبد ذات حميم (المبنى — ٣) . وتشير مثل هذه النقوش فى بعض الاحيان الى ان التقدمة للالهة تجرى وفاء لنذر او توسلا لغفران الذنوب المقترفة الخ .

وضمن تقدمات الاهالى الى معبد الالهة هناك ايضا صفائح حجرية تسمى «مسند» . وكانت هذه الصفائح توضع على الارض داخل المعبد او خارجه وتستند الى الجدران . وكانت لها عدة انواع ، منها صفائح ذات اطار بسيط على شكل جانب نافر وصفائح مزينة بزخارف من رسومات النخيل او من صور لمقاعد حجرية تتوسطها رموز الرب سس .

وتذكر نقوش ريبون عددا كبيرا من اسماء سكان المدينة القديمة وتتيح لنا احيانا القاء نظرة سريعة على تاريخ بعض الاسر خلال جيلين او ثلاثة . كما يمكننا ان نستمد معلومات غير قليلة من النقوش التى تتحدث عن الحياة الثقافية لمنطقة كبيرة مزدهرة مثل ريبون فى العصور القديمة .

ولكن حتى العرض البسيط للعدد الضخم من النقوش الصخرية يجعلنا نفكر فى وجود فرع كبير وهام جدا من فروع الانتاج فى ريبون القديمة وهو اعداد الصفائح المكسية ونحت النقوش . ويبدو انه كان لدى المعابد ، وخاصة فى

المعبد الرئيسى لمنطقة ريبون كلها — معبد الاله سن ، ورشات كبيرة متخصصة بانتاج مختلف اصناف صفائح التلبيس — تجهيز الحجارة فى المقالع ومعالجتها الاولية وصقلها ثم نقلها الخ . وشغلت ورشات نحت النقوش مكانا خاصا . فقد كان قسم من الحرفيين يقوم تحت اشراف المعلم برسم الكساء الحجرى او هيئة «المسند» . اما الفئة الثانية فقد كانت تنحته نحتا تقريبيا . ثم تقوم الفئة الثالثة بصقله واعطائه اللمسات الاخيرة والشكل النهائى الرفيع ، بينما كانت مهمة الفئة الرابعة تكمن فى تزيين «المسندات» بالزخارف المختلفة الخ . واغلب الظن انه كان لدى المعبد ايضا مدرسة لاعداد الكتبة والنساخ حيث كانت تُدرس على نحو دقيق اللغة والمبادئ الاساسية لكتابة الاشارات ويحافظ بصرامة على القواعد التقليدية للنحو والصرف والكتابة . وان مئات الناس ، على الارجح ، كانوا يعملون بلا كلل تحت اشعة الشمس اللاهبة قبل ان يرتفع الجدار الجميل المكسو بالنقوش فوق ارض ريبون العامرة . . .

وكما ذكرنا آنفا فقد ظل معبدا ذات حميم وعثترم قائمين اكثر من ستة قرون جرى خلالها تجديدهما عدة مرات وان النقوش المكتشفة فيهما تشكل فى الواقع حلقة غير مألوفة من تطور الكتابة وفى المقام الاول — تطور اسلوب الكتابة مما نضع فى ايدى العلماء عنصرا هاما جدا للتحقق من نظام الكتابة القائم ، اى الاداة الاساسية لبناء التسلسل الزمنى التقريبى لتاريخ جنوب الجزيرة العربية القديم . وفضلا عن ذلك فان المقاييس الباليوغرافية للنقوش

المكتشفة فى كلا المعبدين تساعد (ضمن اطار النظام الكتابى القديم نفسه) على تحديد تاريخ ظهورها على نحو افتراضى فى القرون ٧ — ١ قبل الميلاد .

والمعروف ان هذين المعبدين قد دمرا فى وطيس الحروب وان العديد من النقوش تحمل آثار الحريق . وقد احترق الجزء الاعظم منها كليا وتحول الى مادة خام للصباغ الجيرى . غير اننا لا نتعب ولا نمل من البحث عن نقوش جديدة والحصول منها على كل ما يمكنها ان تعطيه . فهذه النقوش مصدر هام جدا لمن يشتغل فى تاريخ ولغة وحضارة جنوب الجزيرة العربية . وهى المادة الاساسية اللازمة لاعادة انشاء السفر التاريخى لهذه المنطقة .

وجاء اكتشاف بقايا الرسوم الجدرانية مفاجأة مثيرة . فهذه الرسومات تمثل ، على ما يبدو ، مشاهد ميثولوجية لاشخاص واسماك ونباتات فقبل ذلك لم تكن مثل هذه الرسوم الجدرانية المتعددة الالوان معروفة الا من خلال المكتشفات التى قامت بها البعثة الاثرية الفرنسية اثناء حفريات قصر ملوك حضرموت فى شبوة عاصمة المملكة . اما مكتشفات البعثة السوفييتية — اليمنية فتشير الى الانتشار الاوسع لهذا اللون من الفنون لدى سكان حضرموت القدماء .

ان دراسة مواد الحفريات الاثرية قد اتاحت رسم الملامح العامة لمظهر المدينة القديمة وتاريخ تطورها الذى عكس ، على ما يبدو ، مصير منطقة حضرموت الغربية كلها خلال الفترة الواقعة بين القرن السابع قبل الميلاد والقرن الرابع الميلادى .

لقد شهدت المدينة المذكورة ثلاث مراحل ازدهار تخللها فترات ركود وانحطاط كانت تأتى عادة عقب حروب ضارية ثم ابيدت نهائيا بعد الحريق الكبير الذى واكب تهديمها وتدميرها .

وبالاضافة الى الحفريات فى مدينة ريبون اجريـــت اعمال تنقيب منهجية فى ضواحيها وتم الكشف اثناء هذه الاعمال على عدة مجموعات اثرية كبيرة بما فى ذلك ـ مدافن صخرية كبيرة وانقاض معابد كبير آلهة حضرموت اله القمر سن وبقايا مستوطنات قديمة صغيرة واخيرا قبور ارضية . وقد اظهرت هذه الاكتشافات ان منطقة ريبون كانت مستصلحة استصلاحا جيدا ، وانها تمثل منطقة زراعية كثيفة السكان . والى جانب ذلك فان اكتشاف عدد كبير من المعابد المتفرقة ومجموعات بيوت العبادة فى منطقة محددة نسبيا من المدينة وضواحيها قد طرح على بساط البحث مسألة وجود نظام اوقاف متطور وربما تنظيم مشاعى كبير .

وخلال الاعوام ١٩٨٣ ـ ١٩٨٥ انجزت بصورة اساسية دراسة شبكة الرى فى مدينة ريبون القديمة . فقد تبين ان هذه الشبكة كانت تستفيد من مياه الامطار الموسمية التى كانت تملأ الوديان وتتدفق من منحدرات الجبال ، وكانت تعتمد على التقاء القنوات الرئيسية ذات الامتداد الطويل مع شبكات انظمة توزيع المياه التى تحول المياه الى الحقول المزروعة وتؤمن الاستفادة الكاملة من مياه الفيضانات لاغراض الرى . وقد عثر على بقايا سد ضخم . كما جرى فحص

منشآت حجز المياه عند سفوح الجبال التى تجمع مياه السيول الجبلية وتوجهها نحو المدرجات التى اقيمت بمحاذاة المنحدرات الجبلية . وان المساحة الاجمالية للاراضى التى كانت تزرع بفضل منظومة الرى المذكورة بلغت فى منطقة ريبون حوالى ١٥٠٠ هكتار .

ان اعمال التنقيب والحفر فى اضرحة الكهوف والمدافن الارضية بالقرب من مدينة ريبون وضواحيها وكذلك فى الوديان المجاورة جاءت بمواد قيمة جدا حول الحياة الروحية لسكان حضرموت القدامى . وقد عثر فى غضون الاعوام ١٩٨٣ — ١٩٨٥ على زهاء مئة ضريح كهفى كانت فى حينها تحوى قبورا جماعية لافراد الاسر النبيلة فى هذه المنطقة . وهذه القبور تعرضت جميعها للنهب والتدمير . ومع ذلك تم داخل المقابر المذكورة وعند مداخلها جمع مواد تاريخية — حضارية واسعة تتضمن نقوشا واشياء مختلفة تتعلق بموجودات الدفن (مباخر ومذابح صغيرة واوان ومواد زينة) . وعثر فى احد الاضرحة على شاهدة قبرية كبيرة .

وعند قاعدة اضرحة الكهوف فى مدفن ريبون عثر على مدافن طقسية للابل لم تكن معروفة فى الجزيرة العربية حتى الاونة الاخيرة ولم يرد ذكر ذلك الا لدى المؤرخين العرب الاوائل (ومنهم ، على سبيل المثال ، محمد بن حبيب الذى توفى عام ٨٥٩) . وقد وجد فى ثلاثة من القبور المكتشفة توابع الدفن ومنها آنية زجاجية مزخرفة فينيقية الاصل تعود الى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد وتحدد تاريخ الدفن .

ان المواد التى حصلت عليها البعثة تغنى الى حد كبير المعطيات القليلة المتوفرة حول طقوس الدفن وعادات سكان حضرموت القديمة . ولا شك فى ان دراستها ستغدو خطوة هامة فى عملية اعادة انشاء التصورات الدينية — الميثولوجية التى كانت سائدة قديما فى جنوب الجزيرة العربية .

ان الدراسة المنهجية لمنطقة حضرموت الغربية وخاصة انهار الوديان والحفريات فى المنطقة المجاورة التى قامت بها البعثة فى اطار برنامج الجرد والوصف التمهيدى للمدن والمستوطنات والآثار التاريخية فى جمهورية اليمن الديمقراطية قد اعطت معلومات وافرة وغزيرة للعلماء . وجرت للمرة الاولى دراسة اربعة وديان نهرية واسعة كانت مجهولة تقريبا حتى للخبراء المحليين وهى وادى ضهر ووادى رخية ووادى القصر ووادى العين التى تشكل الروافد اليمنى لـــوادى حضرموت . وقد ادخلت الى الخريطة حوالى ١٦٠ قرية وعشر مدن قديمة وعشرات القلاع التى يعود تاريخ معظمها الى القرون الوسطى . وخلال اعمال البحث والتنقيب جمعت مواد كثيرة تتعلق باسماء اماكن المنطقة وتاريخ وجغرافية هذه الوديان الى جانب معلومات تخص البنية الاجتماعية والتركيب القبلى لسكانها وحياتهم الاقتصادية والروحية واستنادا الى هذه المعطيات يجرى حاليا اعداد عرض تاريخى — اثنوغرافى عن حضرموت الغربية وهو ، فى واقع الامر ، اول وصف شامل لاحدى مناطق جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية يعتمد على المواد الميدانية .

وتثير اهتماما كبيرا الرسومات العديدة المنقوشة على الصخور

والحجارة التى تعود الى عصور ما قبل الاسلام والتى عثر عليها اثناء اعمال التنقيب وكانت تتواجد عادة على الصخور الواقعة بمحاذاة طرق القوافل القديمة واماكن الصيد . وهى تعكس ، بصورة رئيسية ، العالم الروحى للرعاة والصيادين وساقة الابل فى القوافل التجارية وغيرهم الذين كانوا يشكلون فئة اجتماعية ـ حضارية خاصة من المجتمع الحضرموتى . ان جرد وتنظيم ودراسة هذه المواد الواسعة والحافلة بالمعلومات المتنوعة للغاية قد تحولت الى اتجاه مستقل فى البرنامج العلمى للبعثة ، اذ تربط بها امكانية دراسة هذا الجزء او ذاك من السكان الذى لم يكن عادة يدخل ضمن المجتمع المدنى هناك او فى حضرموت والمدن اليمنية القديمة الاخرى.

واخيرا عثرت البعثة عند منفذ وادى رخية الى صحراء رملة السبعتين على اضخم مدينة قديمة فى المشارف الغربية لوادى حضرموت والمعروفة باسم بير حمد . وقد اجرى مسح طوبوغرافى للمدينة ودرست شبكة الرى فى الحقول المحيطة بالمدينة والتى تبلغ مساحتها حوالى ٦٠٠ هكتار . كما جمعت مواد كثيرة جدا تضم زهاء ٧٠ نقشا واوانى فخارية ولوازم العبادة والطقوس الدينية بما فى ذلك مباخر وتمثال برونزى صغير .

وتمثل المدينة فى المخطط شكلا ثلاثيا مبسطا يطل رأسه على الشمال الغربى . وتبلغ ابعاد المركز الرئيسى للمدينة ٢٠٠×٣٠٠ متر . ويوجد فيه العديد من بقايا المبانى التى شيدت من الطوب الطرى . والى جانب المبانى العادية تبرز على الاقل انقاض ثمانى ابنية كبيرة .

وقد اظهرت الحفريات التمهيدية للبعثة ركام معبد الهة القمر سن على مساحة ٨×١٠ امتار ومعبد اله الشمس ذات حميم .

وقد طابقنا بين مدينة بير حمد والمدينة القديمة صوعران التى كانت تحمى مدخل وادى حضرموت والتى استولى عليها ودمرها ، على ما يبدو ، السبأيون حوالى عام ٣١٥ ، وذلك اثناء الحملة التى قضت على دولة حضرموت المستقلة .

ان تحديد المدينة ودراستها التاريخية ــ الاثرية سيلعبان دورا كبيرا فى استرجاع الاحداث المرتبطة بسقوط مملكة حضرموت وسيساعدان على بناء التسلسل الزمنى والحوادث الواقعية لتاريخ المنطقة فى القرون الاولى للميلاد .

وقد اصبحت متوفرة الآن مواد كثيرة ومتنوعة من المصادر الكتابية التى تتيح الحكم على مدى التطور الواسع للتجارة والعلاقات التجارية لجنوب الجزيرة العربية فى العصور القديمة والوسطى . فقد لعب «طريق العطور» دورا ملحوظا فى التجارة والتبادل الحضارى بين حضارات العالم القديم . وخلال قرون عديدة كانت سفن مختلف البلدان تمخر المحيط الهندى محملة بشتى البضائع والسلع . ولكن هذه المسائل لم تدرس حتى الآن دراسة منهجية فى الظروف الميدانية .

ومنذ عام ١٩٨٣ بدأت البعثة فى الجمع المنتظم للمعلومات المتعلقة بخطوط الطرق التجارية وتنظيمها ومنشآت خدمات الطرق (المآوى والخانات واماكن ماء السبيل ومراكز الحراسة والجمارك) والاسواق المحلية ، والمرافئ القديمة والقروسطية ، وصيد السمك ، وتقاليد صناعة السفن .

وتركزت الابحاث الميدانية لهذا البرنامج على دراسة مدينة قنا ـــ الميناء الرئيسى لجنوب الجزيرة العربية الواقع على ساحل المحيط الهندى . وبعد موسمين من الاعمال التمهيدية فى المدينة المذكورة بدأت الحفريات المنهجية فى الضاحية الغربية لهذا الميناء القديم . وقد كشف السبر الستراتيغرافى (الطبقى) عن وجود خمس سويات حضارية بعمق خمسة امتار تقريبا .

ان المواد الاثرية المكدسة على سطح المدينة والمكتشفة اثناء الحفريات تقدم الدلائل الكافية لارجاع تاريخ بناء ميناء قنا الواقع فى الجانب الغربى للمدينة الى اواخر القرن الاول قبل الميلاد وتحديد زمن تشييد المبانى المتأخرة بالفترة الواقعة بين القرون ٣ ـــ ٥ للميلاد . وتضم هذه المواد قطعا نقدية برونزية (سكت احداها ايام الدولة المعينية التى سقطت حوالى عام ١٢٠ قبل الميلاد) وعددا كبيرا من حطام الاوانى الزجاجية المستوردة بصورة اساسية ، على ما يبدو ، من مصر الهلنستية ، والاباريق المضلعة التى تشكل ٦٣ بالمئة من مجموع المصنوعات الفخارية المكتشفة والاوانى الارجوانية اللون من النماذج الشائعة فى حوض البحر الابيض المتوسط الخ .

ومن خلال تحليل المواد الكتابية ونتائج اعمال البعثة يمكننا ان نستنتج ان ميناء قنا كان يستخدم قبل وقت طويل من ظهور البحارة والتجار اليونانيين كميناء للسفن المحلية التى كانت تقوم بالملاحة الساحلية وتنقل بصورة خاصة العطور من المناطق الشمالية الشرقية لممكلة حضرموت

(المهرة وظفار) وكمحطة اخيرة لطريق العطور الذى يمر عبر الجزيرة العربية كلها . لكن ميناء قنا لم يحصل على الشهرة العالمية الا على تخوم القرنين الثانى والاول قبل الميلاد وذلك مع بداية الرحلات التجارية البحرية المنتظمة التى كان يقوم بها التجار اليونانيون من سواحل الجزيرة العربية الى الهند وخاصة من مصر الهلنستية . ففى تلك الفترة شيدت هنا وفق التقاليد المعمارية للعصور اليونانية ـــ الرومانية مبان كثيرة من الحجارة البازلتية المنحوتة على شكل موشور ، بقيت انقاضها حتى الآن مدفونة تحت زحام الرمال . ثم ان الاكتشافات التى قامت بها البعثة تدل ايضا على ان الحياة فى ميناء قنا استمرت حوالى قرنين من الزمن بعد التدهور الذى اصاب التجارة الرومانية ـــ الهندية فى القرنين ٣ ـــ ٤ للميلاد . وهكذا فان اعمال البحث والتنقيب التى اجرتها البعثة تفتح آفاقا علمية واسعة وتكتسب نتائجها اهمية كبيرة بالنسبة لدراسة العلاقات التجارية للعديد من بلدان العالم القديم واقتصادها وحضارتها .

وفيما يتعلق بتاريخ جنوب الجزيرة العربية فى العصور الاسلامية الذى يمتد حوالى اربعة عشر قرنا فان كل ما نعرفه عنه حتى الآن لا يخرج عن اطار اعمال المؤرخين الباحثين اليمنيين التى تستند الى الروايات غير النقدية للاسفار القروسطية . لقد اجرت البعثة السوفييتية ـــ اليمنية فى عام ١٩٨٥ اولى الحفريات الاثرية للمدن القروسطية فى جنوب الجزيرة العربية . ووقع اختيار افراد البعثة على مدينة المدورة ، الواقعة غربى حضرموت فى الطرف الغربى من وادى القصر ،

والتى نشأت فى فترة لا تتجاوز القرن الثامن . وقد بين السبر ان عمق السوية الحضارية يصل الى اكثر من خمسة امتار . واسفرت الحفريات عن اكتشاف مجمع سكنى ضخم كان يتألف من سبع حجرات . وضمن المواد المكتشفة — اوان فخارية مختلفة ومصنوعات برونزية واكثر من سبعين حطاما من الاوانى الزجاجية الملونة ، واطواق الخرز وادوات زينة فضية وبرونزية . واثناء التنقيبات الكثيفة لوادى القصر وغيره من وديان حضرموت الغربية عثر ايضا على حوالى عشرين مدينة يعود عهدها الى القرون الوسطى بما فى ذلك القرون الوسطى المبكرة (القرون ٥ — ٧) ، وعلى منشآت للرى وقبور . والى جانب المسح الطوبوغرافى جمع العديد من المواد الاثرية المتواجدة على سطح المدن المندثرة . كما ثبتت معطيات جغرافية ومواد فولكلورية تعود الى التاريخ القبلى وترتبط بالاحداث الحربية — السياسية التى كانت تجرى فى هذه المنطقة او تلك . وقد بدأ البحث عن النقوش والآثار الكتابية التى تعود الى العصور الاسلامية وتمثل مادة تاريخية وتاريخية — حضارية هامة للغاية . وبين الآثار المكتشفة التى بلغ عددها اكثر من مئة ثمة شاهدة قبرية ترجع للعام الهجرى ٣٦٦ (العامان ٩٧٦ — ٩٧٧ للميلاد) وهذه الشاهدة لا تزال حتى الآن اقدم عينة معروفة من النقوش الاسلامية فى حضرموت .

ان السمة الفريدة لتقاليد حضرموت المعمارية التى تميزها عن المناطق الاخرى من جنوب الجزيرة العربية وخاصة الجبلية تتجلى فى استخدام الطوب الطرى كمـــادة

بناء اساسية هذه المادة التى كان لها تأثير مهلك على مصير الآثار المعمارية فى حضرموت . فقد لحق الخراب والدمار بالقسم الاعظم من المدن والقلاع والمستوطنات القديمة التى كان عددها كبيرا فى حينه . ولم يأت هذا الدمار على ايدى الاعداء ـــ الفاتحين بقدر ما جاء بفعل الامطار والسيول الجامحة والرياح العاتية . وكلما توسعت الحفريات الاثرية كانت تقل الآمال فى العثور على مبنى قديم ، ليس من الضرورة ان يكون فى حالة سليمة بأكمله من الاساس الى السقف وانما ان يكون باقيا على الاقل حتى سقف الطابق الاول . ولا يختلف الوضع كثيرا بالنسبة للابنية التى تعود الى القرون الوسطى وخاصة المرحلة المبكرة منها . فحتى الآن لم يكتشف اى مبنى كامل شيد من الطوب الطرى قبل القرنين ١٣ ـــ ١٤ ، باستثناء بعض المساجد التى اعيد بناؤها

ومع ذلك استطاعت البعثة اكتشاف ودراسة كمية كبيرة من بقايا الابنية القديمة والقروسطية الى جانب المجمعات الضخمة تم اجراء دراسة مقارنة باستخدام المعطيات المتعلقة بالاساليب المعمارية المدنية وفن بناء المساجد فى العصر الراهن . فالى عهد قريب كان البناؤون يستخدمون عند ترميم مبنى قديم او تشييد هبنى جديد الاساليب المعمارية التقليدية ومواد البناء المألوفة الشائعة فيسترجعون اشكال نماذج الابنية القديمة والتفاصيل المتبقية للعناصر المعمارية التزيينية الخ . وان لمثل هذه الابنية اصالة الآثار المعمارية بغض النظر عن الزمن الذى شيدت خلاله . وان المواد التى قامت

البعثة بجمعها قد اكدت مجددا صحة الرأى الذى ورد فى الادبيات العلمية حول القيمة الفريدة للآثار المعمارية المنتشرة فى جنوب الجزيرة العربية ، بما فى ذلك حضرموت ، بالنسبة لدراسة تاريخ فن العمارة فى العالم القديم .

واثناء التنقيبات الكثيفة لوديان حضرموت الغربية تم تسجيل ودراسة عشرات القلاع والتحصينات («مصنعة» ، «حصن» ، «قلعة») الى جانب البيوت — الابراج المحصنة («حصن») وخاصة ذلك القسم الذى يعود الى العصر الوسيط المتأخر . وتقع هذه الحصون عادة عند المنحدرات الجبلية والاجراف والتلال والمرتفعات القريبة من سفوح الجبال . وقد اظهرت الدراسة المقارنة على نحو خاص نزعة معينة فى تبدل معدات البناء وفى الحلول المعمارية التى يتضح انها نجمت عن الاستخدام الواسع للاسلحة النارية والتأثير الملحوظ لاسلوبى بناء القلاع التركى — المصرى والاوروبى (وخاصة البرتغالى) .

ان المواد التى حصلت عليها البعثة والتى تتعلق بنماذج المستوطنات الحضرموتية ونواتها — المنزل ، الذى يتكون من عزبة مستقلة لعائلة ابوية تقليدية وباشكال التحصينات العسكرية تتيح لنا اعادة بناء اللوحة العامة لتطور هذه النماذج منذ العهود القديمة (حسب مواد الحفريات) وحتى العصر الحديث وتبيان العديد من طرق البناء واعادة انشاء عناصر وادوات التزيين المعمارية والابنية السكنية والمعابد ، وتتبع الصلة بين التقاليد المعمارية — البنائية للعصور القديمة

والقرون الوسطى وكذلك منابع الفن المعمارى الاصيل الحديث فى هذه المنطقة من الجزيرة العربية .

ويستفاد اكثر فاكثر من المعلومات المتعلقة بتاريخ المستوطنة والبيوت السكنية فى الابحاث التاريخيـــة ـــ الاثنوغرافية والسوسيولوجية للبعثة من اجل اعادة رسم ايكولوجية سكان حضرموت وبنية مجتمعهم بما فى ذلك اشكال الاسرة فى مختلف مراحل التاريخ . وان الملاحظات والمشاهدات الخاصة بتطور انماط المستوطنة والبيوت السكنية تغدو مصدرا هاما للمعلومات حول التطورات الجارية فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الحضرموتى .

وفى اطار برنامج البعثة اجريت للمرة الاولى فى اراضى جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ابحاث منهجية ميدانية اثنوغرافية واثنوغرافية ـــ لغوية وانتروبولوجية فى حضرموت الغربية وبصورة خاصة فى جزيرة سقطرة .

وضمن القضايا المرتبطة بالابحاث الجارية فى جزيرة سقطرة ، التى تعتبر من اقل المناطق المدروسة فى الشرق العربى ، شغلت مكانا بارزا مسألة جمع المعلومات اللازمة لحل مشكلة الوصف الاثنوغرافى ـــ الحضارى المقارن لسكان جنوب الجزيرة العربية من ابناء حضارة العصر الحجرى الحديث وبناة الحضارة الزراعية ـــ الرعوية المبكرة فى اراضيها . وقد اولى هذا الجانب عناية خاصة اثناء اجراء الابحاث الطبية ـــ الانتروبولوجية ودراسة اللغة السقطرية غير المكتوبة التى تنحدر من فرع قديم للغة السامية والتى حافظت فى بنيتها ومفرداتها على العناصر الاصلية للعهود الساحقة

فى القدم . وخلال هذا العمل سجلت على الشريط كمية كبيرة من النصوص الفريدة باللهجات السقطرية المختلفة المرتبطة بشتى جوانب الحياة الاقتصادية والروحية (اساطير وحكايات وامثال ونصوص طقسية الخ) التى تتمتع باهمية فائقة بالنسبة للوصف الاثنوغرافى لسكان سقطرة .

ان التسجيلات السابقة التى قامت بها فى اواخر القرن التاسع عشر بعثة ميولير ولاندبيرغ النمساوية والمواد التى جمعها جونسون من مصادر عابرة لا تعكس العديد من خصائص اللغة . اما المواد التى جمعتها البعثة السوفييتية ــ اليمنية فهى اول تثبيت منهجى ومماثل من الناحية اللفظية لهذه اللغة القديمة المتبقية فى وطن الناطقين بها . وتغدو هذه المواد اساسا متينا وموثوقا للدراسة العميقة الشاملة حول قواعد اللغة السقطرية وتركيبها الصوتى وفولكلور جزيرة سقطرة .

وبفضل هذه التسجيلات اكتسب العلم مادة لغوية واثنوغرافية ذات اهمية بالغة بالنسبة لدراسة تاريخ اللغات السامية وتحديد الاصل الاثنى لسكان جنوب الجزيرة العربية الساميين وكذلك بالنسبة لطائفة كبيرة من القضايا المتعلقة بتاريخهم وحضارتهم بما فى ذلك تاريخ استيطان هؤلاء لجنوب الجزيرة العربية وجزيرة سقطرة .

واثناء الدراسة الاثنوغرافية لسكان الجزيرة وضعت اوصاف التنظيم الاجتماعى التقليدى وخاصة العلاقات القبلية وتم هنا الكشف عن آثار الاسرة الابوية ورواسب الاسرة الاخوانية . وتضم المواد التى حصلت عليها البعثة معطيات حول العلاقات الاسروية ــ الزوجية القائمة وانظمة القرابة وما يرتبط بها

من مؤسسات الطقوس والعادات . كما عثر على بقايا الطبقات الزوجية . وقد حافظ مجتمع الجزيرة المعزول على العديد من العناصر القديمة واحيانا الجوانب المتبقية للتنظيم الاجتماعى والعلاقات الاجتماعية الامر الذى يسبغ اهمية علمية خاصة على المادة الاثنوغرافية التى حصل عليها افراد البعثة فى جزيرة سقطرة ففيها تكمن مفاتيح حل العديد من قضايا التاريخ الاجتماعى لجنوب الجزيرة العربية فى العصور القديمة والوسطى .

ومن المهم اثناء دراسة تاريخ جزيرة سقطرة اظهار المواقع التاريخية ـــ الاثرية للعصور القديمة والوسطى بما فى ذلك المنشآت المعدنية وعلامات تخطيط الارض القديمة وانقاض القلاع والمساكن والمساجد القروسطية والكنائس المسيحية التى شيدها المحتلون البرتغاليون واخيرا المدافن الكهفية والمقابر الحقلية من الطراز غير الاسلامى الخ .

وضمن الامور الجديدة التى جاءت بها دراسة جنوب الجزيرة العربية تأتى الابحاث الطبية ـــ الانتروبولوجية التى اجرتها البعثة فى جزيرة سقطرة . فهى تشكل جزءا من برنامج ابحاث البعثة الطويل المدى المتعلق بدراسة الانتروبولوجيا الاثنوغرافية فى اراضى جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية والتى ترتكز على المنهج الحديث للمدرسة الانتروبولوجية السوفييتية وتستخدم معطيات اعمال البحث والتنقيب التاريخية والاثنوغرافية واللغوية .

ان الانتروبولوجية التاريخية لجنوب الجزيرة العربية كاتجاه فى البحث لا تزال حتى الآن غير موجودة ، اذ

ان دراسة التاريخ الاثنى لشعب هذه المنطقة لم تكن ، عادة ، لتخرج عن اطار بحث مضمون ومصادر الاساطير والروايات الخرافية الاثنوغرافية للمؤرخين وعلماء النسب العرب القروسطيين . اما المواد المتوفرة للدراسات الانتروبولوجية الجزئية التى جرت خلال العامين ١٩٣٧ — ١٩٣٨ (البروفسور حسين — جامعة القاهرة) والابحاث الانتروبولوجية التى جرت مؤخرا فى جمهورية اليمن العربية فهى غير كافية للنظر فى مراحل تشكل الاثنوس وعناصره فى مختلف مراحل تاريخ البلد .

ان المواد التى جمعتها البعثة خلال العامين ١٩٨٣ — ١٩٨٤ كانت المصدر الرئيسى لوصف النمط الانتروبولوجى لسكان جزيرة سقطرة عموما ومناطقه الاثنوغرافية وتاريخ تشكله .

وقد انتقلت الابحاث الطبية — الانتروبولوجية الى القارة — الى عدن . واستمرت فى عام ١٩٨٦ بحضرموت ثم فى منطقة المهرة . وكانت الفحوص والابحاث الانتروبولوجية التى اجريت لمجموعة نمطية قياسية من طلاب جامعة عدن قد جاءت بمعطيات اولية تمهيدية حول سكان الجزء القارى من جنوب الجزيرة العربية وستستخدم لاغراض المقارنة اثناء تحليل ودراسة المواد المتعلقة بسقطرة .

ان كل هذه الابحاث ستساعدنا فى الحصول على معطيات موضوعية حول الصلات الاثنية لاجداد سكان سقطرة الحاليين التى تعود الى ازمنة سحيقة فى القدم تمتد

آلاف السنين . ولدى مقارنة نتائج دراسة آثار الانسان البدائى وتحليل لغات جنوب الجزيرة العربية المتبقية (السقطرية والمهرية والشحيرية وغيرها) فان هذه المعطيات ستكون الاساس الذى سترتكز عليه معالجة قضايا الاصل الانتروبولوجى فى اراضى جنوب الجزيرة العربية والمراحل الاساسية لتاريخ هذه المنطقة الاثنى فى العصور القديمة . كما انهـــــا ستساعد ايضا على تسليط الاضواء نحو العديد من القضايا الانتروبولوجية والتاريخية الراهنة المتعلقة بتشكل النمط الجسمانى لشعوب الشرق العربــى والهند وشرق افريقيا وكذلك هجرات وتفاعل المجموعات العرقية التى سكنت جزر المحيط الهندى خلال مختلف الفترات التاريخية والقادمة من شتى المناطق المجاورة .

والمعروف ان التصورات القائمة حول الجغرافيا التاريخية لحضرموت ناقصة جدا ووحيدة الجانب . فالجزء الاساسى من المعلومات المتعلقة بهذه المسألة يقتصر على حصر مواقع اسماء العلم المستمدة من نقوش عصور ما قبل الاسلام . وفى الوقت نفسه نجد ان عملية مطابقة وتحديد موقع العديد من المستوطنات القديمة تستند على تلميحات مبهمة فى معظم الحالات للمؤرخين الاغريق والرومان وعلى اشارات متناقضة للجغرافيين والمؤرخين العرب القروسطيين . وقد اقتصر الامر على تحديد بعض المواقع وادخالها فى الخريطة استنادا للابحاث الاثرية ــ الطوبوغرافية التى جرت فى الاماكن المعنية . ولحل هذه القضايا تضمن برنامج الاعمال الميدانية للبعثة جمع مواد جديدة وتنظيم المعطيات

المتوفرة من اجل وضع مجموعة من الخرائط التاريخية لحضرموت .

ولهذه الغاية اعير اثناء اعمال التنقيب المنهجي لاراضي حضرموت الغربية اهتمام خاص للكشف عن الانقاض الباقية للمدن والمستوطنات والطرق وغيرها من آثار العصور القديمة والقروسطية ودراستها الاثرية ـــ الطوبوغرافية وتثبيتها فى الخريطة المعنية .

وقد شارك فى تنفيذ البرامج العلمية للبعثة جنبا الى جنب مع العلماء السوفييت خبراء يمنيون شباب حصلوا من خلال الممارسة العملية على امكانية اغناء معارفهم ومهاراتهم المهنية والتعرف عن كثب على الخبرة النظرية والعملية للعلم السوفييتي فى ميدان دراسة حضارات العصور القديمة والوسطى . وقد انعكست فعليا نتائج التعاون العلمي فى تنظيم المعارض المؤقتة المشتركة خلال العامين ١٩٨٣ و ١٩٨٤ وتأسيس متحف آثار حضرموت عام ١٩٨٥ بمدينة سيون على اساس حصيلة اعمال الموسمين المذكورين .

ومع بداية اعمال البعثة الاثرية الفرنسية فى شبوة والبعثة السوفييتية ـــ اليمنية المشتركة فى حضرموت (منذ عام ١٩٨٣) راحت ترد الى متناول العلم مواد اثرية وتاريخية ـــ حضارية ضخمة حول تاريخ وحضارة حضرموت فى العصور القديمة والوسطى .

ان مقارنة المواد الاثرية والتاريخية ـــ الحضارية بمعطيات المصادر الكتابية من شأنها ان تصبح اساسا مضمونا لمعالجة قضايا تاريخ وحضارة حضرموت وقاعدة متينة لاعداد اول

تاريخ علمى كامل لحضرموت منذ القدم وحتى ايامنا هذه .

ومن اجل انجاز هذه المهمة وضع مشروع مشترك لاصدار سلسلة خاصة بعنوان «مواد حول تاريخ حضرموت» . ويتضمن المشروع المذكور نشر كافة النقوش والمصادر الكتابية الاخرى التى تحتوى على معلومات تخص تاريخ حضرموت الى جانب القطع النقدية المعدنية .

ان نتائج اعمال البعثة السوفييتية ـ اليمنية فى المواسم الثلاثة الاولى تشهد على ان المواد التى حصل عليها افراد البعثة من حضرموت لها اهمية بالغة بالنسبة لمعالجة دائرة واسعة من القضايا العلمية الضخمة بما فى ذلك قضايا دراسة المراحل الاولى لتطور الانسان والمجتمع البشرى ومنشأ وخاصية تطور المجتمع الزراعى ـ الرعوى لمناطق الوديان النهرية وحضارته المادية والروحية على مدى مراحل تاريخية طويلة . وتكشف هذه النتائج عن نجاح العمل المشترك للخبراء السوفييت واليمنيين الذى يضمن شروطا افضل لتنفيذ البرنامج العلمى المعقد والمتعدد الجوانب . وان استمرار هذا التعاون سيكون ، بلا شك ، مساهمة مفيدة فى تطوير الصلات العلمية والثقافية بين الاتحاد السوفييتى وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية .

الفصل السابع

الفرضيات القديمة والجديدة عن موطن الاجداد الهنداوربــى . (تنقيبات اثرية ايكولوجية)

المؤلف: سافرونوف
ترجمة: خيري الضامن

البشر على كوكبنا الارضى يتكلمون بشتى اللغات . وربما لا يستطيع احد ان يذكر عددها بدقة ، لكنها على اية حال بالآلاف . وحتى غير المختصين يلاحظون ان بعض اللغات متشابهة ، بينما ينعدم اى وجه للشبه بين بعضها الآخر .

ظهرت اولى الدراسات المكرسة لقضايا التقارب بين اللغات فى القرن السادس عشر فى اوربا . وفيما بعد قام علماء كثيرون فى القرنين السابع عشر والثامن عشر بمقارنة عدة لغات ، او مجموعات كاملة من اللغات ، علما بان تلك الدراسات لم تقتصر على اللغويين . فالفيلسوف والعالم الرياضى ليبنتز صاغ فى بحثه المعنون «تجارب جذرية فى العقل البشرى» مهمة مقارنة جميع اللغات فيما بينها من جهة ، وفيما بينها وبين صياغاتها المبكرة من جهة اخرى . ولعل ليبنتز اول من استحدث مفهومى «اللغة السلفية» و«العوائل اللغوية» . ولم يفرق ليبنتز بين قضايا منشأ اللغات والشعوب ، وكان يعتبر تاريخ اللغة وسيلة مباشرة للتثبت من منشأ الشعوب .

وهو يرى ان وجود جذور واصول مشتركة فى اللغات اليونانية واللاتينية والجرمانية والسلتية يعزى الى المنشأ المشترك للشعوب الناطقة بهذه اللغات والمنحدرة من الاسقوثيين الذين نزحوا من سواحل البحر الاسود الى البلقان واوربا الغربية .

وفى اواخر القرن الثامن عشر التفت الباحثون الاوربيون الى اللغة الهندوسية القديمة ، وساعد نشر الكتب الاولى فى قواعد اللغة السنسكريتية وقواميسها على مقارنة هذه اللغة بعدد من لغات اوربا . وفى عام ١٧٨٦ اشار الحقوقى والمستشرق الانجليزى جونس فى تقرير القاه فى الجمعية الآسيوية فى كلكتا الى الصلة بين السنسكريتية واليونانية واللاتينية والسلتية والغوطية والفارسية القديمة ، كما اشار الى التوافق المنتظم بين الكثير من المؤشرات النحوية فى هذه اللغات . ان التشابه بين الصيغ النحوية فضلا عن الجذور والاصول يدل بلا شك على ان كل هذه اللغات تعود الى مصدر مشترك ربما لم يعد موجودا .

وفى عام ١٨٠٨ صدر كتاب فريدريك شليغيل «لغة الحكمة عند الهندوس» الذى اعرب فيه عن فكرة تقول ان السنسكريتية هى ذلك «المصدر» الذى نشأت منه فيما بعد كل «اللغات الهندجرمانية» (يستخدم الآن فى العلوم مصطلح «اللغات الهنداوربية») . ويرى شليغيل ان الهند هى المنطقة التى اقامت فيها القبائل الهندجرمانية بادئ ذى بدء ، وهى موطن الاجداد القديم الذى نزحت منه الى رحاب اوراسيا (اوربا وآسيا) .

وفى العقود الاولى من القرن التاسع عشر نشأ المنهج

التاريخى المقارن فى علم اللغة . واصبحت الدراسات الهنداوربية حصيلة لاستخدام هذا المنهج فى دراسة مجموعة كبيرة من اللغات المتقاربة فى اوربا وآسيا . وعن طريق تحديد التوافق المنتظم بين مفردات هذه اللغات واصواتها ونحوها حاول اللغويون ان يرمموا لغتها السلفية واصلهـــا المشترك ، ولم يعودوا يعتبرون السنسكريتية هى ذلك الاصل المشترك . لكن احدا لم يكن يشك بوجود لغة الاصل فى زمن ما ، كما ان احدا لم يشك فى صحة الترميمات . حتى ان اوغست شليهر ، وهو من اكبر ممثلى المنهج التاريخى المقارن فى علم اللغة فى القرن التاسع عشر ، قد كتب خرافة «النعجة والجيـــــاد» (avis ak vasas ka) باللغة الهنداوربية التى رممها بنفسه .

ولم تستخدم فى ترميم اللغة السلفية كل مفردات اللغات التى جرت مقارنتها ، بل اقتصر العمل على طبقات معينة منها تناسب مستوى ثقافة ذلك العصر القديم الذى كانت تلك اللغة موجودة فيه كما يتصور العلماء . فقد جرى التقريب بين اقدم المفردات الاصلية : مصطلحات القرابة واسماء اعضاء الجسم واسماء عناصر التضاريس والظواهر الطبيعية واسماء الآلهة واسماء الحيوانات البرية والاهلية واسماء المزروعات المدجنة والبرية واسماء ابسط الادوات المنزلية والمبانى وهلمجرا .

وفى اطار علم اللغة التاريخى المقارن ظهر دفعة واحدة تقريبا اتجاه خاص هو علم المتحجرات اللغوية الذى كان بينفى احد مؤسسيه . ومهمة هذا الاتجاه هى رسم لوحة

حياة المتكلمين باللغة السلفية وخصائص تفكيرهم ونشاطهم العملى واماكن اقامتهم استنادا الى المعطيات اللغوية . واستنادا الى المفردات المرممة للغة السلفية الهنداوربية توصل الباحثون بالاجماع فى الواقع الى استنتاج يقول ان الهنداوربيين كانوا يعيشون حياة حضرية . علما بان السواد الاعظم من السكان كانوا يقيمون فى القرى ، وان عملهم الاساسى هو الرعى وتربية الماشية . وكان الهنداوربيون يعرفون زراعة الحبوب ويتقنون الكثير من الحرف — صناعة الفخار والنسيج والغزل وغيرها . وقد استخدموا المعادن . والعلماء اقل اجماعا فى حل مسألة موطن الاجداد الهنداوربى الذى لا يزال البحث عنه مستمرا حتى الآن .

ويعنى مفهوم «موطن الاجداد الهنداوربـى» منطقة معينة كان يقطنها فى زمن ما الشعب الناطق باللغة الهنداوربية . والمفروض ان تكون هذه المنطقة فى بادئ الامر محصورة اى صغيرة المسافة وبدون قطاعات معزولة طبيعيا . وكان بوسع جماعات مختلفة من اجداد الهنداوربيين المتكلمة بلهجات تختلف قليلا عن بعضها البعض ان تتخاطب فيما بينها دون عائق ، والا فلا يمكن افتراض نشوء ووجود لغة موحدة ، وذلك لان اللهجات بدون تخاطب فيما بينها تفقد وحدة وثبات السمات التى ورثتها اللغات الهنداوربية القديمة عن عصر اللغة السلفية .

ولعل البعض يعترضون طبعا قائلين : هل يمكن افتراض وجود موطن اولى صغير لاجداد الهنداوربيين الذين يشغلون الآن ثلثى اليابسة (اميركا واوستراليا واوربا وقسما كبيرا

من آسيا ومناطق غير قليلة فى افريقيا) ويشكلون حوالى نصف سكان المعمورة ؟

ونجد الرد على هذه الشكوك فى انتشار اللغات الرومانية . فان انتشار اللغة اللاتينية واللغات الرومانية المشتقة منها يصلح تماما للمقارنة مع موديل انتشار اللغة السلفية الهنداوربية واللغات الهنداوربية المشتقة منها .

فالناطقون باللاتينية الذين عاشوا بعض الوقت فى مقاطعة لاتسيوم الصغيرة فى شبه جزيرة ابينين وانشأوا روما ، قد استولوا على قسم من ايطاليا وبسطوا نفوذهم على قسمها الآخر ، وبعد ذلك ، فى غضون الف عام تقريبا ، غزوا منطقة البحر الابيض المتوسط كلها تقريبا واوربا الوسطى واوربا الغربية . واختلطوا بسكان المقاطعات المحتلة والخاضعة الاكثر عددا منهم واستوعبوا عاداتهم وبعض مفرداتهم ، لكنهم كانوا دوما يتكلمون بلغتهم اللاتينية الام التى اتقنها السكان المحليون ايضا بعد بضعة اجيال فنسوا لغاتهم الام بالتدريج . وينبغى ان نؤكد بهذا الخصوص ان الشعوب ذات المستوى الثقافى العالى (كاليونانيين مثلا) كانت تتبنى لغة الفاتحين بشكل اسوأ ولا تنسى لغتها الام فى الوقت ذاته .

وبعد سقوط الامبراطورية الرومانية تقلصت صلات بعض مناطق اوربا الغربية بايطاليا . وصار سكان اوربا الغربية المتكلمون حتى ذلك الحين بلغة لاتينية ركيكة ومشوهة قليلا ينسون بعض خواص هذه اللغة ويدخلون ضمن احتياطى مفرداتهم كثيرا من الكلمات التى ظلت محفوظة فى بعض مناطق البلاد وكذلك الكلمات الجديدة المقتبسة من القبائل

الكثيرة الترحال من ذلك العصر . وبالنتيجة تطورت لهجات اللغة اللاتينية فى غضون بضعة قرون وتحولت الى اللغات الفرنسية والاسبانية والبرتغالية . وطرأت تغيرات اقل على لغة السكان الاصليين فى ايطاليا . وبعد ذلك ، فى القرون الخامس عشر — السابع عشر استولى الاسبان والبرتغاليون ، والفرنسيون بقدر اقل ، على اميركا الوسطى والجنوبية والجزر المتاخمة لها فحملوا الى هذه المناطق لغاتهم التى هيمنت عليها طوال قرنين .

وهكذا انتشرت اللغة اللاتينية فى غضون ٢٥ قرنا من موطن الاجداد فى منطقة لاتسيوم الصغيرة التى لا يزيد عرضها على ١٠٠ كم ، وشملت رحابا هائلة فى اوربا والبحر الابيض المتوسط ، وكانت اللغات الرومانية التى نشأت على اساسها قد حملها الرحالة البحريون فى عصر الاكتشافات الجغرافية الكبرى الى اميركا الوسطى والجنوبية .

وبموجب هذا المخطط تقريبا كان يمكن ان تنتشر اللغة الهندواوربية : من المنطقة الصغيرة التى كان يتخاطب فيها الناطقون بمختلف لهجات اللغة السلفية الهندواوربية الى منطقة شاسعة ولكنها منطقة واحدة ، كان يشغلها حتى لحظة تفكك الوحدة الهندواوربية الناطقون باللهجات الهندواوربية السلفية الكثيرة . ان تفرع مختلف اللهجات وانفصالها عن السلسلة الهندواوربية الاساسية بسبب نزوح الهندواوربيين الى مسافات بعيدة قد اديا الى فرز اللغات الهندواوربية .

فمتى حدث تفكك الوحدة الهندواوربية ؟ واين موطن اجداد الهندواوربيين ؟

فى بادئ الامر دهش العلماء للشبه الكبير بين الهندوسية القديمة (الفيدية والسنسكريتية الكلاسيكية) وبين اللغات الميتة (اللاتينية واليونانية القديمة) والحية (الجرمانية والسلافية (الصقلبية) وغيرها) . ويعتقد شليغيل ان التشابه بين هذه اللغات اقترن بالتقارب بين اديان وميثولوجيا الشعوب الناطقة بها . وساعد ذلك شليغيل فى عام ١٨٠٨ لاول مرة على صياغة فرضية عن موطن الاجداد الهندجرمانى (الهنداوربى) الاول . وكان هذا الموطن فى رأيه هو الهند وكانت السنسكريتية هى اللغة ــ المنطلق الذى اشتقت منه كل اللغات الهنداوربية .

كانت الدراسات الاولى (فى مطلع القرن الماضى) المكرسة للبحث عن موطن الاجداد الهنداوربى ذات منهج مشترك يقول ان كل اللغات الهنداوربية نشأت عن واحدة منها تعتبر اقدمها (السنسكريتية فى رأى شليغيل والافيستية فى رأى لينك وهيردر وغيرهما) ويعتبر الموضع التاريخى لاقامة الناطقين بها هو موطن الاجداد الهنداوربيين . ولكن فى عشرينات القرن التاسع عشر ظهرت فكرة (عند رودى مثلا) تقول ان كل اللغات الهنداوربية «اخوات» على قدم المساواة . ومع ذلك ظل البعض فترة اخرى يعتبرون الهند موطن الاجداد الهنداوربيين . وفى الوقت ذاته اشار دارسو الادب الهندى القديم والادب الفارسى القديم الى ان اقدم الهنداوربيين (الآريين) لم يكونوا من السكان الاصليين فى الهند فان اقدم اثر ادبى هندى وصل الينا ، وهو اناشيد ريغفيدا التى تنسب ، فى اغلب الظن ، الى اواخر الالف الثانى قبل

الميلاد ، يتحدث عن المعارك الطاحنة بين الآريين والقبائل المحلية .

فى بادئ الامر كان يعتبر طبيعيا البحث عن موطن الاجداد فى المناطق المتاخمة للهند . فان **انجاد هملايا** التى تذكرها اناشيد ريغفيدا كان يمكن ان تكون موطن الاجداد بالنسبة للآريين كما تصور علماء كثيرون فى القرن التاسع عشر ، وموطن الاجداد لجميع الهنداوربيين . وفى عام ١٨٣٠ قام كلابروت باول محاولة لمقارنة الاسماء الهنداوربية المشتركة للاشجار باسماء الاشجار التى تكسو انجاد وسفوح هملايا ، وذلك لتعليل الاستنتاج القائل بوجود موطن الاجداد الهنداوربيين هناك ، واشار كلابروت بحق الى ان العالم النباتى فى هملايا يناسب نباتات موطن الاجداد اكثر مما يناسبها عالم النبات فى الهند . ولم يتمكن كلابروت من اثبات فرضية موطن الاجداد الهنداوربيين فى هملايا ، ومع ذلك فان لدراساته اهمية كبيرة . فبفضل كلابروت اضيف الجانب الايكولوجى الى الجانبين اللغوى والتاريخى للقضية الهنداوربية . وبعد فترة قصيرة اخذ العلماء يقارنون بالمسميات الهنداوربية السلفية ليس النباتية فقط ، بل والحيوانية والتضاريسية والطقسية فى الاقاليم الجغرافية التى افترضوها موضعا لموطن الاجداد . فعلى اساس تحليل اناشيد ريغفيدا واقدم النصوص السنسكريتية اشار العالم الانجليزى مور فى عام ١٨٦٠ الى ان النازحين الآريين فى الهند كانوا يعرفون كلمة «الشتاء» ، وكشف لاول مرة فى النصوص الهندية القديمة عن مواضيع تتعلق بذكريات

عن موطن اجدادهم الشمالى . ولذا ينبغى البحث عن موطن الاجداد الهنداوربيين فى المناطق الواقعة شمالى الهند . ولم يتمكن مور من الاشارة الى موضعه بدقة اكبر .

وكان الباحثون ، قبل ظهور دراسات مور ، قد اشاروا الى بلاد **الصغد وحوضى ياكسارت** (**سير داريا او سيحون**) **واكسوس** (**آمو داريا او جيحون**) فى اعاليهما فى آسيا الوسطى على انها المواضع الاكثر مناسبة لموطن الاجداد الهنداوربى الواقع شمالى الهند (وعلى الاصح شمال غربيها) . وكان اساس مثل هذه الفرضية هو التقارب بين لغة اقدم نصوص الكتاب المقدس للفرس القدامى افيستا والكتاب المقدس للهنود القدامى ريغفيدا ، وكذلك التشابه بين ديانتيهما (بنثيون الآلهة والتصورات عن الجنة والنار ومصطلحات الطقوس) والميثولوجيا . وقد توصل الباحثون الى استنتاج صائب بشأن التقارب اللغوى والاقليمى بين الشعبين ونعتوه بالتقارب الهندفارسى . وساعد تحليل نصوص افيستا الذى قام به رودى فى عام ١٨٢٠ على الاستنتاج بان الفرس القدامى قبل ان يصلوا الى بلاد فارس (ايران حاليا) قد استبدلوا عدة بلدان ومن اقدمها آريانا ثم بلاد الصغد ، وبعدها المنطقة الجبلية التى حدد رودى موقعها فى اعالى نهرى ياكسارت واكسوس . ويؤخذ من نصوص افيستا ان الفرس القدامى هبطوا الى الوديان صوب الجنوب بسبب البرد الشديد . ويصعب التأكيد بان الهنود القدامى (الهندآريين) كانوا معهم فى ذلك الحين .

واشار علماء كثيرون فى القرن التاسع عشر الى انه ليس من اللازم البحث عن موطن الاجداد الهنداوربى فى اماكن

متاخمة تماما للهند وبلاد فارس .

باكتريا هى موطن الاجداد الهنداوربى . توصل بيكتى فى ١٨٥٩ — ١٨٦٣ الى هذا الاستنتاج استنادا الى بعض الحجج اللغوية . ففى مختلف اللغات الهنداوربية (السلافية القديمة والغوطية والسنسكريتية والفارسية القديمة وغيرها) كان هناك تشابه فى تسمية البحر الذى يعتبره بيكتى من اسماء اللغة الهنداوربية المشتركة ، وهو قريب من حيث النطق من كلمة marú (الصحراء) ، الامر الذى يمكن ان يشير ، فى رأى الباحثين ، الى التجاور بين الصحراء والبحر . اما باكتريا فقد كانت تحاذى صحراء قره قوم من الشمال والشمال الغربى وتقع على مقربة نسبية من بحر قزوين ، ومن الاقاليم الفارسية الشمالية فى الجنوب الغربى ومن بلاد الصغد التى تشغل فى الشمال الشرقى موضعا بين نهرى اوكسوس وياكسارت (آمو داريا وسير داريا) فى اواسطهما . وفى الجنوب الغربى كانت باكتريا تحاذى سلسلة جبال كوبيت داغ ، وفى الجنوب الشرقى كانت تشغل اراضى شمال افغانستان . واثبتت رأى بيكتى تأكيدات ك . باولى من ان كلمة «الاسد» (ليث) ليست مقتبسة من اللغات السامية ، كما كان يعتقد سابقا ، بل هى كلمة هنداوربية قديمة اصلية ، وبالتالى فان موطن الاجداد ينبغى ان يتواجد فى آسيا على مقربة من منطقة تواجد الاسود التى كانت تعيش فى شمال شرقى بلاد فارس قرب سفوح كوبيت داغ . الا ان التوزيع الاقليمى لعالم النبات والحيوان فى قارتى آسيا واوربا (راجع الجدول) يدل على ان الهند وانجاد هملايا وبلاد فارس

وآسيا الوسطى ، بما فيها بلاد الصغد وباكتريا وكل منطقة ما بين نهرى سير داريا وآمو داريا تخلو من حوالى نصف الاشجار والنباتات ومن حوالى ربع الحيوانات التى تعود اصول اسمائها الى اللغة الهنداوربية السلفية . ولا تساعد معطيات النصوص الهندية والفارسية القديمة على تحديد موضع موطن الاجداد الهندفارسى فضلا عن الهنداوربى .

وكان اول من شكك فى المنشأ الآسيوى للهنداوربيين هو لاتام الذى اعرب فى بداية ستينات القرن الماضى عن رأى يقول ان الاصح هو البحث عن موطن الاجداد الهنداوربى فى المنطقة التى تأكد فيها ، خلال التاريخ ، وجود اغلبية اللغات الهنداوربية ، اى فى اوربا . ويقابل لاتام تقادم اللغة السنسكريتية بتقادم اللغة اللتوانية التى تعود تسجيلاتها الى ٢٥٠٠ عام بعد تسجيلات السنسكريتية .

ومن ذلك الحين يقترح الباحثون مناطق مختلفة فى اوربا بوصفها موطن الاجداد الهنداوربى .

وكان اكتشاف مسميات الانهار الاوربية القديمة (=الهنداوربية) فى وسط وشمال اوربا من قبل العالم الالمانى كراى منذ ربع قرن قد زود علم اللغة بمنهج اضافى للبحث عن موطن الاجداد . فان تحليل مسميات الانهار القديمة والحديثة قد مكن كراى من متابعة سنن تكون تلك المسميات من حيث الزمان ومن حيث انتشارها فى المكان . وبين تحليل المسميات المائية ان الكثير من اسماء الانهار ذو نهايات متماثلة مع ان الاصول مختلفة . ففى اوربا مثلا يوجد اكثر من مائة اسم للانهار تنتهى بـ ava: Bedrava

وهلمجرا . ويستنتج Dobrava, Chanava, Nitrava,
من ذلك ان جزءا من مسميات الانهار نشأ باضافة زائدة لفظية (ava في الامثلة المذكورة اعلاه) الى الاصل الذى يحمل المعنى ، وبواسطة هذه الزائدة يتكون اسم النهر .
واذا عرفنا الزائدة اللفظية يسهل علينا تحديد الاصل بل وحتى تحديد الفترة التى يعود اليها . فاذا حذفنا الزائدة اللفظية ava من اسم نهر Morava نحصل على الاصل mor الذى له ما يماثله فى كلمة more («بحر») ليس فقط فى اللغات التى تفرعت عن اللهجة الاوربية القديمة (حسب كراى) للغة الهنداوربية (فى اللغة الجرمانية القديمة واللاتينية والسلافية القديمة وغيرها) بل وكذلك فى اللغة الحثية (marmara – مستنقع) والسنسكريتية (mara – بحر) العائدتين الى الالف الثانى قبل الميلاد .

ويدل اسم نهر Marassanta (نهر قزيل ارماق حاليا) فى آسيا الصغرى الذى ورد مسجلا فى وثائق حثية عائدة الى النصف الاول من الالف الثانى قبل الميلاد على وجود تسميات انهار بأصل -mar فى قديم الزمان ، وفيها تؤدى - assa و -anta دور الزائدتين اللفظيتين الاشتقاقيتين . ويستنتج من ذلك ان انتشار اسماء الانهار التى فى اصلها mar(a) فى اوربا يمكن ان ينسب الى الفترة التى تنسب اليها تسمية Marassanta المسجلة فى النصف الاول من الالف الثانى قبل الميلاد ، وما قبلها اى الى الالف الثالث او الرابع قبل الميلاد . وفى هذه الحالة يمكن ان يدل تاريخ التسمية على تقادمها الاوربى القديم او

الهنداوربى ، اما تسجيل هذه التسمية فى آسيا الصغرى بعيدا عن منطقة انتشار اللهجة الاوربية القديمة فيدل على التقادم الهنداوربى المشترك لهذه التسمية .

ان بعض مسميات الانهار فى آسيا الصغرى ليست فيها زوائد لفظية ، وهى تقلد المسميات الاوربية ولا تعود الى المسميات الاوربية القديمة كما كان يعتقد كراى ، بل الى المسميات الهنداوربية المشتركة . فان اسم نهر فى آسيا الصغرى (بالحثية Aldanni «النبع») المعروف من الوثائق الحثية العائدة الى الالف الثانى قبل الميلاد نجد له نظيرا دقيقا تقريبا فى مقدونيا وايليريا Alto وفى بانونيا وميوزيا السفلى (Altina) ، وفى اوربا الشرقية ، فى حوض الدنيبر «التا» وكذلك فى اوربا الوسطى . ولعل بداية انتشار هذه التسمية اقدم من تسمية Alta فى آسيا الصغرى (الالف الثانى قبل الميلاد) اى انها تعود الى الالفين الرابع ـــ الثالث قبل الميلاد ، الامر الذى يدل على الاصل الهنداوربى لهذه التسمية النهرية . ان وجود المسميات النهرية التى اعتبرها كراى اوربية قديمة فى آسيا الصغرى حيث لم تكن توجد ، برأيه ، اية لغة متفرعة عن اللهجة الاوربية القديمة ، يطرح مسألة اصلها الهنداوربى السلفى . وقد بين شميدت باقناع ان مسميات كراى الاوربية القديمة هى فى الواقع هنداوربية .

وقد اعتبرت المناطق الغابية فى اوربـــــــــــــا الشرقية (شبيغيل ، ١٨٧١) واوربا الشمالية (هيجر ، ١٨٧٢ ؛ كوسّينا ، ١٩٠٢ ؛ هيرت ، ١٩٠٥ ـــ ١٩٠٧) كذلك

مواضع لموطن الاجداد الهنداوربى . والتأكيد على ذلك ، فى رأى الباحثين ، بالاضافة الى الحجج الاخرى هو تقادم اللغة اللتوانية والعثور على نماذج هنداوربية صرف فى هذه المناطق لعالم النبات والحيوان ، مثل البلوط والزان والسلمون وغيرها . ولعل ما يؤكد ذلك ايضا كثرة المسميات النهرية الهنداوربية فى مناطق البلطيق . الا ان اللغوى السوفييتى تروباتشيف بين ان المسميات النهرية الهنداوربية الكثيرة فى هذه المنطقة هى نتيجة توسع البلاطقة . وواجهت تلك الفرضية كذلك عوائق جدية من حيث المـواد والمعطيات الاثرية المستنبطة لغويا بشأن مواقع سكنى الهنداوربيين

وفى عام ١٨٦٨ تصور بينفى ان **السهوب فى منطقة البحر الاسود وبحر قزوين** تشكل الاحتمال الاكبر **لموطن الاجداد الهنداوربى** . واستنادا الى خلو اللغة الهنداوربية السلفية من اسماء الحيوانات الآسيوية الصرف (النمر والجمل وغيرهما) انكر بينفى المنشأ الآسيوى للهنداوربيين وتصور ان موطنهم الاصلى هو السهوب الروسية الجنوبية ، وذلك طبقا لمعطيات افيستا والتسمية الهنداوربية المشتركة للملح الذى كان بوسع الهنداوربيين ان يصادفوه فى سواحل بحر قزوين وبحر آرال الغنية بمكامن الملح .

وفى القرن العشرين حصلت الفرضية «السهوبية» لموطن الاجداد الهنداوربى على اثباتات اثرية (تشايلد ، **١٩٢٦ — ١٩٥٠** وغيمبوتاس ، الستينات — السبعينات) . فقد تأكد ان منطقة حوض الفولغا شهدت فى الالفين الرابع والثالث حضارة

حُفرية * لمجموعة ضمت قبائل الرعاة الرحل الذين استثمروا السهوب وكانت لهم صلات واسعة مع مناطق ذات حضارات اخرى . وتم الكشف عن الاتجاه الغربى لتوسع الحضارات الحفرية ، الامر الذى يميل عدد من الباحثين الى اعتباره سببا للتحولات العميقة فى تطور حضارات اوربا الوسطى منذ اواخر الالف الرابع ، وهى التحولات التى انعكست فى تغير الانماط الاقتصادية والكثير من السمات الملموسة مثل النمط الجسدى للسكان . علما بانه تأكد اثريا تقلص التحولات الاثنوغرافية الثقافية بقدر التقدم نحو شمال غربى اوربا . ومع ذلك فان حصر موطن الاجداد الهنداوربى المشترك فى سهوب اوراسيا يواجه اعتراضات ذات طابع لغوى (فان موطن الاجداد الهنداوربى ، حسبما تفيد المفردات المرممة ، ينبغى ان تكون فيه تضاريس جبلية ؛ وكذلك حيوانات ونباتات سهبية لا تطابق فى جوانب كثيرة الحيوانات والنباتات الهنداوربية) . وفى الوقت ذاته يرى عدد من الاخصائيين ان هذه الاراضى بالذات ، وليس شرقيها او غربيها (جنوبها الشرقى او الغربى) ، كانت موضعا لانعزال اللهجة الهندفارسية ، اى موطن الاجداد الهندفارسى . ويفترض ان الصورة اللغوية المرممة لاقتصاد ومعيشة الهندفرس فى موطن الاجداد لا تطابق ، من بين الحضارات الاثرية فى العالم القديم ، الا الحضارات السهبية فى اوراسيا .

وكان الباحثون قد اعتبروا منطقة البلقان ـــ الكاربات هى

---

* نسبة الى حفرات المدافن ـــ المترجم

الاخرى موطنا لاجداد الهنداوربيين (غيورغييف ، ١٩٥٨ ، ودياكونوف ، ١٩٨٢) . الا ان المواد الاثرية لا تطابق فرضية البلقان . فان الحضارات البلقانية القديمة فى الالف الرابع انتشرت فى الاتجاه الجنوبى وليس الشرقى او الغربى (فان غرب اوربا لم يصبح هنداوربيا الا من بداية الالف الثانى قبل الميلاد) . وفى اطار الفرضية البلقانية لا نجد تفسيرا لحقيقة هامة هى الاتصالات الطويلة الامد بين اللغة الهنداوربية واللغات السلفية الكارتويلية* والسامية وغيرها .

وكشفت دراسات اللغويين السوفييتيين غامكريليدزه وايفانوف (١٩٧٢ — ١٩٨٥) عن الاهمية الكبيرة للعنصر الايكولوجى الجنوبى فى المفردات الهنداوربية . واكدا ان من اللازم ان تنسب الى المفردات الهنداوربية المشتركة اسماء حيوانات جنوبية مثل «الفيل» و«السرطان» «والقرد» و«النمر الارقط» . وبين الباحثان ان اللغة الهنداوربية السلفية تعرف اسماء اشجار جنوبية مثل الجوز والتوت والعنب . ومع ان نسبة حيوانات مثل الفيل والقرد الى اللغة الهنداوربية السلفية امر قابل للجدل فان باقى مسميات الحيوانات والنباتات الجنوبية كاف لاستثناء اوربا الشرقية والغربية كلها وجزء كبير من اوربا الوسطى من منطقة البحث . وعلى هذا الاساس ، وخصوصا على اساس براهين الصلات بين اللغة الهنداوربية السلفية وبين اللغات السامية واللغة الكارتويلية السلفية والحثية وبعض اللغات الاخرى ، يحصر الباحثان

---

* المجموعة الجنوبية من لغات القوقاز — المترجم .

موطن الاجداد فى منطقة سفوح ارمينيا الواقعة فى موضع يتكلم السكان المجاورون له منذ القدم باللغات السامية والحثية والكارتويلية .

وقدم الباحثان ادلة لغوية جدية لصالح تغيير تاريخ موطن الاجداد الهنداوربى المتأخر من الالف الثالث قبل الميلاد ، كما جرت العادة عليه سابقا عند اغلبية الاخصائيين ، الى الالف الرابع ، وربما الخامس قبل الميلاد ، استنادا الى ان اللغة الاناضولية المشتركة (الحثية اللوفية) كانت قائمة امدا طويلا بين فترة ظهور الحثيين فى آسيا الصغرى المسجل باسماء حثية فى مسلات كاباذوقيا (٢٠٤٠ — ١٨٧٥ قبل الميلاد) وتفرعهم عن النواة الهنداوربية السلفية فى بداية انحلالها . ان اعتبار الالف الرابع قبل الميلاد تاريخا للمجموعة الهنداوربية قبل تحللها اقرب الى الحقيقة لعدة اسباب :

اولا — ينبغى اعتبار بداية الربع الاخير من الالف الثالث قبل الميلاد تاريخ ظهور الحثيين فى آسيا الصغرى ، لان هناك دلائل تشير الى ان الحثيين اعلنوا الانتفاضة على نارام سين* (٢٢٣٦ — ٢٢٠٠ قبل الميلاد) .

ثانيا — توجد فوارق بنيوية كبيرة بين اللغتين الحثية واللوفية اللتين انفصلتا عن المجموعة الاناضولية على تخوم الالفين الثالث والثانى قبل الميلاد ، وهى فوارق تدل فى رأى غامكريليدزه وايفانوف بحق ، على الطريق المستقل

* سليل سرجون ، ومؤسس الدولة الاكدية فى وادى الفرات — المترجم .

الطويل لتطور هاتين اللغتين المنفصلتين . وواضح ان ما لا يقل عن عدة قرون مر على انفصال هاتين اللغتين حتى تسجيلهما كتابيا ، وكذلك ، كما يبدو ، على انفصال المجموعة اللغوية الاناضولية عن النواة الهنداوربية .

وطرح الباحثان افتراضا بوجود المتكلمين باللغات الاناضولية فى آسيا الصغرى ، وهو افتراض يستند الى المسميات المائية القديمة ، اى الاسماء الهنداوربية للانهار والبحيرات (راجع الشرح اعلاه) التى لا نصادف صياغاتها فى اللغات الحثية واللوفية . ان هذا الوضع وتحرك الحثيين من الشرق ، حسبما تشير المصادر المكتوبة ، هما اساس الحجة التى تعلل تحرك الناطقين باللغة الاناضولية المشتركة الذين انفصلوا من جهة الشرق ، من الانجاد الارمنية ، اى من موطن الاجداد الهنداوربى المفترض . صحيح ان الباحثين لا يوضحان السبب فى عدم وجود آثار للمسميات المائية الهنداوربية القديمة فى اراضى الانجاد الارمنية نفسها ، وكذلك فى اراضى الاناضول الشرقية مع انها يجب ان تتوفر هنا بالذات بكميات كبيرة اذا كان تحرك الناطقين باللغات الاناضولية قد جرى من الشرق . ويشير ايفانوف وغامكريليدزه الى خمسة مسميات من هذا النوع فى آسيا الصغرى ، بينما تفيد معطيات كراى ان اكثر من مائة منها كانت فى حوض الكاربات وفى الاطراف الشمالية لشبه جزيرة البلقان (مع ان هناك رأيا يقول بانها تنتمى الى العهد الاوربى القديم وليس العهد الهنداوربى المشترك) .

ثم ان غامكريليدزه وايفانوف يثبتان الصلات بين اللغتين

الهنداوربية السلفية والحثية واللغات القفقاسية الشمالية والسامية ويكشفان عن الاقتباس الثنائى فى هذه اللغات . ودلل الباحثان بالحجج المفصلة على الصلات بين اللغات الاوربية القديمة واللغة الكارتويلية السلفية ، ان تاريخ وجود هذه اللغة ــ الالف الثالث قبل الميلاد مع احتمال شمول جزء من الالف الرابع ــ يجعل صلاتها باللغة الهنداوربية السلفية امرا افتراضيا ، ولذا يفترض غامكريليدزه وايفانوف ان مجموعات اللهجات الهنداوربية القديمة هى التى كانت لها صلات مع اللغة الكارتويلية المشتركة . ويعزز الباحثان حكمهما بشأن موطن الاجداد الآسيوى بتدليل لا شائبة فيه على المستوى الاجتماعى والاقتصادى الرفيع والتطور الثقافى للشعب الهنداوربى السلفى القريب من حضارات العصر القديم المبكر ذات المستوى العالى للزراعة والرعى . وتكشف المفردات المرممة ، كما بين الباحثان ، عن معرفة الاسلاف الهنداوربيين للمحراث والحيوانات الاليفة الاساسية (الحصان والبقرة والنعجة والمعزى والخنزير والكلب) . واتقن الهنداوربيون نسج الاقمشة وصناعة الفخار ومعالجة المعادن . وكانوا على علم بانواع من الاسلحة مثل السيف وفأس القتال ، وكانوا يستخدمون عدة مصطلحات حربية : الغنيمة والدفاع والجند والحملة والموقع المحصن .

ويبدى الباحثان رأيا معللا يقول ان الثقافة الروحية كانت متطورة كثيرا عند الهنداوربيين : فقد امكن تحديد طائفة من خصائص الطقوس والمراسيم وكذلك الاوزان الشعرية الهنداوربية السلفية وكان الاسلاف الهنداوربيون يعرفون

كلمات : «تقديم النبيذ قربانا للآلهة» و«مقدس» و«تقديس» و«المشعل» و«المذبح» و«القوة الحياتية» و«الخلود» و«عبادة الآلهة» و«الالتزام» . وكان هناك مصطلح خاص للملك . ويرى الباحثان انهم كانوا يمتلكون بواكير الابجدية والكتابة .

وساعدت الاكتشافات اللغوية الباحثين على تقديم مخططهما الخاص لتقسيم اللغات الهنداوربية حسب اللهجات ، ويفيد المخطط ان اول ما انفصل عن الوحدة الهنداوربية السلفية هي اللغات الاناضولية المشتركة والتوخارية ، وبعد ذلك بقليل انفصلت المجموعة اليونانية ــ الآرية التي انقسمت الى مجموعتي اللهجات الهندفارسية واليونانية . ثم يشير الباحثان الى طريقي نزوح اللهجات الهنداوربية عبر القفقاس على امتداد سواحل بحر قزوين الى اوربا ، وعبر بلاد فارس وآسيا الوسطى الى الهند وافغانستان .

ان اهم ما يميز دراسة غامكريليدزه وايفانوف هو المنهج الشامل الذي امكن بفضله تناول كل جوانب قضية حصر موطن الاجداد الهنداوربي تقريبا : الجانب اللغوي والجانب الايكولوجي (الطبيعي) والجانب الاثري . وجمع الباحثان كمية كبيرة من الوقائع اللغوية والتاريخية ومعطيات علم الآثار والعلوم الطبيعية وتثبتا منها بدقة وفسراها لدرجة كبيرة وقدما مخططا لتحلل المجموعة الهنداوربية . واستنادا الى الحجج الايكولوجية حاولا دحض احتمال حصر موطن الاجداد في شمال اوربا واثبات تجاور موطن الاجداد حتما مع اقدم الحضارات العالمية التي كانت قائمة في الالف الرابع قبل الميلاد في البلقان (حضارة بينتشا) وفي شرق البحر المتوسط

(مصر) ووادى الرافدين (اوروك ، الالفان الرابع ـــ الثالث قبل الميلاد) .

ان تاريخ القضية الذى اوردناه هنا بشكل مقتطفـــات يبين ان جوانبها ليست مدروسة بقدر متساو وان الدراسات التى تحاول حل هذه القضية بصورة شاملة هى دراسات تعد باصابع اليد . ومع ذلك فقد قيل الكثير عن موطن الاجداد الهنداوربى ، ولا يجوز التغاضى عن معطيات التاريخ لانها هى ايضا تعتبر مرجعا ثانويا .

ان ايكولوجيا موطن الاجداد الهنداوربى التى هى واحدة من المواد العلمية الاربع (الى جانب علم اللغات الهنداوربية وعلم الآثار والانثروبولوجيا) والتى لا يمكن بدونها البحث عن موطن الاجداد ، لم يتناولها الباحثون ابدا بالقدر الكامل وبمراعاة كل المسميات اللغوية المكتشفة والخاصة بالطقس والتضاريس وعالم الحيوان والنبات . زد على ذلك ان التحليل يجرى اختياريا بغية اثبات وجود موطن الاجداد فى المنطقة التى يقترحها الباحثون . وقد اشترط هذا المنهج الدور الثانوى المساعد للاتجاه الايكولوجى . والحال فان تاريخ دراسة القضية الهنداوربية يبين ان الحجج الايكولوجية دحضت مرارا الحلول اللغوية والاثرية والانثروبولوجية لتحديد موطن الاجداد . فان اوربا الشمالية والشمالية الشرقية ، مثلا ، لا يمكن ان تعتبر موطن الاجداد الهنداوربى رغم الادلة على استمرارية تطور النمط الانثروبولوجى فى بعض مناطقها (البلدان الاسكندينافية ومنطقة البلطيق) وتطور بعض الحضارات الاثرية ـــ من حضارة الفخار الحبلي حتى حضارة البلاطقة

القدامى (جنوب شرقى البلطيق) ورغم تقادم اللغة اللتوانية والمسميات المائية «الاوربية القديمة» او الهنداوربية ، وذلك لان اعتبارها موطنا للاجداد يتعارض تعارضا شديدا مع المعطيات الأيكولوجية .

وهكذا تتسم نتائج التحليل الايكولوجى بأهمية لا تقل عن اهمية التحليل الاثرى والانثروبولوجى ، بل حتى اللغوى . وتتلخص الاهمية الكبيرة للدراسات اللغوية فى انها عندما صاغت ذات مرة مفهوم «موطن الاجداد الهنداوربى» او «الموطن الهنداوربى السلفى» ظلت حتى الآن تحدد مسار الاتجاه الايكولوجى ، وبدرجة اقل الاتجاه الاثرى (المستوى الثقافى التاريخى للحضارة الهنداوربية السلفية والاتصالات مع الشعوب الناطقة بلغات اخرى وهلمجرا) .

ولكل من الاتجاهات الاربعة منهجه الذى يختلف عن مناهج البحث الاخرى اختلافا شديدا ، وله قاعدة دراسية خاصة به ، ولذا فان دراسة كل جانب يجب ان تجرى ، فى رأينا ، بصورة مستقلة نسبيا . اما تصحيح مسار هذه الاتجاهات فيجب ان يتم فى طور النتائج النهائية فقط .

ونعتقد ان **هدف البحث الايكولوجى عن موطن الاجداد الهنداوربى** ليس هو اثبات صلاح هذه المنطقة او تلك من الناحية الايكولوجية لحصر موطن الاجداد الهنداوربى المأهول فيها ، بل هو تقديم تحليل اقليمى لايكولوجيا القارة الاوراسية استنادا الى تنوع المناطق التضاريسية والمناخية والتأكد من المنطقة التى تحتوى على العدد الكامل او على اكبر عدد

من السمات الايكولوجية التى اكتشفها اللغويون . ولقد اجرينا تحليلا اقليميا لتواجد انواع النباتات والحيوانات (التى تعود مسمياتها الى اللغة الهنداوربية المشتركة) التى نصادفها فى ٩ مناطق آسيوية و١٢ منطقة اوربية تشمل تقريبا كل اراضى القارة الاوراسية ما عدا التندرا والمنطقة شبه القطبية فى اوربا الشرقية وسيبيريا وكذلك منغوليا التى لا توجد وما كانت توجد فيها نماذج من عالم الحيوان والنبات الهنداوربى السلفى الجنوبى (الاسد ، والجوز والتوت) وكذلك عالم النبات فى اوربا وآسيا الصغرى (الزان والخلنج) كما لا توجد فيها اشجار مثل الدردار والطقسوس والكاربينوس المنتشرة فى الصين المحذوفة من منطقة البحث عن موطن الاجداد بسبب عدم وجود اشجار الزان والخلنج والحور الرجراج ونماذج من عالم الحيوان ــ الطيهوج والقندس والاسد والحنكليس والسلمون فى الصين . ولهذا السبب ايضا ، ولانعدام انواع النباتات الشمالية كالبتولا والزيزفون ، تستثنى اراضى الهند الصينية من مناطق البحث عن موطن الاجداد . كما ان الوقائع التاريخية واللغوية والاثرية تتعارض مع حصر موطن الاجداد الهنداوربى المأهول فى المناطق المذكورة اعلاه . ولذا لم يدرج الباحثون تلك المناطق ضمن مجال البحث عن موطن الاجداد .

ولقد حاولنا فى تقرير انتشار انواع النباتات والحيوانات ان نعتمد ، بقدر الامكان ، على معطيات الدراسات فى علوم المتحجرات الجغرافية والنباتية والحيوانية ، وكذلك على معلومات مستقاة من نصوص تاريخية ورد فيها ذكر

لعالم النبات والحيوان القديم . الا ان هذه المواد غير كافية لالقاء الاضواء على مسألة انتشار جميع انواع النباتات والحيوانات التى كانت موجودة فى موطن الاجداد الهنداوربى فى الفترة الهنداوربية المشتركة ، ولذلك فنحن مضطرون الى تناولها على خلفية الجغرافية الحديثة والنباتات والحيوانات الموجودة حاليا مع تعديل يستفاد منه ان الطقس فى المجال الزمانى لوجود المجموعة الهنداوربية السلفية (الالف الرابع قبل الميلاد) كان يطابق جزئيا نهاية افضل مناخ للعصر الذى اعقب العصر الجليدى ، اى انه كان اكثر دفئا ورطوبة من الطقس حاليا . ففى منخفض اواسط الدانوب مثلا فى تلك الفترة كان متوسط درجة الحرارة فى كانون الثانى (يناير) هو ٥ درجات مئوية ، وفى تموز (يوليو) ٢٥ درجة مئوية ، بينما بلغ المتوسط السنوى ١٥ او ١٦ درجة . ولعل من اللازم ان ننسب الى تلك الفترة نشوء الغابات فى النصف الجنوبى من اوربا الوسطى الشبيهة بغابات البحر الابيض المتوسط . وقد ظلت تلك الغابات المعمرة فى بعض ارجاء هذه المنطقة .

وهكذا فان مناطق انتشار نماذج النباتات والحيوانات الجنوبية تمتد قليلا شمالى المناطق الحالية . كما لوحظ تزحزح حدود النباتات والحيوانات الملازمة حاليا للمناطق المعتدلة صوب الشمال . وتجدر الاشارة الى ان منطقة بعض انواع النباتات والحيوانات كانت لها حدود متسعة من الشمال والجنوب بالمقارنة مع الانواع الحالية ، وذلك ، على ما يبدو نتيجة لزيادة الرطوبة . وقد تزحزحت الحدود الجنوبية الحالية للنباتات والحيوانات الى الشمال لاسباب غير مناخية

جزئيا ، اى بنتيجة النشاط الاقتصادى للانسان . فان معطيات المتحجرات الجغرافية تفيد بان الغابات الابرية فى فترة افضل مناخ بعد العصر الجليدى كانت تكسو الشمال الغربى من منطقة البحر الاسود حتى الضفة اليمنى لنهر الدنيبر حيث توجد منطقة السهوب حاليا .

ويجرى رسم **ايكولوجيا موطن الاجداد الهنداوربى** بموجب المفردات الهنداوربية السلفية التى رممها اللغويون والخاصة بالتضاريس والمناخ وعالم النبات والحيوان .

وتصف **معطيات علم اللغة الخاصة بالبيئة الايكولوجية لموطن الاجداد الهنداوربى** هذا الموطن بانه بلد ذو تضاريس جبلية وشبكة متشعبة من الانهار وطقس معتدل وتشابك نباتى مدهش مما يلازم المناطق الجنوبية والمعتدلة .

ان التضاريس الجبلية لموطن الاجداد الهنداوربى امر اكده عدة باحثين ، وبعد ظهور دراسات غامكريليدزه وايفانوف لم يعد يثير الشك . فان القائمة التى وضعاها للمفردات الهنداوربية السلفية تقنعنا بان الهنداوربيين كانوا يقيمون فى مناطق جبلية او سفحية («قمة الجبل» ، «جبل ، صخرة ، حجر» ، «جبل ، هضبة» ، «عال» ، «بلوط» ، «صخرة» «بلوط جبلى» ، «ريح شمالية جبلية») .

ان طابع النباتات (غابات الاشجار العريضة الاوراق والمختلطة ، وانعدام الاسماء التى تناسب حيوانات اعالى الجبال (ما عدا النمر الارقط الذى كان يعيش فى الروابى بل وحتى فى السفوح) ، ووجود بعض انواع الاشجار (كالحور الرجراج مثلا) والحيوانات (كالقندس مثلا) ، كل ذلك يقدم تأكيدا

بان الهنداوربيين او قسما منهم كانوا يعيشون كذلك فى اماكن اوطأ من الروابى .

وهكذا يحتمل ان يتواجد موطن الاجداد الهنداوربيين على الروابى والسفوح والانجاد ، وربما فى الاراضى المنخفضة المتاخمة للانجاد .

وتشير الى **مناخ موطن الاجداد الهنداوربى** مفردات شتوية («الشتاء» ، «الثلج» ، «البرد» ، «الجليد») وكذلك صيفية («الحر» ، «الدفء») . وبعد تحديد مستوى لموضع موطن الاجداد تدل هذه التسميات على مناطق معتدلة على الاكثر . وهذا محتمل تماما لان فترة وجود المجموعة الهنداوربية (الالف الرابع قبل الميلاد) تتوافق مع فترة المناخ الافضل (بعد العصر الجليدى) .

ان عالم النبات فى موطن الاجداد الهنداوربى متمثل فى التسميات الهنداوربية السلفية المشتركة التالية : ١ — الحور الرجراج ، ٢ — الطقسوس (السدر الجبلى) ، ٣ — الكاربينوس ، ٤ — الزان ، ٥ — البتولا ، ٦ — الدردار ، ٧ — الصنوبر ، ٨ — البلوط ، ٩ — البلوط الجبلى ، ١٠ — الزيزفون ، ١١ — الصفصاف ، ١٢ — التفاح ، ١٣ — الكرز ، القرانيا ، ١٤ — التوت ، ١٥ — الجوز ، ١٦ — العنب ، ١٧ — الورد ، ١٨ — الخلنج .

ويشكل **عالم الحيوان فى موطن الاجداد الهنداوربى** قائمة كبيرة من الاسماء وضعنا لها ولاسماء النباتات فى بحثنا ارقاما متسلسلة لتسهيل قراءة الجداول ادناه .

١ — القندس ، ٢ — ثعلب الماء ، ٣ — الوعل (الايل ،

الظبى) ، ٤ ــ الخنزير البرى ، ٥ ــ الثور البرى ، ٦ ــ الارنب ، ٧ ــ الدب ، ٨ ــ الذئب ، ٩ ــ الثعلب ، ابن آوى ، ١٠ ــ الوشق ، ١١ ــ الفأر ، ١٢ ــ الحمار ، ١٣ ــ النمر الارقط ، ١٤ ــ الاسد ، ١٥ ــ السرطان ، ١٦ ــ الطير الصغير ، نقار الخشب ، الشرشور ، ١٧ ــ الطير المائى ، الوز ، التم ، ١٨ ــ الكركى ، ١٩ ــ النسر ، ٢٠ ــ الغراب ، ٢١ ــ الطيهوج ، ٢٢ ــ السلمون ، ٢٣ ــ الحنكليس .

ان الاسماء الهنداوربية السلفية المشتركة لبعض الحيوانات مثل «الافعى ، الدودة ، السمكة ؛ الزنبور ، القملة ، الصؤابة ، الذبابة» لا تعطينا الكثير فى البحث ، لانها لا تشير الى نوع معين ، وهى منتشرة على نطاق واسع فى كافة ارجاء المعمورة تقريبا .

ولم ندرج فى قائمة اسماء الحيوانات «الفيل ، العاج» و«القرد» (من ترميم غامكريليدزه وايفانوف) ، فالفيل والقرد يثيران اكبر الشكوك لدى الاخصائيين . ولو كان هذان الاسمان يعنيان وجود هذين الحيوانين فى موطن الاجداد الهنداوربى لاستثنينا من الفرضية اوربا بل والقسم الاكبر من آسيا ، ويحتمل ان تحذف من منطقة البحث آسيا الصغرى والانجاد الارمنية .

وفى المناطق الآسيوية التى اقترحها الباحثون كموطن للاجداد الهنداوربيين لا يوجد الطيهوج والحنكليس ، كما لا يوجد فيها القندس والحور الرجراج ، ما عدا منطقة ما وراء القفقاس التى هى اكثر المناطق الآسيوية صلاحا للبيئة الايكولوجية لموطن الاجداد الهنداوربى . ولكن لا يوجد

فى هذه المنطقة الطيهوج والحنكليس والخلنج .

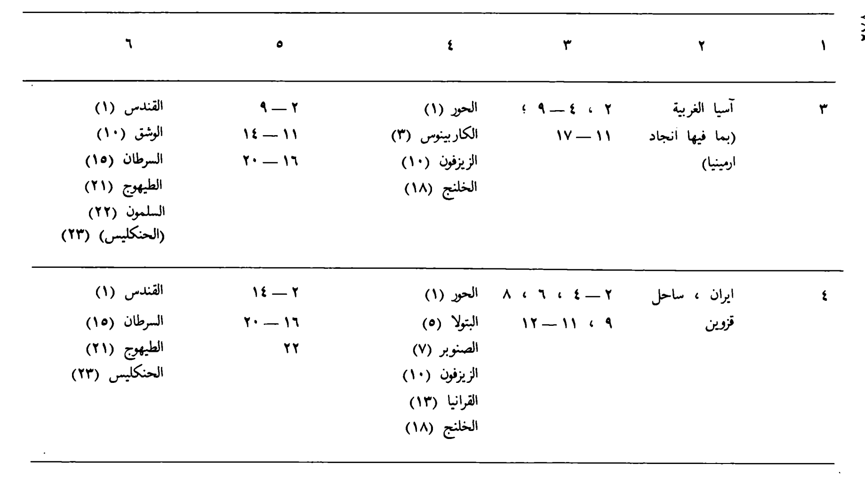
ومن بين المناطق الاوربية الـ١٢ تقرب من الظروف الايكولوجية لموطن الاجداد الهنداوربـي منطقة شمال القفقاس وسفوح الكاربات ومناطق اوربا الوسطى غربى الكاربات وشمالى الدانوب . ولكن لا يوجد فى انجاد الكاربات وشمال القفقاس الخلنج والحنكليس والاسد ، كما لا يوجد فى مناطق اوربا الوسطى غربى الكاربات الاسد والسرطان والتوت والجوز . ولا تناسب كثيرا البيئة الايكولوجية لموطن الاجداد الهنداوربى مناطق مثل سهوب قزوين والبحر الاسود التى لا ينمو فيها نصف الاشجار الداخلة ضمن المفردات الهنداوربية السلفية وتنعدم نماذج من عالم الحيوان مثل الاسد والوشق والطيهوج والحنكليس . ان المعايير الايكولوجية لا تسمح باعتبار شمال اوربا والبلقان موطنا للاجداد الهنداوربيين . فالمنطقة الاولى خالية من نماذج النباتات الجنوبية (الدردار والتوت والجوز والعنب) والحيوانات الجنوبية (الاسد والنمر الارقط والنسر والسرطان) ، وتخلو المنطقة الثانية من نماذج النباتات والحيوانات الشمالية (الحور الرجـــراج والقندس والبتولا والطيهوج والسلمون والحنكليس) .

وبالعكس ، ففى ما وراء الكاربات ، وخصوصا غربيه مع المنطقة المتاخمة لشواطئ الدانوب وما وراءه ، مع ما فيها من تشابك بين النباتات القديمة فى منطقة البحر الابيض المتوسط ونباتات المناطق المعتدلة والشمالية ، نجد الكثير من النماذج الهنداوربية من النبات والحيوان ، حتى ان معطيات علم الآثار والحفريات تبين ان سكان هذه المنطقة فى مطلع

جدول ١

الحجج الايكولوجية

رقم	المناطق المقترحة لموطن الاجداد الهنداوربى	الحجج النباتية: المؤيدة	الحجج النباتية: المعارضة	الحجج الحيوانية: المؤيدة	الحجج الحيوانية: المعارضة
١	٢	٣	٤	٥	٦
١	آسيا الصغرى (ساحل البحر الاسود)	٢ — ١٨	الحور الرجراج (١)	٢ — ١٣ ، ١٥ — ٢٠	القندس (١) الاسد (١٤) الطيهوج (٢١) السلمون (٢٢) الحنكليس (٢٣)
٢	آسيا الصغرى (القسم القارى)	٦ — ١٨	الحور (١) الكاربينوس (٣) البتولا (٥)	٢ — ٢٠	القندس (١) الطيهوج (٢١) السلمون (٢٢) الحنكليس (٢٣)

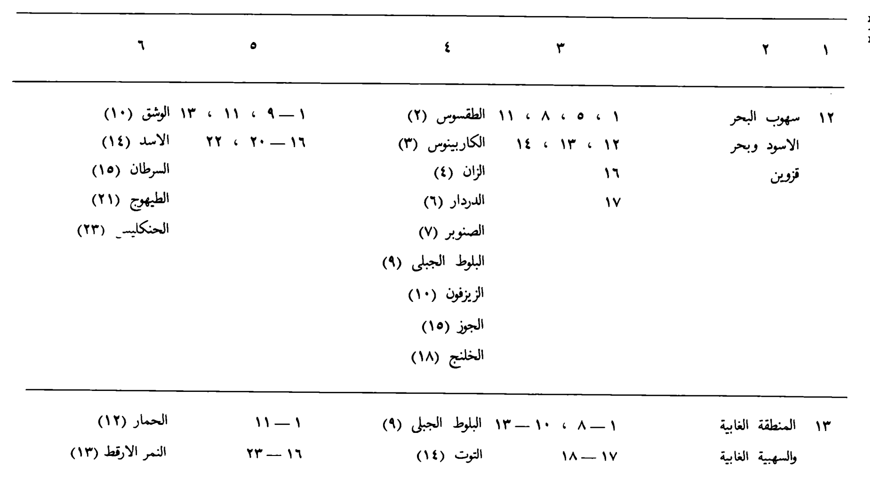


١	٢	٣	٤	٥	٦
٣	آسيا الغربية (بما فيها أنجاد ارمينيا)	٢ ، ٤ — ٩ ؛ ١١ — ١٧	الحور (١) الكاربينوس (٣) الزيزفون (١٠) الخلنج (١٨)	٢ — ٩ ١١ — ١٤ ١٦ — ٢٠	القندس (١) الوشق (١٠) السرطان (١٥) الطيهوج (٢١) السلمون (٢٢) (الحنكليس) (٢٣)
٤	ايران ، ساحل قزوين	٢ — ٤ ، ٦ ، ٨ ٩ ، ١١ — ١٢	الحور (١) البتولا (٥) الصنوبر (٧) الزيزفون (١٠) القرانيا (١٣) الخلنج (١٨)	٢ — ١٤ ١٦ — ٢٠ ٢٢	القندس (١) السرطان (١٥) الطيهوج (٢١) الحنكليس (٢٣)

٥	ايران (بدون ساحل بحر قزوين)	٦ ، ٨ ، ٩ ،	الحور (١)	٢ — ٩	القندس (١)
		١١ ، ١٥	الطقسوس (٢)	١١ — ١٤	الوشق (١٠)
		١٦ ، ١٧	الكاربينوس (٣)	١٦ — ٢٠	السرطان (١٥)
			الزان (٤)		الطيهوج (٢١)
			البتولا (٥)		السلمون (٢٢)
			الصنوبر (٧)		الحنكليس (٢٣)
			الزيزفون (١٠)		
			التفاح (١٢)		
			القرانيا (١٣)		
			التوت (١٤)		
			الخلنج (١٨)		
٦	آسيا الوسطى	٥ ، ٦ ، ٧	الحور (١)	٢ — ١٣	القندس (١)
		١١ — ١٤	الطقسوس (٢)	١٥ — ٢٠	الأسد (١٤)
		١٦ — ١٧	الكاربينوس (٣)	٢٢	الطيهوج (٢١)
			الزان (٤)		الحنكليس (٢٣)
			البلوط (٨)		
			البلوط الجبلى (٩)		
			الخلنج (١٨)		

١	٢	٣	٤	٥	٦
٧	سفوح هندكوش	٢ ، ٥ ، ٧	الحور (١)	٢ ، ٣ ، ٥ ، ٦	القندس (١)
		٨ ، ٩ ، ١١	الكاربينوس (٣)	٧ — ١٠	الخنزير البرى (١٤)
		١٧	الزان (٤)	١١ — ١٣	الاسد (١٤)
			الزيزفون (١٠)		السرطان (١٥)
			التفاح (١٢)		الغراب (٢٠)
			القرانيا (١٣)		الطيهوج (٢١)
			التوت (١٤)		السلمون (٢٢)
			العنب (١٦)		الحنكليس (٢٣)
			الخلنج (١٨)		
٨	الهند	٥ ، ١١ ، ١٧	الحور (١)	٢ ، ٣ ، ٥ ، ٦	القندس (١)
			الطقسوس (٢)	٧ — ٩	الخنزير (٤)
			الكاربينوس (٣)	١١ ، ١٣ ، ١٤	الغراب ٢٠)
			الزان (٤)	١٦ — ١٩	الطيهوج (٢١)
			الدردار (٦)		السلمون (٢٢)

			الصنوبر (٧) البلوط (٨) البلوط الجبلى (٩) الزيزفون (١٠) الخلنج (١٨)		الحنكليس (٢٣)
٩	ما وراء القفقاس	١ — ١٧	الخلنج (١٨)	١ — ٢٠ ، ٢٢	الطيهوج (٢١) الحنكليس (٢٣)
١٠	شمال القفقاس	١ — ١٧	الخلنج (١٨)	١ — ١٣ ١٥ — ٢٢	الاسد (١٤) الحنكليس (٢٣)
١١	القرم	٢ — ٤ ، ٧ — ١٤ ١٦ — ١٧	الحور (١) البتولا (٥) الدزدار (٦) الخلنج (١٨)	١ ، ٣ — ٩ ١١ ، ١٢ ، ١٥ ١٦ — ٢٠ ، ٢٢	ثعلب الماء (٢) الوشق (١٠) النمر الارقط (١٣) الاسد (١٤) الطيهوج (٢١) الحنكليس (٢٣)



١	٢	٣	٤	٥	٦
١٢	سهوب البحر	١ ، ٥ ، ٨ ، ١١	الطقسوس (٢)	١ — ٩ ، ١١ ، ١٣	الوشق (١٠)
	الاسود وبحر	١٢ ، ١٣ ، ١٤	الكاربينوس (٣)	١٦ — ٢٠ ، ٢٢	الاسد (١٤)
	قزوين	١٦	الزان (٤)		السرطان (١٥)
		١٧	الدردار (٦)		الطيهوج (٢١)
			الصنوبر (٧)		الحنكليس (٢٣)
			البلوط الجبلى (٩)		
			الزيزفون (١٠)		
			الجوز (١٥)		
			الخلنج (١٨)		
١٣	المنطقة الغابية	١ — ٨ ، ١٠ — ١٣	البلوط الجبلى (٩)	١ — ١١	الحمار (١٢)
	والسهبية الغابية	١٧ — ١٨	التوت (١٤)	١٦ — ٢٣	النمر الارقط (١٣)

	فى اوربا الشرقية		الجوز (١٥) العنب (١٦)		الاسد (١٤) السرطان (١٥)
١٤	منطقة الكاربات	١ — ١٧	الخلنج (١٨)	١ — ١٣ ١٦ — ٢٢	الاسد (١٤) السرطان (١٥) الحنكليس (٢٣)
١٥	ما وراء الكاربات مع المناطق المتاخمة الدانوب وما وراءه	١ — ١٨		١ — ١٣ ١٦ — ٢٣	الاسد (١٤) السرطان (١٥)
١٦	اوربا الوسطى غربى الكاربات وشمالى الدانوب ومنطقة الالب	١ — ١٣ ، ١٧	التوت (١٤) الجوز (١٥)	١ — ١٣ ١٦ — ٢٣	الاسد (١٤) السرطان (١٥)

١	٢	٣	٤	٥	٦
١٧	اوربا الوسطى جنوبى الدانوب	٢ ، ٣ ، ٤ ، ٦ ٧ ، ٨ ، ١٠ ١١ — ١٧	الحور (١) البتولا (٥) البلوط الجبلى (٩) الخلنج (١٨)	٢ — ٢٠	القندس (١) الطيهوج (٣١) الحنكليس (٢٣)
١٨	اوربا الشمالية	٢ — ٥ ٧ — ١٣ ١٧ ، ١٨	الدردار (٦) التوت (١٤) الجوز (١٥) العنب (١٦)	١ — ١١ ١٦ — ٢٣	الحمار (١٢) النمر الارقط (١٣) الاسد (١٤) السرطان (١٥)
١٩	البلقان	٢ — ٤ ٦ — ١٨	الحور (١) البتولا (٥)	٢ — ٢٠	القندس (١) الطيهوج (٢١)

					السلمون (٢٢)
					الحنكليس (٢٣)
٢٠	جنوب فرنسا	٢ ، ٤ ، ٦ — ٩	الحور (١)	١ — ١٣	الاسد (١٤)
	الابنين	١١ — ١٣	الكاربينوس (٣)	١٥ — ٢٠	الطيهوج (٢١)
	البرنيه	١٦ — ١٨	البتولا (٥)		السلمون (٢٢)
			الزيزفون (١٠)		الحنكليس (٢٣)
			التوت (١٤)		
٢١	شمال فرنسا	٢ — ١٣	التوت (١٤)	١ — ١١	الحمار (١٢)
		١٦ — ١٨	الجوز (١٥)	١٣ ، ١٦ — ٢٣	الاسد (١٤)
					السرطان (١٥)

الالف الرابع قبل الميلاد ، فى عهد موطن الاجداد الهنداوربى كانت لديهم فكرة عن حيوان نادر هناك هو الجمل الذى توجد صورة له على فخار من قرية آسود الليندليلية فى ما وراء الدانوب .

وفى ما وراء الكاربات شبكة متشعبة من الانهار ذات الاسماء الهنداوربية (وعلى الاصح الهنداوربية القديمة) . وهذه الانهار هى اودر واودرا ومورافا وموررافيتسا وفيسلا (فستول) وايغير وغيرها (راجع كراى وتروباتشيف) .

وتجدر الاشارة الى ان منطقة مسميات الانهار الهنداوربية اوسع بعض الشىء . فهى تشمل كل اوربا الوسطى والشمالية تقريبا ، وتصادف بعض الاسماء الهنداوربية غربى وشرقى هذه المنطقة .

ويطرح السؤال التالى : هل كان مستوى تطور الحضارة المادية والروحية لسكان هذه المنطقة فى الالفين الخامس والرابع قبل الميلاد يناسب المستوى الرفيع للثقافة الهنداوربية السلفية كما تصورها معطيات اللغويين ؟ لا توجد معطيات من مصادر مكتوبة بخصوص المنطقة المحددة اعلاه فى الالف الرابع قبل الميلاد . ولا يقدم جوابا على هذا السؤال الا علم الآثار .

ان عالم الآثار يشبه اخصائى التحريات الجنائية الذى تأخر فى الوصول الى مكان الاحداث عدة آلاف من السنين . واذا عثر اثناء الحفريات على بطيخة الدولاب يرمم شكل الدواليب ، وحسب وضعيتها يرسم شكل العربة ثم يخرج باستنتاج حول وجود النقل بالعربات عند القدماء .

ان بقايا الاعمدة واسس الجدران يمكن ان تشير ليس فقط الى وجود قصر فى الاطلال الاثرية بل الى وجود الوجهاء والزعيم . والاصعب من ذلك بكثير هو بعث الاحداث المرتبطة بتاريخ هذا الشعب او ذاك . فيجب فى المقام الاول الجواب عن السؤال التالى : هل يمكن التفريق بين شعب وآخر استنادا الى بقايا الحضارة المادية ؟ يسهل علينا ان نحدد بموجب البقايا المادية التى نعثر عليها اثنـــاء الحفريات ملامح الحضارة المادية للاغريـــــــــــق والفراعنة . ويسهل احيانا حتى تحديد اصل بعض الحاجيات. فان الفخار اليونانى الصقيل الاسود يسهل تمييزه عن اى نوع آخر من الفخار الموجود فى مناطق البحر الابيض المتوسط والبحر الاسود وغيرها .

ان الحضارة الاثرية تحددها كل عناصر الحضارة المادية المكتشفة فى الحفريات ، حيثما توجد سمات مشتركة تميز عددا من الشعوب وحضاراتها (فهذه السمات توحد الحضارات وتغدو مؤشرا على الاتصالات والتجارة والقرابة بينها وهلمجرا) ، وحيثما توجد سمات خاصة تميز الحضارة المعنية وحدها (فهذه السمات تشكل النواة الاثنوغرافية للحضارة وتميزها من بين الحضارات الاخرى المتزامنة معها فى المناطق المجاورة) . ومن السمات الخاصة للحضارة الفخار والحلى المتميزة (مثل الخنافس الفرعونية) والمنشآت المعمارية البـــارزة (مثل المبانى اليونانية المستطيلة) والتصورات الدينية العقائدية المتجسدة فى بقايا الحضارة المادية (اهرام الفراعنة والمدافن الاغريقية ذات القباب) والخواص الفريدة لشعائر دفن القدماء

(مثل حرق الموتى فى قوارير) .

ان ما وراء الكاربات واراضى الدانوب وما وراءه ، بما فيها اراضى مورافيا وسلوفاكيا والمجر (منطقة الدانوب وما وراء الدانوب) هى منطقة انتشار اربع حضارات اثرية فى الالفين الخامس والرابع قبل الميلاد — حضارة الفخار الخطى الشريطى وحضارة تيسا وحضارة لينديل وحضارة الكؤوس المخروطية (القمعية) . والحضارة الاولى والرابعة سميتا طبقا لخصائص الفخار — الاشرطة الزخرفية والخطوط المحفورة فى الفخار والسيراميك للاولى ، واتساع فوهات الاوانى كالمخروط فى الثانية . اما حضارة تيسا فقد سميت باسم نهر تيسا الذى تتواجد على امتداده آثارها الاساسية فى المجر وسلوفاكيا ، كما سميت حضارة لينديل باسم القرية التى وجدت فيها لاول مرة آثار تلك الحضارة . وتعتبر حضارة الفخار الخطى الشريطى هى الاولى والاقدم ، اما حضارتا لينديل وتيسا فقد جاءتا فى وقت واحد فى الواقع ، بينما ظهرت حضارة الكؤوس المخروطية بعد ٤٠٠ سنة من حضارة لينديل وظلت قائمة معها حتى منتصف الالف الثالث قبل الميلاد تقريبا . فهل تعتبر احدى هذه الحضارات تجسيدا اثريا لحضارة الهنداوربيين ؟ الجواب على هذا السؤال تقدمه «صورة» الحضارة الهنداوربية التى يرممها اللغويون استنادا الى معطيات مفردات اللغة . وتفيد هذه المعطيات بان حضارة الهنداوربيين هى حضارة فلاحين ورعاة . وقد استخدمت فى الزراعة ادوات بدائية لفلاحة التربة على غرار المحراث الخشبى واليدوى . وكانت تجرى زراعة الحبوب

(الشعير والقمح والدخن) والنباتات «الصناعية» كالكتان . وكان الهنداوربيون يمارسون البستنة البدائية وكانوا يعرفون عددا من الاشجار المثمرة .

والشعير والقمح موجودان فى كل الحضارات الاربع فى المناطق موضوع البحث . ولا يوجد الكتان فى حضارة الفخار ، لكنه موجود فى الحضارات الباقية . ويفترض ان الزراعة بالمحراث كانت معروفة لدى ابناء الحضارتين المتقاربتين والمتزامنتين جزئيا — حضارة الكؤوس المخروطية وحضارة ليندبل .

ويبدو ان البستنة عند الهنداوربيين كانت فى بواكيرها ، لكنهم كانوا يعرفون ثمار العنب والتفاح والتوت التى عثر على آثارها فى اماكن حضارة ليندبل . وليس واضحا ما اذا كانوا يعرفون الجوز الذى لم يعثر له على اثر بعد فى اماكن ما وراء الكاربات .

كان الرعى عند الهنداوربيين متطورا وغير متخصص . ففى اللغة السلفية المرممة توجد اسماء البقرة والنعجة والمعزى والخنزير . وهذه الحيوانات معروفة فى الحضارات الاربع السالفة الذكر ، الا ان هناك فوارق كبيرة فى قطعانها ، فى التناسب بين عدد الابقار وصغار الماشية ذات القرون وكذلك عدد الخنازير . ففى حضارتين فقط — الليندبل والكؤوس المخروطية نجد تلك النسب متماثلة ٧٠ : ٢٠ : ١٠ . والسمة المميزة للرعى فى حضارتى الليندبل والكؤوس المخروطية هى خصى الثيران ، وكذلك الاصطفاء المنعكس فى بقايا العظام . وكانت الثيران المخصية ، على ما يبدو ، ضرورية

كدواب جر تستخدم بالاساس لشدها بالعربات او المحاريث .
وتدل معطيات ترميم اللغة الهنداوربية السلفية على ان
الهنداوربيين السلفيين كانوا يفرقون بين الثور المخصى وغير
المخصى . واستخدموا صور الثيران المخصية المشدودة ازواجا
كذلك فى نقوش الفخار فى حضارة الكؤوس المخروطية .
وعثر على صورة قديمة لعربة من اربعة دواليب على وعاء
يعود لحضارة الكؤوس المخروطية . وهكذا فحتى لو كان
الخصى موجودا فى حضارة الفخار الخطى الشريطى فان
الادلة على استخدام الثيران المخصية كواسطة للجر معدومة ،
فى حين توجد ادلة بليغة على ذلك فى حضارتى اللينديل
والكؤوس المخروطية .

وتشير مفردات اللغة الهنداوربية السلفية الى الحرف
والصنائع بكلمتى «الطرق» «والنسج» وبمصطلحات عامة
لصناعة الفخار . وبالاضافة الى فعل «طَرَقَ» الموجود فى
اللهجة الاوربية القديمة عثر على اسم البرونز فيما يخص
معالجة المعادن . اما فى اللهجة الهنداوربية العامة فكان
لهذه الكلمة معنى «المعدن» .

وتشير كلمات «الغزل» و«الصوف» و«الكتان» فى مفردات
اللغة الهنداوربية السلفية المرممة الى صناعة النسيج . فان
وجود الكثير من المغازل وبقايا آلات النسيج فى حضارة
لينديل وحضارة الكؤوس المخروطية يدل بلا شك على وجود
صناعة النسيج عند ابناء كلتا هاتين الحضارتين . وتتجسد
صناعة الفخار فى مفردات اللغات الهنداوربية بمصطلحات قليلة
تكشف عن وحدة اصول الكلمات ، الا ان الكلمات

المشتركة فى اللغات المنفصلة (السنسكريتية واللغات الاوربية) — مثل القدح والقارورة — تدل على ان الآنية كانت تصنع فى مراكز متقاربة نسبيا . وتمكننا صناعة الفخار فى حضارة ليندىل وحضارة الكؤوس المخروطية من ان نشير بثقة الى انها صناعة مستقلة ، الامر الذى ساعد ، كما يبدو ، على اطالة امد التقاليد الفخارية التى تتجلى فى المستوى الرفيع لبعض القوالب التى ظلت قائمة بلا تغيير تقريبا طوال الف عام وعاشت عمرا اطول من عمر تلك الحضارة نفسها واستمرت فى الحضارات الاخرى التى انبثقت من حضارتى ليندىل والكؤوس المخروطية فى اراضى تبعد عن موطن الاجداد بآلاف الكيلومترات . ان المصنوعات الفخارية متنوعة (مختلف اشكال الكؤوس و«آنية الفواكه» والاوعية — القنانى والقوارير والاباريق والقصاع والصحون والمقالى والقناديل والمصافى و«اباريق الشاى» وغيرها) وغنية بالزخرفة والنقوش المختومة والمطعمة بالمعجون الابيض ومزودة باجزاء منحوتة على الاوعية والقوارير وبمقابض بهيئة رؤوس الحيوانات فى صناعة الفخار فى حضارة الكؤوس المخروطية ، والرسوم فى الآثار المبكرة لحضارة ليندىل ، كما انها معقدة من حيث تكنولوجيا الانتاج (الحرق الترقيعى ، الحرق بالافران ، والجدران الخفيفة مع انعدام المحور الدوار الفخارى وهلمجرا) .

واسفر تخصص الحرف عن التقسيم الفئوى للمجتمع . وامكن تحديد استقلال الكهنوت بموجب المصطلحات الكهنوتية الهنداوربية السلفية المرممة : تقديم النبيذ قربانا

الى الآلهة وتناول الطعام الطقوسى ، والمشعل ، والمذبح والقدسية والخلود والصلاة وتبجيل الآلهة . ولعل كلمة «الكاهن» هى ايضا من المفردات الهنداوربية السلفية . ويمكن ان يكون دور الكهنوت فى الكشف عن الحضارة الاثرية واضحا اذا كانت لتلك الحضارة اشكال وسمات محافظة ذات جذور حيوية ، واذا كانت تلك الحضارة تقاوم التأثيرات الفتاكة الناشئة عن الصلات الحضارية والتفاعل مع البيئة الحضارية المحيطة ، واذا كانت هناك منظومة من التصورات عن وجود الآخرة تتجلى فى مراسيم الدفن وعبادة القوى الطبيعية التى اضفوا عليها صفات الالوهية وهلمجرا . ولعل مبادئ المعارف العلمية ، كالنظام المترى والتقاويم والهندسة ، قد سجلت فى الاوساط الكهنوتية بشكل طقوس او مراسيم ، الامر الذى يلاحظ فى حضارة ليندبل وحضارة الكؤوس المخروطية (الاسيجة المستطيلة على مساحة ٩ هكتارات ، وانشاء المنازل على اساس مستطيل) وفى مراسيم الدفن المعقدة فى كلتا الحضارتين (المدافن غير المسيجة والادوات التى يزود بها الميت ونحت الآلهة بشكل بشر والعبادات الرعوية بشكل رموز رعوية لمنحوتات برأس ثور ومنحوتات حيوانية) . ثم ان وجود النظام الكهنوتى فى مجتمع حضارتى ليندبل والكؤوس المخروطية يؤكده وجود مبانى العبادة (المعابـد والمذابح والمصليات) .

وتشير الى بروز الجند فى المجتمع الهنداوربى السلفى كلمات تعنى انواعا معينة من السلاح مثل «الفأس» و«البلطة» وغيرها ، وكذلك المفردات الحربية كالدفاع والغنيمة والعسكر

والحملة .

ان حضارتى ليندل والكؤوس المخروطية هما الوحيدتان اللتان لهما تنظيم عسكرى ، على ما يبدو ، من بين تلك الحضارات الاثرية الاربع من حيث البيئة الايكولوجية لنشوء العنصر السكانى واللغة والثقافة الهنداوربية السلفية . فان نقاط السكن فى حضارة الفخار الخطى الشريطى لم تكن محصنة ، وان طابع تحرك سكانها مرتبط بشكل الزراعة . وربما كان لابناء حضارة تيسا تنظيم عسكرى ، لكنه لم يكن لديهم اتجاه للاستيطان الاستعمارى . ولا نستطيع ان ننسب الطابع الاستيطانى الواضح الا لحضارتى ليندل والكؤوس المخروطية ، فان نقاط سكن ابنائهما محصنة ، والسكان حضر من جهة ، لكن حضارتهم من الجهة الاخرى تتوسع نحو الشمال . ان تحصينات نقاط السكن فى حضارة ليندل هى فى الواقع اولى المنشآت التى تتحول فى اوربا الوسطى الى حصون ذات سدود وخنادق واحواش حجرية وخشبية واسيجة وتدية وشرفات معززة تطل على البوابات . وفى هاتين الحضارتين فقط نصادف كثرة من الفؤوس الحجرية الحربية التى وضع البعض منها حتى فى قبور الموتى .

ان وجود المدينة عند الاسلاف الهنداوربيين موضع جدل ، مع ان اللتوانية والسنسكريتية تحتويان على كلمات تشبه بمعناها كلمة «بوليص» اليونانية . ان نقاط السكن المحصنة فى حضارتى ليندل والكؤوس المخروطية والتى تبلغ مساحتها ٤٠ هكتارا ولها مواضع مسيجة فى الداخل ومنازل ذات اعمدة وأروقة مسيجة او ذات طيقان تبنى فى وسط

النقطة السكنية انما تقترب من بواكير البلدات الملازمة للمراحل الاولى من نشوء المدنية .

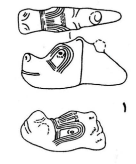
اما وجود الاشارات الكتابية على بعض المصنوعات الخزفية فى حضارة ليندبل ، والموروثة عن حضارة فينتشا فهو يمكننا من طرح مسألة وجود الكتابة البدائية فى تلك الحضارة .

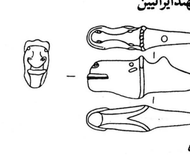
وليس صعبا رؤية التقارب النموذجى بين حضارتى ليندبل والكؤوس المخروطية وبين الحضارات العالمية القديمة . ومع ذلك فان تلك الحضارتين تختلفان اختلافا كبيرا عن كل الحضارات الاثرية فى اوربا ، ما عدا حضارة فينتشا فى الالفين الخامس — الرابع قبل الميلاد ، وبذلك فهما تناسبان كثيرا ، فى رأينا ، «صورة» الحضارة الهنداوربية السلفية حسب معطيات متن اللغة .

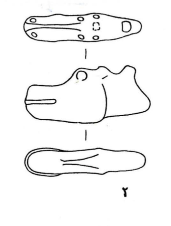
ويستفاد من المعطيات الاثرية ان حضارة ليندبل قد نشأت فى القسم الغربى مما وراء الكاربات . ثم عبرت قبائل الليندبل نهر الدانوب واقامت فى الاراضى التى تشغلها المجر حاليا . وقد بدأ استثمار الاراضى الشمالية ، كما تبين التواريخ الاشعاعية الكربونية ، اعتبارا من اواسط الالف الرابع قبل الميلاد . وفى نفس تلك الفترة تفرعت حضارة الكؤوس المخروطية عن حضارة ليندبل . ان الحضارة المادية لابناء الليندبل وابناء الكؤوس المخروطية متقاربة جدا ، واحيانا يصعب التمييز بينهما . وقد وصل ابناء الكؤوس المخروطية الى الاراضى الاسكندنافية ، بينما وصل ابناء الليندبل الى مناطق البلطيق . وفى فترات مختلفة لوحظ

دوما تواجدهم بشكل متداخل ، كما توجد عدة آثار مختلطة لهم . وعلى تخوم الالفين الرابع — الثالث قبل الميلاد غدا الطقس فى اوربا قاريا اكثر ، الامر الذى لا يقدم دوما محاصيل مضمونة (فقد اختفى الدخن مثلا من حيـــز الاستهلاك) . وصار السكان يبدون اهتماما اكبر بالرعي ، مما ادى الى الترحل المتكرر وانعزال مجموعات من القبائل . وكان ظهور الفروسية واختراع او استخدام ابناء حضارة الكؤوس المخروطية للنقل بالعربات فى تلك الفترة قد جعلا بالامكان النزوح البعيد لبس بالطريق المائى كما فى السابق ، بل بالطريق البرى فى الاتجاهين الغربى والشرقى . ويشير الى ظهور الفروسية انتشار الصولجانات ذات الرؤوس الحيوانية (شكل رقم ١٧) على امتداد سهوب البحر الاسود وبحر قزوين الشاسعة . ان اقدم الصولجانات الواقعية (تخوم الالفين الرابع — الثالث قبل الميلاد) هى عبارة عن صور واقعية للخيول (اشكال رقم ١ — ٥) ، وهى منتشرة مثل اغلبية اللقى الاخرى فى منطقة البلقان — الدانوب . وينبغى ان نعزو استمرار انتشار الصولجانات شرقى الفولغا الى الحضارة الحُفرية القديمة والهندفارسية) التى ينبغى ان نبحث فى سهوب الدانوب عن منشئها وتفرعها ، على ما يبدو ، من حضارة البوليراز المتفرعة عن حضارتى ليندبل والكؤوس المخروطية . ان انتشار الهندفرس من الغرب الى الشرق ، وليس بالعكس كما كان الشائع سابقا ، امر تؤكده الاسبقية الزمنية للآثار الغربية التى توجد فيها صولجانات والتشابه النموذجى مع المواد التى عثر عليها فى رومانيا (كاسيميتشى) والتحليل

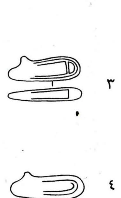
الصولجانات ذات الرؤوس الحيوانية فى اوروبا هى الادلة الاثرية للنزوحات القديمة للهندايرانيين

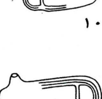


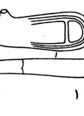


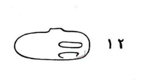












١ — قاسمجى .
٢ — تيريكلى–مكتب (ما امام القوقاس) .
٣ — مقاطعة كويبيشيف (اواسط منطقة نهر الفولغا) .
٤ — سيكيلفايو .
٥ — سوفوروفو (اوكرانيا) .
٦ — سوفودول (بلغاريا)
٧ — فيديليشينى (رومانيا) .
٨ — ريجيفو (بلغاريا) .
٩ — سيلكوتسا (رومانيا) .
١٠ — آر–خارا ٢/٢٧ (قلموقيا ، ما امام القوقاس) .
١١ — اوسيتيا الشمالية .
١٢ — محطة بيريوزوفسكايا الكهرمائية (جنوب منطقة نهر البوغ) .

المعدنى لتشكيلة مع صولجان عثر عليها فى كالميكيا عام ١٩٨٥ على بعد عشرين كيلومترا غربى الفولغا (انظر اشكال ١٨ أ — د) . وهكذا فالحضارات المتفرعة عن حضارتى لينديل والكؤوس المخروطية تشغل مساحات شاسعة فى اوربا الشرقية حتى الفولغا وشمال القفقاس .

وتجدر الاشارة فى الختام الى اننا لا نستبعد وجود موطن هنداوربى سلفى اقدم مما وراء الكاربات . والاحتمال الاكبر فى رأينا هو شمال البلقان — حضارة فينتشا . وتعود اصول هذه الحضارة الى آسيا الصغرى . ويرتبط ذلك من الناحية الاثرية ارتباطا جيدا بالتشكيلة البلقانية الاناضولية التى تمثلها فى البلقان حضارة فينتشا وهى من اقدم الحضارات العالمية وذات ارتباط وراثى بحضارة لينديل .

الفصل الثامن

الدرافيديون : موطن اجدادهم
وزمان ومراحل انتشارهم

المؤلفان: بونغارد - ليفين و غو روف
ترجمة: خيري الضامن

عندما نطلع على منجزات الثقافة الهندية طوال خمسة آلاف عام نتصورها تشكيلة عظيمة متراصة واحدة . حقا ، فان «مهابهاراتا» و«رامايانا» واشعار بهارتريهارى وامارو ومسرحيات كاليداسا واكتشافات واراهاميهيرا واريابهاتا العلمية والموسيقى الكلاسيكية والفلسفة وعلم الجمال والمعمار والرسم — كل ذلك يشكل بمجمله تراثا ثقافيا مشتركا للهند بأسرها ، تراثا عزيزا على قلب كل هندى حيثما وجد وبأية لغة يتكلم واى دين يعتنق .

لكننا نلاحظ فى الوقت ذاته ، بعد التحليل المتمعن العميق ان ثقافة الهند متعددة القوميات وان وحدتها لا تنفى الاصالة القومية وان هذه الثقافة تشكل من الناحية التاريخية سبيكة (تجسد الوحدة فى التنوع) عناصرها كانت التقاليد الثقافية لمختلف المجموعات السكانية واللغوية المنتشرة الآن فى شبه قارة آسيا الجنوبية — الهندآريين المتكلمين باللغات الهنداوربية والدرافيديين الذين لم تثبت حتى الآن قرابتهم من اية عوائل لغوية اخرى والتى هى موضوع لمجادلات علمية حادة ،

وشعوب المونداً الناطقة باللغات الاوستراسيوية المنتشرة كذلك في جنوب شرقي آسيا وممثلي عائلة الصينوتبت اللغوية القاطنين في شمال وشمال شرقي الهند .

ولا يمكن ان ننسب اية من هذه المجموعات الى سكان الهند الاصليين . فان معطيات الباليوانتروبولوجيا وعلم الآثار تدل على ان اسلاف الهندآريين والدرافيديين والاوستراسيويين والصينوتبتيين الذين جاءوا في اوقات مختلفة — قبل آلاف السنين — الى اراضي هندستان كانوا يواجهون هناك سكانا اقدم اصليين او نازحين من زمان الى هذه الاصقاع . وان التقاليد الثقافية والمهارات التكنولوجية والعادات والاعراف والمراسيم التي جاء بها النازحون قد تغيرت كثيرا واختلطت بنتيجة الاتصال مع السكان «الاصليين» في الظروف الجديدة وتعرضت لتأثيرات الثقافة المحلية واثرت عليها بدورها . وبنتيجة كل هذه العمليات المعقدة للتأثير والتأثر بين مختلف الشعوب والجماعات السكانية ظهرت في آخر المطاف تلك التشكيلة الفتية جدا التي نسميها الآن بالحضارة او الثقافة الهندية القديمة . .

. . . وكما يسهل التعرف على العناصر المكونة للسبيكة المعدنية في المراحل المبكرة جدا لعملية التعدين ، كذلك لا يمكن الكشف عن الفوارق بين العناصر المكونة للثقافة الهندية القديمة وخواصها وسماتها المميزة الا في المراحل المبكرة جدا للتاريخ الاثنوغرافي الثقافي لهندستان ، وكما يحتاج عالم التعدين عندما يدرس طبيعة السبيكة وخواصها الفيزياوية والكيمياوية والتكنولوجية الى معرفة كل العناصر

المكونة لها معرفة دقيقة بل والالمام بنظام وتعاقب ادخالها فى عملية التعدين ، كذلك يتعين على دارس الثقافة الهندية الذى يتناول قوانين تطورها فى الحاضر فضلا عن الماضى ان يتصور بكل دقة الطابع العام لكل من التقاليد الاثنوغرافية الثقافية المكونة لها وكذلك نظام التفاعل فيما بينها والتعاقب الزمانى لظهور مختلف الجماعات السكانية واللغوية فى اراضى شبه القارة الهندية .

ولذا فالعلماء يتجادلون منذ اكثر من مائة عام لتحديد العنصر الاثنوغرافى الذى كان له اكبر الاثر بين عناصر الثقافة الهندية القديمة ويتساءلون : متي وكيف ومن اين تسربت الى هندستان هذه المجموعة السكانية او تلك . . .

ولا تزال المجادلات عن اصل مختلف الشعوب القاطنة فى شبه قارة هندستان جارية حتى اليوم . وتطرح مختلف الفرضيات والتساؤلات من اين ومتى جاء الهندآريون القدامى الى الهند واى طريق سلكوا ؟ هل جاءوا عبر آسيا الوسطى ام عبر انجاد بلاد فارس ؟ كيف جرت هذه الهجرة — فى وقت واحد ام على «موجات» ؟ ويتجادل العلماء متسائلين كذلك : متى حدث انفصال اللغات الهندآرية عن اللغات الهندفارسية القريبة منها ، واخيرا اين الموطن «الاصلى» للاسلاف البعيدين لكل الشعوب الهنداوربية ؟ ولا تقل عن ذلك تعقيدا مسألة منشأ المجموعات السكانية الاخرى المقيمة حاليا فى اراضى هندستان ، ومن ذلك مسألة موطن اجداد الشعوب الناطقة باللغات الدرافيدية .

وخلال الفترة الطويلة من دراسة التاريخ الثقافى الاثنوغرافى لشعوب هندستان طرحت بهذا الخصوص مختلف النظريات والفرضيات المتعارضة فى بعض الاحيان . ويعزى ذلك الى ان الدراسات العلمية الاثرية التى بدأت منذ العقود الاولى فقط من القرن العشرين قد اقتصرت امدا طويلا على مناطق معينة . ولم تكن الاثنوغرافيا التاريخية موجودة كعلم ، وكانت مواد الدراسات الباليوانثروبولوجية عرضية ، وكان تاريخ تطور بعض اللغات الدرافيدية يدرس بتفاوت كبير .

فهل من موجب للدهشة من ان اكثر الفرضيات الخيالية غرابة تطرح بشأن اصل الدرافيديين وطرق مجيئهم الى الهند ؟ فالبعض من العلماء اعتبروهم من احفاد السومريين ، والبعض الآخر اعتبروهم من الاقرباء البعيدين للباسكيين او بربر شمال افريقيا المعاصرين . وحاول البعض الثالث بعناد ان يثبت صلة القربى بين اللغات الدرافيدية وبين لغة بعيدة عن جنوب آسيا هى اللغة الكورية وتصور البعض انهم من السكان الاصليين فى جنوب الهند ، واكد آخرون ان أسلاف الشعوب الدرافيدية جاءوا الى هندستان من الشمال الغربى قبل آلاف السنين . وكل هذه الفرضيات تستند ، عادة ، الى معطيات عرضية منتزعة من السياق الثقافى التاريخى او الى التشابه الظاهرى الصرف بين بعض الكلمات والمصطلحات .

وقد تغير الوضع الآن بشكل اساسى . فان بحوث علماء اللغة فى ميدان دراسة لغات درافيدية معينة وفى

الدراسة التاريخية المقارنة لعائلة اللغات الدرافيدية بمجملها (بالدرجة الاولى بحوث بارو وامينو وكريشنامورتي واندرونوف وغيرهم) ، وكذلك نتائج البحوث الاخيرة لعلماء الآثار والمؤرخين والاثنوغرافيين قد كشفت عن طائفة كاملة من المعطيات الجديدة والجوهرية تماما عن المراحل المبكرة لتطور الحضارة الدرافيدية . وصار بالامكان دراسة قضية المنشأ الاثنوغرافي للدرافيديين دراسة شاملة على اساس مقارنة مواد علم اللغة بمعطيات العلوم التاريخية . ومن المناهج الجديدة التي تساعد على دراسة هذه القضية بصورة شاملة ما يسمى «بعلم الآثار اللغوي» الذي يتخلص هدفه في دراسة «الطبقة الثقافية» للغة ، اي مجمل المصطلحات المشتركة بين مجموعة كاملة من اللغات المتقاربة ، وهي مصطلحات مأخوذة من مختلف ميادين الثقافة المادية والروحية .

واتضحت الآفاق المستقبلية لهذا النوع من الدراسات منذ المحاولات الاولى لترميم المصطلحات الثقافية الدرافيدية . ويمكننا الآن ، بالاستناد الى المعطيات اللغوية الصرف ، ان نتصور بالخطوط العريضة خصائص الثقافة المادية والروحية للشعوب الناطقة باللغات الدرافيدية في المراحل المبكرة من تاريخها ، واتضح ان بالامكان كذلك رسم الحدود الجغرافية بهذا القدر او ذاك لمنطقة انتشار الناطقين باقدم اللغات الدرافيدية (الاسلاف الدرافيديين) في اراضي هندستان في بادئ الامر . ان دراسة المفردات النباتية والحيوانية المشتركة بين كل اللغات الدرافيدية تدل على ان انقسام اللغة الدرافيدية

السلفية قد حدث فى اراضى آسيا الجنوبية . وقد وردت فى جميع اللغات الدرافيدية مسميات متقاربة من حيث الاشتقاق للنباتات والحيوانات الهندية الصرف ـــ العظاءة المصاصة للدماء والتمساح والطاووس والحمامة الخضراء وبعض انواع الاشجار . واتضح ، اولا ، ان المنطقة الجغرافية لانتشار اغلبية النباتات والحيوانات ذات المسميات الدرافيدية السلفية محدودة بالاقليم الواقع شرقى «الانهار الكبرى الخمسة» ـــ رافى وساتليج وجيلام وبياس وجيناب ، اى فى خط الطول الشرقى ٧٣ ـــ ٧٤ تقريبا . ثانيا ـــ ان الاشجار المنسوبة الى نباتات الدرافيدية السلفية تنمو على الاكثر فى مناطق الغابات غير الابرية الجافة الواقعة فى انجاد هملايا على ارتفاع ٢,٥ ـــ ٣ آلاف متر . ويثير الانتباه كذلك وجود الكثير من المسميات فى اللغات الدرافيدية للتضاريس مثل «الجبل» و«الصخرة» و«الوادى» و«الفج» . وهكذا يمكن ، استنادا الى تحليل «المفردات الايكولوجية» ، ان نحدد موطن اجداد الدرافيديين فى هندستان بصورة اصطلاحية فى المناطق الجبلية شمال شرقى البنجاب والاراضى المتاخمة لها .

ويتوافق مع هذا الاستنتاج بشكل جيد الرأى الذى اعرب عنه العلماء سابقا والقائل بان تسمية اغلبية الشعوب الدرافيدية تعود من حيث الاشتقاق الى كلمات تعنى «الجبل» و«الهضبة» و«الصخرة» . فان اسم شعب مالايالام القاطن فى ولاية كيرالا فى جنوب الهند ، واسم قبيلة مالتو التى تقيم حاليا فى ولاية البنغال الغربية مرتبطان بكلمة malay

«جبل» . ومن مشتقات ko («جبل») تسميات المجموعات السكانية الدرافيدية التالية كوتا (تاميلاند) وكوى (اوريسا) وكويا (اندهرا ــ براديش) . وحتى اسم شعب براغوى الذى هو من الناحية الجغرافية على ابعد مسافة من سائر المجموعات السكانية الدرافيدية مشتق ، كما يقول الباحث السوفييتى اندرونوف ، من كلمات ــ vata-k-kō-y-i الدرافيدية السلفية التى تعنى «اهالى الجبال الشمالية» . وهناك ما يبرر الافتراض بان الدرافيديين السلفيين جاءوا الى شمال شرقى البنجاب من الغرب او من الشمال الغربى ، وربما من الانجاد الفارسية او جنوب آسيا الوسطى .

وعندما درسنا مفردات اللغات الدرافيدية لاحظنا ان المصطلحات الداخلة ضمن «الطبقة الثقافية» يمكن ان تقسم الى ثلاث مجاميع اساسية ، تتكون الاولى من الكلمات الواردة فى لغة واحدة ما او وتتكون المجموعة الثانية من الكلمات الملازمة لمنطقة معينة واحدة ، مثلا جنوب او اواسط الهند . وتتسم هاتان المجموعتان بأهمية ثانوية فى بعث الماضى الثقافى . ويمكن لدرجة ما تشبيهها بالمادة الاثرية الاولية التى لا تظهر قيمتها الحقيقية الا بعد نتائج الحفريات النهائية . اما المجموعة الثالثة من «المصطلحات الثقافية» فهى المادة المباشرة «لعلم الآثار اللغوى» ، وهى كلمات متقاربة من حيث الاشتقاق ظلت محفوظة فى لغات مختلفة لا تتوفر ادلة (فى التاريخ على اية حال) على وجود اتصالات بين الناطقين بها . فبالنسبة للغات الدرافيدية يمكن ان ندرج فى هذه المجموعة الكلمات

الواردة ، مثلا ، فى اللغة التاميلية ولغة البراغوى المقيمين فى بلوجستان ، ولغة الكانادا الهندية الجنوبية ولغات اخرى مثل الهوندى والكوروكخ او المالتو الشائعة فى اواسط الهند وشمال شرقيها على التوالى .

ان «النص الثقافى» للمفردات الدرافيدية يقسم الى عدة «طبقات» ظهرت فى سياق تحلل المجموعة الدرافيدية السلفية الاولى . وتتكون اقدم «طبقة» من المصطلحات المتكررة فى جميع اللغات الدرافيدية . واستنادا الى معطيات الدراسات اللسانية التاريخية (اجريت دراسات من هذا النوع للغات الدرافيدية من قبل الباحث اندرونوف عام ١٩٦٤) يمكن ان ننسب هذه الطبقة («الدرافيدية السلفية») الى الالفين الخامس — الرابع قبل الميلاد . وفى اواخر الالف الرابع قبل الميلاد انفصلت عن المجموعة الدرافيدية لغة البراغوى السلفية ، اى اصل لغة البراغوى الحديثة . وفى اواخر الالف الثالث وبداية الالف الثانى قبل الميلاد. انفصلت لغتا الكوروكخ والمالتو السلفيتان . ونشأت «المجموعة الديكانية السلفية» (وهى «طبقة» اخرى من «النص الثقافى») بعد انفصال البراغوى والكوروكخ والمالتو . وظلت موجودة على وجه التقريب حتى اواخر الالف الثانى وبداية الالف الاول قبل الميلاد حيث انقسمت بدورها الى مجموعتين اثنوغرافيتين لغويتين هما «المجموعة الدرافيدية السلفية الجنوبية» (اسلاف التاميلية والكانادا والتيلوغو والهوندى والكوى وغيرها من اللغات) و«المجموعة الدرافيدية السلفية الوسطى» (البارجى — كولامى السلفية) . وفى الالف الاول قبل الميلاد انقسمت «المجموعة

مراحل تطور اللغات الدرافيدية

الالفان الخامس — الرابع ق . م .	المجموعة الدرافيدية السلفية الاولى		
اواخر الالف الرابع ق . م .	المجموعة الدرافيدية السلفية الثانية		
الالف الثالث — بداية الثانى ق . م .	المجموعة الديكانية السلفية الجنوبية		
الالفان الثانى — الاول ق . م .	المجموعة الدرافيدبة السلفية الجنوبية		تولو — كوراغا السلفية
الالف الاول ق . م .	المجموعة الدرافيدية السلفية الجنوبية الاولى	المجموعة الدرافيدية السلفية الجنوبية الثانية	تولو — كوراغا السلفية
الالف الاول ق . م . .	التاميلية ، كانادا ، مالايالام	تيلوغو ، هوندى ، ساوارا	تولو ، كوراغا ، بيلارى

اللغات الدرافيدية

	كوروكخ — مالتو السلفية	براغوى السلفية
بارجى — كولامى السلفية	كوروكخ — مالتو السلفية	براغوى السلفية
بارجى — كولامى السلفية	كوروكخ — مالتو السلفية	براغوى السلفية

بارجى ، كولامى	كوروكخ ، مالتو	براغوى
الحديثة		

الجنوبية» الى «المجموعة الجنوبية الاولى» (اسلاف التاميلية والكانادا) و«المجموعة الجنوبية الثانية» (اسلاف الهوندى — الكوى) . وكانت عملية نشوء اللغات الدرافيدية الحديثة قد انتهت فى الالف الاول قبل الميلاد . بهذه الخطوط العريضة يرسم فى الوقت الحاضر مخطط التطور التاريخى للغات الدرافيدية .

فما هى المعلومات المتوفرة لدينا عن ثقافة الدرافيديين القدامى والمستندة الى «علم الآثار اللغوى» ؟ تبين معطيات «المفردات الثقافية» ، اولا ، ان الناطقين باللغات الدرافيدية كانوا فى المرحلة المبكرة جدا يمارسون الزراعة الى جانب الرعى والصيد . وتدل على مستوى تطور الزراعة عند الدرافيديين القدامى طائفة من المصطلحات المرتبطة بمختلف مراحل هذه العملية الانتاجية — الحراثة والبذار وجنى المحاصيل ودرس الحبوب . وحتى بالنسبة للمجموعة الدرافيدية السلفية ، اى بالنسبة لفترة ما قبل نهاية الالف الرابع قبل الميلاد يمكن التحليل اللغوى من الكشف عن طائفة واسعة من المزروعات التى كان غرسها يشكل ، على ما يبدو ، اساس النشاط الزراعى للدرافيديين القدامى فى ذلك العصر . ويبدو ان القمح ، وفيما بعد الدخن ، كان المنتوج الاساسى بين الحبوب فى بادئ الامر . وبالنسبة لتلك المرحلة نفسها نجد كذلك مصطلحات درافيدية سلفية لمزروعات مثل القرع والبصل والباذنجان . وكان الدرافيديون القدامى يعرفون نباتات برية آنذاك مثل النخل وشجرة اليويوبا (Zizyphus jujuba) ، والقلقاس (Arum Colocassia) ، والتمر الهندى .

وفى فترة مبكرة اطلع الدرافيديون القدامى على زراعة الرز (يبدو ان ذلك كان نتيجة للاتصال مع شعوب اخرى تمتلك آنذاك تقاليد زراعة الرز) . ومعروف ، مثلا ، ان اقدم المسميات الدرافيدية السلفية للحقل ذات معنى اضافى فى اغلبية تلك اللغات «حقل للرز» ، «حقل منخفض (رطب)» . وفى بعض تلك اللغات فقط احتفظ هذا المصطلح بمعناه الاصلى — «حقل فى الجبال» . افلا يشير ذلك الى طريق تحرك وانتشار الدرافيديين القدامى من الانجاد الى المناطق المستوية ووديان الانهار ؟ ان هذا الافتراض تدعمه معطيات علم الآثار اللغوى التى تشير الى التغير التدريجى فى قوام المزروعات السنبيلية ، او تشير ، بعبارة اخرى ، الى نزوح الدرافيديين القدامى الى المناطق المناخية الجنوبية الاكثر جفافا . ففى فترة المجموعة الديكانية السلفية اخذت انواع مختلفة من الدخن تكتسب اهمية من الدرجة الاولى ، الى جانب الرز والقمح ، فى اقتصاد الدرافيديين . ومن اكثر انواع مسميات الدخن انتشارا فى اللغات الدرافيدية فى ذلك العصر المسميات التاليـــة : Panicum italicum
Paspalum scrobilatum, Sorghum vulgare.

وفى تلك المرحلة نفسها ظهرت بين المفـــــردات الدرافيدية السلفية مصطلحات للحمص والفاصـــوليـــا والعدس والخ .

ولقد اقترنت عملية انتشار الدرافيديين القدامى ليس فقد بتغير قوام المزروعات ، بل وبتعقد تكنولوجيا الزراعة . ومما له دلالته بهذا الخصوص ، مثلا ، تغير معنى الفعل

«حرث» . فلئن كان هذا المصطلح ("uru-kku-")
فى الفترة الدرافيدية السلفية يرتبط اشتقاقيا بفعل «حفر» ،
«نبش التربة» (كما تفعل الخنازير) ، فان الحراثة فيما
بعد (فى المرحلة الديكانية السلفية) تدل عليها افعال تعود
اصولها من حيث المعنى الى مصطلحات «قطع» و«هشم»
و«سحن» . ويبدو ان المقصود هنا هو الانتقال التدريجى من
استخدام الفؤوس فى الزراعة الى المحاريث . وقد انجز هذا
الانتقال فى المرحلة الدرافيدية ، وهو ما يدل عليه وجود
عدة مصطلحات درافيدية سلفية للدلالة على المحراث (وربما
ذى السكة) وكذلك الفعل «شد» (اى شد النير على الثيران
المخصية او الجواميس) .

والى جانب الزراعة لعب الرعى دورا كبيرا فى اقتصاد
الدرافيديين القدامى (ويشير الى ذلك ، مثلا ، الطابع
الدرافيدى السلفى لمصطلحات «رعى» ، «يرتع» ، «حماية» ،
(الماشية) «اقتاد» (الى المرعى) ، «حلب» ، وكذلك طائفة من
مسميات القطيع والرعاة) . وتم تأهيل المعزى والنعجة والبقرة
وربما الخنزير وتدجين الدجاج . ويتميز القنص وصيد الاسماك
كذلك بطائفة متنوعة غنية من المصطلحات .

وتقدم المصطلحات الحرفية صورة رائعة لمستوى تطور
الثقافة المادية للدرافيديين القدامى . فقد كانوا يعرفون صناعة
الفخار والغزل والنسيج والنجارة وضفر السلال وهلمجرا . وتدل
التسميات المشتركة للاوعية فى لغات متباعدة جغرافيا مثل
التاميلية والمالتو والتولو والكوروكخ على وجود الفخار فى المراحل
المبكرة من تطور الحضارة الدرافيدية السلفية . ومما له دلالته

ان كل هذه المصطلحات تخص عادة القوارير الكبيرة ذات الاعناق العريضة والتى يمكن استخدامها لاعداد الطعام وحفظ السوائل .

ويدل على تطور الغزل والنسيج احتواء مفردات اللغات الدرافيدية السلفية على مصطلحات «غزل» و«فتل» و«جر» الحبل و«غزول» و«نسيج» (ومن ذلك ضفر الحصر) . كما يؤكد المستوى التكنولوجى الرفيع لتطور النسيج فى العصر الدرافيدى السلفى ، خصوصا ، احتواء لغة كوروكخ (شمال شرقى الهند ، فى ولايتى بيهار والبنغال الغربية) على كلمة بمعنى «اطلاق المكوك» (اثناء النسيج) قريبة (من حيث الاصل والاشتقاق) من الكلمات التى تعنى «النسج» و«المنسج» فى اللغات الدرافيدية الاخرى المنتشرة على بعد مئات الكيلومترات الى الجنوب — التاميلية والتيلوغو والكانادا . ويصعب الكلام الآن عن نوعية المواد التى كان يستخدمها النساجون الدرافيديدن الاوائل . ويمكن فقط الافتراض بان الدرافيديين القدامى كانوا يعرفون القطن (فان مصطلح «قطـــن» مسجل بوضوح فى المرحلة الدرافيدية السلفية الجنوبية المتأخرة) .

وليس واضحا تماما بعد مدى وطابع استخدام الدرافيديين للمعادن (فان اغلبية مسميات المعادن ظلت باقية فى مفردات «الطبقة» الدرافيدية السلفية الجنوبية) ، الا ان واقع اطلاع الدرافيديين القدامى على التعدين والحدادة لا جدال فيه . ففى لغة الكوروكخ نفسها توجد مثلا كلمتا «الحدادة» و«وجاق الحدادة» العائدتان الى نفس المصدر الذى تعود

اليه المصطلحات المماثلة فى اللغات الدرافيدية فى جنوب الهند .

وهكذا تمكننا معطيات «علم الآثار اللغوى» من التوصل الى استنتاج بان الدرافيدية السلفية يمكن ان تنسب تاريخيا الى العصر الحجرى المتطور الحديث (الفخارى) مع الانتقال التدريجي الى المعادن . بديهى ان المقصود فى هذه الحالة هو الثقافة الدرافيدية السلفية الصرف ، اى المرحلة المبكرة جدا من التطور الاثنوغرافى الثقافى للشعوب الدرافيدية . فان تحليل مصطلحات المرحلة المتأخرة يشير الى العملية الحتمية لاستمرار تطور الثقافة المادية والروحية وتعقد البنية السوسيولوجية للمجتمع . فان فترة وجود «المجموعة الدرافيدية السلفية الجنوبية» و«المجموعة الدرافيدية الجنوبية الاولى» (الالف الثالث ــ الالف الاول قبل الميلاد) تتميز بظهور مصطلحات بين المفردات الدرافيدية تعنى بنايات كبيرة ذات طابع سياسى وثقافى («قلعة» ، «حصن» ، «قصر» ، «معبد») وقنوات وكذلك عدد من الكلمات التى تجسد تطور الملاحة البحرية (قارب ، سفينة ، صارية وهلمجرا) . وظهرت فى الوقت ذاته طائفة من المصطلحات التى تدل على تعمق عملية التفاوت الاجتماعى والاقتصادى بين الشعوب الدرافيدية («عبد» ، «خادم» ، «مدين» ، «سيد» ، «مالك» ، «حاكم» ، «ضريبة» ، «جزية» وهلمجرا) .

وهكذا فان «علم الآثار اللغوى» ، عندما يطبق منهج البحث الموضوع بشكل صائب ، يغدو بحد ذاته مصدرا تاريخيا غنيا لدرجة كافية وموثوقا به تماما لتحليل التطور

الثقافى للشعوب فى الازمان السحيقة . فهو فى هذه الحالة يمكننا من متابعة مراحل «التاريخ الدرافيدى» من العصر الحجرى حتى عصر المعادن وعصر المجتمعات الطبقية المبكرة . وتزداد قيمة هذا المصدر بخاصة اذا قورنت معطياته وربطت بشكل موثوق مع المواد التاريخية الاخرى وبالدرجة الاولى مواد علم الآثار .

الا ان هذه المهمة العامة ليست سهلة اطلاقا بالنسبة لدراسة التاريخ الاثنوغرافى الثقافى للدرافيديين . فان المواد الاثرية المستحصلة من الاراضى التى تقيم فيها الآن الشعوب الناطقة باللغات الدرافيدية او التى كان يمكن ان تقيم فيها فى الماضى السحيق هى مواد هائلة حقا ، وهى فى الوقت ذاته متعددة الجوانب والاصعدة ، وليست متجانسة من حيث التسلسل الزمنى . وحتى الوقت الحاضر لا يمكننا ان ننسب اصطلاحيا الى حضارة الدرافيديين السلفية الا حضارة موهينجو — دارو وهارابا الاثرية (الالفين الثالث والثانى قبل الميلاد) ، وكذلك بعض الآثار المتأخرة نسبيا فى جنوب الهند (العصر الحديدى) . واصبحت تلك النسبة ممكنة تماما فيما يخص حضارة هارابا بعد البحوث الموفقة فى دراسة الثقافة السلفية والكتابات الهندية التى جرت فى الاتحاد السوفييتى باشراف كنوروزوف . فقد كشفت هذه البحوث عن «الطابع الدرافيدى» للكتابات الهارابية ، بل وعن طائفة كاملة من اوجه الشبه بين الحضارة المادية والروحية للهارابا والتراث الثقافى المتأخر للشعوب الدرافيدية .

. . . وينبغى ان نتعرض خصيصا لفك رموز الكتابات

الهندية السلفية (وعلى الادق تاريخ قراءة تلك الرموز) .

وتجدر الاشارة فى المقام الاول الى ان الكتابات الهندية السلفية صارت معروفة لدى العلماء قبل امد طويل من اجراء الحفريات التى كشفت عن المدن التى هى مراكز حضارة هارابا . فقد عثر على الاختام والبصمات الفخارية التى عليها كتابات وصور من شواطئ نهر هندوس منذ عام ١٨٢٠ . وعثر المدعو الميجر كلارك على احد هذه الاختام فى عام ١٨٧٢ . وبعد ثلاثة اعوام نشر فى المجلد الاول من «الكتابات الهندية» من قبل مؤسس الدائرة الاثرية الهندية المؤرخ والاخصائى فى علم النقود والكتابات القديمة الكساندر كانينغهايم . الا ان كانينغهايم هذا اقترف خطأ من الاخطاء الملازمة للكثيرين من المكتشفين الرواد . فعندما عثر على شىء جديد تماما وغير معروف من قبل حاول ان يقيمه معتمدا على المعطيات المعروفة عن الثقافة والكتابات الهندية القديمة . ولقد شهدت ستينات وسبعينات القرن التاسع عشر فى تاريخ الدراسات الهندية بحوثا مكثفة فى الكتابات الهندية . وقبل ذلك بثلاثين او اربعين عاما اكتشفت كتابة البراهمى المقطعية الهندية القديمة وتم فك رموز تلك الكتابة التى هى مصدر ظهور كل الابجديات الحديثة فى الهند واواسط آسيا وجنوب شرقيها . وفى اواخر ستينات القرن التاسع عشر صار العلماء يعرفون ان كتابات البراهمى الهندية القديمة مسجلة باللغات الهندية الوسطى — البراكريتات وتعود على وجه التقريب الى الالفين الثالث — الثانى قبل الميلاد . ولا عجب فى ان كانينغهايم عندما نشر فى عام ١٨٧٥ الختم

الذى عثر عليه فى البنجاب تصور انه يمثل واحدا من انواع البراهمى المبكرة وان لغة الكتابات لا بد وان تكون واحدة من اللغات البراكريتية . وكما هو شأن كولومبوس وشأن بورغاردت الذى وصف لاول مرة آثار الحضارة الحثية دون ان يتصور بانه اكتشف صفحة جديدة فى تاريخ الشرق القديم ، كذلك كانينغهايم الذى لم يتمكن من تقدير النطاق الحقيقى لاكتشافه . . .

وبعد كانينغهايم نشرت اختام ذات كتابات هندية سلفية فى المجلات الهندية مرارا ، الا ان احدا لم يباشر بدراستها وفك رموزها . وتغير الموقف جذريا بعد الحفريات التى اجراها بانيرجى ومارشال وماكى وفاكس فى موهينجو—دارو وهارابا فى ١٩٢٠ — ١٩٣٠ . ولم يعد احد يشك فى ان كتابة جديدة غير معروفة من قبل قد اكتشفت فى هاتين المدينتين القديمتين ، وهى معاصرة (وقريبة نمطيا) لكتابات الشرق القديم (مصر الفراعنة ووادى الرافدين وعيلام) ، لكنها ظهرت وتطورت بصورة مستقلة تماما عنها . ولا عجب فى ان نشر التقارير الاولى عن الحفريات فى مدن وادى هندوس قد اعاد الحياة الى الكثير من محاولات فك رموز الكتابات الهندية السلفية وتفسيرها .

وفى آخر المطاف اتضح ان كل تلك المحاولات فاشلة (وقد تجاوز عددها العشر فى اواسط اربعينات القرن العشرين) . بديهى ان اسبابا موضوعية صرفا لعبت دورا كبيرا فى ذلك . فحتى الآن لم يتم فى مدن وادى هندوس والمراكز الاخرى للحضارة الهارابية اكتشاف نص كبير الحجم نسبيا . فقد

عثر فقط على كتابات موجزة جدا ، ٥ — ٦ علامات ، واطولها ١٠ — ١٢ علامة ، على اختام وبصمات مفخورة او غير مفخورة ورقائق نحاسية او تالكية وسيراميك واسلحة وهلمجرا . واتضح ان تلك الكتابات متقاربة بهذا القدر او ذاك . فهى جميعا تتكون من عدد غير كبير نسبيا من العلامات او مجموعاتها المتكررة والمترابطة فيما بينها . وذلك يعنى ان الباحث لا يمكن ان يؤمل فى قدر معين من التنوع فى مضامين اغلبية النصوص التى تحتوى ، فى اغلب الظن ، صياغات «نموذجية» وموجزة جدا . ثم ان الكتابات ذات اللغتين والتى لعبت دورا هاما فى فك رموز الكثير من الانظمة الكتابية التاريخية الاخرى ، لم يعثر عليها هنا حتى الآن .

لكن السبب الذى لا يقل اهمية فى اخفاق المحاولات الاولى لفك الرموز هو الاخطاء المنهجية (النظرية والتطبيقية) التى اقترفها تقريبا كل الباحثين الذين حاولوا قراءة كتابات الثقافة الهندية . فهم جميعا لم يتمكنوا او لم يرغبوا فى دراسة الكتابة الهندية السلفية كنظام لا تظهر عناصره — الاشارات وتراكيبها — فى هذا السياق او ذاك الا فى ظروف معينة وهى تقترن ببعضها البعض (وتحل محل بعضها البعض) خاضعة لسنة معينة صارمة . هذا أولا ، وثانيا — لدى تحديد مضمون الكتابات المحتمل تجاهلوا كليا معطيات التاريخ وعلم الآثار والاثنوغرافيا (فلم يراعوا ، مثلا ، طابع المادة التى سجلت عليها الكتابات) . ثالثا — (ولعل ذلك هو الاهم) وضعت الفرضيات حول الانتماء الاثنوغرافى لسكان وادى

هندوس ولغتهم استنادا الى اساس ذهنى صرف بدون مراعاة الظروف التاريخية والحضارية الفعلية . رابعا — استخدمت للمقارنة مع كتابات وادى هندوس مختلف الانظمة الكتابية ، اى كل ما فيه ادنى «شبه» بها ، وكانت تلك احيانا انظمة يفصلها عن الحضارة الهارابية حاجز كبير فى الزمان والمكان .

ولذا فان كل مؤلفى الدراسات الخاصة بتحديد تاريخ الكتابة الهندية السلفية بلا استثناء تقريبا يدهشون العلماء المعاصرين ليس بصرامة الموقف التاريخى او كثرة المعلومات الدقيقة ، بل بغنى الخيال ومفارقات الاستنتاجات . فان وديل ، وهو من اوائل الذين عملوا فى فك الرموز ، قد حاول جديا ان يثبت ، مثلا ، فى عام ١٩٢٥ ان السومريين والآريين فى عصر الفيدى هم شعب واحد ، وعلى هذا الاساس «قرأ» فى اختام موهينجو — دارو اسماء الآلهة السومرية وابطال الملاحم الهندية القديمة . ولكى يدلل على استنتاجاته بشكل ما حاول ان يجد اصولا سومرية لكلمات من مختلف اللغات الهنداوربية — اليونانية والسنسكريتية والانجليزية والهندوسية وغيرها . واصدر العالم المجرى خيفيشى فى ١٩٣٣ — ١٩٣٤ عدة بحوث قارن فيها كتابات الهند بكتابات . . . جزيرة الفصح . وفى الوقت ذاته (١٩٣٣) ظهر مؤلف العالم الايطالى بيكولى الذى قارن فيه اشارات الكتابة الهندية السلفية باشارات لا احد يعرف الغرض منها والتى عثر عليها فى فخار من قبور الاتروسيين القدامى . وحاول البروفسور بيدرجيل غروزنى ان يقرأ كتابات وادى هندوس

استنادا الى النصوص الحثية الهيروغليفية التى لم تكن رموزها قد فكت آنذاك واستخدم فى الوقت ذاته ، لغرض المقارنة ، الكتابة الكريتية الخطية والكتابة المسمارية الاوغاريتية والكتابات الفرعونية والابجدية الفينيقية . وجرت كذلك محاولات لمقارنة الاشارات اللغوية الهندية السلفية بالكتابتين السومرية والعيلامية السلفية ، بل وحتى بالكتابة الهيروغليفية الصينية القديمة . وجرى بهذه الصورة الاعتباطية ايضا فى المؤلفات المبكرة حل مسألة المنشأ القومى لسكان وادى هندوس ولغتهم . وانطلقت اغلبية المؤلفين بهذا الخصوص من «امر قاطع» : فالبعض يرى ان اهالى موهينجو ــ دارو وهارابا لا بد وان يكونوا من اقرباء السومريين (او غيرهم من الشعوب القديمة فى غربى آسيا) لان الحضارة الهارابية تعاصر حضارة وادى الرافدين القديمة وتشبهها من ناحية ما ؛ ويرى البعض الآخر (العلماء الهنود مما يسمى «بالمدرسة التانتيرية») ان اولئك الاهالى لا بد وان يكونوا من آريى الفيدى ، لان الآريين بالذات اوصلوا الثقافة الى الهند ، ويرى البعض الثالث (العالم الاسبانى ايراس) انهم يعودون بلا شك الى القبائل الدرافيدية لان الدرافيديين عاشوا فى الهند قبل مجىء الآريين اليها ، وهلمجرا .

وهكذا فان «رصيد» دراسة الكتابات الهندية السلفية فى ۱۹۳۰ ــ ۱۹٤۰ يمكن ان يشمل فقط بحوث معاونى مارشال (لانغدون وغادّ) اللذين تأكدا من نمط الكتابة فى وادى هندوس (مقطعى صرفى ــ او هيروغليفى) وحددا اتجاه تلك الكتابة ، وبحثى هنتر (۱۹۳٤) وميريجى (۱۹۳٤)

اللذين بذلا جهودا كبيرة لايضاح تراكيب النصوص وتحديد السنن الاحصائية لتكرر بعض الاشارات .

ويمكن اعتبار الدراسات التى اجرتها فى عام ١٩٦٤ جماعة من العلماء السوفييت باشراف كنوروزوف بداية مرحلة جديدة فى دراسة الكتابات الهندية السلفية . ويشارك فى هذه الدراسات علماء من مختلف الاختصاصات — اخصائيون فى نظرية الكتابة ولغويون واثنوغرافيون ورياضيو البرمجة . فالدراسات التى اجريت فى الطور الاول من العمل لتحليل النصوص الهندية السلفية بواسطة الآلات الالكترونية الحاسبة قد اكدت الاستنتاجات المستحصلة سابقا بالطريقة التجريبية فيما يخص الطابع المقطعى الصرفى (الهيروغليفى) للكتابة الهندية القديمة ، كما ساعدت على تجزئة النصوص الى «تراكيب» ثابتة من الاشارات تعتبر عناصر كتابية ذات معنى ، مع فرز مجموعة من الاشارات التى يمكن بفضل خصائصها الموضعية الاحصائية ان تعتبر معادلات اكثر احتمالا للمؤشرات القواعدية الصرفية . ان الموضع الذى تشغله اشارات هذه المجموعة فى سياق التركيب الكتابى الواحد ، وكذلك خصائص اقتران بعضها مع بعض تهيئ الامكانية للحكم على بعض الخواص النموذجية النمطية الهامة للغة تلك التراكيب الكتابية .

وجرت على التوالى مقارنة لوحة المعلومات المستحصلة بهذه الصورة عن «قواعد» النصوص الهندية السلفية مع التراكيب البنيوية للغات التى يفترض وجودها فى وادى هندوس فى الالف الرابع — الالف الثانى قبل الميلاد . واستخدمت

لغرض المقارنة مختلف اللغات ـــ الهنداوربية (الحثية والهندية القديمة) والدرافيدية ولغات موندا واللغات القديمة فى غربى آسيا (السومرية والعيلامية والحورية) ولغة بوورشاسكى . وبين التحليل المقارن ان اللغات الدرافيدية هى اقرب اللغات الى الكتابات الهندية السلفية .

وبعد ذلك شرع العلماء السوفييت بالتفسيرات اللغوية للنصوص الهندية السلفية استنادا الى مقارنتها بالمـــواد الدرافيدية . واتضح بنتيجة ذلك ان المواد الدرافيدية تساعد على تقديم تفسيرات مقبولة تماما ليس فقط للصرف (المؤشرات القواعدية) واقترانها ببعضها البعض وبالاشارات والتراكيب «غير القواعدية » و«النحو» فى النصوص الهندية السلفية ، بل و«لمفردات» تلك النصوص . ان الدراسة الشاملة للثقافة والكتابة الهندية السلفية التى اجريت بانتظام طوال ١٥ عاما قد هيأت الامكانية لاصدار بحث تعميمى فى عام ١٩٧٩ استعرض حصيلة العمل كله . وتمكن كنوروزوف ومعاونوه من تقديم تفسيرات وقراءات صوتية للاغلبية الساحقة من الاشارات وترجمة اغلبية الكتابات المعروفة حاليا . وهكذا يمكن بقدر كبير القول بان عملية فك رموز الكتابة الهندية السلفية قد انجزت بنجاح ، مع ان النتائج النهائية لا تزال تنتظر .

ومما له دلالته ان محاولات جديدة لقراءة النصوص الهندية السلفية قد بذلت فى مختلف البلدان ، لاول مرة بعد انقطاع دام عشرين عاما ، حالما نشرت اولى دراسات العلماء السوفييت ، وكان العلماء الذين قاموا بتلك المحاولات

(جماعة من العلماء الفنلنديين باشراف باربولا واللغوى الهندى ماهاديفان والعالم الاثرى الاميركى فايرسيرفيس وغيرهم) وساروا فى طرق مستقلة تماما قد توصلوا مع ذلك الى استنتاج يقول بان اللغات الدرافيدية بالذات هى الاساس الاكثر متانة لحل مشكلة النصوص الهندية السلفية . وفى الوقت الحاضر لا يشك احد تقريبا فى انتماء اهالى هارابا وموهينجو — دارو الى اصل درافيدى . . .

الا ان الحضارة المدنية فى وادى هندوس فى الالفين الثالث والثانى قبل الميلاد هى بحد ذاتها حصيلة لتطور تاريخى طويل ولا يمكن بالطبع ان تنسب الى المراحل الاولية للحضارة الدرافيدية السلفية .

ان الفترات التى سبقت الهارابا فى تاريخ شمال غربى هندستان لم تدرس بقدر كاف اطلاقا حتى الآونة الاخيرة . وتغير الموقف مبدئيا بنتيجة التنقيبات والحفريات الاثرية الجديدة التى اجريت فى شمال غربى الهند وفى باكستان وافغانستان من قبل علماء الآثار الهنود والباكستانيين والفرنسيين والاميركان .

ونعتقد ان الاكتشافات التى حققتها مؤخرا البعثة الفرنسية باشراف جاريج فى منطقة ميهرغاره (باكستان ، قرب مضيق بولان الجبلى ، جنوب شرقى مدينة كويتا) لها اهمية خاصة بالنسبة لحل قضايا تاريخ الدرافيديين الاثنوغرافى الثقافى المبكر .

وساعدت الحفريات التى اجريت فى بلوجستان وكشفت عن مراكز سكنية تعود للفترة من الالف السادس حتى الالف

الثالث قبل الميلاد على متابعة النضوج التدريجي للحضارات المحلية والكشف عن عملية الانتقال من العصر الحجرى الى العصر الحديدى ومراحل تطور الحضارات الزراعية التى مهدت التربة لظهور الحضارة المدنية فى وادى هندوس .

ان تحديد بداية الزراعة بتاريخ الالف السادس قبل الميلاد (او السابع فى رأى بعض الاخصائيين) يغير لدرجة كبيرة التصور السابق عن انتقال هندستان الى الزراعة فى فترة متأخرة بالمقارنة مع المناطق المتاخمة لها فى غرب وجنوب شرقى آسيا . وقد تأكد رأى العالم السوفييتى الكبير فافيلوف الذى قال ان افغانستان وبلوجستان كانتا من ضمن المنطقة الاولية لزراعة القمح . واعتبارا من الالف السادس قبل الميلاد (العصر الحجرى الحديث ما قبل الفخارى) كان سكان ميهرغاره يزرعون عدة اصناف من القمح والشعير . وكانوا يعرفون اشجار النخيل واليويوبا . وفيما بعد (فى الالف الخامس وبداية الالف الرابع قبل الميلاد) عرف اهالى هذه المناطق القطن (وذلك اقدم دليل على زراعة القطن فى آسيا الجنوبية) وكذلك الهرطمان . ويعود الى فترة مبكرة جدا (حوالى الالف السادس قبل الميلاد) تأهيل الماشية — المعزى والنعجة والثور ، وربما الجاموس ايضا . والى جانب ذلك ظل القنص وصيد الاسماك يلعبان دورا غير ضئيل .

واكتشفت اثناء الحفريات فى ميهرغاره اقدم نماذج الفخار فى اراضى هندستان ، وهى تعود الى اواخر الالف الخامس قبل الميلاد . ومنذ بداية الالف الرابع قبل الميلاد صارت الاوانى الطينية المجففة تظهر بالتعاقب مع الاوانى

الفخارية (الخزفية) . والنماذج المبكرة منها مزينة بنقوش هندسية . ويمكن اعتبار الالف الخامس قبل الميلاد تاريخا للاطلاع لاول مرة على المعادن (النحاس) ، ويمكن اعتبار بداية الالف الرابع تاريخا لتطور التعدين (وهذا ما يدل عليه اكتشاف مصاهر خاصة فيها بقايا من المعدن ، وسبائك النحاس (وربما البرونز) والادوات النحاسية)

واذا قارنا حتى هذه القائمة القصيرة من الخصائص الاساسية للثقافة المادية فى ميهرغاره مع ثقافة الدرافيديين القدامى المرممة بموجب المعطيات اللغوية لا بد وان نلاحظ طائفة كاملة من اوجه التوافق القريب . ومما له اهمية هو التوافق بين اطرهما الجغرافية والزمانية . ولا يجوز بالطبع الخلط مباشرة بين الدرافيديين القدامى واهالى ميهرغاره . فالمهم هو التشابه النمطى الذى لا شك فيه بين المعطيات الاثرية واللغوية .

وفى الوقت الحاضر تعتبر ميهرغاره دون شك الاثر الابرز ، لكنه ليس الاثر الوحيد لاقدم الحضارات الزراعية فى هندستان . وقد تحققت اكتشافات لا تقل عن ذلك اهمية فى مناطق اخرى من شمال غربى الهند وباكستان ، فى بالاكوت ، مثلا ، وفى بهاوالبور وكوت — ديجى ، حيث تمكن العلماء من متابعة عمليات مماثلة للانتقال التدريجى من العصر الحجرى الحديث الى عصر المعادن (النحاس والبرونز) ؛ وتحسن الزراعة وظهور الحضارات ما قبل المدنية والمدنية المبكرة .

ويبدو انه حان الوقت الذى تطرح فيه بكل حدة

قضيـــة ربــط الحضارات الاثريـــة بهذه المجموعــة الاثنوغرافية او تلك على المهتمين بالدراسات الهندية من مختلف الاختصاصات . ويجب التحلى بمنتهى الحذر فى مثل هذا النوع من الربط . فمعروف جيدا ان حضارة اثرية معينة يمكن ان ترتبط بعدة مجموعات اثنوغرافية ولغوية ، وبالعكس يمكن ان ترتبط لغة واحدة ومجموعة اثنوغرافية واحدة بعدة حضارات اثرية مختلفة (لكنها متجانسة من الناحية النمطية) . ويجب ان تراعى هذه الامور من كل بد لدى تحديد الهوية الاثنوغرافية واللغوية لحضارات العصر الحجرى الحديث والعصر البرونزى ليس فى شمال غربـى هندستان فقط ، بل وكذلك الحضارات الاثرية فى ديكان وجنوب الهند والتى يعتبر ارتباطها (او ارتباط قسم منها) بالدرافيديين امرا واقعيا تماما .

وعلى اية حال يمكن الآن التأكيد بثقة على ان الدرافيديين القدامى فى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد على الاقل كانوا فى اراضى شمال غربى هندستان ، وربما فى المناطق المتاخمة لها (اعالى الغانج وراجستهان وغوجارات) . وتدل على ذلك ليس فقط المعطيات التى اوردناها ، بل وكذلك مواد من نوع آخر . فان البراغوى المقيمين الآن فى باكستان وشرق ايران وجنوب افغانستان احتفظوا برواية تقول ان اجدادهم جاءوا فى غابر الزمان الى هذه الاراضى من الغرب البعيد — من الانجاد الفارسية او حتى من وادى الرافدين وبلاد الشام . ويشير العلماء المعاصرون الى عدد كبير من اوجه الشبه فى المفردات بل وحتى فى الصرف

بين اللغات الدرافيدية واللغة العيلامية (المعروفة من الكتابات المسمارية العائدة الى الالفين الثالث والثانى قبل الميلاد) لغة السكان القدامى فى هضبة بلاد فارس . وتدل اوجه الشبه هذه على الاتصالات المبكرة جدا والتى لا شك فيها ، على اية حال ، ان لم نقل على القرابة المباشرة ، بين الدرافيديين القدامى والعيلاميين . (طرح اللغوى الاميركى ماك آلبين مؤخرا فرضية بشأن وجود لغة عيلامية — درافيدية سلفية واحدة)

ان حقيقة وجود الدرافيديين فى البنجاب منذ النصف الثانى من الالف الثانى قبل الميلاد تؤكدها كذلك معطيات اناشيد «ريغفيدا» — اقدم اثر للهندآريين نشأ ، كما يتصور العلماء ، فى البنجاب الشرقية فى فترة لا تتجاوز القرنين الثانى عشر والحادى عشر قبل الميلاد . ففى لغة «ريغفيدا» اكثر من ٢٠ كلمة ذات اشتقاق درافيدى واضح . ويدل مضمون هذه الاناشيد على ان الهندآريين فى اتصالاتهم مع الدرافيديين القدامى اطلعوا على ثقافتهم الروحية ، فضلا عن المادية . وتوجد فى ميثولوجيا اناشيد الغيدى وفى اساطير وروايات الشعوب الدرافيدية مواضيع مشتركة لا يمكن تفسير ظهورها الا بوحدة الموضوع ، فهى بلا شك ما كان يمكن ان تظهر الا بنتيجة الاتصالات بين الشعبين والتفاعل بين كلا النظامين الميثولوجيين . فان الوصف الوارد فى اناشيد «ريغفيدا» لقبيلة بانى (Pani) ، وهى من الشعوب المحلية التى كانت تنافس الآريين ، يتوافق بأدق التفاصيل مع الوصف الوارد فى الاساطير الدرافيدية لنشاط بانلور Panlur -

الاسلاف الخرافيين الذين تتحدث عنهم روايات الهونديين فى عادل آباد .

واتضح ان مقاطعة اراتا الواقعة فى البنجاب والوارد ذكرها فى الكتاب الثامن من «مهابهاراتا» درافيدية من حيث اللغة والثقافة .

لقد كانت اتصالات الدرافيديين القدامى مع الهندآريين التى اشار اليها العلماء المختصون بالحضارة الدرافيدية تدرس امدا طويلا بصورة مبسطة جدا ـــ بوصفها علاقات بين الغزاة الآريين المنتصرين وبين السكان الدرافيديين المغلوبين . اما الآن فنحن نعرف ان ما يسمى «بالغزو الآرى للهند» لم يحدث فى الواقع اطلاقا . فالقبائل الآرية تغلغلت فى اراضى هندستان بالتدريج خلال عدة مئات من السنين ، ويبدو انها ، فى عدة حالات ، كانت «تتعايش سلميا» مع القبائل الدرافيدية (وغيرها) التى كانت تقيم فى هذه الانحاء سابقا . وتدل الامثلة المذكورة اعلاه على ان الاتصالات المبكرة بين الآريين والدرافيديين كانت طويلة الامد ومتعددة الجوانب ، وقد تحولت الى تفاعل معقد وتأثير وتأثر بين حضارتين .

ولكن توجد ادلة على اتصالات الدرافيديين القدامى مع المجموعات الاثنوغرافية الاخرى العائدة الى فترة مبكرة جدا .

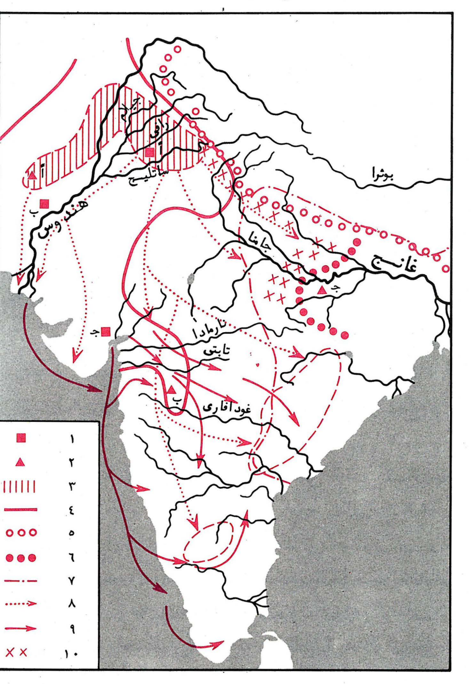
وتتميز بأهمية فائقة بهذا الخصوص الدراسة التى جرت مؤخرا لمتابعة الروابط اللغوية (المفردات) بين مجموعة اللغات الدرافيدية السلفية ومجموعتى اللغات الصينو ـــ تبتيـــة والاوسترونيزية .

وفى الوقت الحاضر امكن الكشف عن اكثر من ٢٠ كلمة مشتركة بين مفردات اللغات الدرافيدية السلفية والصينو- تبتية ، ومنها اسماء الحيوانات («القرد» و«الحمامة» و«البوم») والنباتات («القلقاس» و«التارو») والظواهر المناخية («الجليد» و«الثلج») ومصطلحات لمختلف انواع المساكن والادوات المنزلية . ومما له دلالته ان هذه الكلمات المقتبسة انتقلت من مصدر صينو- تبتى الى اللغة الدرافيدية السلفية قبل انفصال المجموعة الدرافيدية الشمالية (الكوروكخ والمالتو) من المجموعة الدرافيدية السلفية وان اللغات الصينو- تبتية التى هى المصدر المباشر لتلك الاقتباسات منتشرة حاليا فى هملايا وشمال شرقى الهند ، وقد شغلت تلك اللغات هذه المناطق منذ القدم ، كما يرى المختصون بالدراسات الصينية ، الامر الذى يمكن من تحديد منطقة اتصالاتها مع اللغات الدرافيدية السلفية فى مناطق هندستان المتاخمة لهملايا ، ويشير مرة اخرى الى «موطن الاجداد الشمالى» للدرافيديين فى آسيا الجنوبية .

ونجد قائمة اكبر للكلمات المشتركة بين اللغتين الدرافيدية السلفية والاوسترونيزية السلفية . فعدد هذه الكلمات ٤٠ .

ومنها اسماء النباتات (الزراعية والبرية) ومحاصيلها («الخيار» و«الساغو» و«القلقاس» و«شجرة الخبز» و«الطرفاء») والمصطلحات الزراعية («حقل الرز» ، «تربة رطبة») ، واسماء الاسماك (مثل «الحنكليس») والادوات المنزلية («اناء فخارى» و«سلة») والمبانى («علية» ، «سلم») والنقل المائى («زورق» ، «كلك») . الى جانب ذلك نجد مقتبسات عكسية من

التجمعات الاثنولغوية فى الهند القديمة



١ ـــ المراكز الرئيسية الحضارية فى وادى الهند :

أ) هرابّا ،

ب) موهنجودارو ،

ج) لوتهال .

٢ ـــ مستوطنات العصر الحجرى الحديث والعصر الحجرى النحاسى :

أ) مهركارح .

ب) ديماباد .

ج) كولدهوا .

٣ ـــ المساحة التى يفترض ان يكون فيها اول استيطان الدرافيديين السلفيين فى هندوستان (الالفان الخامس ـــ الرابع قبل الميلاد) .

٤ ـــ الحدود الاثرية للحضارة الهرابّية (الالف الثالث ـــ بداية الالف الثانى قبل الميلاد) .

٥ ـــ الحدود الجنوبية لانتشار اللغات الصينوتبّتية .

٦ ـــ المساحة التى يفترض ان يكون فيها استيطان الناطقين باللغات الاوسترونيسية (الالف الخامس ـــ الرابع قبل قبل الميلاد) .

٧ ـــ حدود انتشار «ثقافة الكنوز النحاسية والفخار الاصفر» (يمكن نسبها شرطيا الى الناطقين باللغات الاوسترونيسية ـــ الالفان الثالث ـــ الثانى قبل الميلاد) .

٨ ـــ نزوحات الدرافيديين السلفيين من اراضى الاستيطان الاول («الموجة الاولى» ـــ الالفان الرابع ـــ الثالث قبل الميلاد) .

٩ ـــ نزوحات الدرافيديين السلفيين («الموجة الثانية» ـــ الالفان الثانى ـــ الاول قبل الميلاد) .

١٠ ـــ المناطق التى تفرض ان تمت فيها الاتصالات بين الدرافيديين السلفيين والناطقين باللغات الصينوتبتية والاوسترونيسية .

الدرافيدية السلفية الى الاوسترونيزية . ويمكن ان ننسب اليها فى اغلب الظن المصطلحات المرتبطة بالزراعة («البذرة» ، «الحبة») واسماء النباتات («المانجو») والادوات المنزلية («اناء فخارى» ، «اناء معدنى») وانواع المساكن («منزل» ، «كوخ») ومصطلحات الحرف والصنائع («قص» ، «نقش» ، «قشط» ، «حفر» ، «نسيج» ، و«لُحمة النسيج») . ويؤخذ من طابع المقتبسات ان هذه الاتصالات كان يمكن من الناحية الزمنية ان تجرى على وجه التقريب من الالفين الخامس والرابع قبل الميلاد (بل وربما قبلهما) وحتى بداية الالف الثانى قبل الميلاد .

ان التأكد من واقع وجود الاتصالات اللغوية بين الدرافيديين والاوسترونيزيين القدامى يغير لدرجة كبيرة التصورات الموجودة عن الخارطة الاثنوغرافية اللغوية القديمة لآسيا الجنوبية . فلئن كانت قضية الروابط الاثنوغرافية الثقافية بين اقدم السكان فى هندستان وجنوب شرقى آسيا مقتصرة ، عادة ، على دراسة اللغات الاوسترآسيوية ، وخصوصا اللغات الموندية ، فهى الآن يجب ان تدرس باستخدام المواد الاوسترونيزية . وهناك ما يبرر القول بان الاوسترونيزيين القدامى لعبوا دورا معينا فى تطوير العناصر الآسيوية الجنوبية الشرقية فى حضارات العصر الحجرى الحديث فى وادى الغانج والهند الشرقية . على هذه الصورة بالذات يجب ان نقيم الاكتشافات الاثرية الجديدة فى وادى الغانج (كولديهوا وماهاغارا) حيث عثر فى طبقات تعود الى فترة اقدم من الالف السادس قبل الميلاد على حبوب الرز وعلى الفخار «الخطى» الذى له شبه

مباشر فى حضارات ما يسمى بالنمط الهاوبينى (جنوب شرقى آسيا)

ومن هذه المنطقة التى هى ، على ما يبدو ، اقدم منطقة لزراعة الرز فى هندستان ، انتشر الرز فى شبه القارة كلها ، واطلع على زراعته الدرافيديون القدامى ، ثم سكان المناطق الجنوبية للحضارة الهارابية وهضبة ديكان فى العصر الحجرى النحاسى . وتؤكد المعطيات اللغوية هذا الافتراض . فان اغلبية مسميات الرز فى اللغات الدرافيدية («رز السنابل» و«الرز غير المقشر» و«الرز المكسر» و«الرز المطبوخ») لها ما يماثلها مباشرة فى المفردات الاوسترونيزية . ومما له دلالته ان احد مسميات الرز انتقل من الاوسترونيزية السلفية الى اللغات الصينو — تبتية . ان التقاء هذه المجموعات الاثنولوجية اللغوية الثلاث (الدرافيدية والصينو — تبتية والاوسترونيزية السلفية) الذى تم ، على ما يبدو ، فى عصر واحد كان بوسعه ان يحدث فى اطار منطقة جغرافية معينة هى انجاد هملايا ووادى نهرى جامنو والغانج .

ان تاريخ الدرافيديين اللاحق تؤكده وثائقيا المؤلفات والكتابات المنقوشة ومعطيات النقود العائدة الى فترة ليست اقدم من الالف الثالث قبل الميلاد . وفى هذه الفترة كان المتكلمون بالدرافيدية يشغلون مناطق جنوب الهند ، وربما ديكان ، اى على وجه التقريب نفس الاراضى التى يقيمون فيها الآن . وتعود اقدم الكتابات باللغة التاميلية القديمة الى القرنين الثانى والاول قبل الميلاد . وتعود الى القرن الاول قبل الميلاد والقرن الاول الميلادى القطع النقدية

التى نصادف فى كتاباتها بعض الهوامش الدرافيدية . ومنذ تلك الفترة يبدأ التقليد الادبى فى اللغة التاميلية القديمة (ما يسمى «بشعر سانغام») . ويمكن ان ننسب الى فترة متأخرة (القرنين الخامس ـــ السادس الميلاديين) ظهور الآثار الاساسية فى الادب التاميلى الكلاسيكى («تيروكورال» و«شيلاباديغارام» وغيرهما) . وظهرت الكتابات المنقوشة والآداب فى اللغات الدرافيدية الاخرى (التيلوغو والكانادا والمالايالام) فى النصف الثانى من الالف الاول الميلادى . وتعود ادلة متقطعة فى تاريخ اللغات الدرافيدية غير المكتوبة فى اواسط الهند الى فترة ليست اقدم من القرنين الخامس عشر ـــ السادس عشر الميلاديين . ولم يعثر حتى الآن على اية ادلة واضحة بخصوص تاريخ الشعوب الدرافيدية فيما بين العصر «الدرافيدى السلفى» وهذه الابعاد الزمنية ومن المنطقى الافتراض بان هذه الحقبة البينية قد شهدت هجرات الدرافيديين من شمال غربى الهند فى الاتجاهات الجنوبى والجنوبى الشرقى ، وربما الشرقى ايضا . وليس بالامكان الآن القول كيف ومتى جرت تلك الهجرات . والشيء الواضح فقط هو ان تحرك الدرافيديين من الشمال الى الجنوب لم يجر فى وقت واحد وفى اتجاه واحد .

ومما له دلالته ، مع ذلك ، ان الشعوب والقبائل الدرافيدية عندما تواجدت فى الجنوب النائى طوال مئات السنين بعيدا عن موطن الاجداد قد احتفظت بذكريات ـــ وان لم تكن واضحة على الدوام ـــ عن نزوحها الى «الاراضى الجديدة» فى غابر الزمان .

وهذا ما تتحدث عنه الاساطير الدرافيدية ــ فى الفولكلور وفى الآثار المخطوطة . ونجد اهم «اساطير الهجرة» فى الادب التاميلى القديم فى القرون الاول ــ الثالث الميلادية وفى شروح هذه المؤلفات فى العصر الوسيط . وتفيد هذه الاساطير بان التاميليين القدامى كانوا قبل آلاف السنين يعيشون فى بلد بعيد ، وكانت عندهم هناك مدن وكانوا يعرفون فن الشعر والادب ولديهم مجتمع متطور وهلمجرا . ثم تقول الاساطير ان هذا البلد المزدهر ابتلعته امواج البحر واضطر سكانه للهجرة الى اراضى تاميلناد الحالية . واليكم وصف هذه الكارثة الوارد ، مثلا ، فى رواية شرحهـــا ادياركونالار فى القرن الرابع عشر : «آنذاك دمر البحر وابتلع اراضى تلك المملكة على مساحة ٧٠٠ «كفادى» (اى ٧٠٠٠ كيلومتر مربع ــ **المؤلف**) واقعة بين مصب (نهر) بالى الجنوبى ونهر آخر كان يشكل الحدود الشمالية (لاراضى الملك بانادى) ونهر ثالث يسمى كونارى . وبلغ مجموع ما هلك ٧ مواطن لجوز الهند و٧ مواطن (تابعة لمدينة) مادورا و٧ مواطن فى الصحراء الدنيا و٧ مواطن فى الصحراء القصوى و٧ مواطن شرقية (حيث تنمو) الاشواك و٧ مواطن للنخيل الواطئة ــ كل تلك المواطن الـ٤٩ وكذلك مواطن السلاسل الجبلية والغابات والانهار والمدن حتى الجبال العالية شمالى كومارى . ومما له دلالته ان «موطن اجداد» التاميليين حتى بالنسبة لانسان فى العصور الوسطى مرسوم ليس كمملكة اسطورية تجريدية ، بل بلد واقعى تماما له جغرافية وتضاريس ملموسة .

وظلت اساطير مماثلة محفوظة ليس فقط عند التاميليين ، بل وعند الشعوب الدرافيدية الاخرى فى جنوب الهند : عند التودا (منطقة جبال نيلجيرى) وعند الكوداغو (مقاطعة كورغ) وعند عدد من قبائل كيرالا الاستوائية والمناطق الجافة فى اندهرا ــ براديش .

ففى اساطير قبيلة التودا نجد «ارض الاجداد» (=الآخرة) واقعة دوما فى نفس الاتجاه ــ غربى نيلجيرى . وتوصل العالم الانجليزى ريفيرس الذى درس ميثولوجيا وفولكلور التودا بالتفصيل الى استنتاج يقول ان هذه القبيلة جاءت الى هضبة نيلجيرى ، حيث تقيم الآن ، من مكان ما فى الغرب ، وهو على الاكثر ساحل مالابار . ومما له دلالته ان «ارض الاجداد» فى اذهان التودا هى مصدر ظهور الاشياء الضرورية جدا لحياة الانسان ، اى انها بمثابة «مصدر للثقافة» . وقد تحير العلماء الذين درسوا ثقافة التودا لان نفس هذا الدور ــ دور «مصدر الثقافة» ــ تلعبه فى اساطير اخرى ليس «ارض الاجداد» ، بل المحيط الذى هو غير معروف فى الواقع لدى الرعاة المقيمين فى الانجاد المستوية .

ويلعب دورا كبيرا فى ميثولوجيا شعب الكوداغو المقيم فى منطقة كورغ شمالى هضبة نيلجيرى ما يسمى «بالآلهة القرويين» حماة الرعاة والزراع وحراس الديار ومبعدى الامراض والمصائب . وقد انتشرت عبادة «الآلهة القرويين» فى كافة ارجاء الهند ، ولكنهم فى كورغ وحدها ، على ما يبدو ، يعتبرون «غرباء» جاءوا من الجنوب الغربى (ولاية كيرالا فى ساحل مالابار) او من الشمال الغربى (منطقة كانارا الجنوبية

فى ولاية كارناتاك) . وتؤكد بعض الاساطير خصوصا على ان «الآلهة القرويين» (وهم فى وعى الكوداغو الميثولوجى الاجداد الاوائل) ولدوا «من محيط الحليب» (او «وراء البحار السبعة على ساحل محيط الحليب») ، وانهم اضطروا فى البداية الى النزول فى مالابار ثم فى كورغ «ملتجئين» الى الآلهة المحليين. وفى سلسلة اخرى من الاساطير والروايات عن السكنى في كورغ جاء ان الامير تشاندرافارما انتزع هذه المنطقة من «البرابرة» وان احفاد جنده استثمروا هذه الاراضى «فاجتثوا الاشجار بايديهم ومهدوا التربة باظافرهم» وبنوا المدن والقرى .

واحتفظ سكان ساحل مالابار بطائفة كاملة من الاساطير والروايات التى تتحدث عن البطل الهندى القديم باراشوراما («راما والفأس») الذى «رمى بلطته الحربية فى البحر وازاح مياه المحيط الهندى ورفع من تحت الماء» كيرالا الحالية وساحل مالابار كله حتى غوا ، ثم اسكن البراهما فى الاراضى الجديدة . علما بان نفس تلك الروايات تقول احيانا — وهذا يتعارض بالكامل مع الرواية السابقة — ان النازحين الاوائل فروا من الاراضى الجديدة خائفين من اهاليها الاصليين الذين هم «قبيلة افعوانية» ، او ان باراشوراما اضطر الى اغراق الاهالى الاصليين فى البحر وحرق جثثهم وخلق سكان جدد من الرماد (ولذا يطلق الشعب على احدى طوائف البراهما فى منطقة غوا نعتا له دلالته «الغرقى» . ويبدو ان كل هذه الروايات ما هى الا قصة مكتوبة «بلغة الميثولوجيا» عن غزو النازحين من وراء البحار لمالابار (او استثمارها) .

واخيرا نجد فى اساطير طائفة ادى ــ فيلاما ، وهى من الطوائف الزراعية فى ولاية اندهرا براديش ، قصة تقول ان الاسلاف الابعدين لهذه الطائفة اضطروا الى مغادرة البلد الذى كانوا يقيمون فيه وعبروا «المحيط الشرقى على متن ١٢ سفينة» ونزلوا فى ساحل اندهرا ، حيث استخدمهم الحاكم المحلى لحماية مداخليه (كانوا ، خلافا للسكان المحليين ، يجيدون الكتابة والحساب) .

ولا بد من ملاحظة ان كل هذه الاساطير والروايات ، رغم الاختلاف فى بعض التفاصيل ، عند درافيديى جنوب الهند تضم عدة «عناصر دائمية» تشير ليس فقط الى تشابه المواضيع ، بل وتشابه الحبكة الصرف وتدل على ان هذه الروايات تعود الى اصل مشترك واحد هو «الاسطورة الدرافيدية الجنوبية عن موطن الاجداد» . واذا افترضنا ان «اسطورة موطن الاجداد» ــ شأنها شأن الكثير من الروايات عن الهجرات الاولى ــ لها اساس تاريخى واقعى ما فيجب فى هذه الحال ان نعترف بما يلى :

١) ان الدرافيديين الجنوبيين ليسوا من السكان الاصليين فى جنوب الهند .

٢) ان اسلاف الدرافيديين الجنوبيين (بعض مجموعاتهم على الاقل) وصلوا الى جنوب الهند بحرا .

٣) كان من اسباب هذه الهجرة كارثة ما احاقت «بموطن اجدادهم» .

٤) موطن الاجداد هذا ترسمه ذاكرة الدرافيديين الجنوبيين بوصفه بلدا ذا ثقافة رفيعة .

وهناك قدر من الاغراء فى مقارنة معطيات هذه الروايات بمعطيات تاريخ الدرافيديين المبكر التى يقدمها علم الآثار وعلم اللغة . فمن المعروف جيدا الآن ان الحضارة الهارابية ذات اللغة الدرافيدية كانت من حيث مستوى تطورها فى الالفين الثالث والثانى قبل الميلاد تختلف اختلافا كبيرا عن المناطق الاخرى الاكثر «تخلفا» فى شبه جزيرة هندستان . ومعروف كذلك ان مراكز السكن الهارابية فى غوجارات ظهرت فى اواخر الالف الثالث واوائل الالف الثانى قبل الميلاد بنتيجة نزوح اهالى وادى هندوس بحرا ، وان المراكز الهارابية كانت تتاجر مع مناطق ديكان وجنوب الهند وان تغلغل التقاليد الهارابية الى الجنوب اسفر عن تأثير الحضارة الهارابية على الحضارات المحلية . (ويتجلى هذا التأثير بوضوح كبير ، كما تبين نتائج الحفريات الاخيرة ، فى مراكز السكن العائدة للعصر النحاسى فى ديكان ، مثل دايم آباد ونافداتولى اللتين عثر فيهما مؤخرا على اختام بكتابات هندية سلفية وتماثيل فخارية تشبه نقوش الاشخاص والحيوانات من موهينجو — دارو وهارابا . وقبل ذلك ، فى الستينات لفت العالم الاثرى الهندى لال انظار العلماء الى ان سيراميك ديكان وجنوب الهند العائد الى العصر النحاسى فى اواخر الالف الثانى واوائل الالف الاول قبل الميلاد يحتوى احيانا على اشارات تذكرنا لدرجة كبيرة باشارات الكتابة الهندية السلفية) .

ولا تزال مسألة اسباب هلاك المدن فى وادى هندوس تثير مجادلات حادة ، الا ان اغلبية العلماء الآن تشير الى

الفيضانات وزحف الصحراء والهزات التكتونية وغير ذلك من العوامل الجيوفيزيائية التى ادت الى تغيير مجرى هندوس واغراق احدى «العاصمتين» الهارابيتين : موهينجو ــ دارو (وقد توصل العلماء الى هذه الاستنتاجات بنتيجة عمل البعثة الباكستانية الاميركية المشتركة باشراف ريكس) .

ولا بد من الاشارة الى نقطة هامة اخرى ، وهــى ، هذه المرة ، من ميدان الجغرافية اللغوية للغات الدرافيدية الحديثة .

تفيد معطيات احصاء النفوس الاخير ان حوالى مليون شخص من سكان الهند الجنوبية يتكلمون لغة التولو الدرافيدية المنتشرة على ساحل مالابار قريبا من مانغالور . ويقع مجال انتشار التولو بين مجالات اللغات الدرافيدية الثلاث الاهم فى جنوب الهند ــ الكانادا والتاميلية والمالايالام . الا ان دراسات اللغويين المختصين بالدرافيدية تبين ان لغة التولو تختلف من حيث خواصها الصوتية والقواعدية الصرفية اختلافا شديدا عن هذه اللغات وعن سائر اللغات الاخرى فى المجموعة الدرافيدية الجنوبية . وترى اغلبية العلماء فى الوقت الحاضر ان التولو ، مع لغتى الكوراغا والبيلارى اللتين اكتشفتا مؤخرا فى نفس هذه المنطقة ، تشكل مجموعة فرعية خاصة داخل عائلة اللغات الدرافيدية ، وهى مجموعة قريبة فى بعض سماتها من اللغات الدرافيدية فى وسط الهند (كولامى وبارجى) وشرقيها (كوروكخ ومالتو) .

فما الذى جعل هذه المجموعة الفرعية بمثابة جزيرة فريدة محاطة باللغات الدرافيدية الجنوبية ؟ يكمن السبب ،

فى اغلب الظن ، فى كون الدرافيديين قد انتشروا فى اراضى هندستان ليس فى وقت واحد ، بل على موجات عديدة ، وكان هناك من يتكلم بلغات درافيدية اخرى فى جنوب الهند عندما وصل اليه اسلاف الدرافيديين الجنوبيين المعاصرين (برا وبحرا ، وعلى الاصح من ساحل مالابار) . ومن الادلة على هذا الافتراض «اساطير الهجرة» عند الدرافيديين المقيمين حاليا فى اواسط الهند وشمال شرقيها . ولا توجد فى روايات الهوندى والكوروكخ والمالتو اية اشارة لا الى «الطريق الغربى» للاسلاف ولا الى مجىء اولئك الاسلاف من جهة البحر ، ولا الى موطن الاجداد الذى هلك فى امواج البحر . ومع ذلك ظلت محفوظة فيها اشارات الى مرحلتين من الهجرة على الاقل — من الشمال الى الجنوب ، ومن الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى . وتعتقد قبائل الكوروكخ والمالتو، مثلا ، ان اسلافها عاشوا فى غابر الزمان فى كارناتاكا ، ثم انتقلوا فى مجرى نارمادا وبلغوا مناطق بيهار والبنغال الغربية حيث يقيمون الآن .

وهكذا فان توافق ما ترويه الاساطير مع المعطيات الحديثة للعلوم له دلالته الكافية للاعراب عن افتراض بشأن انتشار الدرافيديين «على موجات» فى اراضى شبه القارة الهندية وبشأن ارتباط احدى «الموجات» بسقوط حضارة هاراما .

وتجدر الاشارة كذلك الى ان «البانوراما الجغرافية» العامة لموطن الاجداد بالشكل الذى ترسمه الاساطير التاميلية القديمة (ومن ذلك شرح اديار كونالار) تذكرنا تفصيلا فى بعض الاحيان باللوحة الجغرافية الطبيعية الفعلية للبنجاب (بلد الانهار

الخمسة) وبوادى هندوس والمناطق الصحراوية والجبليـــة المتاخمة له . . .

على هذه الصورة يرتسم بالخطوط العريضة التاريخ القديم للشعوب الدرافيدية والعمليات الاثنوغرافية الثقافية التى جرت فى اراضى هندستان فى تلك الازمان السحيقة . بديهى ان مشكلة المنشأ القومى للدرافيديين بعيدة عن الحل النهائى . فلا تزال اكثر المسائل فى الدراسات الدرافيدية تفتقر الى اجوبة دقيقة بهذا القدر او ذاك . ولا تزال المناقشات الرئيسية فى انتظار الاخصائيين . الا ان النتائج الاولى لتطبيق المنهج الشامل واستخدام معطيات علم اللغة والتاريخ وعلم الآثار والاثنوغرافيا تجعلنا نأمل فى تحديد المراحل الاساسية لتاريخ الدرافيديين الاثنوغرافى الثقافى . والضمانة الكفيلة بالنجاح هى الاستمرار بدأب فى استخدام منهج الدراسة الشاملة .

الفصل التاسع

الاسقوثيون : اكتشافات جديدة ومسائل جديدة

المؤلف: رابيفسكي
ترجمة: خيري الضامن

«الاسقوثيون» اسم تسمى به شعب اقام فى الالف الاول قبل الميلاد فى الساحل الشمالى للبحر الاسود ، في سهوب اوكرانيا الحالية . ان تاريخ هذا الشعب الذى عاش فى جنوب شرقى اوربا بعيد جدا ، للوهلة الاولى ، عن القضايا التى يتناولها المختصون بشؤون الشرق القديم . ومع ذلك يحظى الاسقوثيون وتاريخهم وحضارتهم من زمان باهتمام المستشرقين ، ومنهم المستشرقون السوفييت . ويعزى اهتمام الاستشراق بهذه المسائل اساسا الى ثلاثة امور :

اولا ـــ تأكد اللغويون منذ اواخر القرن التاسع عشر من ان لغة الاسقوثيين تنتمى الى الفرع الايرانى (الفارسى) من مجموعة اللغات الهندايرانية . ولم تكن لدى الاسقوثيين ابجدية ، ولم يصلنا من لغتهم الا بضع عشرات من الاسماء التى ظلت محفوظة فى نصوص بلغات اخرى . وكان من الصعب جدا تحديد طابع اللغة الاسقوثية وانتمائها الى عائلة لغوية معينة استنادا الى هذه البقايا الشحيحة . وبذل جهودا

كبيرة بخاصة لدراسة لغة الاسقوثيين العالم اللغوى السوفيتى البارز ابايف الذى بين ان اللغة الاسقوثية هى ، من حيث عدد من الخواص ، اقرب الى لغة الاسيتيين المعاصرين ، وهم شعب يقيم فى شمال القوقاس . واستخدم ابايف على نطاق واسع معطيات اللغة الاسيتية ومواد من اللغات الايرانية الاخرى ــ القديمة والحديثة ــ وتمكن حتى من وضع قاموس بالمفردات الاسقوثية التى وصلتنا عن طريق لغات اخرى واثبت نهائيا فى العلم الحديث الرأى القائل بان الاسقوثية من اللغات الايرانية . وهذا الاستنتاج على قدر كبير من الاهمية لانه يبين ان الاسقوثيين كانوا من ذوى القربى مع شعوب فى الشرق القديم مثل القبائل الآرية فى شمال الهند والفرس والميديين والباكتريين وغيرهم . ولدى دراسة التاريخ المبكر لجميع هذه الشعوب ، وبالدرجة الاولى قضايا منشأها واصلها ، وكذلك لدى دراسة ثقافتها واساطيرها وهلمجرا تعتبر المواد الاسقوثية بالنسبة للمستشرقين ذات قيمة بالغة ، واحيانا تعتبر مادة فريدة . فان المعطيات عن الاتصالات بين الناطقين باللغات الايرانية وبين مختلف الشعوب القديمة والتى تم الحصول عليها من تحليل المفردات الاسقوثية المحفوظة قد ساعدت على اجراء تدقيق جوهرى فى التصورات عن مواضع نشوء الهندايرانيين القدامى وعن طرق انتشارهم ووصولهم الى المناطق التى عاشوا فيها عندما بدأ التاريخ المكتوب .

ان الصلة الثانية التى تربط بين الاسقوثيين والشرق القديم تعود الى فترة متأخرة . فقد تضمنت النصوص

المسمارية القديمة ومؤلفات الكتاب اليونانيين والرومانيين معلومات عن الحملات التى شنها الاسقوثيون وبعض الشعوب التى تربطها بهم صلة قربى فى فجر تاريخهم فى القرون الثامن ـ السادس قبل الميلاد على آسيا الغربية . وشارك الاسقوثيون فى آسيا الغربية مشاركة نشيطة فى الكثير من اهم احداث تاريخ بلدان الشرق القديم . فقد ساهموا فى تقويض الدولة الآشورية ولعبوا دور الحلفاء تارة والخصوم تارة اخرى لمملكة اورارتو وللميديين . كما اشتركوا فى مختلف الحروب (علما بان تدخل الاسقوثيين كان فى الغالب يحدد نتيجة المعارك) ، وفى بعض الاحيان كانوا يشكلون القوة الحاسمة فى التاريخ السياسى للشرق القديم . ولعبت الحملات على آسيا الغربية دورا هاما كذلك فى حياة الاسقوثيين الذين تأثرت حضارتهم كثيرا بحضارات الشرق القديم فى فترة تواجدهم فى آسيا الغربية .

واخيرا ، تتلخص النقطة الثالثة التى تحدد الصلة الوثيقة بين دراسة الاسقوثيين ودراسة الشرق القديم فى كون تاريخ الاسقوثيين انفسهم لا يستنفد طائفة المسائل التى جرت العادة فى العلم الحديث على اطلاق مصطلح «القضية الاسقوثية» عليها . فان مصطلح «الاسقوثيون» كان فى قديم الزمان يستخدم بمعنيين : فبالاضافة الى الشعب السالف الذكر والمقيم فى ساحل البحر الاسود كان الكتاب اليونانيون والرومان غالبا ما يطلقون هذا الاسم على القبائل الكثيرة التى كانت تسكن فى تلك الحقبة فى السهوب الشاسعة فى حزام اوراسيا المنبسط من اسفل الدانوب (الطونة) حتى اعالى نهر

ينيسى ، وكذلك سكان مناطق آسيا الوسطى وتيان-شان والتاى المتاخمة لهذا الحزام السهبى . ومن السهل تفسير اصل هذا المعنى المزدوج لاسم الاسقوثيين . فان شعوب المناطق المذكورة كانت فى الماضى السحيق تمتلك ثقافة متشابهة لدرجة كبيرة ولها نمط اقتصادى معيشى واحد . وكانت لبعضها صلة قربى مع الاسقوثيين من حيث اللغة ، ولها اصل مشترك معهم . وجعلت قرابة الثقافة هذه اليونانيين يعتبرون كل قبائل هذه المنطقة الشاسعة شعبا واحدا ويسمونها باسم الشعب السهبى الذى عرفوا به قبل غيره ، اى الاسقوثيين . واقتبس العلم فى العصر الحديث هذا التفسير الموسع لمصطلح «الاسقوثيين» من المؤلفات القديمة ، لاسيما وان الحفريات الاولى لآثار الحزام السهبى قد اكدت التقارب الثقافى بين سكانه . وبمر الزمن امكن تمييز انواع مرتبطة بمختلف الشعوب ضمن هذه الحضارة التى بدت للوهلة الاولى وكأنها حضارة واحدة . ولكن لا يمكن تصور هذه الحضارات المختلفة ، رغم تشابهها ، تصورا كاملا الا بدراستها بمجملها . ولذا فان القضية الاسقوثية فى العلم الحديث تضم طائفة من المسائل المرتبطة بتاريخ وثقافة كل شعوب «العالم الاسقوثى» السهبى الشاسع ، بما فيها القبائل الآسيوية ، وبالتالى يمكن ان تعتبر واحدة من القضايا الداخلة فى مجال الاستشراق . الا اننا سنركز فى هذا البحث اساسا على تاريخ وثقافة الاسقوثيين المقيمين فى السواحل الشمالية للبحر الاسود ، ولن نتناول المعلومات عن القبائل الاخرى ذات الحضارات «الاسقوثية الطراز» الا بقدر

ما تكون ضرورية لايضاح المسائل المتعلقة بحياة هذا الشعب .

ولما كان الاسقوثيون ، كما اسلفنا ، لا يمتلكون ابجدية خاصة بهم فان كل ما نعرفه عنهم يعود بالاساس الى مصدرين هما المعطيات الاثرية التى تم الحصول عليها فى سياق حفريات آثار الالف الاول قبل الميلاد ، وكذلك ما كتبه المؤلفون اليونانيون والرومان المطلعون جيدا على حياة اهالى سواحل البحر الاسود التى كانت فيها خلال القرنين السابع والسادس قبل الميلاد مراكز سكنية اغريقية ذات صلات سياسية وتجارية وثقافية وثيقة مع الاسقوثيين وتستند الدراسات الاسقوثية الحديثة الى البحث الشامل فى هذين المصدرين والمقارنة بينهما .

تعود اصول الدراسة العلمية للآثار الاسقوثية الى عام ١٧٦٣ حيث جرت فى اوكرانيا (فى ضواحى مدينة كيروفوغراد حاليا) حفريات وتنقيبات فى تلة تنسب الى تخوم القرنين السابع والسادس قبل الميلاد وفيها مدفن غنى لزعيم اسقوثى ساهم ، على ما يبدو ، فى الحملات على آسيا الغربية . ففى تزيينات الكثير من المواد التى عثر عليها هنا نجد تأثيرات شرقية قديمة واضحة وشديدة (من آشور واورارتو) . وجرت تنقيبات مكثفة فى التلات الاسقوثية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . الا ان علم الآثار آنذاك كان يستهدف فى الغالب ليس جمع كمية كبيرة من المواد التى لا يمكن بدونها اجراء ترميم فعلى لملامح ثقافة هذا الشعب او ذاك وبعث تاريخه ، بل

يستهدف البحث عن التحف الفنية للعصور الغابرة ، ولذا درست بالاساس التلال الضخمة التى هى مدافن الوجهاء الاسقوثيين ، اى ما يسمى بمدافن الملوك . وفى تلك الفترة بالذات اجريت حفريات الآثار المعروفة عالميا فى منطقة الدنيبر ، مثل مدافن سولوخا وتشيرتومليك ، واخيرا التلة الهائلة التى يزيد ارتفاعها على ٢١ مترا ـ تلة الكساندروبول . وبنتيجة هذه الحفريات تكدست فى متاحف روسيا ـ وبالدرجة الاولى متحف الارميتاج ـ مجموعات فريدة من نتاجات الفن الاسقوثى وكذلك من ابداعات الصناع اليونانيين من المدن الاغريقية فى الساحل الشمالى للبحر الاسود والذين كانوا يعملون بطلبيات من الوجهاء الاسقوثيين . الا ان الكثير جدا من المسائل المعقدة فى تاريخ الاسقوثيين والتى يتطلب حلها استخدام المعطيات الاثرية لم يتم توفير تلك المعطيات لها . ثم ان التحف الفنية التى عثر عليها لم تحظ فى الغالب بدراسة وشروح تاريخية وثقافية مقبولة

وفى العهد السوفييتى اكتسبت التنقيبات عن الآثار الاسقوثية طابعا مغايرا من حيث المبدأ . فقد درست بموجب التخطيط مدافن واسعة لبسطاء الاسقوثيين ، وكانت تلك المدافن تحتوى احيانا على مئات القبور ، الامر الذى ساعد على تكوين فكرة اكمل بكثير عن طابع الثقافة الاسقوثية وهيأ الامكانية للاقتراب تماما من حل مسائل مثل اصل الاسقوثيين والبنية الاجتماعية لمجتمعهم وهلمجرا

بديهى ان مدافن الوجهاء كانت من بين الآثار التى جرى

التنقيب عنها فى هذه السنوات ، وربما لم تكن تلك المدافن على قدر كبير من الوجاهة كالمدافن التى اكتشفت قبل الثورة ، ولكنها لا تقل عنها اهمية من حيث المواد والادوات المدفونة . ففى عام ١٩٥٤ اكتشف الاثرى تيرينوجكين من كييف تلة ميليتوبول التى كانت فيها مدافن غنية المحتويات ، والكثير من محتوياتها له ما يماثله تماما فى مدافن تشيرتومليك ، مع ان منشآت تلة ميليتوبول اقل شأنا بكثير من مدافن تشيرتومليك . وفى عام ١٩٦٨ اكتشف بينزيليا تلة ضريح غايمان الذى ضمت محتوياته فنجانا فضيا مذهبا رائعا مزينا برسوم ذات موضوع . وبه اكتملت المجموعة القيمة من الاوانى المماثلة التى اكتشفت فى سياق التنقيبات قبل الثورة . واخيرا تعتبر من اسمى انجازات الدراسات الاثرية الاسقوثية الميدانية فى العقود الاخيرة الدراسة التى اجراها موزوليفسكى فى عام ١٩٧١ لتل تولستايا موغيلا ، حيث اكتشف الكثير من النتاجات الرائعة للفن التطبيقى التزيينى من العهد الاسقوثى ، وبينها نماذج فريدة مثل البطرشيل الذهبى الشهير الذى سنتحدث عنه بالتفصيل فيما بعد . وبنتيجة كل هذه التنقيبات تكدست فى متحف المصوغات التاريخية الذى افتتح فى كييف مؤخرا مجموعة من آثار الفن الاسقوثى لا تقل اهمية عن مجموعة الارميتاج المعروفة على النطاق العالمى .

واتسع فى الوقت ذاته نطاق التنقيب عن الآثار التى خلفتها شعوب «العالم الاسقوثى» فى المناطق الشرقية والآسيوية ، فى الحزام السهبى فى اوراسيا وفى المناطق المتاخمة لها .

وتجدر الاشارة الى بعض من اهم تلك الاكتشافات . فى اربعينات القرن العشرين اكتشفت فى التاى الجبلى مجموعة من المدافن فى قرية بازيريك . وبتأثير الخصائص المناخية الموضعية نشأت تحت كثبان مدافن بازيريك طبقات من التجمد الدائم الذى امن صيانة لم يسبقها مثيل للحاجيات المصنوعة من المواد العضوية — الخشب والجلود والانسجة الصوفية . وبفضل ذلك وضعت مدافن تل بازيريك تحت تصرف العلماء معلومات كاملة عن طابع حضارة شعوب العهد الاسقوثى لا يمكن الحصول عليها بدراسة الآثار الاخرى . وعثر على تلة هامة فيها نماذج من الفن الاسقوثى المبكر فى حفريات وادى تشيليكت فى شرقى كازاخستان . واخيرا يعتبر اكتشاف تل ارجان الضخم فى توفا حدثا هاما للغاية اثار مناقشات حادة فى مختلف جوانب قضية اصل شعوب «العالم الاسقوثى» وتاريخها المبكر .

لقد وضعت دراسة كل الآثار المذكورة اعلاه تحت تصرف الاخصائيين مادة جديدة قيمة للغاية . ولما كانت قد اجريت على مستوى المنهج الميدانى العصرى المتقن فقد ساعدت على تقييم المعطيات المستحصلة من الحفريات الماضية تقييما جديدا . وتوجد لدى المختصين بالقضية الاسقوثية حاليا مادة كبيرة للغاية . لكن ذلك لا يعنى طبعا ان كل المسائل المرتبطة بدراسة الاسقوثيين والشعوب التى تربطها بهم صلة القربى قد حظيت بحل محدد ومعترف به من قبل الجميع . فالكثير من الامور هنا لا يزال موضوعا للنقاش . ولكن تطورات جذرية لدرجة

كافية قد لوحظت خلال السنوات الاخيرة فى عدد من ميادين الدراسات الاسقوثية ، بما فيها الميادين المرتبطة مباشرة بالعديد من قضايا تاريخ الحضارة فى الشرق القديم . وسنتوقف عند هذه الجوانب المدروسة بشكل ملحوظ من القضية الاسقوثية .

وفى مقدمتها مسألة تفسير مضامين النتاجات الفنية التى عثر عليها فى المدافن الاسقوثية . فقد ذكرنا ان مجموعات كبيرة من النتاجات تجمعت فى متاحف الاتحاد السوفييتى خلال السنوات الطويلة من التنقيب عن الآثار الاسقوثية ، لكن تلك المجموعات تتطلب ، بالاضافة الى التحليل الفنى ، شروحا لمعانيها وتوضيحا لمضامين مواضيعها ومتونها .

ان الفن الاسقوثى ظاهرة متنوعة للغاية فالفنانون الاسقوثيون كانوا فى الغالب يبدعون بما يسمى بالاسلوب الحيوانى ، اى انهم يصورون انواعا معينة من الحيوانات فى هيئات تقليدية ثابتة وبطريقة فنية خاصة . وكانت هذه الصور ترسم على مختلف الادوات والحاجيات المعيشية والطقوسية ــ على الادوات المستخدمة فى التسلح وعلى عدة الخيل وعلى الاوعية المستخدمة فى الطقوس والشعائر وعلى الحلى الذهبية الصغيرة التى تزين ثياب الوجهاء الاسقوثيين اثناء الاحتفالات وعلى الاغطية الجنائزية . الا ان معانى الكثير من هذه الصور لا تزال غامضة حتى الآن . ولكى نتفهم مضامين اللوحات الحيوانية التى تزين الآثار الاسقوثية ينبغى ان نأخذ فى البداية فكرة عن تصورات ومعتقدات الاسقوثيين وبالدرجة الاولى الميثولوجيا الاسقوثية افلا

تعيننا فى ذلك الآثار التصويرية الاسقوثية الاخرى ، وفى مقدمتها الآثار ذات المواضيع الفنية ؟ صحيح ان الفن الاسقوثى الصرف لا يعرف تقريبا صور الانسان او الشخوص الميثولوجية الشبيهة بالانسان . فهذه الصور ظهرت هنا فى فترة متأخرة ، وهى قليلة جدا وتتميز بالخشونة وبصبغة بدائية جدا ومستواها الفنى واطئ للغاية . اما نتاجات الصنائع الفنية الاغريقية التى عثر عليها فى التلال الاسقوثية فهى ذات طابع مغاير تماما . فان الصناع من المستوطنات الاغريقية الواقعة على سواحل البحر الاسود كانوا يرسلون الى بلاد الاسقوث المنتجات التقليدية بالنسبة للعالم الهلينى ، وكانوا فضلا عن ذلك يراعون اذواق السكان المحليين فيصنعون خصيصا بطلب من وجهاء الاسقوثيين حاجيات من طراز محلى ويزينونها بصور ومواضيع محلية . وكانت هذه الصور والمواضيع لامد طويل تسمى فى المطبوعات المختصة «بمشاهد من حياة الاسقوثيين» . ان مضامين هذه المشاهد متنوعة للغاية ، الا ان محاولات فهم مغزاها طوال اكثر من مائة عام لم تتعد التأكيدات بان الصناع الاغريقيين ابدوا اهتماما بالمعيشة الاسقوثية غير المعتادة بالنسبة لهم والمدهشة من وجهة النظر الهلينية فرسموا على مصنوعاتهم نوعا من «الرسومات للحوادث الحياتية» . وكانت مجموعات هذه المواد والحاجيات فى ازدياد مستمر ، لكن تفسيرها على هذه الصورة ظل دون تغيير . ففى ضواحى مدينة كيرتش فى القرم جرى فى عام ١٨٣٠ كشف ديماس حجرى اثرى فى تل كول ــ اوبا ، وكان يحتوى على مدفونات رجالية

ونسائية غنية . وكان من اروع تلك الآثار اناء كروى بعنق طويل فى يد المرأة المدفونة وهو مزين باربعة مشاهد ، اثنان يصوران ما يسمى «بمشاهد العلاج» : فى احدهما محارب اسقوثى يضمد جراح محارب آخر مصاب فى رجله ، وفى الآخر يتلمس محارب سن رفيقه التى تؤلمه . ونجد هنا كذلك صورة اسقوثى يشد حبل القوس ومحاربين اسقوثيين يتجاذبان اطراف الحديث . وحظى هذا الاثر حالا باهتمام كبير لانه اول تصوير واقعى تماما للمنظر الخارجى للاسقوثيين وصلنا من ذلك العهد البعيد ، وقد رسمه شاهد عيان معاصر للاحداث . ولكن هل يمكن تفهم المضمون الملموس فى هذه المشاهد ؟ اثناء الاكتشاف فى تل كول — اوبا طرح الافتراض الذى له من يؤيده فى الوقت الحاضر ايضا والقائل بان هذا الاناء يصور مشاهد من حياة الملك المدفون هنا . وفيما بعد اعتبر المختصون بتاريخ الطب هذه المشاهد دليلا على وجود خدمات طبية عسكرية ميدانية جيدة فى العساكر الاسقوثية . وعندما اكتشف فى احد المدافن العائدة للعهد الاسقوثى فى ضواحى مدينة فورونيج فى عام ١٩١١ اناء فضى يشبه من حيث الشكل اناء كول — اوبا ومزين كذلك بصور المحاربين الاسقوثيين اعرب المؤرخ والاثرى الروسى المعروف روستوفتسيف ، بعد مقارنة الانائين ، عن رأيه بان الصانع الاغريقى صور فى كلتا الحالتين مشاهد من حياة معسكر الجند الاسقوثى . فالاناء الثانى كأنما يصور الاسقوثيين قبل المعركة ، بينما يصورهم الاول بعد المعركة .

وبهذا القدر من التعميم التقريبى يتسم تفسير الصور

على اثر رائع آخر من آثار المدافن الاسقوثية ، ونعنى المزهرية الفضية المذهبة التى عثر عليها فى تل تشيرتومليك . فان هيكل هذه المزهرية العالية ذات الشكل الانيق جدا مزين باغصان عليها طيور . واحدى الفوهات — الحنفيات الموجودة على الهيكل مصنوعة بشكل رأس حصان له جناحان منشوران على هيكل المزهرية . وفى القسم العلوى كائنات خرافية بجسم اسد ورأس نسر وجناحين تنهش ايائل . الا ان الاهتمام الرئيسى منصب على الافريز الاوسط لتزيين المزهرية وفيه صور اسقوثيين منهمكين ، كما يرى الباحثون ، بصيد الخيول البرية وترويضها . ولما كانت الخيول تلعب دورا هاما للغاية فى معيشة الاسقوثيين الرحل فان هذا التفسير للمشاهد المرسومة على مزهرية تشيرتومليك بدا مقبولا

كان عدد الآثار المزينة بهذه الرسوم يزداد ، لكن احدا ما كان يشعر بحاجة الى اكتناه مغزاها بمزيد من العمق . والحال فان تفسيرها ولد طائفة من الاسئلة التى ظلت بلا جواب . ما السبب ، مثلا ، فى رسم هذه المشاهد المعيشية الصرف على حاجيات مخصصة دون شك للشعائر والطقوس ؟ الا توجد فى سيرة حياة الزعيم او الملك الاسقوثى المدفون فى تل كول — اوبا احداث اكثر اهمية ، لتجسيدها على الاناء الثمين ، من اللحظة التى جعله الالم فى سنه يطلب النجدة من احد رعاياه ؟ صحيح ان روستوفتسيف السالف الذكر قد اعرب فى مطلع القرن العشرين عن افتراض بان بعض الرسوم التى تزين الآثار الاسقوثية تجسد امورا دينية — مشاهد الطقوس او المشاهد الميثولوجية ، لكنه ادرج ضمن

هذه المجموعة عددا غير كبير من الآثار ، اما الباقى ، ومنه الآثار المذكورة اعلاه ، فقد اعتبره نتاجات ذات مضامين معيشية صرف . وفيما بعد اتخذ غراكوف الاثرى السوفييتى المعروف والمختص بتاريخ الاسقوثيين موقفا مغايرا تماما من تفسير مضامين هذه الآثار . فقد افترض ان الصناع الاغريق لم يبتدعوا بانفسهم مواضيع تلك الرسوم ، بل جسدوا فيها مشاهد من الروايات الملحمية الاسقوثية . لكنه لم يتصور ان بالامكان ايضاح المضامين الملموسة لاغلبية هذه المشاهد ، فالملاحم الاسقوثية بدت وكأنها مفقودة بالنسبة لنا الى الابد .

وفى السنوات ١٠ — ١٥ الاخيرة ارتسم موقف مغاير من حيث المبدأ فى تفسير الآثار المذكورة . وقد ساعدت على ذلك كثيرا المنجزات فى مجال دراسة الفولكلور والميثولوجيا عند مختلف الشعوب وايضاح دور الميثولوجيا فى حياة المجتمعات القديمة . فالعلم الحديث يتناول الاساطير الميثولوجية ليس بوصفها مجرد طائفة من الحكايات المسلية عن الآلهة والابطال القدامى ، بل كوسيلة لاستيعاب الشعوب القديمة لمجمل العالم المحيط بها ولضبط علاقاتها مع ذلك العالم . ان ميثولوجيا الشعب المعنى تحدد كل توجهاته الاجتماعية والسياسية والثقافية . ويستنتج من ذلك ، اولا ، ان فهم ثقافة هذا الشعب او ذاك بكامل تفاصيلها غير ممكن بدون معرفة الميثولوجيا عنده ، وثانيا — ان احداث «الماضى الميثولوجى» بالذات ، اى مضامين الاساطير هى التى كانت تحظى بمركز الصدارة من اهتمام الانسان القديم وهى التى

غدت موضوعا لفنه . ولم تكن «المشاهد الحياتية» البسيطة والاحداث الصدفية المنفردة تتسم فى نظره بأية قيمة وتستحق اى اهتمام ، ناهيك عن الاهتمام الجاد ، حتى يجسدها فى مستلزمات الطقوس او فى الاجزاء الثمينة من ثياب الزينة والحفلات عند الزعماء

ومن هذه المواقف بالذات تعين النظر الى «مشاهد حياة الاسقوثيين» المذكورة اعلاه : افلا نجد امامنا تجسيدا لمواضيع ميثولوجية او مشاهد طقوسية ، وبعبارة اخرى : الا ترتبط هذه الرسومات — وان كانت من صنع الاغريق وليس الاسقوثيين انفسهم — بايديولوجية القبائل الاسقوثية ؟ وكيف نتأكد من هذا الافتراض ؟ فنحن ، حسب الظاهر ، لا نعرف الاساطير الاسقوثية ابدا ، وطقوسهم وشعائرهم الدينية ابتلعها الماضى دون عودة فلا مجال لترميمها وبعثها . لكن التحليل الدقيق بين ان الامور ليست على هذه الصورة تماما : فان ما اشرنا اليه من احاديث المؤلفين اليونانيين والرومانيين عن الاسقوثيين تكشف مع ذلك عن مقاطع من الاساطير الاسقوثية ووصف الطقوس الاسقوثية ، وان كانت تلك المقاطع مشتتة وغير مكتملة اطلاقا ، لكنها مع ذلك قيمة للغاية فى مجال تحديد ابعاد الحضارة الاسقوثية . واذا اقترنت مع الآثار التصويرية المذكورة اعلاه فانها تغدو بقدر كاف «مقروءة» باسهاب .

وعندما اتضحت احقية وجدوى هذا الموقف انهمكت فى تطبيقه طائفة كاملة من الباحثين السوفييت المختصين فى تاريخ الاسقوثيين ، علما بانهم عملوا احيانا على انفراد

فى هذا المجال ، وغالبا ما كانوا يتوصلون الى نتائج متماثلة ، الامر الذى يؤكد صحة الاستنتاجـــات التى خرجوا بها . فالباحث ماتشينسكى من لينينغـــراد والعالمة الاثرية كوزمينا من موسكو ، مثلا ، لم يقتنعا بالتفسير القديم لافريز مزهرية تشيرتومليك المذكـــور بوصفه تصويرا لترويض الخيول على يد الاسقوثيين ، فالتفتا فى وقت واحد فى الواقع الى ان المشهد الاوسط من هذه اللوحة يتوافق بكثير من تفاصيله مع وصف طقوس قربان الخيل عند الاسقوثيين كما ورد عند المؤرخ اليونانى هيرودوتس فى القرن الخامس قبل الميلاد . ويفيد هذا الوصف ان الاسقوثيين يربطون القائمتين الاماميتين للحصان المخصص للقربان ويسحبونه بالحبل من الخلف ويسقطونه على الارض ، ثم يخنقونه بعقدة حبل يديرونها بعصا . وعلى مزهرية تشيرتومليك نجد كل هذه العمليات معروضة فى وقت واحد وليس على التوالى . فكل عملية يؤديها شخص معين من الاسقوثيين المحيطين بالحصان . ان هذا التفسير للمشهد الاوسط فى الافريز قد ساعد على ايضاح مضمونه المرتبط كله بطقوس قريبة جدا من الطقوس الهندية القديمة لتقديم حصان الملك قربانا سنويا ، وكل ما تبقى من ديكور المزهرية يفسر على انه تجسيد لتصورات الاسقوثيين عن بناء الكون وعن دورة الحياة والموت بوصفها قانونا ثابتا لحياة الطبيعة .

وهكذا ساعدت مقارنة الرسم بمعطيات هيرودوتس ليس فقط على تقديم تفسير للرسم ، بل وعلى ايضاح مكانة

الطقوس الاسقوثية التى وصفها المؤرخ اليونانى فى النظام العام لمعتقدات الاسقوثيين . فلنواصل البحث عن المعطيات القابلة للمقارنة . ولهذا الغرض نتذكر الاسطورة التى سجلها هيرودوتس نفسه عن اصل الاسقوثيين وملوكهم . وقد وصلتنا هذه الاسطورة بعدة صياغات تختلف عن بعضها البعض فى التفاصيل ، لكنها احتفظت بالمخطط البنيوى العام . ومن حيث تفاصيل الموضوع لا بد وان تثير اهتمامنا بقدر اكبر الصيغة التى يقول عنها هيرودوتس بانها كانت منتشرة بين اليونانيين فى منطقة البحر الاسود . اما فى الواقع ، وكما تبين طائفة من المعطيات ، فان تلك واحدة من الاساطير الاسقوثية اصلا ، لكنها محورة قليلا فى الاوساط اليونانية . البطل الرئيسى للاسطورة فى صيغتها اليونانية هو هرقل المشهور فى الميثولوجيا الاغريقية ، وقد حل محل البطل الاسقوثى تارغيتاى . تقول الاسطورة الاسقوثية ان ثلاثة ابناء ولدوا للانسان الاول تارغيتاى والهة التراب والماء التى لها بدن امرأة فى النصف العلوى من الجسم وبدن افعى فى النصف السفلى . وعندما كبر الابناء تعين عليهم ان يجتازوا امتحانا . فعلى كل منهم ان يشد قوس ابيهم المتين جدا . وكان مقدرا للابن الذى يتمكن من اداء هذه المهمة ان يكون اول ملك للاسقوثيين . ولم يتمكن من اداء المهمة الا الابن الاصغر الذى تحدرت منه فيما بعد كل سلالات الملوك الاسقوثيين

ويتضح من رواية هيرودوتس هذه ان تلك الاسطورة كانت فى بلاد الاسقوث تبريرا لنظرية المنشأ الالهى لسلطة الملك

وتأكيدا لشرعية العائلة المالكة ، اى انها كانت حلقة هامة فى الايديولوجية الاجتماعية السياسية للمجتمع الاسقوثى . وفى هذه الظروف من الطبيعى ان نتوقع وجود رسوم تجسد الاسطورة المذكورة اعلاه بين الرسوم التى تزين الآثار الاسقوثية . وقد اقترح كاتب هذه السطور قبل عدة سنوات مثل هذا التفسير لعدد من الرسوم . فلنتناول قبل كل شىء الكأس الفضية السالفة الذكر التى عثر عليها فى ضواحى فورونيج . فعليها ثلاثة مشاهد مزدوجة : اسقوثى عجوز ملتح يتحدث على التوالى مع ثلاثة من ابناء قبيلته ، علما بان احدهم شاب غير ملتح ، اى ان الرسام اكد خصيصا على فتوة هذا الشخص بالمقارنة مع الباقين . واهم ما فى الامر ان العجوز يمد يده بالقوس الى هذا الشاب بالذات . وبعبارة اخرى نجد هنا توافقا مباشرا فى الموضوع مع الاسطورة الاسقوثية التى حفظها لنا هيرودوتس : فان الاسقوثى العجوز — الجد الاول تارغيتاى — يسلم القوس كرمز للسلطة فى بلاد الاسقوث الى ابنه الذى تفوق على اخويه فى المباراة المرتبطة بهذا القوس . ويعلن العجوز للاخوين بانهما ليسا جديرين بعرش الاسقوث ، حتى انه طرد احدهما من البلاد . فليس من قبيل الصدفة انه يحمل فى الصورة رمحين ، اى انه متوجه فى طريق طويل (حسب تقاليد النقش على المزهريات اليونانية)

وقدم يونانى آخر ، هو صانع كأس تل كول — اوبا ، فهما أهم لموضوع الاسطورة الاسقوثية التى نحن بصددها . فان احد شخوص اللوحة التى تزين هذا الكأس ، كما

اسلفنا ، يشد حبل القوس ، اى انه يؤدى العملية التى تمثل جوهر الاختبار الذى اراده تارغيتاى لابنائه الثلاثة . والمشهدان الآخران — مشهدا «العلاج» — لا يمتان ، للوهلة الاولى ، بصلة الى مضمون هذه الاسطورة . ولكننا اذا تناولنا خصائص القوس الاسقوثى واخذنا بعين الاعتبار طريقة شده المصورة فى المشهد الذى نحن بصدده يتضح لنا ان الصانع صور علاج الجراح التى يحتمل ان يصاب بها المرء عندما يخطئ فى محاولة شد القوس الاسقوثى . ولذا فهناك كل المبررات للقول بان المشهد الاول من افريز كأس كول — اوبا يصور نجاح الابن الاصغر لتارغيتاى فى الاختبار ، بينما يصور المشهدان التاليان اخفاق اخويه . اما المشهد الرابع والاخير فهو يصور على الاكثر اللحظة التى يعلن فيها للفائز عن حقه فى الجلوس على عرش الاسقوثيين . ولعل هذا الموضوع نفسه مجسد فى القدح الذى عثر عليه فى تلة ضريح غايمان . فهنا نجد شابا وشيخا من الاسقوثيين فى يد كل منهما كأس وهما يمدان يديهما لبعضهما البعض : وهما ، حسب التفسير المفترض ، تارغيتاى وابنه الاصغر اثناء تسلم الاخير لزمام السلطة . ومما يؤسف له ان هذا الجزء من القدح تضرر كثيرا ، مما جعل تفاصيل الصورة غامضة . اما الشخصان الآخران على الجانب المقابل من القدح فهما الاخوان الاكبران اللذان اخفقا فى الاختبار .

ويمكن افتراضا ان نربط بهذه السلسلة الميثولوجية اثرا تصويريا آخر هو مجموعة التماثيل التى تزين مشطا ذهبيا عثر عليه فى تل سولوخا فى مطلع القرن العشرين . فهى

تمثل محاربين اثنين تغلبا على محارب ثالث . ان هذه الصورة تجعلنا نتذكر الخاتمة المعتادة فى تقاليد مختلف الشعوب ، ومنها الفرس القدامى ، للقصة الاسطورية للاخوة الثلاثة المتنافسين . ففى ملحمة «الشاهنامة» الفارسية التى احتفظت بالكثير من مواضيع التراث الميثولوجى الفارسى القديم نجد الاخوين الاكبر يقتلان فى آخر المطاف الاخ الاصغر المنتصر . ولم يشر هيرودوتس الى هذا النوع من خواتيم الاسطورة الاسقوثية ، لكن مقاطع من نفس هذه الاسطورة سجلها مؤلفون يونانيون آخرون تمكننا من افتراض وجود هذه الحبكة هنا ايضا وتمكننا بالتالى من تفسير اللوحة المجسدة على المشط .

بيد ان الصعوبة فى تفسير الآثار الاسقوثية المصورة تتلخص فى ان المصادر اليونانية والرومانية احتفظت بمقاطع قليلة جدا من القصص الميثولوجية الاسقوثية يمكن مقارنتها بمضمون المصورات على مستوى الموضوع . ولذلك يضطر الاخصائيون الى ترميم الميثولوجيا الاسقوثية على مستوى الحبكة والمواضيع استنادا الى المصورات منطلقين من بعض خصائص اللوحات او طابع الحاجيات المزينة بتلك اللوحات . فقد صادف علماء الآثار مرارا فى اطلال مدافن الوجهاء الاسقوثيين حلى ذهبية صغيرة عليها صورة شاب اسقوثى بيده اناء وامرأة جالسة وفى يدها اليسرى مرآة . وهى فى اغلب الظن احدى آلهات بنثيون الاسقوثيين . فان استخدام المرآة على هذا النحو معروف جيدا فى مراسيم الزفاف عند مختلف الشعوب الهندايرانية منذ قديم الزمان ، وان انتشار

مثل هذه المصورات بين الاسقوثيين يمكننا من الافتراض بانه كانت لدى الاسقوثيين مراسيم معتادة بالنسبة للتقاليد القديمة لزفاف الملك من الآلهة كوسيلة للتدليل على ان سلطة الملك من عند الآلهة . ويبدو ان «العروس» فى هذه المراسيم هى الهة الاسقوثيين الكبرى — الهة النار تابيتى ، فى حين يؤدى دور العريس ملك الاسقوثيين بوصفه اول ملك لهم ، وهو الابن الاصغر لتارغيتاى السالف الذكر .

ونحصل من تفسير مضامين البطرشيل الذهبى الذى عثر عليه فى تل تولستايا موغيلا على معلومات هامة عن ميثولوجيا الاسقوثيين . فان هذا الاثر المعقد جدا من حيث التركيب والمتعدد الشخوص هو عبارة عن عقد ذهبى مخرم من ثلاثة اقسام مفتولة وموزعة على نحو يشكل فيه الفراغ بينها ثلاثة حقول هلالية فيها مختلف المنحوتات . علما بان اصول توزيع الحبكات فى هذه الاصعدة الثلاثة تمليها التصورات الكونية عند الاسقوثيين ، وهى تصورات مشابهة كثيرا لتصورات سائر الشعوب الهندايرانية القديمة . يتضمن المستوى الاوطأ للمنحوتات مشاهد تنهش فيها الاسود والنمور وكائنات خيالية خرافية وعلا وخنزيرا وخيولا . ويرمز هذا المستوى الى الصعيد الاوطأ من الكون — عالم الموت والفوضى . وبالعكس يتضمن المستوى العلوى منحوتات لحيوانات اليفة — معزى ونعاج وابقار وخيول ومعها صغارها ، وهو يمثل العالم «المهذب» والمكان الذى استثمره الانسان وفيه تجرى العمليات الحيوية التى تؤمن له الرفاه والازدهار . وهنا نجد منحوتتين تمثلان اثنين من الاسقوثيين

المنهمكين فى خياطة اردية من فرو الغنم الذى ينسبون اليه فى مختلف التقاليد خاصية سحرية تجعل صاحبه يمتلك مختلف الخيرات المادية ، بما فيها الثروة ، وكثرة نسل الماشية وهلمجرا . ويبدو ان ذلك هو الرداء الطقوسى الذى استخدم اثناء مراسيم معينة يراد لها ان تضمن استقرار المجتمع الاسقوثى . ان مجموعة الصور المنحوتة على البطرشيل وكذلك مبادئ توزيعها فى مجال اللوحة تجعل هذا الاثر بمثابة نص ذى تنظيم معقد يعبر عن مضمون ميثولوجى غنى .

ولقد هيأت الدراسة المنتظمة للآثار التصويرية الاسقوثية الامكانية للاخصائيين كى يقتربوا من فهم ميثولوجيا الاسقوثيين بوصفها نظاما فكريا متطورا بقدر كاف وقريبا لدرجة كبيرة من معتقدات الشعوب الهندايرانية القديمة الاخرى ، لكنه فى الوقت ذاته يتميز بسمات معينة اصيلة خاصة . وفى مثل هذا الموقف تتحول ميثولوجيا الاسقوثيين الى مصدر قيم يلقى الاضواء ليس فقط على التاريخ الثقافى لهذا الشعب ، بل وعلى الحياة الروحية للعالم الهندايرانى القديم كله ، ويوضح طرق نشوئها وتطورها . فان المقارنة بين المصادر الاسقوثية والفارسية والهندية بالذات تهيئ للباحث امكانيات تفهم سير هذا التطور وتمكنه احيانا من ايضاح بعض المسائل المختلف عليها بخصوص اصل الشعوب الهندايرانية نفسها .

ومن وجهة النظر هذه تتسم باهمية بالغة النتائج التى حصل عليها الاخصائيان السوفييتيان فى تاريخ وثقافة الشعوب

الهندايرانية القديمة بونغارد–ليفين وغرانتوفسكى من الدراسة المقارنة لمعطيات «الجغرافية الميثولوجية» لهذه الشعوب . فقد قارن العالمان معلومات المصادر الهندية القديمة والافيستا ومعلومات المؤلفين اليونانيين والرومانيين الذين وصفوا الاسقوثيين (وعلى الاصح تحدثوا عن تصورات الاسقوثيين انفسهم عن بلدهم والاراضى المتاخمة له) واكتشفا فى كل هذه التقاليد لوحة للعالم مدهشة من حيث تشابهها . فان كل هذه الشعوب كانت تتصور الارض فضاء على حدوده الشمالية البعيدة تقع جبال عالية هى موطن الآلهة . ومن هذه الجبال تبدأ الانهار الكبرى التى تجرى فى الاراضى المأهولة وتصب فى البحر الذى يشكل الحدود الجنوبية للارض . واهم ما يثير الانتباه ان كل هذه التقاليد ، حتى المسجلة منها فى الهند وبلاد فارس ، اى فى مناطق من الارض جنوبية لدرجة كبيرة ، تجسد بوضوح الفكرة عن الظواهر الفلكية الخاصة التى لوحظت فى الجبال الشمالية — لألاء الشمال والنجمة القطبية الثابتة والايام والليالى التى تستمر ستة شهور ، اى ظواهر الطبيعة التى تميز فى الواقع المنطقة القطبية . وتدل كل هذه الامور على ان واضعى تلك التقاليد الميثولوجية كانوا يقيمون فى الاماكن التى يمكن ان تبلغها معلومات موثوق بها لدرجة كافية عن المناطق الشمالية النائية حيث اغلبية الانهار الكبرى تجرى من الشمال الى الجنوب . ولا توجد فى اوراسيا منطقة تتوفر فيها هذه الشروط الا جنوب شرقى اوربا ، اى المنطقة التى تطابق الحدود المتاخمة لاراضى بلاد الاسقوث . ولما كانت التصورات التى نحن

بصددها تلازم مختلف شعوب المجموعة الهندايرانية فقد تم التوصل الى استنتاج مجدد يقول ان هذه التصورات نشأت فى العهد الذى كانت فيه كل تلك الشعوب تقيم فى ارض مشتركة ، اى قبل انقسامها وانتشارها فى رحاب اليابسة الشاسعة . وهكذا غدت مواد الميثولوجيا الاسقوثية مصدرا قيما للغاية بالنسبة لحل المسألة المختلف عليها بخصوص تحديد موطن اجداد كل الهندايرانيين . ويبدو ان التقاليد موضوع البحث قد نشأت فى جنوب شرقى اوربا فى الالف الثالث وبداية الالف الثانى قبل الميلاد . وفيما بعد زحف المتكلمون باللغات الهندآرية من هذه المناطق الى الهند ، كما زحف الفرس الغربيون الى غربى آسيا والى انجاد فارس حاملين معهم تصوراتهم عن بنية العالم والتى نشأت لديهم فى موطن الاجداد المشترك . اما الاسقوثيون فقد ظلوا بعد الميلاد ايضا يقيمون على مقربة من تلك المناطق .

وبالمناسبة فان مسألة اصل الاسقوثيين ونزوحهم والمنطقة التى نشأت فيها حضارتهم هى الآن عرضة لنقاشات حادة فى العلم الحديث . ففى حضارة الاسقوثيين ، كما اسلفنا ، سمات كثيرة مشتركة مع حضارة القبائل فى المناطق الواقعة شرقى الحزام السهبى الاوراسى . وقد احتفظ هيرودوتس برواية تقول ان الاسقوثيين جاؤوا الى سواحل البحر الاسود الشمالية من آسيا . وقد ادى مجموع هذه المعطيات الى ظهور رأى يقول ان موطن اجداد الاسقوثيين هو اواسط آسيا ، ومنها جاء هذا الشعب فى القرون الاولى للالف الاول قبل الميلاد الى سواحل البحر الاسود حاملا معه حضارته التى

نشأت هناك . ولهذه النظرية انصار مسموعو الكلمة بين علماء الآثار السوفييت . وهم يستندون فى تبريرها الى تل ارجان الواقع فى اواسط آسيا والذى اشرنا اليه اعلاه بوصفه اثرا اسقوثيا مبكرا يشير الى المنطقة التى نشأوا فيها والى الحقبة التى سبقت تقدمهم نحو الغرب . صحيح ان هناك وجهة نظر اخرى يؤكد انصارها ان حدود اوربا وآسيا ، حسب تصورات الاغريق ، تمتد مع مجرى نهر الدون (تانايس القديم) . ولذا فان ما قاله هيرودوتس عن اصل الاسقوثيين الآسيوى لا يتطلب ابدا البحث عن موطن اجدادهم فى مكان بعيد فى الشرق . فهو يمكن ان يتواجد فى مكان ما ، ولكن ليس شرقى منطقة الفولغا . ويتصور انصار وجهة النظر هذه ان هذا الاستنتاج يتوافق بشكل افضل كذلك مع المعطيات الحديثة عن مناطق نشوء الشعوب المتكلمة باللغات الايرانية* . اما الخواص الاساسية للحضارة الاسقوثية فان هؤلاء العلماء يستنبطونها من حضارة قبائل سواحل البحر الاسود فى الحقبة السابقة ، وهى تخوم العصر البرنزى والعصر الحديدى المبكر . ويعتقدون بان اوجه الشبه بين حضارة الاسقوثيين والقبائل السهبية الاوراسية الاخرى لا تدل على وحدة اصلهم ، بل تدل فقط على وجود اتصالات معينة بينهم تؤدى الى تقارب معين بين حضارات متباينة من البداية

بديهى ان مسألة اصل الاسقوثيين هى من المسائل الاساسية فى الدراسات الاسقوثية الحديثة ، وان عدم وجود حل نهائى لا جدال فيه لهذه المسألة حتى الآن انما يعكس

الجدل الملازم للحالة الراهنة للكثير من قضايا تاريخ وحضارة الشرق القديم . وان حل هذه المسألة ، فى اغلب الظن ، سيؤمنه جمع معطيات اثرية جديدة ، ولكن بشرط ان يجرى تحليلها وتفسيرها بمراعاة مجمل المعطيات المتوفرة عن التاريخ المبكر للهندايرانيين ، اى بمراعاة المستوى الحالى لعلم الاستشراق . وعلى هذا الطريق بالذات تحققت النجاحات الاساسية فى الدراسات الاسقوثية خلال السنوات الاخيرة .

فان الاخصائى السوفييتى بالدراسات الايرانية القديمة غرانتوفسكى الذى ورد ذكره اعلاه قد اقترح فى سلسلة من البحوث المختصة تفسيرا مقنعا لطائفة من روايات المؤرخين اليونانيين عن الاسقوثيين وعاداتهم وبنيتهم الاجتماعية ودياناتهم . وبين انه رغم انتقال الاسقوثيين فى فجر تاريخهم الى نمط جديد مبدئيا للحياة هو الترحل فقد بقيت فى علاقاتهم الاجتماعية وحضارتهم سمات كثيرة يعود اصلها الى الماضى السحيق ، الى عهد وحدة كل الشعوب الايرانية ، ولذا فان هذه السمات تصلح للمقارنة مع ما نعرفه عن الشعوب الايرانية الاخرى . ان الروايات المبتورة التى اوردها المؤرخون اليونانيون والرومانيون ليست مفهومة تماما بحد ذاتها ، وهى تغدو مفهومة بشكل مغاير تماما اذا تناولها الباحث على مثل هذه الخلفية التاريخية العريضة . فقد اثارت جدلا كبيرا عند الاخصائيين رواية هيرودوتس بخصوص تقليد دفن عدة خدم مع الملك الاسقوثى . فما هى منزلة اولئك الخدم ؟ هل هم عبيد وحشم محرومون من الحقوق ام هم

وجهاء مقربون الى الملك ؟ تبين مقارنة الحالات المماثلة عند الشعوب الايرانية باقناع ان خدم الملوك الاسقوثيين ، شأنهم شأن حكام الشعوب الايرانية الاخرى ، هم من ابناء الوجهاء والكبار فقط . الا ان تقاليد ذلك العصر كانت تتطلب ان يدفن مع الملك المتوفى الاشخاص الذين يخدمونه ، وكانت ارواح هؤلاء الاسقوثيين الوجهاء تزهق كالعبيد البسطاء.

ونقرأ عند نفس اولئك المؤرخين القدامى وصفا مفصلا بقدر كاف للاسلوب الشائع عند الاسقوثيين لاداء اليمين فى احتفال مهيب ولكيفية حل الخلافات الشديدة بين ابناء القبائل ، وللبنية الاجتماعية للمجتمع الاسقوثى . ونجد لكل هذه التوجهات الاجتماعية توجهات مماثلة عند للشعوب الايرانية الاخرى ، بل وحتى الهندايرانية ، ويستنتج من ذلك ان بواكير نشوئها تعود الى عهد وحدتها . بديهى ان الاسقوثيين لم يبلغوا فى تطورهم تلك الدرجات العالية التى ارتقتها ، مثلا ، بلاد فارس فى عهد الاخمنيين . الا ان امورا كثيرة جدا فى حضارة هذه الشعوب مشتركة . ولا يمكن فهم هذا التراث الحضارى الا بدراسة ما آل اليه فى كل وسط اثنوغرافى معين . ولا يمكن فهم هذه الصفحات من تاريخ الشرق القديم الا بدراسة المواد الاسقوثية .

الفصل العاشر

مرغوش او مرو

المؤلف: ساريانيدي
ترجمة: خيري الضامن

لقد لعبت تركمانستان الواقعة فى اقصى الجنوب الغربى من آسيا الوسطى دورا يكاد يكون رئيسيا فى تكوين وتطوير الحضارة الكبرى فى آسيا الوسطى . واثبتت الحفريات الاثرية المثمرة الطويلة الامد ، والواسعة النطاق (وهذا هو الاهم) التى يجريها العلماء السوفييت — اثبتت بصورة لا ريب فيها ان احد المراكز الرئيسية للزراعة القديمة فى اراضى الاتحاد السوفييتى كان متواجدا هنا بالذات على شريط ضيق خصب محصور بين كثبان صحراء قره قوم وصخور جبال كوبيت داغ . وفى هذه المنطقة بالذات ظهرت فى الالف السابع قبل الميلاد منابع حضارة آسيا الوسطى الوضاءة الاصيلة التى اسهمت بقسط عظيم فى الحضارة العالمية . وبينت الحفريات ان اناسا اقاموا فى المنخفضات المتاخمة لبحر قزوين فى الآلاف العاشر — الثامن قبل الميلاد وكانوا يمارسون القنص وصيد الاسماك وجمع الثمار والجذور وغيرها . ولكن فى الالفين السابع والسادس قبل الميلاد ظهرت على امتداد السفوح الشمالية لجبال كوبيت داغ اولى النقاط

السكنية الحضرية الزراعية التى كانت لا تزال نادرة وكان سكانها يعيشون فى منازل مبنية من اللبن ويزرعون القمح والشعير فى الحقول المتاخمة لقراهم ويرعون الماشية الاليفة فى المروج الخضراء . وكانوا فى حياتهم المنزلية يستخدمون الآنية الفخارية ، وبعضها مزين بنقوش بسيطة . وكانت كل ادوات العمل والاسلحة عندهم مصنوعة من الصوان ، وبعضها من العظام .

وعلى تخوم الالفين الخامس والرابع قبل الميلاد (العصر الحجرى الحديث) اطلعت القبائل المحلية على اسرار اعداد المصنوعات النحاسية ، ومن ذلك الحين بدأ بالنسبة لها العصر الحجرى النحاسى . ويلاحظ تقدم فى كل جوانب الاقتصاد والثقافة . فعلى امتداد انجاد كوبيت داغ الخصبة ، جنوبى تركمانستان ظهرت عشرات من المراكز السكنية الجديدة للزراع القدامى وتوسعت المراكز القديمة كثيرا . وتجسد التطور الرفيع للحضارة المحلية وثائقيا فى نقوش الآنية الرائعة المزينة احيانا بافريزات متعددة الالوان تنم عن ذوق رفيع وتضم ، فيما تضم ، رسوما حيوانية .

وتعقد النظام الاجتماعى المحلى فضلا عن قاعدته المادية . والدليل على ذلك هو بناء القصور والمعابد فى الالف الثالث قبل الميلاد فى المراكز الكبيرة التى كانت بمثابة عواصم مثل نامازغا تبه او آلتين تبه . وتدل على المستوى الرفيع لتطور الثقافة الروحية للقبائل التركمانستانية الجنوبية المجموعة الفنية من منحوتات الآلهة القدامى المصنوعة بهيئة بشرية فى البنثيون المحلى ، حيث ظهرت

آلهة النباتات والماء وهلمجرا . وتشير الحلى المتنوعة المصنوعة من المعادن والاحجار الثمينة الى التطوير الرفيع للتكنيك القديم وتخصص الصناع المحترفين . ويؤكد على وجود التمايز الاجتماعى والتفاوت فى الملكية ظهور مدافن الاغنياء والفقراء وحارات الوجهاء والبؤساء . وعلى تخوم الالفين الثالث والثانى قبل الميلاد ، فى العصر البرنزى المتأخر ، بلغت المراكز السكنية التركمانستانية مستوى رفيعا فى التطور يمكننا من الكلام عن نشوء حضارة مدنية سلفية هنا كانت على عتبة الانتقال الى نظام الدولة .

حقا ، ففى العصر البرنزى ظهرت فى تركمانستان الجنوبية مراكز سكنية كبيرة تشبه المدن ، مثل نامازغا تبه وآلتين تبه واولغ تبه ، وبنيت منشآت ضخمة لاغراض طقوسية ودنيوية وانتشرت على نطاق واسع الاختام المعدنية التى هى رموز السلطة دون ريب . وانضمت الحضارة المحلية المتطورة الى المراكز الطليعية للعالم الشرقى القديم . وبدا وكأن كل الدلائل تشير الى استمرار الازدهار العاصف للحضارة المحلية ، الا ان المراكز المزدهرة خلت من اهاليها فجأة وهمدت الحياة فى المراكز الكبيرة التى كانت تضطلع بدور العواصم وانتقل مركز الحياة من انجاد كوبيت داغ فى الجنوب الى اقصى شرق تركمانستان ، الى حوض دلتا المرغاب العريق . وبينت الحفريات انه فى مطلع الالف الثانى قبل الميلاد تقريبا خلت آلتين تبه وهجرت نهائيا . وكانت نامازغا تبه لا تزال تعيش ، بينما خلت النقاط الريفية والقرى الصغيرة من اهاليها بالكامل . فما هى

27–1173

الاسباب ؟ الا ترتبط ازمة الواحات الزراعية المزدهرة سابقا بتقلبات الطبيعة ؟ لا يستبعد ان يكون زحف الجفاف الطبيعى احد الاسباب ، مما جعل اهالى جنوب تركمانستان عاجزين عن الحصول على غلال جيدة . ويمكن ان يكون السبب الآخر هو اجتياح البدو الشرسين للواحات الزراعية ، فقد كانوا دوما يحسدون البلدات المزدهرة الغنية للقبائل المتحضرة ، لاسيما وان الاثريين صادفوا فى انقاض بلدات ذاك الزمان كسر الاوانى البدائية لقبائل السهوب المتميزة عن الفخار التركمانستانى الجنوبى المحلى الانيق .

ان كلتا هاتين الفرضيتين منطقيتان تماما ، ولكن هناك عائقا جديا يحول دون قبولهما على علاتهما . فالى جانب الهجران الواضح والى جانب البلدات المتروكة ظلت عامرة مزدهرة بلدة كبيرة هى اولغ تبه قرب محطة دوشاك ، والاكثر من ذلك ان بلدة جديدة باسم حديث ـ تيكيم تبه ظهرت قرب العاصمة نامازغا تبه التى افل نجمها . فكيف نوفق بين هذه الوقائع التى تبدو متعارضة ؟ واذا كانت قد حلت فترة الجفاف فهى لا بد وان تؤثر بنفس القدر على حالة كل المراكز السكنية الزراعية القديمة ، شأنها فى ذلك شأن غزو البدو الرحل لو كان قد وقع فهو لا بد وان يمس كل السكان . ولقد اشرنا اعلاه الى ان السواد الاعظم من سكان جنوب تركمانستان تحشدوا اثناء الازمة فى المراكز الكبيرة مثل آلتين تبه واولغ تبه ونامازغا تبه (حيث اقام حوالى ٧٥ ٪ من السكان) وان جزءا ضئيلا منهم كانوا يقيمون فى المراكز السكنية الصغيرة . ومما له دلالته ان

سكان جنوب تركمانستان اخذوا ، لامد طويل قبل الازمة ، يتحشدون تدريجيا فى المراكز الكبيرة ، الامر الذى يرتبط ، على ما يبدو ، بالتغيرات التى طرأت على اقتصاد العصور القديمة .

وقد اثار انتباه علماء الآثار ان زراعة القبائل المحلية كانت قبل الازمة المفترضة تعتمد على الجداول النابعة من الجبال والجارية صوب الوديان السفحية المتاخمة لها ، لكنها بعد الازمة شرعت باستثمار مكثف لمنخفضات الوديان الرسوبية التى ترويها انهار كبيرة مثل آمودريا الاوسط وحوض المرغاب . وبعبارة اخرى ، فمن الواضح تماما ، رغم ما فى ذلك من مفارقة ، ان تدهور وسقوط المجتمع المحلى فى انجاد كوبيت داغ تحولا الى تقدم لاحق ونهوض عام فى حضارة مرو . فكيف يمكن الجمع بين هذين الضدين ؟ لا يزال من الصعب الآن تقديم جواب قاطع على هذا السؤال المعقد . ولكن ربما لم يكن من قبيل الصدفة ان مدن وقرى وادى هندوس فى عهد الحضارة الهارابية قد خلت واقفرت فى ذلك الوقت تقريبا . وربما توجد لذلك كله اسباب تاريخية مشتركة ، هى ازمة داخلية مشتركة اجتاحت المراكز الزراعية فى جنوب آسيا الوسطى وجنوب شرقى بلاد فارس ووادى هندوس .

ونعتقد ، الى جانب ذلك ، ان التحشد التدريجى المذكور اعلاه للسكان فى المراكز الكبرى فى جنوب تركمانستان كان ايضا لدرجة معينة نتيجة لتغير جغرافية القرون الغابرة فى انجاد كوبيت داغ . فطوال آلاف السنين كانت

موجودة هنا قرى الزراع الحضر الذين كانوا يفلحون نفس الحقول على مر القرون ، مما يؤدى تدريجيا الى استنزاف التربة التى كانت خصبة فى زمن ما . زد على ذلك ان الظروف الجيومورفولوجية للجداول الجبلية جعلت مجاريها تحفر طوال مئات السنين اخاديد ضيقة عميقة يصعب منها استقاء الماء اصطناعيا وبناء منشآت مائية كالسدود وقنوات الرى . ان تعمق المجارى المتزايد واستحالة استثمار اراض جديدة بدون بناء منشآت اروائية معقدة مع تزايد استنزاف الاراضى المفلوحة سابقا — كل ذلك استدعى تحشد السكان فى المراكز الرئيسية ، فيما يسمى بالعواصم . وكان العمل الجماعى لجمهور كبير من الناس قد ساعد لامد معين فى ابعاد الهلاك النهائى عن المراكز الزراعية الحضرية الكبيرة . وبهذه الجهود الجماعية بالذات بنيت منشآت الرى البدائية لايصال الماء الى الحقول ، فى حين توجد قريبا (على بعد عشرات الكيلومترات) فى حوض المرغاب اراض بكر خالية تنتظر تربتها الخصبة من يفلحها ، ونعتقد بان عملية الاستصلاح التدريجى لدلتا المرغاب التى توجد فيها ، كما اسلفنا ، مساحات شاسعة من الاراضى الخصبة الخالية ، قد بدأت الى جانب ازدياد صعوبات الزراعة فى جنوب تركمانستان . وقد يكون اكتشاف بلاد النعيم فى حوض المرغاب سببا لنزوح قسم من سكان انجاد كوبيت داغ الى هنا . وعندما جاء النازحون الذين كانوا يعانون دوما من شحة مياه الجداول الجبلية التى هى عرضة للتقلبات الموسمية الى هنا وجدوا انفسهم فى جنة حقيقية

للزراعة . وكانت الاراضى البكر الخالية التى ترويها مياه المرغاب بسخاء قد استهوت النازحين بامكانياتها التى لا تنضب . والى هنا كان يحتمل ان ينتقل سكان القرى الصغيرة فى جنوب تركمانستان . ويبدو للوهلة الاولى ان هناك كل المبررات للافتراض بان منطقة مرو آهلة تماما بالنازحين من جنوب تركمانستان لولا الروابط والملابسات الفارسية الواضحة التى تشير الى احداث تاريخية اكثر تعقيدا ولها صلة باستيطان منطقة مرو .

. . . على مقربة من قرية ايرانية حديثة ، على شمال طريق القوافل ، تشهق صخرة جبلية عسيرة المنال على ارتفاع اكثر من ١٠٠ متر ، وعلى تلك الصخرة كتابة قديمة ولوحة مجسمة . تلك هى كتابة بيهيستون الشهيرة التى خطت قبل ٢٥ قرنا بامر شخصى من «ملك الملوك» الاخمنى داريوس باللغات الفارسية القديمة والعيلامية والاكدية .

يختتم داريوس كتابته المتعددة السطور ، وكأنه يستشف حجب القرون القادمة محذرا اجيال المستقبل بالا تمحو تلك الكتابة بل تصونها وتحفظها على قدر الامكان . وبالفعل ، فقد مرت بهذا الطريق المأهول جيوش ملوك الفرس واثارت غباره كتائب قوات الاسكندر المقدونى . . . والجميع يتطلعون بفضول رافعين رؤوسهم الى السطور المسمارية الغامضة المليئة بالالغاز بالنسبة لجند الاسكندر المقدونى .

الا ان الزمن لم يتمكن من اتلاف شهادات القدامى القيمة . وحتى الآن تلمع بوضوح تحت اشعة الشمس المائلة

على صفحة الصخرة العالية تلك السطور المسمارية التى تذكر ، بين سائر البلدان والشعوب ، شعوب آسيا الوسطى التى كانت فى زمن ما جزءا من مملكة الاخمنيين الشاسعة . فهذه السطور تتحدث ، فيما تتحدث ، عن باكتريا وعن بلاد مرغوش (مرو او مرو الشاهجان) التى اطلق عليها المؤرخون اليونانيون والرومان فيما بعد اسم مرغيانا .

داريوس يتحدث عن انتصاراته الرائعة ويذكر ، فيما يذكر ، الانتفاضة التى قامت فى بلاد مرغوش واخمدها واليه فى باكتريا . ويختتم وصف هذا الحادث بكلمات غير متوقعة بعض الشيء : «يقول الملك داريوس : وبعد ذلك صار البلد ملكا لى ، وهذا ما فعلته فى باكتريا» . وقد استرعى هذا النص من كتابة بيهيستون من زمان انتباه العلماء الذين استنتجوا بحق ان بلاد مرغوش كانت آنذاك جزءا من باكتريا . وكل ما نعرفه الآن عن باكتريا وبلاد مرغوش فيما قبل الاخمنيين يحملنا على الاعتقاد بان هذه الوحدة ترقى باصولها الى عهد اقدم ، الى الف عام تقريبا قبل ان تسجل فى كتابة داريوس على صخرة بيهيستون . وكل ما قيل اعلاه يعطى المبررات لافتراض وجود اتحاد متين بين باكتريا ومرغيانا . وتتوفر كل الاسباب التى تجعلنا نفكر بان اهالى هذا البلد عاشوا فى ظروف ايكولوجية متماثلة وكان لهم منشأ تاريخى ثقافى واحد ، ولذا كان نمط حياتهم على العموم متماثلا بصرف النظر عن مواقع بلداتهم ، سواء فى دلتا المرغاب او فى اسفل نهر بلخاب . وبفضل حفريات علماء الآثار السوفييت يمكن

ان نتصور معالم بلاد مرغوش قبل ان تصبح جزءا من امبراطورية الاخمنيين بوقت طويل . مساحتها ، حسب المعلومات المتوفرة ، اكثر من ٣٠٠ كيلومتر مربع ، وكانت تتكون من ٧ ــ ٨ واحات اروائية منفصلة فيها اكثر من ١٥٠ نقطة سكنية . لقد كانت بلدا كبيرا مزدهرا اشتهر باراضيه الخصبة ومياهه الوافرة . ومما يؤسف له ان الشواهد المكتوبة من ذاك الزمان لم تصلنا ، لكن المعلومات المتأخرة التى اوردها مؤرخون يونانيون ورومان (ومنهم سترابون) تصور مرغيانا بلدا خصبا للغاية : فما اضخم عناقيد العنب فيه !

. . . كانت مواسم الحفريات الاثرية الميدانية تتعاقب الواحد اثر الآخر كل عام ، ويصادف ان يرى العام الواحد موسمين . وكانت السيارات المحملة بتجهيزات البعثات تشق طريقها بصعوبة الى اعماق المنطقة الجنوبية الشرقية لصحراء قره قوم . الا ان بلاد مرغوش كانت تكشف عن اسرارها الازلية ببطء شديد وعلى مضض . وبالاضافة الى الحفريات الاثرية الصرف دعت الحاجة الى استخدام اخصائيي العلوم المتجاورة ، وبالدرجة الاولى اخصائيي جغرافية القرون الغابرة ، لتوضيح السؤال الذى يطرح طول الوقت ــ كيف استطاع البلد المكتظ بالسكان ان يتواجد بين الرمال الخالية من الينابيع . وفي موسكو قدمت طلبيات على عشرات الصور الفوتوغرافية الجوية التى التقطت من الفضاء الكوني . وكان فك رموزها محليا والمطابقة بين البقع المائعة التى لا تكاد تلحظ على الصور الفوتوغرافية وبين تضاريس المنطقة قد ساعدا بدقة وثائقية على التأكد من

ان نهر المرغاب الذى يجرى حاليا عبر مدينة مرو كان له قبل بضعة آلاف من السنين اتجاه آخر ، وكان ينتهى بدلتا عريضة شمالى مدينة بيرم على تماما . واتضح ان ضفة نهر المرغاب اليسرى ، شأن كل انهار وديان آسيا الوسطى ، تنجرف دوما ، وبنتيجة ذلك تغير المجرى الاساسى للنهر تدريجيا خلال القرون . ان التحول البطىء وغير الملحوظ للوهلة الاولى فى مجرى النهر قد ادى تدريجيا الى تغير اتجاهه العام . وهكذا فخلال ٤ — ٥ آلاف سنة انحرف نهر المرغاب عن مجراه باتجاه الغرب لمسافة ١٥ — ٢٠ كيلومترا . وكان الجزء المنحسر من دلتا النهر قد حمل معه كمية من الغرين الخصب ، ولم يكن ايصال الماء الى الحقول يتطلب منشآت اروائية معقدة ، مما كان يعتبر من الظروف المثلى لممارسة الاعمال الزراعية من قديم الزمان . وفى الربيع ، عندما تبدأ الفيضانات اثناء ذوبان الثلوج فى الجبال ، تصل كميات وفيرة من المياه الى دلتا المرغاب وتفيض لمساحات واسعة على حقول الزراع القدامى . ومن الطبيعى ان نفكر بان الامكانية ظهرت بمرور الزمن للتحكم فى ايصال المياه الى الحقول ، ولهذا الغرض انشئت سدود صغيرة وشقت سواقى التصريف . صحيح ان الظروف الجغرافية الملائمة فى هذا القسم من جنوب شرقى قره قوم لم تكن تتطلب منشآت اروائية معقدة مثل قنوات الرى التى يبلغ طولها عدة كيلومترات فى وادى الرافدين ومصر . واثناء التنقيبات فى المواقد المهجورة عثر على فحم نباتى بينت تحليلاته انه فحم اشجار محبة للرطوبة لا يمكن ان تنمو

الا على ضفاف المجارى المستمرة . كانت بلاد مرغوش فى الالف الثانى قبل الميلاد ، على ما يبدو ، غنية مزدهرة فيها وفرة من المياه والغابات والنباتات التى تنموكثيفة على ضفاف دلتا الانهار الغزيرة المياه . وكانت فى الغابات النهرية الكثيفة وحوش وطيور عثر على بقاياها بكميات كبيرة فى الحفريات الاثرية ، مما يدل بوضوح على الغنائم الوفيرة للصيادين القدامى . وقد هيأت الاراضى الخصبة المنتشرة فى الدلتا ظروفا ممتازة لممارسة الزراعة . ومع ان ما وصل الينا لا يتعدى الحبوب المتفحمة فيمكننا ان نقول بثقة ان صوامع الزراع المحليين كانت مليئة بغلال وفيرة من القمح والشعير . وكانت المروج الخضراء الريانة تشكل قاعدة مضمونة للعلف تكفل تربية الماشية الاهلية . كانت مئات وآلاف من الابقار والمواشى ترعى الكلأ فى افضل المراعى ، وبالنتيجة نجد طعام القبائل اليومى متنوعا . وباختصار فان الظروف الايكولوجية الملائمة جدا قد حظيت بالتقدير اللازم من القدامى الذين ارسوا هنا اسس الزراعة القديمة .

وبينت الدراسات الاثرية الطويلة الامد ان عشرات ومئات المراكز السكنية الكبيرة والصغيرة كانت منتشرة فى الالف الثانى قبل الميلاد على مساحة تعتبر شاسعة فى مقاييس ذلك الزمان . وكانت تلك فى الغالب مراكز سكنية ريفية عادية غير محصنة ، وفيها منازل كثيرة واقعة فى ازقة طويلة . واغلبية تلك المنازل ، ان لم يكن كلها ، مبنية من اللبن المجفف فى الشمس . وجدران المنازل مطلية من الداخل بطبقة من الطين المخلوط مع الروث والتبن وارضيتها

طينية ايضا والى جانب تلك المنازل ظهرت قلاع حقيقية مستطيلة الشكل بجدران دفاعية ضخمة وابراج فى الاركان . وكان يقيم فيها الوجهاء الذين انفصلوا عن عامة الناس . واذا داهم الناس الخطر فهى تؤوى عددا كبيرا منهم . وعلى العموم فان كل المراكز السكنية فى مرغيانا عبارة عن نسخة طبق الاصل من المراكز فى باكتريا ، وفى ذلك انعكست بالطبع المبادئ المشتركة للعمارة والبناء .

ومن بين كل المراكز السكنية فى مرغيانا على الاطلاق تبرز غونور التى هى ، على ما يبدو ، عاصمة البلاد . ويتكون هذا الاثر من بلدة ضخمة غير محصنة فى اغلب الظن ، وقربها قلعة غير كبيرة . وفى وسط البلدة غير المحصنة كرملين مربع الشكل تقريبا تتجه جدرانه بمنتهى الدقة صوب الجهات الاربع . ومساحته الاجمالية ١٢٥×١٢٠ مترا ، وقد احتفظ بجدران خارجية عالية ارتفاعها ثلاثة امتار وسمكها متر . وفى كل اركان المبنى الاربعة ابراج مستطيلة وليست مستديرة كما فى القلاع العادية . وعلى امتداد الجدران الخارجية نتوءات مسطحة مربعة على مسافات متساوية من بعضها البعض ، لكنها لسبب ما مبنية من الداخل وليس من الخارج . ان التنقيبات فى الكرملين لا تزال فى بدايتها . ولكن يمكن القول الآن انها ، بلا جدال ، بقايا عمارة ضخمة . وتوجد فى الكرملين قاعات فسيحة وباحات داخلية تربط بينها ممرات واروقة عريضة ، وهى تشكل معا سلسلة من المبانى ذات الاغراض الطقوسية والدنيوية . واذا كان الافتراض بان غونور هى العاصمة صحيحا فيمكن القول

بان هذا الكرملين هو مقر حاكم بلاد مرغوش . فهنا كان يمكن ان توجد الادارة التى تحكم البلاد وكذلك المعابد الرئيسية . وبعبارة اخرى فان كرملين غونور يمكن ان يكون مركز بلاد مرغوش . وكان الكرملين واقعا ، بمعزل عن المبانى الاخرى ، على قمة هضبة طبيعية على سفحها ساحة شاسعة ، ربما كانت ميدانا للاجتماعات العامة ، اى بمثابة ندوة لاهالى مرغوش القدامى .

وتجدر الاشارة من جديد الى ان الحاجيات الاساسية فى مرغيانا لها ما يماثلها ليس فى مواد جنوب تركمانستان ، بل فى حضارة باكتريا ، وبصورة غير مباشرة فى المناطق الغربية الابعد ، مما يجعلنا نعود الى آثار الجارة ايران ، وسنتوقف فى البداية عند آثار خراسان الواقعة فى الطرف الجنوبى الشرقى لبحر الخزر (قزوين) ومن الناحية الجغرافية تعتبر هذه المنطقة استمرارا لمنخفض الخزر . وهنا بالذات ، فى وادى نهر جرجان تقوم انقاض المراكز القديمة الضخمة . ومما يؤسف له ان التنقيب عن آثار شاه تبه او طورنج تبه جرى على نطاق محدود او ان نتائجه لم تنشر بعد بالحجم الكامل . ومع ذلك فحتى الحفريات الجزئية فى وادى جرجان قد بينت ان آثاره تعود الى عهد قديم جدا ، الى الالف السادس قبل الميلاد . وتأكد كذلك ان القبائل المحلية كانت فى الالف الثالث تستخدم آنية فخارية سوداء ورمادية تختلف كثيرا عن الفخار فى باكتريا ومرغيانا . وبعبارة اخرى ، فان قبائل زراعية قديمة متقاربة من حيث السمات الاقتصادية كانت تعيش هنا وهناك ، الا ان السمات

الاثنوغرافية للعصور القديمة تشير على الاكثر الى اختلاف اصولها . وتتسم بأهمية كبيرة بلدة تبه جيسار القديمة الواقعة على مقربة من مدينة دمغان الحالية فى انجاد البروس . فالجداول الجبلية الجارية من سفوحه قد وفرت ظروفا مثلى لممارسة الزراعة القديمة ، وكان الموقع الملائم قد هيأ الفرصة للتحكم بالطرق التجارية القديمة التى تمر من هناك وبقوافل التجار القدامى . وكانت الحفريات الواسعة النطاق التى اجراها هنا العلماء الاميركان فى **١٩٣١ — ١٩٣٢** قد كشفت عن عدد كبير من المدافن القديمة وفيها هدايا جنائزية دلت على حضارة اصيلة ومتطورة للغاية . وبينت الحفريات ان اهالى تبه جيسار الاوائل استخدموا فى حياتهم المعيشية آنية فخارية مصنوعة باليد ومزينة بنقوش . وبين تلك النقوش صور النمور المرقطة والماعز الجبلى فضلا عن الرسوم الهندسية الصرف . وخلال الفترة الزمنية اللاحقة ظهرت فجأة وعلى نطاق واسع ، الى جانب تلك الآنية ، آنية رمادية وسوداء صقيلة بشكل مزهريات على قوائم طويلة رهيفة واقداح وكؤوس وغيرها . وكان الاثريون الاميركان يميلون الى اعتبار هذه التشكيلة الفخارية الملموسة دليلا على وصول شعب جديد من اراضى تركمانستان الحالية . وبالفعل فان الآنية المنقوشة المحلية التقليدية قليلة فى قبور جيسار ، فقد اخذت تحل محلها ، وان ببطء ، ولكن بخطى ثابتة ، الآنية السوداء الصقيلة ، الامر الذى يمكن ان يدل على اندماج واختلاط السكان القادمين بالسكان المحليين . لقد مر خمسون عاما تقريبا على الحفريات الاولى فى

جيسار ، وفى السنوات الاخيرة فقط اكتشف علماء الآثار السوفييت فى اقصى الجنوب الغربى من تركمانيا ، فى وادى نهر سومبار آنية مماثلة لكنها اقدم من تلك ، وربما وصلت فعلا الى تبه جيسار مع السكان الجدد الذين قدموا اليها .
وقد يبدو للوهلة الاولى ان الاهتمام البالغ الذى يحظى به حلول اسلوب فخارى محل اسلوب آخر يتسم بطابع اثرى ضيق ، الا ان عددا من العلماء يربط بين الذين استخدموا الآنية السوداء الصقيلة وبين الشعب ــ اللغز ، الآريين الذين لا تزال مسألة اصلهم تحير عقول الاخصائيين فى مختلف العلوم ، وفى مقدمتهم اللغويون ، منذ حوالى مائتى عام . وفى الفترة الختامية من الحياة فى تبه جيسار انتشرت الآنية السوداء الصقيلة على نطاق واسع وحلت بالكامل محل الآنية المنقوشة السابقة . وقد يبدو اننا نواجه استمرارا منطقيا للتطور الحضارى السابق ، ولكن فى هذه الفترة الختامية بالذات انتشرت هنا مصنوعات لم تكن معروفة من قبل عند سكان جيسار القدامى ، الا انها ، ويا للغرابة ، ذات شبه كبير بالحاجيات السالفة الذكر التى كانت فى مرغيانا ، وخصوصا فى باكتريا . ويمكن ان ننسب كل هذه الآثار بصورة اصطلاحية الى التشكيلة الاثرية الباكترية ــ المرغيانية . ونكتفى هنا بذكر الدلائل المميزة الاهم ، كالمصنوعات التى ظهرت لاول مرة فى جيسار ، مثل «الاعمدة المنمنمة» وقنانى التجميل ذات الرؤوس الحيوانية والاختام النحاسية ذات الحواجز والآنية الفضية والدبابيس ذات الرؤوس المنحوتة والاختام الاسطوانية على غرار اختام وادى الرافـــدين

والخناجر وانصال الرماح وهلمجرا . وهذا يجعلنا نتأكد من ان المرحلة الختامية فى جيسار شهدت اناسا استخدموا فى حياتهم المعيشية نفس المصنوعات التى استخدمها معاصروهم فى باكتريا ومرغيانا . وباختصار فاذا كانت كل هذه القائمة من المصنوعات لا تدل على مجيء سكان جدد ، فانها على الاقل تدل صراحة على وجود تأثيرات حضارية قادمة من الخارج . ولكن من اين ؟

. . . فى عام ١٩٦٨ توجهت بعثة من معهد الجغرافية التابع لجامعة طهران الى صحراء لوط او «الصحراء الرملية الكبرى» ، حيث عثرت بالصدفة ، قرب مدينة شاهداد فى النجد الذى يحيط بالمدينة من الشرق على كسر فخارية فوق الرمال . ولم يتوان مدير البعثة عن جمع تلك الكسر . وعندما عاد الى طهران سلمها الى مركز الآثار . وحظيت تلك الكسر باهتمام الاخصائيين ، وفى العام التالى توجهت الى هناك بعثة اثرية خاصة . واتضح ان النتائج تبعث على الامل لدرجة ادت الى اجراء تنقيبات اثرية منتظمة هنا طوال السنوات التالية . وبالنتيجة امكن التأكد بكل دقة من ان وادى شاهداد فى قديم الزمان كانت فيه مراكز سكنية زراعية ممتدة ، مثل مراكز السكن فى باكتريا ومرغيانا ، بصورة افقية وليس عموديا كما نجد فى التلال الكلاسيكية فى بلاد فارس وتركمانستان . وكانت الفيوض والفيضانات المتكررة قد دمرت لدرجة كبيرة ليس فقط المراكز السكنية ، بل وخصوصا الهياكل العظمية فى المدافن القديمة ، ولكن القرابين الجنائزية الغنية وصلتنا سليمة . ومنها الاختام النحاسية

المخرمة ذات الحواجز والدبابيس والفؤوس ذات السكاكين الشبيهة بذيل الديك وقنانى التجميل والمزهريات المخروطية واوانى الصاصة وكثير غيرها ، مما نجد له ما يماثله من المصنوعات فى باكتريا ومرغيانا . ان القنانى والعلب المصنوعة من الاستيتيت ، بما فيها القنانى والعلب المزينة بافاع ملتوية ، والمزهريات المنحوتة من الحجر الشبيه بالمرمر تعتبر تكملة لقائمة المصنوعات القابلة للمقارنة . ومما له دلالة كبيرة جدا اختام شاهداد الاسطوانية التى احتفظت ، شأنها شأن اختام باكتريا ، بصور الالهات المحليات الواقفات وايديهن مشبكة على بطونهن وحولهن حيوانات . وتوجد صور قريبة من تلك فى اختام باكتريا ، علما بان التشابه كبير لدرجة يستبعد فيها كليا التطابق الصدفى . وباختصار فان الحضارة المادية للذين كانوا يعيشون فى شاهداد تشبه لدرجة كبيرة حضارة السكان القدامى فى باكتريا ومرغيانا . الا ان مواد هذه الحضارة تتطابق بدرجة اكبر مع المواد التى تركها الناس الذين عاشوا فى المرحلة الختامية فى تبه جيسار ، مع ان الفاصل بين هذه الآثار وتلك هو مئات الكيلومترات من السلاسل الجبلية الوعرة ، على ما يبدو ، وكذلك «صحراء الملح» اليباب . هكذا تبدو اللوحة عندما ينظر المرء الى الخارطة الجغرافية ، ولكن طرق القوافل على طول كيلومترات كثيرة تمتد فى الواقع بين سلاسل الجبال وكثبان الرمال . وعلى هذه الطرق كانت تسير قوافل التجارة المحملة بالبضائع ، بل ومئات العربات التى تنقل الحاجيات المنزلية مثيرة سحب الغبار مشيرة الى تحرك القبائل الباحثة عن

موطن جديد او المطاردة من قبل الاعداء او المؤملة فى العثور على اراض خصبة خالية .

ومما له دلالته ان الادوات الجنائزية فى قبور شاهداد متشابهة مع الحاجيات فى جنوب غربى ايران (عيلام) ، بالاضافة الى التشابه المذكور مع المناطق الشمالية . ولما كانت تلك المصنوعات فى عيلام تعود الى عهد اقدم فان مصنوعات شاهداد تكشف عن التأثيرات الحضارية القادمة من جنوب غربى ايران الى شرقيها ومن هناك ، عن طريق جيسار ، الى باكتريا ومرغيانا .

وفى مطلع القرن العشرين قام الباحث الانجليزى الشهير شتين بحملته الاسطورية الى مجاهل جنوب ايران غير المدروسة والواقعة على امتداد الخليج الفارسى وخليج عمان . وقطعت بعثة شتين مئات الكيلومترات وفى اغلب الاحيان فى مناطق صحراوية بعيدة عن الواحات الخضراء الحديثة ، ولكن ينتظر ان تتواجد فيها آثار قديمة . وبالفعل ، فقد اكتشفت البعثة عشرات ومئات الآثار التى لم تكن معروفة من قبل اطلاقا ، وجمعت من على سطحها مختلف المواد التى تشكلت منها مجموعات كاملة . وكان علماء الآثار الانجليز يدرسون المراكز السكنية القديمة الواحد تلو الآخر ، وجابوا الساحل كله حتى بلغوا اخيرا سجستان الايرانية وقرروا ان يجروا فى وادى بمبور حفريات فى موضع قديم اسمه حوراب . ولفت انتباه علماء الآثار حالا وجود آنية غير معتادة بين الاوانى الجنائزية المحلية كما هو واضح ، وخصوصا فى الطبقة العائدة الى المرحلة الختامية من الحياة

فى هذا الموضع . الا ان الآنية «غير المعتادة» بالنسبة لتلك المواضع وذاك الزمان تعتبر الآن من الفخار المعتاد فى شاهداد وجيسار وباكتريا ومرغيانا .

واكتشفت البعثة مواد ذات دلالة اكبر عندما تجاوزت حدود ايران ودخلت بلوجستان (باكستان حاليا) . فهنا ايضا اكتشفت فى عدة مواضع بين القبور التى كاد يعفو عليها الزمن (وخصوصا فى موضع ميهى) آنية معدنية ومرايا واساور ودبابيس مما هو موجود فى التشكيلة الاثرية فى باكتريا ومرغيانا . الا ان الاثر البالغ الاهمية بلا جدال والذى عثر عليه فى حفريات ميهى هو كسرة وعاء فى اعلاها منحوتة حيوانية تطابق كليا ما فى اوعية الطقوس فى باكتريا ومرغيانا . ان هذا الاثر النادر يستبعد عنصر المصادفة ويدل بلا جدال على تشابه المعتقدات الدينية التى كانت سائدة فى وقت واحد عند القبائل القاطنة فى بلوجستان من جهة وفى باكتريا ومرغيانا من جهة اخرى .

لقد مر اكثر من نصف قرن على هذه الاكتشافات التى لم تقدر فى حينه حق قدرها ، ولم تحظ بالاهتمام مجددا الا مع بداية اعمال علماء الآثار الفرنسيين باشراف جاريج فى ميهرغاره (بلوجستان) . واسفرت التنقيبات طوال سنين عديدة عن اكتشاف مقبرة قديمة كانت بين قرابينها الجنائزية اوعية برنزية ودبابيس بنهايات منحوتة ، ورقية عليها صورة افعى ، ومختلف الحلى والفخاريات ، ومنها مزهريات واقداح على قوائم مرتفعة ، وهى آثار قريبة من التشكيلة الاثرية فى باكتريا ومرغيانا ، او حتى مماثلة لها . واكتشف فى هذه

المنطقة مدفن قديم آخر هو مدفن سيبى . وهنا ايضا عثر على آنية جنائزية هى عبارة عن مزهريات وكؤوس ذات قوائم على الطراز الباكترى المرغابـى . وعلى الطبقة العليا فى المركز السكنى نفسه عثر علماء الآثار على اعمدة حجرية مصغرة وآنية حجرية من مختلف الاشكال . وتلفت الانظار الاختام المخرمة ذات الحواجز ، وخصوصا الاختام الاسطوانية التى احتفظ احدها بلوحة منقوشة لحيوانات كالثيران التى تصارع الاسود . وذلك موضوع قريب جدا من موضوع احد الاختام الاسطوانية فى مرغيانا .

ان نتائج الاكتشافات التى حققها علماء الآثار الفرنسيون فى بلوجستان تدشن صفحة جديدة فى التاريخ القديم لشبه القارة الهندية ، وهى فى الوقت ذاته تطرح قضية جديدة هامة . ويمكن القول بانه كانت فى وادى هندوس ، الى جانب الحضارة الهارابية حضارة اخرى ليست لها منابع محلية ، لكنها شبيهة كثيرا بحضارة باكتريا ومرغيانا . وتجدر الاشارة الى وجود بعض التقارب مع الحضارة القديمة للناس الذين كانوا آنذاك يقيمون فى شاهداد وجيسار . وهكذا ترتسم حدود منطقة شاسعة تمتد من وادى هندوس حتى حوض آموداريا ومن المحيط الهندى حتى الاطراف الجنوبية لبحر الخزر ، ونجد فيها بوضوح كامل ، وان بالصدفة ، آثار حضارة مشتركة واحدة مع فوارق موضعية لا جدال فيها . والى جانب ذلك تبدو هذه الحضارة المحيرة على كل تلك المساحات الشاسعة وكأنها حضارة قادمة من الخارج . ويبدو ان بالامكان البحث عن منابع هذه الحضارة فى جنوب

غربى ايران ، من عيلام حتى لورستان .

وتدلل على صحة هذا الاستنتاج نتائج الحفريات فى تبه يحيى الواقعة فى جنوب ايران . (البعثة الاثرية الاميركية باشراف لامبيرغ — كارلوفسكى وبمشاركة العلماء الايطاليين) . لقد كانت لهذا الموضع الواقع بين شبه القارة الهندية واراضى عيلام القديمة علاقات دولية واسعة للغاية . وبينت الحفريات ان التطور المحلى للحضارة استمر حتى عهد يحيى الرابع ، وبعد ذلك ظهر شكل جديد ذو دلالة كبيرة من الفخار غير المعروف هنا سابقا ، لكنه من النوع البارز والاكثر انتشارا فى باكتريا ومرغيانا . ثم ان هناك تشابها فى النقوش على آنية الاستياتيت والاختام والدبابيس المعدنية ، واخيرا الاختام الاسطوانية التى رسمت عليها صور الآلهة المجنحة مثلما فى شاهداد وباكتريا .

ان كل هذه المصنوعات التى لها بحد ذاتها دلالة كبيرة للغاية انما تشكل مجموعة منفصلة غير كبيرة من مواد عهد يحيى الرابع وتخلق انطباعا وكأنها قادمة من الخارج . وباختصار فان تبه يحيى الواقعة قرب خليج فارس تشير الى التأثيرات والالتقاء بين تقاليد آسيا الوسطى وبلوجستان وجنوب غربى ايران . ويمكن القول بوجود تحركات قبلية واسعة تعود بداياتها الى اواخر الالف الثالث قبل الميلاد ، وتتواجد منابعها فى جنوب غربى ايران . ومن هنا ربما تحركت مجموعات قبلية كبيرة فى الاتجاه الشمالى الشرقى حتى باكتريا ، ثم حتى مرغيانا التى سكنها جزئيا آنذاك ابناء جنوب تركمانستان . وتدل على احدى موجات ذاك التحرك

آثار تبه يحيى ، ثم آثار المنطقة الممتدة من سجستان حتى بلوجستان . ان مسألة طرق وطابع هذا النزوح الواسع بحد ذاته تتسم بأهمية علمية كبيرة ، لكن اهميتها تزداد على ضوء ما يسمى بالقضية الآرية التى هى مشكلة معقدة كلها ألغاز . وقد اعرب العلماء عن فكرة هامة اكدتها معطيات علم الاثار والنصوص المكتوبة . وهى تقول ان الآريين — الهندايرانيين استخدموا الفخار اليدوى (بما فيه المنقوش) ولم يكونوا قبل مجيئهم الى ايران وآسيا الوسطى والهند يصنعون الفخار على المحور الدوار . اما السكان الحضر الزراعيون ما قبل الآريين فى هذه المناطق فقد كانوا يعرفون المحور الدوار قبل «العصر الآرى» بكثير ، وعلى اية حال فى الالفين الرابع والثالث قبل الميلاد دون شك .

فهل يطابق هذا القول المعطيات الاثرية الجديدة ؟

تبين الحفريات ان هضبة ايران الشرقية شهدت فى القرون الاخيرة من الالف الثانى قبل الميلاد ظهور قبائل اهم ما يميز حضارتها المادية هو استخدام الآنية الفخارية اليدوية الصنع (بما فيها ذات النقوش الجميلة) . وكان ذلك فى وقت انتقل فيه سكان هذه الاراضى من زمان الى تكنولوجيا اكثر تقدما ، حيث استخدموا المحور الدوار لصنع الآنية الفخارية . ومن اشهر آثار هذه الحضارة فى باكتريا موضع تل تبه ومعبده المبنى على قاعدة مرتفعة . ومع ان اهالى تل تبه كانوا منذ البداية مطلعين على الآنية الفخارية فقد حافظوا فى بادىء الامر على التقاليد الفخارية القديمة وصنعوا فى الغالب الآنية اليدوية ، بما فيها ذات النقوش . وبمر الزمن ،

وفى مراحل متأخرة من هذه الحضارة اخذت الآنية الخزفية المفخورة تحظى تدريجيا بشهرة واسعة ، فغدت اكثر انتشارا وحلت فى آخر المطاف محل الآنية المصنوعة باليد .

والى جانب نقاط السكن الصغيرة فى مرغيانا يعتبر موضع ياز تبه من اشهر آثار هذه الحضارة . وهو عبارة عن مركز ضخم بمثابة عاصمة وفيه قلعة ذات قاعدة مرتفعة من الطابوق ظلت محتفظة ببقايا مبنى ضخم ربما هو قصر . وتوجد مواد من نفس النوعية فى العديد من آثار جنوب تركمانستان فضلا عن مرغيانا . وكان سكان ياز تبه ، شأن سكان تل تبه ، يستخدمون فى البداية الآنية الفخارية المزخرفة المصنوعة باليد ، وهى نسخة طبق الاصل من آنية تل تبه ، الى جانب القليل من الآنية المعمولة صناعيا . وفى المراحل المتأخرة حلت الآنية الخزفية الصناعية محل اليدوية . وهكذا نرى التقاء واختلاط نوعين من التقاليد الفخارية ــ فخار باكتريا ومرغيانا المحلى والفخار «الاجنبى» اليدوى ، بما فيه المنقوش ، ونرى نتيجة هذه العملية متجسدة فى حلول الفخار الاول محل الثانى بالكامل .

ولئن كان علماء الآثار السوفييت هم الذين درسوا تل تبه وياز تبه فان الحفريات التى جرت خلال السنوات الاخيرة فى موضع بيراك فى بلوجستان ، على مقربة من ميهرهاره السالفة الذكر ، قد اجراها اثريون فرنسيون ، لكن النتائج التى توصلوا اليها اكدت فكرة التقاء نوعى التقاليد الفخارية المحلية والقادمة من بعيد . واثبتت الحفريات الواسعة النطاق ان السكان القدامى الذين اقاموا فى بيراك لم يكونوا فى

الواقع يعرفون الآنية الفخارية المعمولة صناعيا ، وكانـــوا يستخدمون فى حياتهم المعيشية الآنية الخزفية اليدوية المنقوشة فقط . ولكنهم عندما تواجدوا فى بيئة جديدة وكان السكان المحليون المحيطون بهم يعرفون من زمان الآنية الفخارية المعمولة صناعيا قدروا مزايا هذه الآنية حق قدرها . وكما هو شأن اهالى تل تبه وياز تبه انتقل اهالى بيراك بالتدريج فى آخر المطاف الى صنع الآنية الفخارية بالمحور الدوار .

واذا قارنا النقوش الاساسية فى الفخار اليدوى فى باكتريا ومرغيانا بنقوش فخار بيراك نجد تجاوبا كافيا بين عدد من النقوش رغم الفوارق الموضعية المحلية التى لا جدال فيها . ولا ينحصر التشابه فى تقارب اساليب الفخار ، بل يتجسد فى اوجه اخرى للتطابق . وتستحق اهتماما خاصا الانابيب المعدنية الفارغة التى توجد عليها سلسلة من الثقوب المتقابلة ، ولم يعثر على مثلها فى غرب آسيا حتى الآن الا فى تل تبه وبيراك ، الامر الذى يتميز بدلالة كبيرة ويستبعد عنصر المطابقة بالصدفة . ويتميز بدلالة كذلك الطابوق الثقيل المثلث الشكل الذى عثر عليه فى المواقد فقط ، حيث يستخدم على ما يبدو بمثابة أثاف . وتوجد بالطبع فوارق كبيرة نابعة من التأثير الحضارى لتقاليد السكان المحليين والظروف المحلية . ففى تل تبه وياز تبه لا توجد منحوتات بشرية ، الامر الذى يعتبر سمة مميزة لهذه الحضارة التى تسمى اصطلاحا بحضارة خراسان الشرقية وللطقوس الدينية لاهاليها . وبالعكس نجد فى بيراك منحوتات بشرية وحيوانية فخارية ، مما كان منتشرا منذ القدم عند السكان المحليين

فى هذه البقاع . وبعبارة اخرى فان النازحين الجدد لم يكونوا فى بادئ الامر يعرفون المنحوتات البشرية ، فان شعائرهم الدينية لم تكن تتطلب تجسيدا للآلهة على هيئة بشر . وعندما وصلوا الى باكتريا ، والى مرغيانا جزئيا ، حيث لم تكن القبائل المحلية تعرف مثلهم المنحوتات البشرية ، ظلوا ثابتين على طقوسهم التقليدية القديمة . وبالعكس ، عندما وصل اصحاب الحضارة الفخارية المنقوشة الى بلوجستان تبنوا بمر الزمن الطقوس المحلية واخذوا يستخدمون بالتدريج فى شعائرهم الدينية صور الآلهة بهيئة بشر مثلما عند اهالى بيراك . وهذا شيء مفهوم اذا اخذنا بعين الاعتبار ان القبائل النازحة القادمة كانت ، كجزيرة فى بحر ، محاطة بالسكان المحليين ذوى الحضارة المغايرة والذين ادت الاتصالات الدائمة معهم الى الاندماج التدريجى .

وهكذا يمكن افتراض اصل مشترك لحضارتي الفخار المنقوش لدى قبائل هضبة ايران الشرقية (تل تبه وياز تبه) وشبه القارة الهندية (بيراك) . ومما له دلالته ان هذه القبائل وتلك لم تكن فى موطنها السابق تعرف تكنيك صنع الفخار بالمحور الدوار ، وكانت تصنع الآنية باليد . وعندما اتصلت تلك القبائل بالسكان المحليين الزراعيين الحضر الذين اتقنوا من زمان العمل بالمحور الدوار انتقلت بالتدريج هى الاخرى الى الشكل الاكثر تقدما لانتاج الفخار . ومما له دلالته ايضا ان علماء الآثار لم يتمكنوا فى اى من هذه المواضيع ، رغم التنقيبات الخاصة ، ان يعثروا على افران الفخار التى كانت موجودة بوفرة عند السكان المحليين . ولم يرد فى

اناشيد «ريغفيدا» ولا فى «افيستا» ذكر لصنع الآنية الفخارية عند الآريين بالمحور الدوار . فقد كانوا يفخرون الآنية فى حفر بسيطة باسلوب بدائى للغاية ، وبالنتيجة كانت الاوانى تكتسب اللون الاحمر ، وهو الاكثر انتشارا بالنسبة للفخار المنقوش فى هضبة ايران الشرقية .

وستساعد الاكتشافات الاثرية المرتقبة فى الاجابة على السؤال التالى : ما هو مدى صحة تصورنا عن اندماج الآريين ؟ بيد ان المعطيات المستحصلة حاليا تدل على انه لوحظت فى آسيا الوسطى فى الالف الثانى قبل الميلاد موجتان واضحتان لكنهما متباعدتان زمنيا من السكان القادمين المختلفين من حيث الاصل . وعندما دخلوا حدود جنوب تركمانستان اقام بعضهم فى المراكز السكنية القديمة الحضرية تقليديا ، ولكن سرعان ما انتقل قسم كبير منهم الى مرغيانا ، حيث كان ابناء القبائل التركمانستانية الجنوبية المحلية قد ارسوا حتى ذلك الحين اسس الزراعة القديمة . وتشير كل الدلائل الى ان استيطان السكان القادمين والمحليين فى دلتا المرغاب بشكل مكثف ونشيط قد جرت اساسا فى سلم ووئام . ان الاراضى الشاسعة المروية بسخاء لا تقارن اطلاقا بشحة الاراضى فى موطن «النازحين» السابق . فالاراضى الخالية فى حوض المرغاب تستبعد نشوب نزاعات خطيرة بين القادمين والسكان المحليين الذين كانوا قد قدموا الى هذه الاصقاع من جنوب تركمانستان قبل ذلك بوقت غير كبير . وهناك كل المبررات لافتراض حدوث اختلاط تدريجى بين السكان القادمين والمحليين وتبادل المنجزات الحضارية ،

الامر الذى كان ضمانة لازدهار بلاد مرغوش لاحقا . وليس فى ذلك ما يثير الدهشة اذا اخذنا بعين الاعتبار ان اولئك وهؤلاء كانوا زراعا قدامى ذوى نمط معيشى واحد ، مما ساعد طبعا على الاتصالات المتبادلة وعلى بناء حضارة مشتركة فى آخر المطاف .

وتبدأ الموجة الثانية بوصول قبائل الفخار اليدوى ، او بعبارة اخرى حضارة خراسان الشرقية ، الى هضبة ايران الشرقية فى القرون الاخيرة من الالف الثانى قبل الميلاد . ونحن لا نعرف بالضبط بعد ما هو اساس اقتصادها فى القرون القديمة ، ولكن طالما كانت تلك القبائل جاهلة بالمحور الدوار فهى على الاكثر قبائل رعوية مع انها مطلعة على الزراعة طبعا

ولما كانت القبائل النازحة تعيش جنبا الى جنب مع السكان الزراعيين وتختلط بهم تدريجيا فقد فقدت بالتدريج الكثير من سماتها الاثنوغرافية القديمة ، وحتى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد نشأت ، فى باكتريا ومرغيانا على اقل تقدير ، حضارة متجانسة مشبعة بسمات كلا العنصرين الحضاريين . ويمكن ان نرى اهم سمات حضارة تلك الحقبة فى المجموعة الغنية من الاختام النحاسية البرنزية ذات الحواجز . وتبرز بين تلك المجموعة عدة اختام مخرمة متقاربة من حيث المواضيع وتحتوى على مضامين معقدة ، ضافية بلا شك ، بما فيها الابطال مقاتلو التنانين . وفى وسط احد الاختام صورة كائن شبيه بالانسان ووجهه كمقدمة رأس الطير . ونحن لا نريد ان نربط بين النقش على الحجر

والاختام وبين معطيات «افيستا» — اقدم آثار الفرس ، ولكن لا بد من الاشارة الى وجود المبادئ الاخلاقية والدينية المشتركة المتجسدة فى صور الآلهة والالهات الرئيسية حامية البشر فى صراعهم الازلى ضد الشر الذى تعبر عنه صور التنين بالدرجة الاولى . فالصراع من اجل الحصول على «بذرة الحياة» يعنى فى آخر المطاف وجود او انعدام الحياة نفسها على وجه البسيطة ، ويكتسب مغزى رمزيا عميقا . وقد انعكست هذه التقاليد فى نص «افيستا» . وليس من قبيل الصدفة ان كل اهالى باكتريا ومرغيانا تقريبا كانوا يحملون طلسما معلقا بخيط على الرقبة وينتظر منه ان يحمى حامله من شرور القوى السوداء المتجسدة فى صور التنين . وكانت طلاسم عامة الناس صغيرة رقيقة فى الغالب عليها صورة متواضعة لافعى ملتوية او نبتة او عقرب . اما الاغنياء والوجهاء فكانوا يحملون طلاسم كبيرة عليها صور معقدة متعددة المستويات ، لكنها تدور حول نفس الموضوع . واخيرا كانت لدى «موظفى» الادارة المحلية والكهان المحترفين اختام مخرمة كبيرة تدل على مكانتهم الاجتماعية الرفيعة .

وتمكننا احدث الاكتشافات الاثرية والدراسات اللغوية من الكلام عن المستوى الذهنى العالى لتطور السكان القدامى فى باكتريا ومرغيانا المتجسد فى آثار الفن التطبيقى ، وبالدرجة الاولى فى النقش على الحجر وعلى الاختام . ونشير هنا الى الثنائية الواضحة فى المعتقدات المحلية والى صراع الافعى والتنين الابدى من اجل التحكم فى حياة كل الاحياء على وجه البسيطة . وتلك نظرية فلسفية اخلاقية تكاد

تكون مطابقة لجوهر تعاليم زرادشت . ويمكن ان نشير الى الاوعية الفريدة من نوعها والمزينة بمنحوتات فى اعلاها والتى يعتبر احتمال استخدامها كآنية طقوسية لتناول «الهاوما» شراب الزرادشتيين المقدس واردا . وحتى هذه التوافقات تمكننا من التوصل الى استنتاج فى منتهى الاهمية : من بين كل الحضارات الاثرية المعروفة ، وبعبارة اخرى من بين كل الشعوب القديمة ذات الحضارات المتميزة ، تعتبر باكتريا ومرغيانا اكثر ملاءمة للمركز الذى توفرت فيه ، قبل نشوء الديانة الزرادشتية نفسها ، تصورات اخلاقية ودينية ومعتقدات طقوسية قريبة منها كل القرب . كل ذلك لا يستبعد مطلقا ، بل يفترض امكانية ادراج اراضى ايران الشرقية التى تنتشر فيها آثار من طراز شاهداد ضمن هذه المنطقة .

ومع ذلك لا يجوز تبسيط عملية نشوء وتكون الديانة الزرادشتية وحصرها فى اطار المعتقدات الدينية والاخلاقية لاهالى باكتريا ومرغيانا . فقد لاحظ اللغويون من زمان ان الاجزاء المبكرة من «افيستا» لا تذكر النقود والنظام الضرائبى وان مجتمعها لم يكن يعرف الحديد ولا حياة المدن المتطورة والدويلات . ومن هنا استنتج الباحثون ان زرادشت عاش واسس تعاليمه فى فترة لا تتجاوز القرن السابع قبل الميلاد ، وهذا الاحتمال يعتبر واردا . وعلى العموم فان كل تلك السمات يمكن ان تنسب الى مجتمع باكتريا ومرغيانا فى العصر البرنزى المتأخر ، ويمكن ان تنسب بقدر اكبر الى شعب الفخار المنقوش الذى خلف لنا اثارا مثل ياز تبه

وتل تبه . ويمكن ان نشير الى واقع ملموس هو الفخار اليدوى الصنع الذى عثر عليه فى هذين الموضعين ، وهو اكثر مناسبة لما ورد وصفه فى «افيستا» . واذا افترضنا الآن ان زرادشت عاش فى حدود القرن السابع قبل الميلاد وقارنا ذلك «بالواقع الاثرى» الذى نلاحظه فى باكتريا ومرغيانا فى القرون الاولى من الالف الاول قبل الميلاد لرأينا فى تلك الحقبة اختلاط تشكيلتين اثريتين ملموستين . وبعبارة اخرى فقد جرى آنذاك اندماج مكثف لسكان الفخار اليدوى المنقوش القليلى العدد نسبيا وذوبانهم فى السواد الاعظم من السكان المحليين فى تشكيلة باكتريا ــ مرغيانا الاثرية . واسفر هذا الاندماج عن اختلاط حضارتيهم ، ومع ان حضارة الذين كانوا يصنعون الفخار اليدوى فقدت بالتدريج السمات التى كانت تميزها سابقا ، فان تلك العملية سارت ببطء شديد . والدليل على ذلك هو العشرات من المواضيع القديمة فى باكتريا ومرغيانا حيث نصادف بين الكثير من الآنية الفخارية المعمولة «صناعيا» كسرا منفردة من الفخار اليدوى المنقوش الذى لم ينقرض نهائيا الا حوالى اواسط الالف الاول قبل الميلاد ، عندما اصبح كلا هذين البلدين جزءا من دولة الاخمنيين .

فى هذه الحقبة التاريخية بالذات عاش زرادشت ، اى فى فترة الاختلاط المكثف بين الاتجاهين الحضاريين . وبالفعل فقد انعكس هذان الاتجاهان بالذات فى الزرادشتية التى نشأت فى هذه المنطقة على ما يبدو . فالزرادشتية ، كمذهب فلسفى واخلاقى ودينى ، ما كان يمكن ان تظهر فى الفراغ . بالعكس ، فان مضمونها يجسد تصورات متطورة

جدا للفلسفة الطبيعية ، الامر الذى يلازم مجتمعا قطع شوطا بعيدا فى تطوره الذهنى . ونجد مثل هذا المجتمع فى باكتريا ومرغيانا فى العقود الاولى من الالف الاول قبل الميلاد ، عشية ظهور تعاليم زرادشت ، فقد كانت لدى هذا المجتمع تصورات فكرية معقدة تطابق كثيرا العديد من الاحكام الواردة فى «افيستا» .

ولا يزال صعبا بالطبع الجزم بالموقع المضبوط لوطن زرادشت وتعاليمه . هل هو باكتريا ام مرغيانا ؟ فالعالم السوفييتى المعروف الاكاديمى ستروفه كان من اشد انصار الفكرة القائلة بان مرغيانا والمناطق المتاخمة لها هى الاحتمال الاقوى . والدليل على ذلك عنده هو ان «افيستا» يذكر بلدا هو مرو ، اى مرغوش بالفارسية القديمة ومرغيانا باليونانية ، بوصفه البلد الوحيد الذى يتبع اهله قواعد قانون آشا ، اى اساس الاسس فى تعاليم زرادشت . وهذا القانون تشخيص للنظام الحقوقى الثابت الذى ترتكز عليه كل الفضائل . وهذا القول لا ينسبه كتاب «افيستا» الى اى من البلدان التى يتطرق اليها ما عدا مرو . وعلى اساس هذه المعطيات وغيرها يؤكد الاكاديمى ستروفه قائلا : «لذا ارى فى هذه الاشارة . . . دليلا يعزز افتراضى بان مرغيانا هى اول منطقة تبنت الجماهير الشعبية فيها تعاليم زرادشت» . وكتب الاكاديمى ستروفه فى ختام بحثه يقول : «حاولت ان اثبت بان مرغيانا والمناطق المتاخمة لها فى آسيا الوسطى كانت موطنا للزرادشتية» . وكان ذلك فى حينه يعتبر اكتشافا علميا كبيرا هاما . ومع انه لا تزال هناك حتى الآن فرضيات معاكسة تقول ان موطن

زرادشت متواجد فى موضع من المنطقة الممتدة من بلاد الميديين (غربى ايران) حتى درانغيانا (اقصى جنوب غربى افغانستان) فنحن نعتقد بان الدراسات الاثرية اللغوية الشاملة هى التى تساعد على تدقيق وتحديد هذه المسألة غير المحلولة بعد . اما الآن فمن حيث المشاهدات الاثرية الصرف والمواد الفعلية نجد ان معطيات «افيستا» تنطبق ، اكثر ما تنطبق ، على الحضارة القديمة فى كل من باكتريا ومرغيانا ، الامر الذى لا يستبعد طبعا ظهور تدقيقات اضافية فى المستقبل . وليس من المهم جدا بالطبع معرفة الدروب المتربة التى اجتازها زرادشت فى بداية نشاطه ومعرفة السبل التى استقبلته فيها الجموع مهللة مستبشرة اثناء نجاحه الباهر . فالمهم ان المبادئ الاساسية للديانة الجديدة تغترف على الاكثر من مناهل النظرات الفلسفية والاخلاقية المنتشرة قبلها على نطاق واسع فى باكتريا ومرغيانا ، فى بلاد مرغوش .

الفصل الحادى عشر

موطن البارثيين
تاريخه وحضارته

المؤلف: كوشيلينكو
ترجمة: خيري الضامن

كانت بلاد البارثيين من اكبر وأهم دول العالم القديم . وقد ظهرت في اواسط القرن الثالث قبل الميلاد على اثر سقوط دولة السلوقيين . وخلال فترة تاريخية قصيرة جدا تحولت الى دولة قوية لدرجة كافية تقاتل بنجاح على جبهتين ان صح القول : ضد السلوقيين في الغرب وضد باكتريا اليونانية في الشرق . وفي القرن الاول قبل الميلاد اخذت تنافس روما في الصراع من اجل السلطة في غربي آسيا . وفي القرون الميلادية الاولى كانت بلاد البارثيين واحدة من الدول «العالمية» الاربع (الى جانب الامبراطورية الرومانية ومملكة قوشان ودولة سلالة هان الصينية) التي اقتسمت فيما بينها آنذاك كل المنطقة «المتحضرة» في العالم القديم تقريبا : من المحيط الاطلسي حتى المحيط الهادى . وكان القدماء يعرفون جيدا جبروت البارثيين حتى اعتبروهم منافسين لروما . واليكم ما كتبه عنهم بعض المؤرخين اليونانيين : «انهم يمتلكون بلدا شاسعا ولديهم قبائل كثيرة حتى ان دولتهم تعتبر من حيث الاتساع منافسة للرومان بقدر ما» (سترابون) ؛

«ان البارثيين كأنما اقتسموا العالم كله مع الرومان ، وهم فى الوقت الحاضر يسيطرون على الشرق» (بومبايوس تروغوس) .

ان الدور الكبير الذى لعبته مملكة البارثيين فى المصائر التاريخية للعالم القديم لا جدال فيه . الا ان تاريخ دولة البارثيين لايزال ينطوى على الكثير جدا من «البقع البيضاء» ، الامر الذى يعزى بالدرجة الاولى الى حالة المراجع المتوفرة لدى الباحثين. ولئن كان تاريخ العلاقات المتبادلة بين الرومان والبارثيين مدروسا بتفصيل كاف فان العلماء غير مطلعين كليا تقريبا على الموقف في الحدود الشرقية لدولة البارثيين حيث تتجاور ممتلكات البارثيين ومملكة قوشان . ولا تزال غير واضحة لقدر كبير حتى عملية ظهور دولة البارثيين وتاريخها المبكر . وان البنية الاجتماعية لدولة البارثيين مادة لمناقشات كثيرة في العلم الحديث . ثم ان النظام السياسي للدولة معروف بقدر ضئيل للغاية . وتتطلب اهتماما خاصا كذلك قضية التطور الثقافي للشعوب الداخلة ضمن دولة البارثيين .

وانطلاقا من الفكرة العامة لهذا الكتاب الذى يتوخى الحديث عن الاكتشافات الجديدة في تاريخ الشرق القديم يقتصر هذا الفصل على طائفة من مسائل تاريخ دولة البارثيين يعتمد حلها على المصادر الجديدة التى وقعت في ايدى الباحثين خلال العقود الاخيرة . وفى اغلب الحالات صارت تلك المصادر في متناول اليد بفضل اكتشافات علماء الاثار السوفييت . وكان من اهمها اكتشاف ارشيف الوثائق البارثية في موضع مدينة ستارايا نيسا . وسنتناول هنا وثيقة واحدة اطلق عليها العنوان التالي «مذكرة عن ارتقاء العرش» ،

وهي الوثيقة التى غدت فاتحة لحل الكثير من المسائل الاساسية في تاريخ البارثيين المبكر . وهيأت المواد الاثرية الفرصة للنظر بشكل جديد الى تاريخ البارثيين الحضارى . وهذا هو الموضوع الثالث في بحثنا . والموضوع الرابع والاخير في هذا البحث يرتبط ليس بالمواد الجديدة للمصادر ، بل بمحاولة تطبيق اسلوب جديد فى تحليل الآثار الكتابية والتنقيبية المعروفة سابقا ويدور حول مسألة البنية الاجتماعية لمملكة البارثيين .

المسائل المعلقة
فى تاريخ البارثيين المبكر

لا تزال قضية ظهور مملكة البارثيين موضوعا للنقاش فى العلم الحديث . وهناك عدة مسائل تدور حولها المناقشات . واهمها . ١) الزمان والموقف السياسي اللذان ساعدا على ظهور دولة البارثيين المستقلة . ٢) عملية نشوء هذه الدولة بحد ذاتها . ويعود عدم حل هذه المسائل ، بالدرجة الاولى ، الى شحة المصادر والمراجع ، والاهم هنا هو التناقضات في وصف الاحداث آنذاك الوارد فى مختلف المصادر . ان البت في مسألة الكيفية التي جرت بها عملية نشوء مملكة البارثيين يتطلب العودة الى مراجع لم يعد عددها قليلا كما تبدو للوهلة الاولى رغم ايجازها الشديد . والصعوبة الرئيسية في هذا المجال هي تأويل تلك المراجع ، لانها لا تقدم وصفا موحدا للاحداث ، بل تعطي روايتين تختلف الواحدة منهما عن الاخرى اختلافا شديدا .

الرواية الاولى واردة في مؤلف اريانوس وفي كتابات المؤرخين الذين استشهدوا به . ويدل على صحة رواية إريانوس انها وردت في مؤلف خاص كرسه لتاريخ البارثيين . ثم ان اريانوس على العموم اشتهر عن جدارة واستحقاق بانه مؤرخ دقيق واسع الاطلاع . واورد الرواية الثانية مؤرخان يونانيان آخران هما بومبايوس تروغوس (نقلها عنه يوسطينوس) وسترابون . وتتلخص الفوارق الاساسية بين هاتين الروايتين فيما يلي :

١ . (أ) يرى يوسطينوس وسترابون ان مملكة البارثيين ظهرت بنتيجة غزو البدو الرحل لمقاطعة بارثينا التى كانت قبل ذلك تحت حكم اندراغور (يقول يسطينوس ان ارشاك «ومعه عصابة من قطاع الطرق هاجم البارثيين وهزم حاكمهم اندراغور وقتله واستولى على السلطة واخضع الشعب البارثى» ، ويقول سترابون «ان ارشاك الاسقوثي مع عدد من البدو الرحل الذين يسمون بالأبارنة المقيمين على ضفاف نهر اوخو هاجم بارثينا واستولى عليها») ؛ (ب) يعتبر اريانوس واتباعه ظهور مملكة البارثيين نتيجة لانتفاضة السكان المحليين ضد سلطة مقدونيا . (يقول اريانوس «حرر (ارشاك وتردات) الشعب من المقدونيين وتسلما زمام السلطة في ديارهما . . .» ، ويقول سينكيل : «في عهد انطيوخوس هذا تخلص الفرس من حكم المقدونيين والسلوقيين» . ويقول زوسيموس «شن ارشاك البارثي الحرب على والى انطيوخوس وجعل البارثيين الذين طردوا المقدونيين يستلمون زمام السلطة بانفسهم») .

٢ . (أ) يرى يوسطينوس وسترابون ان مملكة البارثيين

تأسست على يد شخص واحد هو ارشاك او ارساك . (ب) ويرى اريانوس وسينكيل وزوسيموس ان الاخوين ارشاك وتردات تزعما النضال ضد المقدونيين ، علما بان سبب الانتفاضة هو النوايا الاجرامية التي بيتها الوالي السلوقي ضد احد الاخوين (تردات) .

٣ . يقول اريانوس ان ارشاك وتردات اشركا في المؤامرة على الوالى خمسة اشخاص آخرين ، بينما لا يرد اى ذكر لذلك عند يوسطينوس وسترابون .

٤ . (أ) يشير سينكيل الى القرابة بين سلالة الارشاكونيين والاخمنيين عن طريق ارتحششتا («الاخوان المدعوان ارشاك وتردات ينحدران باصلهما من ارتحششتا الفارسي . . .») ، بينما يشير اريانوس الى اجداد ارشاك وتردات البارثيين («كان هناك الاخوان ارشاك وتردات من سلالة الارشاكونيين حفيدا فرياباد بن ارشاك») ؛ (ب) في حين يؤكد يوسطينوس ، بالعكس ، ان اصل ارشاك غير معروف .

٥ . (أ) يقول اريانوس ان كلا الاخوين اسسا دولة البارثيين ، لكنه يركز على تردات مشيرا الى ان ارشاك حكم عامين فقط ، بينما ظل خليفته تردات على العرش ٣٧ عاما . (ب) في حين يتحدث يوسطينوس بتفصيل كبير نسبيا عن عهد ارشاك الطويل الامد ويقول انه توفى بعد ان بلغ من العمر عتيا وخلف العرش لابنه الذى يحمل اسمه (ارشاك) . ولا يرد ذكر تردات عند يوسطينوس اطلاقا .

وهكذا نجد هاتين الروايتين تناقضان بعضهما البعض اشد التناقض ولا مجال اطلاقا للتوفيق بينهما . وقد خابت

كل المحاولات التي بذلها الباحثون للتوفيق بين هاتين الروايتين واستعراض عملية ظهور مملكة البارثيين . ولذا تتطلب دراسة هذه القضية ما يلي : اولا ــ التأكد من الرواية التي تستجيب للواقع التاريخي والالتزام بها وحدها في دراسة قضية ظهور دولة البارثيين وتأريخها المبكر ، والقاء الاضواء بالكامل على جميع معطيات الرواية الثانية . ثانيا ــ ايضاح اسباب ظهور الرواية الثانية في المراجع ، فان ظهورها بالطبع ليس من المصادفات . بل هو نتيجة لاحداث معينة غير معروفة بالنسبة لنا .

ويعود اكبر قسط في حل المسألة الاولى من هاتين المسألتين الى العالم البولوني فولسكي الذى ظل طوال سنين عديدة يدلل بلا كلل في الكثير من المقالات على ان رواية يوسطينوس ــ سترابون هي وحدها الرواية التاريخية وانها وحدها تعكس الاحداث الفعلية ، اما الرواية التي تنسب الى اريانوس فهي مجرد اختلاق ادبي . وفي بادئ الامر كان بوسع فولسكي ان يستخدم المواد الخاصة بالنقود ليدلل على صحة رأيه . فان هواة جمع القطع النقدية يعرفون قطعا سكت باسم اندراغور . لكن يوسطينوس يذكر اندراغور بالذات على انه الوالى السلوقي في بارثينا الذى حاربه ارشاك وقتل في هذا النزاع ، في حين يقول اريانوس ان هذا الوالى اسمه فيريكليس بينما يقول سينكيل ان اسمه اغوفوكليس . ان المعطيات الخاصة بالنقود حجة ذات وزن كبير بالطبع ، لكن فيها عيبا واحدا هو انعدام الثقة التامة بان اندراغور الذى اصدر هذه النقود هو اندراغور نفسه الذى يذكره يوسطينوس

في سياق تاريخ البارثيين المبكر .

الا ان هذه الاراء سرعان ما حظيت بدعم من جانب علم تاريخى اخر هو الابيغرافيا (دراسة الكتابات على المواد الصلبة) . فقد نشر العالم الابيغرافي الفرنسي المعروف روبير كتابة يونانية تنسب بالاصل الى اراضي هركانيا (اى المنطقة القديمة المجاورة لبارثينا) وتعود الى القرن الثالث قبل الميلاد . فقد ورد في هذه الكتابة ذكر اندراغور في سياق لا يترك مجالا للشك فى انه شغل منصبا رفيعا جدا في الادارة السلوقية فى الشرق ، وربما كان واليا في الولايات «العليا» (اى «الشرقية») .

واخيرا قدم البارثيون انفسهم الدليل الحاسم على صحة رأى فولسكي . فان العالمين السوفييتيين المعروفين أ . دياكونوف وليفشيتس عثرا ، اثناء دراسة ارشيف نيسا ، على وثيقة بخصوص اعتلاء ملك جديد عرش المملكة . وجاء فى ترجمة هذه الوثيقة : «عام ١٥٧ ، الملك الارشاكوني حفيد فرياباد وابن ابن اخي ارشاك» . وانطلاقا من ذلك فسر الباحثان المضمون التاريخي لهذه الوثيقة على النحو التالي : الملك الذى اعتلى العرش عام ١٥٧ حسب التقويم الارشاكوني (عام ٩١ قبل الميلاد) هو هوتارز . فهو ، بموجب هذه الكتابة ، حفيد فرياباد ، وربما كان ابن عم مثردات الثاني الذى حكم آنذاك . واستنادا الى هذه الوثيقة الخزفية رسما شجرة اصله على النحو التالي : فرياباد الوارد ذكره في الوثيقة هو ابن تردات وابن اخ مؤسس السلالة ارشاك . ويضيف الباحثان قائلين ان الوثيقة تشير فقط الى اسلاف

الارشاك هوتارز* الحاكمين ، لتأكيد حقه في العرش . واخيرا يعلن دياكونوف وليفشيتس بكل تحديد ان هذه الوثيقة حجة تثبت تأريخية ارشاك الاول .

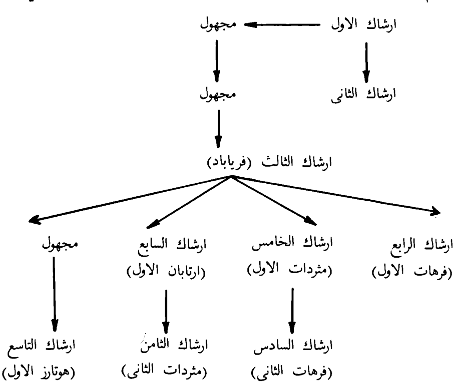
وهكذا غدت معطيات ارشيف نيسا حجة دامغة لاثبات صحة رواية يوسطينوس — سترابون . فان معطيات علم النقود والابيغرافيا ووثائق نيسا تدلل بالاجماع على صحة هذه الرواية وتعزز الآراء التي طرحها فولسكي . وبالتالي يمكن القول بكل حق ان المعلومات التي اوردها يوسطينوس وسترابون صحيحة واننا يمكن ان نتصور تاريخ ظهور دولة البارثيين ، وان بالخطوط العريضة ، على النحو التالي : ١) ضعف الروابط بين اندراغور والى السلوقيين فى بارثينا وبين السلطة المركزية ، ٢) غزو البدو الرحل القادمين من آسيا الوسطى بزعامة ارشاك لاراضي بارثينا ، ٣) مقتل اندراغور واستيلاء البدو على بارثينا ، ٤) اعتلاء الملك ارشاك العرش واستمرار حكمه امدا طويلا .

الا ان كل اكتشاف في العلم يولد اسئلة جديدة . فان وثيقة نيسا الخاصة باعتلاء العرش تولد مثل هذه الاسئلة ايضا . فقد اثيرت نقاشات حول قراءة الوثيقة وصحة تأويلاتها التاريخية التى طرحها الباحثون . وبالاضافة الى فولسكي ساهم في هذه المناقشات علماء معروفون مثل بيكرمان وشومون وآلتهايم . وبعد نقاشات طويلة اجمع

---

* جرت العادة فى بارثينا على ان يحمل كل الملوك لقب ارشاك الملوكى تكريما لمؤسس سلالتهم . ولذا يمكن ان يحدث خلط فى فهم الوثائق .

الاخصائيون على ان قراءة دياكونوف وليفشيتس للوثيقة صحيحة وان التأويل التاريخي الذى افترضاه صائب . وساعد الجمع بين ادلة الوثيقة البارثية وبين المعطيات الاخرى على رسم شجرة اصول الارشاكونيين الاوائل على النحو التالي :



والمسألة الثانية التى طرحت بصورة بديهية اثناء تحليل هذه الوثيقة والمخطط الوراثي للارشاكونيين الاوائل الذى رسم بالاعتماد عليها هي ان كل ممثلي هذه السلالة في الواقع ، ما عدا ارشاك الثاني ، كانوا من احفاد فرياباد (برياباد في المراجع اليونانية) ، في حين ان هذا الاخير هو حفيد شخص مجهول في مخططنا ، وهذا الشخص المجهول لا بد وان يكون شقيق ارشاك ، اى تردات . وفي ختام هذه الدراسة نجد انفسنا امام نتيجة هي المفارقة بعينها . فمن جهة

تؤكد الدراسة جازمة بان ارشاك الاول شخصية تاريخية فعلا كما تؤكد دوره كمؤسس لمملكة البارثيين ، ومن جهة اخرى تسفر عن استنتاج يقول بان الارشاكونيين الفعليين ليسوا احفاد ارشاك الاول ، بل احفاد اخيه الذى هو تردات وليس غيره كما اسلفنا . وهكذا بدأت الدراسة تؤكد بصورة غير مباشرة رواية اريانوس .

وبغية حل هذا اللغز الجديد تعين في المقام الاول الاستعانة بوثائق اخرى من ارشيف نيسا لها ايضا طابع مذكرات اعتلاء العرش . فان احدى تلك الوثائق تتحدث عن ساناتروك شقيق مثردات الثاني ، كما تتحدث وثيقة اخرى عن فرهات الثالث . ومما له دلالته ان كلتا الوثيقتين ، شأن «المذكرة» التي اشرنا اليها سابقا بخصوص اعتلاء هوتارز الاول العرش ، تشيران من كل بد الى فرياباد بوصفه حلقة وصل بين ارشاك الاول وبين الملك الذى تتحدث عنه كل من الوثيقتين . فهل يجوز اعتبار ذكر فرياباد بشكل مكرر مجرد صدفة ؟ فلا احد من المؤرخين اليونانيين يتحدث عن هذا الشخص سوى يوسطينوس ، وحتى اشارة يوسطينوس مقتضبة للغاية : «كان الملك الثالث للبارثيين هو برياباد ، لكنه هو ايضا يحمل اسم ارشاك ، لان البارثيين ، كما اسلفنا ، يطلقون هذا الاسم على كل ملوكهم . وقد توفى برياباد بعد ان حكم خمسة عشر عاما وخلف ولدين هما مثردات وفرهات . . .» . ومن عجائب الامور ان اهمية هذه المعلومات تكمن في الكتمان . فان يوسطينوس لا يتحدث عن صلة القربى بين برياباد والملوك السابقين . وهذا يثير

الارتياب لان يوسطينوس اشار بصورة مضبوطة الى صلة القربى بالنسبة لسائر ملوك البارثيين : ارشاك الثاني — ابن ارشاك الاول ، فرهات الاول ومثردات الاول ابنا برياباد ، فرهات الثاني ابن مثردات الاول ، ارتبان الاول عم فرهات الثاني ، مثردات الثانى ابن ارتبان الاول . ولذا فان هذا الكتمان ليس من قبيل الصدفة ، فهو في اغلب الظن يعكس واقع الاحداث الجارية . يوسطينوس لا يشير الى صلة القربى بين برياباد وارشاك الاول وارشاك الثانى . وهذا يحملنا على التفكير بان «انقطاعا» حدث في تاريخ السلالة للفترة التي انتقلت فيها السلطة من ارشاك الثاني الى برياباد .

ان الوثائق المذكورة آنفا تساعدنا على فهم السبب في هذا الانقطاع . فبعد ارشاك الثاني ، ابن مؤسس السلالة ارشاك الاول ، اعتلى العرش برياباد حفيد اخ ارشاك الاول . ويمكن الافتراض بان هذا الحادث مرتبط باخفاقات ما من وجهة نظر وجهاء البارثيين وباعمال سياسية قام بها ارشاك الثاني ، لان البارثيين ، كما اكد يوسطينوس ، كان لديهم تقليد بان يرث السلطة الابن الاكبر للملك . والتوضيح الاكثر احتمالا هو التالي : في عهد الملك ارشاك الثاني بالذات شنت الحملة «الشرقية» من قبل آخر ملوك السلوقيين الكبار انطاكيوس الثالث ، والتي اسفرت عن اخضاع البارثيين مؤقتا للسلوقيين . ويبدو ان وجهاء البارثيين لم يغفروا لارشاك الثاني هذه الهزيمة ، وهذا ما يفسر انتقال السلطة الى فرع آخر من تلك السلالة .

ولكي نتفهم بالكامل طابع الاحداث الجارية يتعين علينا ان نعود من جديد الى المقارنة بين كلتا روايتى المراجع بخصوص ظهور مملكة البارثيين .

فما الذى كان سببا في ظهور مملكة البارثيين — هل هو الغزو الخارجي ام الانتفاضة الشعبية ؟ يوسطينوس يقر الجواب الاول ، وواريانوس يقر الجواب الثاني . ويمكن القول الآن بان ظهور هذه الفوارق امر طبيعي تماما . فالتأويل الثاني ظهر في الوقت الذى كانت فيه سلالة الارشاكونيين بحاجة الى تبرير ايديولوجي لسلطتها . ولئن كانت في البداية قانعة بتبرير السلطة بواقع الغزو ، ففيما بعد ، عندما تصاعدت الميول الانفصالية في مختلف مناطق الدولة (وخصوصا فى بلاد فارس) اتسمت بأهمية كبيرة طبعا مسألة ما اذا كان الارشاكونيون يمثلون سلالة محلية ، اى ابطال النضال ضد النير الاجنبى (اليوناني المقدوني) ، ام انهم غرباء نازحون ليسوا افضل من اليونانيين والمقدونيين (وكان اشياع الساسانيين يؤمنون بهذا الموقف الايديولوجي) .

والسؤال الثاني هو : هل اسس الدولة بطل واحد ام اثنان ؟ ان استبدال البطل الواحد ببطلين ظاهرة معتادة تماما ، ونتيجة لتأثير التقليد الادبي القائل بوجود بطلين مؤسسين (وليس لزاما ان يكونا اخوين) عند مهد هذه الدولة او تلك ، ابتداء من مؤسسى روما الاسطوريين رومولوس وريموس . ونعيد الى الاذهان ، مثلا ، ان التقليد الادبى بخصوص الفتوحات اليونانية في الشرق غالبا ما يذكر بطلين «زوجيين» هما الاسكندر المقدوني وسلوق (مؤسس دولة السلوقيين) ،

علما بانه يخلق انطباعا وكأن سلوق هو الوريث المباشر للاسكندر .

وان ظهور فكرة الحب المحرم كسبب لاسقاط السلطة انما هو كليشه ادبية شائعة في العصر اليونانى ابتداء من وصف اسباب اسقاط سلطة البيسيستراتيين في اثينا . وقد استخدمت تلك الفكرة لتأكيد الطابع الاستبدادى للسلطة ولشرعية الاطاحة بها

ومن الاساليب الادبية الصرف ظهور المتآمرين السبعة . وقد اقتبس هذا الاسلوب من وصف مؤامرة الفرس السبعة ضد الكاهن الميدى غاوماتا واستخدم للربط بين الارشاكونيين والاخمنيين على سبيل القياس .

وبعد ان تناولنا كل هذه الخصائص التي تميز رواية اريانوس عن رواية يوسطينوس يمكننا ان نقول بان الفوارق بينهما تعود الى ان الرواية الواردة على لسان اريانوس بصدد التاريخ المبكر لدولة البارثيين كانت تستهدف تبرير شرعية سلطة الارشاكونيين بوسائل جديدة . فقد اعيد النظر فى تاريخ بارثينا المبكر طبقا لبعض الاساليب والكليشهات الادبية الواسعة الانتشار ، واضفيت عليه صبغة اكثر «رومانسية» . وبالتالي يجب ان نعتبر رواية اريانوس وثيقة تعكس تطور الايديولوجية البارثية وليس وثيقة تصف احداث عهد ظهور دولة البارثيين .

الا ان رواية اريانوس ، خلافا لرواية يوسطينوس ، تصر على التقليل من قيمة نشاط ارشاك الاول ولا تتطرق اطلاقا الى ارشاك الثانى ، وبدلا من ذلك تكيل المديح الى تردات . وفي الوقت ذاته لا نجد عند يوسطينوس ذكرا

لتردات . فهو ينسب كل الفضل في تأسيس الدولة الى ارشاك الاول الذى يخلفه ابنه ارشاك الثانى . واذا كانت امامنا معالجة ادبية لوقائع التاريخ البارثي المبكر بهدف تبرير حق الارشاكونيين في السلطة فلا يمكن اطلاقا فهم السبب في التقليل من دور ارشاك الاول ونسيان ارشاك الثاني والمبالغة في دور تردات .

ان لهذا الواقع تفسيرا واحدا لا غير : لقد جرى تحوير تاريخ بارثينا المبكر على نحو يؤكد دور تردات ويقلل من دور ارشاك الاول ، مع انه ما كان بالامكان طبعا شطبه كليا من تاريخ بارثينا . وخلاصة القول ان المؤسس الفعلى لمملكة البارثيين هو ارشاك الذى تزعم حركة البدو الرحل الذين قوضوا سلطة الوالي السلوقي اندراغور . وورث الحكم عن ارشاك الاول ابنه ارشاك الثاني . ولكنه نحي عن الحكم في الفترة التي اعقبت حملة انطيوخوس الثالث وانتقلت السلطة الى احفاد تردات شقيق ارشاك الاول . ربما كان تردات قد لعب دورا كبيرا فى مكافحة اليونانيين والمقدونيين مع انه لم يكن ملكا ابدا . واعتلى عرش بارثينا حفيده فرياباد ، وفيما بعد حاول مؤرخو بارثينا الرسميون ان «يحوروا» تاريخها المبكر ، حيث بالغوا في دور تردات ، بل نسبوا له خصالا لم يكن يتمتع بها ابدا ، ومن جهة اخرى حاولوا ان يثبتوا بان الارشاكونيين ليس غرباء ، بل هم ابطال وزعماء نضال السكان المحليين ضد النير الاجنبـي .

ان هذه الاستنتاجات الهامة بخصوص التاريخ السياسي المبكر لدولة البارثيين تستند ، اول ما تستند ، الى المواد

الجديدة التي اكتشفها ودرسها العلماء السوفييت . فان استخدام المصادر البارثية الجديدة بالذات هو الذى غير بصورة مبدئية التصورات السابقة عن الكثير من جوانب تاريخ وحضارة البارثيين ، بما في ذلك بنية المجتمع البارثي .

نظرية جديدة بخصوص
البنية الاجتماعية في بارثينا

ينكب العلماء من زمان على دراسة البنية الاجتماعية في بارثينا ، الا انهم لم يجمعوا حتى الآن على حل لهذه المسألة . ومن الاسباب الاساسية التى تحول دون ذلك قلة المراجع .

ومن اهم المعطيات لحل هذه المسألة ما كتبه بومبايوس تروغوس (ونقله عنه يوسطينوس) وبلوتارك (سيرة حياة كراسوس) . ويتطرق يوسطينوس الى العلاقات الاجتماعية لأول مرة اثناء وصف جيش البارثيين : «جندهم ليسوا كجند الاقوام الاخرى . فهم احرار ، لكن السواد الاعظم منهم عبيد ، وما من احد يحق له ان يعتقهم ، ولذا يولدون جميعا عبيدا ويزداد عددهم من يوم لآخر . والاهتمام بهم مثل الاهتمام بالاحرار ، وتبذل جهود كبيرة لتعليمهم ركوب الخيل ورماية السهام . وكلما ازداد المرء ثراء ازداد عدد الخيالة الذين يقدمهم الى الملك اثناء الحرب . فعندما شن انطونيوس الحرب ضد البارثيين هب في وجهه جند بـ٥٠٠٠٠ خيال وكان الاحرار بينهم ٤٠٠ فقط» .

والخبر الثاني الذى يورده يوسطينوس موجود فى القسم الاثنوغرافي من هذا الفصل ، حيث يدور الحديث عن اخلاقيات البارثيين : «انهم يقضون العمر كله على ظهور الجياد : يقاتلون بواسطتها ، ويقيمون الولائم ويؤدون شؤونهم الخاصة وواجباتهم العامة . على ظهور الجياد يتنقلون من مكان الى آخر ويتوقفون ليتاجروا ويتجاذبوا اطراف الحديث . واخيرا يتلخص الفارق الظاهرى بين العبيد والاحرار فى ان العبيد يتنقلون سيرا على الاقدام ، بينما لا يفارق الاحرار الجياد» .

ويتحدث بلوتارك في سيرة حياة كراسوس عن القائد العسكرى البارثى سورينا فيقول : «كان سورينا من اشهر الناس . فمن حيث الثروة والجاه والشهرة كان يشغل المرتبة الثانية بعد الملك ، ومن حيث البسالة والموهبة كان يتفوق على كل البارثيين . زد على ذلك انه ما كان هناك من يضاهيه في طول القامة والوسامة . وفي الحملات تعود ان يأخذ معه مؤنا على الف جمل مع مائتي عربة تحمل المحظيات والإماء والف خيال بالزرد والدروع وعددا اكبر منهم من حملة الاسلحة الخفيفة الذين يرافقونه . ولا يقل عدد الخيالة والخدم والعبيد عنده عن عشرة آلاف» .

ومما له دلالته ان كل هذه الاقوال تعكس التنظيم الاجتماعي للدولة البارثية دوما من خلال تنظيمها العسكرى . وهذا الترابط يلازم الكثير من المجتمعات الطبقية المبكرة . ولذا فلكي نفهم بشكل افضل المعلومات عن البنية الاجتماعية في بارثينا من الضرورى ان نتناول النظام العسكرى

فيها (وان باكبر قدر من الايجاز) .

كان جيش البارثيين مكونا بالاساس من الخيالة . ولم تكن وحدات المشاة تلعب دورا يستحق الذكر . وتقسم الخيالة الى صنفين : خيالة الاسلحة الثقيلة وخيالة الاسلحة الخفيفة . والصنف الاول يرتدى الزرد والدروع (واحيانا حتى الحصان مزود بها) ويتسلح برمح ثقيل . وكانت خيالة الاسلحة الثقيلة تهاجم العدو بصف متلاحم ، وتنغرز فى صفه وتخترقه وتشطره شطرين ، وبذا يتقرر مآل المعركة . وكانت الخيالة الثقيلة تنسق اثناء القتال عملياتها مع الخيالة الخفيفة ، اى مع رماة السهام .

وحتى الاطلاع الاولي على المصادر اليونانية يكشف رأسا عن التناقض الشديد بين رواية يوسطينوس الاولى وروايته الثانية . فهو في الاولى يقول ان العبيد في الجيش خيالة يدربون ، كما يبدو ، على رماية السهام ، اى انهم من الخيالة الخفيفة . وفي الرواية الثانية يقول ان الفارق الظاهرى بين العبد والحر يتلخص فى ان العبد يتنقل راجلا بينما «لا يفارق الاحرار الجياد» . وهذا التناقض الواضح ليس نتيجة لاخفاق يوسطينوس في مراجعة نص تروغوس اثناء الاختصار (كما يعتبر عادة) ، بل هو نتيجة الخلط الوارد فى نص بومبايوس تروغوس الاصلي بين تقليدين مختلفين يعودان الى مصدرين مختلفين . ولكي نفرق بين هذين التقليدين (وهذين المرجعين) فيما تبقى من هذا البحث سننسب الرواية الاولى ، اصطلاحا ، الى يوسطينوس أ والثانية الى يوسطينوس ب .

وهكذا نواجه ثلاث نظريات مختلفة للتركيب الاجتماعى

في دولة البارثيين (يوسطينوس أ ويوسطينوس ب وبلوتارك) . يقدم يوسطينوس ب لوحة موجزة ومعممة جدا للمجتمع البارثي . ويقدم يوسطينوس أ تفاصيل اكثر قليلا فيربط بنية المجتمع بتنظيمه العسكرى . اما بلوتارك فهو يقدم معلومات عن طائفة من الفئات الاجتماعية الاضافية ، لكنه مع ذلك يقتصر على وصف العلاقات القائمة بين الرجال الذين يرافقون اكبر وجهاء البارثيين (سورينا) في حملته .

فلنتناول بتفصيل اكبر كلا من هذه «النظريات» . ونبدأ من ابسطها ـــ يوسطينوس ب . روايته في منتهى الايجاز : يتكون المجتمع البارثي من فئتين الاحرار (liberi) والعبيد (servi). والفارق الظاهرى بينهم هو ان العبيد يتنقلون راجلين والاحرار راكبين . ان هذا التأكيد بحد ذاته يمكن ان يتخذ دليلا على ان مصطلح «الخيال» يجوز ان يفهم ليس بالمعنى العسكرى فقط ، بل وبالمعنى الاجتماعي . ويزداد وزن هذا الاستنتاج بروايات تعود الى عهدين آخرين من تاريخ بلاد فارس : عهد الاخمنيين السابق وعهد الساسانيين اللاحق . وجاء في كتاب كسينوفون «سيروبيديا» ("Cyropaedia") ان الفرس بموجب وصية كـــــورش يتبعون عادة تقول ، «لا يجوز لاى فارسى نبيل المحتد ان يسير ماشيا في اى مكان» . وبالنسبة لبلاد فارس في عهد الساسانيين توجد معلومات كثيرة بخصوص المعنى الاجتماعي لمصطلح «الخيال» (تساوى مفاهيم «الحر» و«النبيـــل» و«الخيال») . الا ان هذه الافكار متجسدة باسطع شكل في مؤلف «زاماسب ـــ نامك» المتسم بطابع النبوة . فهو يتحدث

عن المصائب التي ستحيق ببلاد فارس عندما تسقط فيها سلطة «الدين الخالص» . ومن افظع تلك العواقب الانقلاب التام في العلاقات الاجتماعية : «فالراجل يغدو راكبا والخيال يترجل» . علما بان الكتاب يكشف عن معنى مصطلح «الخيال» ويقصد به «الحر» و«الوجيه» . وهكذا كان في بلاد فارس الساسانية ايضا تصور بشأن التعارض المباشر بين الخيالة الاحرار والمشاة العبيد .

وتمكننا المقارنة بين معطيات يوسطينوس ب ومعطيات هذا المصدر من التأكيد بان الحدود بين الحرية والعبودية من وجهة نظر التصورات العامة في المجتمع البارثي هي على النحو التالى :

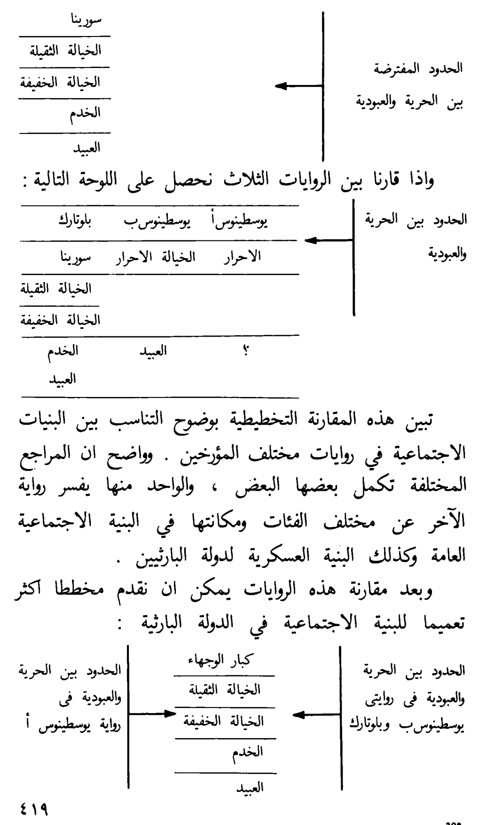
الحدود بين الحرية والعبودية ← الخيالة — احرار / غير الخيالة — عبيد

فلنتناول الان رواية يوسطينوس أ . فهي تقول ان الجيش البارثي يتكون من الخيالة ، علما بان قسما قليلا منهم احرار (liberi) ، وان السواد الاعظم عبيد وفى الوقت ذاته يشير النص الى السمات التالية التي تميز العبيد : ١) اطلاق سراحهم ممنوع ، ٢) حالة العبودية وراثية ، ٣) العناية باطفال العبيد كالعناية باطفال الاحرار ، ٤) تدريب العبيد على ركوب الخيل والرماية بالسهام ، وهذا يعني انهم يستخدمون في الجيش بمثابة رماة الخيالة الخفيفة ، ٥) الصلة الشخصية بين البارثي الحر وعبيده الذين يقدمهم الى جيش الملك . ان هذه اللوحة المحدودة باطر القوات المسلحة تشطب كل المعلومات الخاصة بالفئات الكادحة والمنتجين المباشرين .

فاللوحة تقتصر على المراتب الاجتماعية الاعلى . وعلى العموم يمكن ان نتصور مخطط بنية المجتمع البارثي ، بموجب هذا المرجع ، على النحو التالي :

الحدود بين الحرية والعبودية	←	الاحرار
		الخيالة الخفيفة
		المنتجون المباشرون

واخيرا تقدم رواية بلوتارك الصيغة الثالثة للوحة البنية الاجتماعية في دولة البارثيين . فان بلوتارك يتحدث عن جبروت سورينا ويصف على النحو التالي تركيب الجمهور الذى توجه الى كارى (حران) مع هذا الارستقراطي البارثي الجبار والذى كان تابعا له : ١) الخيالة الثقيلة ، ٢) الخيالة الخفيفة ، ٣) الخدم ، ٤) العبيد . وتتلخص اهمية هذه الرواية في كونها تمكننا من الكشف عن مضمون فئة **servi** التى اوردها يوسطينوس ب . واتضح ان هذه الفئة تضم شريحتين : الخدم والعبيد الصرف . وبالاضافة الى ذلك تؤكد هذه الرواية مرة اخرى ان هاتين الفئتين تابعتان شخصيا الى الوجهاء . واخيرا ، وبفضل رواية بلوتارك ، تتعزز بقدر اكبر الفكرة القائلة بان «الاحرار» عند يوسطينوس أ هم «الخيالة الثقيلة» عند بلوتارك . الا ان هذه الرواية تعانى من نقص واحد بالمقارنة مع الروايتين السابقتين . فهى لا تشير الى الحد الدقيق الفاصل بين الاحرار والعبيد . ويمكن الافتراض ، استنادا الى مصطلحاتنا ، بان الحد الفاصل هنا يبتر او يعزل العبيد والخدم (غير المسلحين) عن الخيالة (الثقيلة والخفيفة) . وهكذا فبالاستناد الى رواية بلوتارك يمكن ان نصور



مخطط البنية الاجتماعية في دولة البارثيين على النحو التالي :

واذا قارنا بين الروايات الثلاث نحصل على اللوحة التالية :

تبين هذه المقارنة التخطيطية بوضوح التناسب بين البنيات الاجتماعية في روايات مختلف المؤرخين . وواضح ان المراجع المختلفة تكمل بعضها البعض ، والواحد منها يفسر رواية الآخر عن مختلف الفئات ومكانتها في البنية الاجتماعية العامة وكذلك البنية العسكرية لدولة البارثيين .

وبعد مقارنة هذه الروايات يمكن ان نقدم مخططا اكثر تعميما للبنية الاجتماعية في الدولة البارثية :

وهكذا يرسم هذا المخطط بمزيد من الوضوح لوحة البنية الاجتماعية العامة : فئاتها العليا (التي تضم كبار الوجهاء والخيالة الثقيلة المكونة من صغار الوجهاء) وفئاتها السفلى الكادحة (التي تضم شريحتين مستغلتين : الخدم والعبيد) .

وتكمن صعوبة الحل النهائي للقضية في ان هذا المخطط يضم فئة اجتماعية يعتبرها يوسطينوس أ من العبيد ويعتبرها يوسيطنوس ب وبلوتارك من الاحرار (صحيح انها واردة في المراجع بمصطلحات عسكرية فقط وليـس اجتماعية) . وهذه الفئة هي الخيالة الخفيفة . ان مكانة هذه الفئة في النظام العام حساسة واساسية من بعض النواحي ، لان من المستحيل رسم الحدود الفعلية بين الحرية والعبودية فى مجتمع البارثيين بدون الكشف عن المكانة الحقيقية لتلك الفئة .

وبغية حل هذه المسألة من الضرورى ، كما يخيل الينا ، الانطلاق من الواقع الذى حاولنا اثباته في الجزء الاول من هذا البحث : ظهور مملكة البارثيين كان نتيجة لغزو البدو الرحل الابارنة لمنطقة بارثينا . ولذا تجدر الاشارة الى ان المراجع اليونانية تشبه البارثيين دوما بالاسقوثيين (اى البدو الرحل باوسع معنى هذا المصطلح) . فالعالم اليوناني يتذكر جيدا المنشأ البدوى لهذه الدولة . اكد بلينيوس قائلا «وراء هذا النهر (ياكسارت) تقيم شعوب اسقوثية اطلق عليها الفرس اسم الصاغ . . . وهي تعيش مثل البارثيين . . .» . ويعتبر لوكانوس انتصارات البارثيين على الرومان انتصارا للسلاح الاسقوثي . ويتحدث تاسيتوس عن محاولة فرار الامير البارثي

فونون ويقول انه هرب الى «ملك الاسقوثيين الـــــذى تربطه به قرابة الدم . . .» . وفي المؤلفات المتأخرة غدا اصل البارثيين الاسقوثي واقعا معترفا به من قبل الجميع . فقد كتب عن ذلك ترتوليانوس وسفيدا أوستافيوس السالونيكي وغيرهم .

ان المقارنة مع الاسقوثيين والاستشهاد بصلة القربى معهم يجعلاننا نركز بمزيد من الانتباه على بنية المجتمع الاسقوثي . فقد كان المجتمع الاسقوثي فئويا متفاوتا بشكل واضح . ولعل جميع الباحثين يوافقون على ذلك الآن ، بما فيه مسألة وجود فوارق عميقة ذات طابع اجتماعي بيـــن الارستقراطية العسكرية وبين بسطاء ابناء القبائل الاسقوثية . وكانت هذه الفوارق عميقة لدرجة جعلت الباحثين يعتقدون بامكان الكلام عن الطوائف او الجماعات الفئوية الطائفية . وليس هناك مبرر للشك بان مثل هذه البنية كانت موجودة عند الابارنة ، فقد حدثت في اتحادهم القبلى كذلك عملية التمايز او الفرز الاجتماعي ، اذ ان السواد الاعظم من ابناء القبائل كانوا يشغلون مرتبة واطئة داخل البنية العامة للاتحاد القبلي وكانوا تابعين للارستقراطية . ان حالة التبعية التى كانت تعيشها هذه الفئة من السكان (التبعية لشيوخ القبائل ، اى للارستقراطية العسكرية) هي التي تعنيها المراجع عندما تنسبها الى خانة «العبيد» (كما نرى عند يوسطينوس أ) . الا ان الغزو ساعد على زيادة قيمة هذه الفئة . ففي الظروف العادية تقتصر عساكر القبائل الرحل على الارستقراطية العسكرية ، وفي المواقف الحرجة فقط كان ممثلو الفئات الاجتماعية

الوضيعة التي لا تضطلع من حيث المبدأ بالوظيفة العسكرية يشركون ايضا في العمليات الحربية . ومن تلك المواقف الحرجة غزو الابارنة ، لكن هذا الغزو استمر امدا طويلا جدا . وادى الغزو ومكافحة الخطر الخارجي وضرورة ابقاء السيطرة على الشعوب المغلوبة الى جعل هذه الجماعة الفئوية الطائفية ايضا تكتسب طابعا عسكريا مع انها كانت تزود الجيش البارثي بالخيالة الخفيفة — الرماة ، خلافا للوجهاء (الخيالة الثقيلة) . وهناك ما يبرر الافتراض بان القبائل البارثية كانت في غضون فترة طويلة نسبيا تعيش معزولة في الاراضي المحتلة ، فحافظت على تقاليدها المعيشية ونمطها الاقتصادى المعتاد . وتدل على ذلك المصادر الكتابية والاثرية . وهكذا فبعد الغزوات والفتوحات التى خلقت وضعا اجتماعيا جديدا صارت الاهمية الاكبر من نصيب الحدود الاجتماعية الجديدة : بين الغالبين والمغلوبين . وصارت الحدود الحقيقية او الفعلية بين الحرية والعبودية تمر على امتداد الخط الفاصل بين عامة ابناء قبائل الفاتحين وبين الاقوام المغلوبة على امرها ، اى الخط الذى اشار اليه يوسطينوس ب وبلوتارك .

وبالتالي يمكن التفكير بان التناقضات في المراجع لدى الاشارة الى مكانة هذه الجماعة او الفئة (الطائفة) فى البنية الاجتماعية العامة للدولة البارثية ليست نتيجة لاخطاء معينة ، بل هي انعكاس لطابع تلك الفئة المزدوج . فمن جهة نجد هذه الجماعة المنتمية بنيويا الى القبائل الغازية متواجدة بلا شك ضمن الفئة المسيطرة . تلك هي النظرة الى المجتمع البارثي كله من هذه الزاوية ، من زاوية التقسيم الى غالبين

ومغلوبين (كما عند بلوتارك ويوسطينوس ب) . لكن مجتمع الابارنة ، من الجهة الاخرى ، والذى غدا الآن فئة مهيمنة على جماهير اهالي بارثينا المغلوبة كانت له بنية معقدة خاصة به ، وفي اطار هذه الفئة المهيمنة تشغل تلك الجماعة مرتبة الخضوع طالما هي تابعة للارستقراطية العسكرية . وهذه التبعية ، كما اسلفنا ، ذات طابع شخصى . وفي الوقت ذاته تبين عدة تفاصيل في روايات المراجع (العناية باطفال من يسمون بالعبيد وتدريبهم على الفروسية ورماية السهام) ان حالة التبعية كانت تستخدم ليس من اجل الاستغلال في العمل ، بل من اجل تشكيل قوات مسلحة تابعة تؤمن هيمنة الوجهاء .

ان هذه الملاحظات تمكننا من ان نتصور ، على العموم ، طابع البنية الاجتماعية في الدولة البارثية .

عشيرة الارشاكونيين الحاكمة تتربع على قمة الهرم الاجتماعى ، ولا يحق لاحد من غير ابناء هذه العشيرة ان يعتلى عرش المملكة . وكان ابناء هذه العشيرة يتربعون كذلك على عروش الممالك التابعة والخاضعة . وكان هناك سلم دقيق للعروش حسب اهميتها . وكانت سلطة الملك المطلقة ، من حيث المبدأ ، مقيدة بطائفة كاملة من التوجهات التقليدية ، بما فيها التقاليد المتبقية من عهود الاتحاد القبلي . وكان تقليد عائدية السلطة الى العشيرة بالذات قد ولد اتجاها دائميا نحو التباعد او عدم التكامل السياسي .

وكانت المجموعة الكبيرة التالية من المراتب الاجتماعية تضم ابناء الغزاة الابارنة الذين ينعتون بالخيالة او الفرسان .

وتقسم هذه المجموعة الى فئتين العليا منهما تضم الوجهاء — الارستقراطية العسكرية — من ابناء شيوخ عشائر وافخاذ الابارنة . وهي تحتكر السلطة السياسية والعسكرية في الدولة ، وهذا الاحتكار يقره القانون او على الاكثر الاعراف الشائعة . فالوجهاء بالذات يشكلون نواة العساكر في بارثينا — الخيالة الثقيلة . وكان اساس سلطة الوجهاء واهميتهم (بالاضافة الى دورهم العسكرى) يتمثل في ممتلكاتهم من الاراضي الشاسعة ، مع ان طابع ملكية الاراضي عند البارثيين لا يزال غير مدروس الى حد بعيد . وفي داخل هذه الفئة الاجتماعية برزت شريحة من كبار الوجهاء وخصوصا «الافخاذ السبعة» (سورينا وكارينا ومن لف لفهما) ممن يمتلكون اراضي شاسعة . ويبدو ان سلطتهم في تلك الاراضي لا تختلف كثيرا عن سلطة الملوك .

واخيرا ، فمن اهم مرتكزات الوجهاء (عموما) سلطتهم التقليدية على ابناء عشائرهم وعامة ابناء افخاذ الابارنة الرحل . ويبدو ان تلك السلطة كانت قوية لدرجة جعلت المؤرخين اليونانيين ينعتون احيانا حالة هذه الجماعة من ابناء العشائر بالعبودية مع انها لم تكن من العبودية بشيء . ولذا فان مصطلح احرار (liberi, azatan) كان فى اغلب الظن يطلق على الوجهاء وحدهم من بين المسؤولين السياسيين فى بارثينا .

ان الحالة المزدوجة للفئة السفلى من الخيالة تعكس خاصية مجتمع البارثيين بوصفه مجتمعا تركت الغزوات اثرا شديدا فى بنيته الاجتماعية . فالخيالة الذين هم من الغزاة

كانوا يختلفون اختلافا كبيرا عن السواد الاعظم من السكان المحليين المغلوبين ، لكنهم في الوقت ذاته كانوا تابعين للوجهاء . وكانوا ، بوصفهم ممثلين للفئة المهيمنة ، قد لعبوا دورا ملحوظا تماما في عساكر الدولة ، حيث كان ابناء هذه الفئة بالذات يشكلون الاغلبية ، اى جمهور الخيالة الخفيفة ورماة السهام . وكانوا يتمتعون بعدة امتيازات تفرقهم كثيرا عن السواد الاعظم من السكان المغلوبين . ويحتمل انهم كانوا من الناحية المعيشية والاقتصادية يختلفون عن عامة الناس الزراعيين محتفظين بتقاليد الرعى البدوى وشبه البدوى ومقيمين فى اطراف الواحات الزراعية . لكن تبعيتهم للوجهاء (وهي ، على ما يبدو ذات طابع شخصي) ظلت باقية في الوقت ذاته ، بل واشتدت بنتيجة الفتوحات .

كانت الحدود الاجتماعية الاساسية في دولة البارثيين تمتد على طول الخط الذى يفصل الخيالة عن سائر السكان الذين يشكل من يسميهم بلوتارك بالخدم نواتهم على ما يبدو . وكان الاساس الحقوقي لحالة التبعية التي تعيشها فئة السكان الخدم هو التصور الملازم للعالم القديم كله والقائل بان اموال وحياة المغلوب تعود بالكامل للغالب .

ويبدو ان هؤلاء السكان كانوا منظمين فى طوائف وكانوا يتمتعون بأهلية حقوقية معينة ويمارسون تدبير شؤونهم الاقتصادية . وكانت التبعية للفئة العليا تتجلى في كون هذه الطوائف الاجتماعية تشكل جمهورا من اهل الذمة تخضع قطع اراضيه لضرائب معينة ، ويحملنا واجب فلاحة قطع الاراضي والعقوبات الصارمة على عدم اداء هذا الواجب على

التفكير بان حالة هذه الفئة من السكان كانت تشبه حالة «اللاوى» فى دولة البطالسة . وكانت هذه الفئة من السكان تقيم فى اراض اميرية خاضعة للملك مباشرة فتكون تابعة للدولة بشخص الملك ، كما تقيم في اراضي كبار الوجهاء فتكون تابعة للوجهاء .

ومع ان المؤرخين اليونانيين يعتبرون احيانا هذه الفئة من السكان عبيدا فلا يجوز اعتبار حالة التبعية هذه عبودية . والنعت الاكثر مناسبة لها هو «اشباه العبيد» . وكانت الغزوات اهم سبب لظهور «اشباه العبيد» .

ويشغل العبيد مرتبة اوطأ . ومن الضرورى التأكيد على تنوع انماط واشكال العبودية ، وكذلك ، في اغلب الظن ، وجود درجات انتقالية بين العبد والخادم .

وهكذا نشير الى اهم خصائص المجتمع البارثي ١) تأثير الغزوات الكبير على تكوين البنية الاجتماعية ، ٢) كثرة الفئات الاجتماعية وانعدام الحدود الدقيقة بينها فى القسم السفلي من سلم المراتب الاجتماعية وازدواجية حالة بعضها ، ٣) التطابق غير الواضح تماما بين الحدود الطبقية والفئوية ، ٤) الدور الهام جدا الذى تلعبه المراتب الاجتماعية في تحديد مكانة الفرد في المجتمع . كل هذه الملابسات تحملنا على اعتبار المجتمع البارثي مجتمعا تقليديا عتيقا لدرجة كافية

ولا جدال فى ان اللوحة المرسومة للعلاقات الاجتماعية تعانى ، اولا ، من كونها غير كاملة بقدر ما (فهى مثلا لا تتناول العلاقات القائمة في المقاطعات اليونانية او في اراضي

المعابد) ، وثانياً ـــ من بعض التعميم وانعدام تفاصيل واوصاف الاشكال الانتقالية وهلمجرا . الا ان هذا المخطط التعميمي له حق معين في البقاء ، لانه ، أولا ، يستند الى معطيات المراجع ، وثانيا ـــ يقدم «موديلا مثاليا» للمجتمع البارثي يساعد على رسمه استنادا الى تحليل هذه المراجع . بديهي ان اللوحة الفعلية للعلاقات الاجتماعية كانت اكثر تعقيدا . ويمكن الافتراض بان البنية الاجتماعية موضوع البحث كانت موجودة فقط في مقاطعات بارثينا الشرقية . ففي الغرب (بابل ووادى الرافدين وخوزستان ـــ سوزيانا) حيث بدأت عملية تكون الطبقات قبل ذلك بكثير وسارت بطريق آخر ، ظهرت بنية اجتماعية خاصة به (ويزيد في تعقيدها وجود المقاطعات اليونانية) . وكان غزو البارثيين لهذه المناطق قد ادى الى اصطدام وتفاعل هاتين البنيتين الاجتماعيتين المختلفتين .

خطأ لوقيانوس والحضارة البارثية

«لم يكن الارشاكونيون يهتمون بالجمال ، وعندما يعرضون شيئا على الملأ لا يفكرون بمتعة المتفرجين ولا باستحسانهم ، كل ما يفكرون فيه هو اثارة الدهشة ، لان البرابرة ليسوا رفقاء الجمال بل رفقاء الثروة وحدها» . هذا ما قاله الكاتب اليوناني المعروف لوقيانوس في معرض تقييم الحضارة البارثية . ومما يؤسف له ان هذا التقييم الصارم المتحيز قد حدد موقف العلماء الاوربيين من بارثينا وحضارتها .

وكانت رفوش الحفريات في القرن التاسع عشر قد دمرت دون رحمة طبقات التربة التي تغطي آثار الحضارة البارثية ، لان الاعتقاد السائد هو ان تلك حضارة بربرية وفن همجي لا قيمة لهما . فان علماء الآثار كانوا يبحثون فقط عن حضارات بابل وسومر واكد .

ان نقطة الانطلاق في دراسة الحضارة البارثية هي ، فى اعتبارنا ، كتاب العالم الفرنسي المعروف في القرن التاسع عشر ديالافوا والذى غدا بمثابة اول نشرة للمعطيات الخاصة بالتاريخ الحضارى لدولة البارثيين . وقد صدر كتاب ديالافوا l'art antique de la Perse, Part V (Monuments Parthes et Sassanides) في باريس عام ١٨٩٥ . الا ان ديالافوا يعتبر البارثيين «شعبا بربريا فظا» «جحافله مثل جحافل اتيلا» (غضب الله) «قدرت العناية الالهية للبارثيين في التاريخ ليس دور البناء في الفن ، بل دور ابتذال الفن» . وقد نشط فى تطوير هذه الافكار في القرن العشرين العالم الاثرى والمؤرخ الالماني المعروف هيرتسفيلد . وتتسم مؤلفاته بالتحيز المفرط والقسوة الشديدة في تقييم الحضارة البارثية . وهو يتناول الفن البارثي من وجهة نظر اصول الفن الهليني من جهة ، ومبادئ فن الاخمنيين من جهة اخرى . وكل ما لا يطابق تلك الاصول والمبادئ يشطب بلا رحمة وينعت بانه خال من القيمة الفنية والاصالة وبانه توليفى وهلمجرا . ولا يعترف بان فن بارثينا يمكن ان تكون له اسسه الخاصة التى تختلف عن الاسس الهلينية والاخمنية ، واساليبه وطرائقه في الابداع الفني .

ولم يتغير الحال الا بعد الحصول لاول مرة على مواد فعلية غنية حول الفن البارثي بنتيجة الدراسات الاثرية . ويعود فضل كبير في وضع الموقف الجديد من حضارة البارثيين للاثرى روستوفتسيف الذى اشرف على الحفريات في دورا اوروبوس على ضفاف الفرات (سورية) . ففي سياق تلك الحفريات اكتشفت تحصينات ومنازل ومعابد وتم الحصول على مجموعة كبيرة من الكتابات (اليونانية والآرامية) والتماثيل والنقوش الجدارية . وبنتيجة دراسة كل هذه المواد الجديدة الهائلة وضعت نظريات جديدة لتاريخ الفن والحضارة البارثيين ، وهي نظريات تركز اساسا ليس على التوليفية وليس على الاقتباس ، بل على الجديد مبدئيا الذى حمله البارثيون الى فنون الشرق * .

ورغم الاهمية الكبيرة لدراسات روستوفتسيف فانها لم تكن معصومة من النواقص الجدية تماما . وكان من اهم تلك النواقص ان روستوفتسيف لم يتمكن ، في ظاهرة معقدة مثل فن دورا اوروبوس ، من ان يعزل العناصر البارثية الصرف عما ابدعته التقاليد الفنية لليونانيين والسكان المحليين في وادى الرافدين . ففي تلك الفترة لم يكن معروفا على الاطلاق في الواقع فن البارثيين ، فن المناطق التى كانوا يقيمون فيها منذ القدم والتي انتشروا منها في ربوع الشرق الشاسعة . وباختصار كانت الضرورة الملحة في تطوير العلم تتطلب تطوير الدراسات الاثرية في المناطق الاصلية لاقامة البارثيين . وهذه المناطق هي : القسم

* M. Rostovtzeff. Dura-Europos and its art. Oxford, 1939.

الجنوبي من جمهورية تركمانيا الاشتراكية السوفييتية (الاتحاد السوفييتى) والقسم الشمالي الشرقي من إيران . وقد بدأت الدراسات الاثرية الواسعة في جنوب تركمانيا حالما وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارها . وقدمت تلك الدراسات مادة جديدة وفيرة ساعدت على تصور طابع حضارة البارثيين بشكل حقيقى ، وبالتالي الكشف عن قسط البارثيين في حضارة الشعوب الداخلة ضمن مملكتهم الهائلة . وخلال هذه الحفريات درس موضعا ستارايا نيسا (القديمة) ونوفايا نيسا (الجديدة) وتشكيلة المعابد في منصور تبه والكثير من القرى العادية . (اما في اراضي شمال شرقى إيران فقد كان نطاق الحفريات اضيق بكثير. وقام الاثريون الانجليز بحفريات محدودة في اراضي هيكاتومبيل العاصمة المبكرة لمملكة بارثينا) .

ان اهمية الحفريات في جنوب تركمانيا كبيرة حقا بالنسبة لفهم الحضارة البارثية . فالدراسات الاثرية التى قام بها العلماء السوفييت تمكننا من القاء نظرة جديدة على طابع الحضارة البارثية والكشف عن خصائصها

يقع موضعا ستارايا نيسا ونوفايا نيسا على اطراف موضع باغير ليس بعيدا عن عشق آباد عاصمة تركمانيا . وفي نوفايا نيسا بقايا مدينة كبيرة كانت قائمة في عهد البارثيين وفي فترة طويلة بعده . ومع ان دراسة الطبقات البارثية في نوفايا نيسا واجهت صعوبات بالغة بسبب الترسبات المتعددة الامتار العائدة الى عصور اقرب الينا ، فقد امكن الكشف عن طائفة كاملة من الوقائع الهامة للغاية

من تاريخ المدينة في العهد البارثي . فقد تم مثلا الكشف عن الخصائص الاساسية لتخطيط المدينة ، ودرست جزئيا تحصيناتها ، واجريت حفريات للمعبد وقسم من المدفن الواقع قرب سور المدينة . وكان الموضع الآخر ، ستارايا نيسا أكثر «ملاءمة» للاثريين . فهو بالاساس ذو طبقة واحدة ، اى ان الطبقات البارثية غير متشابكة في اى مكان مع طبقات لعصر احدث . وان دراسة هذا الاثر ابسط بكثير طبعا . ويختلف موضع ستارايا نيسا عن نوفايا نيسا اختلافا مدهشا . فتلك لست مدينة عادية ، بل قلعة حصينة لاغراض خاصة . ففي داخل جدرانها لا توجد في الواقع مبان سكنية . ومنشآتها مركزة في مجمعين كبيرين . وتشغل المرتبة الرئيسية بينها القصور والمعابد (مثل «المعبد الدائرى» و«القاعة المربعة» والبرج) ودار الكنوز («الدار المربعة») . صحيح انها نهبت في قديم الزمان ، لكنها منحت علماء الاثار طائفة كاملة من اللقى الهامة ، بما فيها كسر من المنحوتات الرخامية والكؤوس القرنية الشكل التى ذاع صيتها في العالم كله . وتتسم بأهمية بالغة مستودعات النبيذ . الا ان اهم الآثار التى عثر عليها هنا ليس خوابـي حفظ الخمر بل كسرها التي استخدمها الكتبة بمثابة مادة للكتابة سجلوا عليها مواصفات كل وجبة من النبيذ تصل الى القلعة . وقدم فك رموز هذه الوثائق مواد جديدة كثيرة جدا لفهم العديد من جوانب حياة البارثيين .

وقد ساعدت الحفريات الاثرية في ستارايا نيسـا

بالدرجة الاولى على اجراء تقييم جديد لطابع المعمار البارثي . فقبل امد قصير كان مؤرخو العمارة يعتبرون المعمار البارثي بدائيا للغاية . فقد كتب الباحث الفرنسي المعروف في اواخر القرن التاسع عشر شوازيه يقول : «مع سقوط سلالة الاخمنيين (عام ٣٣٠) توقف تطور الفن في بلاد فارس وبدأت مرحلة العقم الكامل تقريبا . والآثار التي وصلتنا من عهد السلالة البارثية ما هي الا تقليد ومحاكاة» .

وساعدت دراسة التشكيلات المعمارية في نيسا على تغيير التقييم القديم للمعمار البارثي . ففي ستارايا نيسا نجد المنشآت المعمارية مركزة في مجمعين . وبين منشآت «المجمع الجنوبي» تعود اهم مرتبة لما يسمى «بالقاعة المربعة» . فهذه البناية القائمة على قاعدة ضخمة من اللبن هي عبارة عن مربع بجدران سمكها ثلاثة امتار . والمساحة الداخلية للبناية ٢٠×٢٠ مترا وفي الجدار الشمالي الغربي ثلاثة ممرات اوسطها اعرض قليلا من الممرين الجانبيين . والممرات مطوقة بطيقان سائبة ضخمة . وكان هناك بابان في القاعة يؤديان الى رواقين مسدودين كان لاحدهما ، على ما يبدو ، غرض خاص ، لان جدرانه وارضيته مطلية بلون احمر قان

والجدران من الداخل مقسمة الى صعيدين ، الصعيد الاسفل مزين بنتوءات مبنية على الطراز الدوري من اللبن غير المحروق وملبسة بالواح حجرية . والصعيد العلوي مزين باعمدة نصفية ذات تيجان من التراكوتا . وفي وسط القاعة اربعة اعمدة قرميدية اسطوانية كأنما تؤكد

على الشكل المربع لداخل البناية .

وفي مطلع العصر الميلادى حدث اعمار لم يغير الفكرة التخطيطية الاساسية للبناية ، لكنه غير كثيرا في شكلها الداخلى . فقد اضيفت الى الاعمدة (في منتصفها) حزوز رباعية ، وبدلا من نتوءات الصعيد السفلى ظهرت اعمدة نصفية على قواعد اهليلجية . وعلى الصعيد العلوى ظهرت اعمدة اسطوانية محاذية للجدران . وطليت جدران الصعيد السفلى بدهان ابيض ، بينما طليت جدران الصعيد العلوى بالاحمر القاني . واستخدمت في تزيينها افريزات سوداء ذات نقوش حمراء . وفي جدران الصعيد العلوى محاريب فيها منحوتات طينية مطلية بالوان زاهية . وقد جرت العادة على اعتبارها منحوتات ملوك وملكات عائلة الارشاكونيين ، ولكن يحتمل تماما ان تكون تماثيل للآلهة .

ومن اهم المسائل المرتبطة باكتشاف «القاعة المربعة» مسألة الغرض منها . ففي بعض الاحيان ينعتونها بالبلاط الملكي ويقارنونها ببلاط الاخمنيين ، لكن هذا الاستنتاج يصعب قبوله . فليست هناك اية اوجه للتطابق النمطى بينها وبين القاعات فى قصور الاخمنيين . زد على ذلك ان مكان العرش في قصور آسيا الوسطى ، وخصوصا في تبارك كال وخالتشايان ، يزين باساليب معمارية (محراب عميق وهلمجرا) . اما فى هذه البناية ذات التخطيط المركزى الصارم فلا توجد اية تقسيمات من هذا النوع . ومن جهة اخرى نجد توافقا كبيرا بين تخطيط «القاعة

المربعة» وبين المخطط النمطى لتطور «معبد النار» الايراني الذى يشغل مكانه زمانيا ونمطيا بين المعبد الاخمني سوز والجرداغ الساساني . ويتكون معبد سوز من قسمين اساسيين ــ الباحة الكبرى (وحولها عدة بنايات) والمعبد ذاته الواقع على مستوى اعلى والذى يضم صالة مربعة التخطيط (وفيها اربعة اعمدة كأنما تشير الى مربعها الداخلي الذى يحتوى على المذبح في الوسط) وشبكة من الاروقة الالتفافية . والخاصية المميزة لهذا البناء ان منافذ الصالة مبنية بشكل يحول دون تسرب اشعة الشمس اليها مباشرة . تلك هي بداية السلسلة التطورية التي يختتمها الجرداغ الساساني ، وهو عبارة عن قبة ذات كوات مقوسة في كل جهة لتكون النار المقدسة المشتعلة في الوسط مرئية من كل الجهات . وهكذا يسير تطور الصورة المعمارية جنبا الى جنب مع تطور التصورات الدينية . وتشغل مكانة وسطية بين هذين القطبين من التطور «معابد النار» من العصر الهليني وما بعد الهليني ، وهي معابد يمكننا ان نرى فيها مختلف صيغ ومراحل عملية تحول المعبد الاخمني الى الجرداغ الساساني . ففي معبد بيرسيبول تحولت الباحة الاخمنية الى مبنى طولاني واحد وتحولت الاروقة الالتفافية الى سلسلة من الغرف غير المترابطة . وفي الاخيضر (وادى الرافدين) تختفى الاعمدة الاربعة في وسط الصالة ، وفي معبد كوخ خوجه (سجستان) ، وهو اقرب المعابد الى الاصل الاخمني ، تظهر القبة الملازمة للجرداغ الساساني مع ان قاعدتها لا تزال مطوقة بالاروقة الالتفافية .

وفي معبد سرح — كوتالا في قوشان يتسرب شعاع الشمس بطلاقة الى الصالة من خلال كوات عريضة رغم بقاء النواة التقليدية . ويشغل معبد نيسا («القاعة المربعة») مكانه في تنوع هذه الاشكال الانتقالية .

وانطلاقا من هذا التأويل يتسم بأهمية بالغة الجمع بين المخطط الهيكلي المحلي الصرف — الفارسي — وبين العناصر التزيينية المقتبسة من العمارة اليونانية . الا ان هذه العناصر الغريبة تستهدف التطوير العمودى للداخل ، الامر الذى لم يكن معروفا سابقا في عمارة المعابد لدى الشعوب الناطقة باللغات الايرانية . وبالمناسبة فان هذا الموضوع غريب بقدر ما على عمارة المعابد اليونانية ايضا . وهكذا يمكننا ان نلاحظ كيف يؤدى الجمع بين مبادئ المعمار الغريبة على بعضها البعض سابقا الى نشوء ظاهرة معمارية جديدة ويجدر بنا ان نأخذ بعين الاعتبار كذلك ان العناصر التزيينية المقتبسة من اليونان تعرضت للتحوير هنا . فان نظام الانماط المعمارية الثلاثة فقد دوره الايجابي الذى كان له في العمارة اليونانية . ففي بارثينا استخدم النظام النمطي ليس كوسيلة لبناء الفضاء العمارى ، بل مجرد وسيلة تزينية لداخل المباني . ولذلك بالذات تكتسب بعض عناصر هذا النظام (كالافريز وتيجان الاعمدة) شكلا مسطحا وتصنع ليس من الحجر بل من الفخار (التراكوتا) حتى يغدو وكأنه مرسوم على سطح الجدار . فهنا تسود نظريات معمارية خاصة تستوعب النظام النمطي وتكيفه على هواها .

والمنشأة الهامة الثانية في التشكيلة الجنوبية هي ما يسمى «بالمعبد الدائرى» ، ولعله الاثر الاكثر اصالة فى المعمار البارثي المبكر . ومن حيث المظهر الخارجى يمثل المبنى قاعدة مربعة ضخمة يقوم عليها موشور سداسى الاضلاع ينتهى فى القمة بخيمة هرمية .

ان هذا المظهر الخارجي للمبنى يتعارض بعض الشيء مع الفضاء الداخلي الذى هو عبارة عن بناية دائرية (قطرها ١٧ مترا) ليس فيها ما يماثل مظهرها الخارجي الا الاروقة الالتفافية . وفي بادئ الامر كانت ثلاثة مداخل تؤدى من الاروقة الى داخل المبنى ، وقد سد اثنان منها فيما بعد . وان طابع تقسيم الداخل الى صعيدين يختلف عما في «القاعة الرباعية» . فهنا نجد تطابقا بين الجدران البيضاء الملساء المجصصة في الصعيد السفلى وبين الاعمدة ذات الطراز الكورنثي الملاصقة لجدران الصعيد العلوى . ويفصل بين الصعيدين حزام من الواح التراكوتا ذات الحزوز السهمية في الاطراف والرسوم المجسمة الناتئة في الوسط . مواضيع الرسوم محلية (الهلال ومزهرية ورود ذات اربع اوراق وسهم مع قراب وشارة طمغة) ويونانية (هراوة هرقل ، قناع اسد) . وفي محاريب الصعيد العلوى منحوتات طينية للآلهة التي عثر على كمية كبيرة من اجزائها اثناء الحفريات .

بديهي ان هذا الحل الايجابي المعقد جدا للبناية لم يكن من قبيل الصدفة . فهو نابع من اعتبارات وظيفية . ولما كان المبنى نفسه لا يتوخى اغراضا معيشية ، فان

الهدف منه طقوسي دون شك . ولما كانت الآثار التى عثر عليها في «المعبد الدائرى» لا تشير مباشرة الى طابع الطقوس التى كانت تقام فيه فان الطريقة الوحيدة لحل المهمة المطروحة ، اى لتحديد وظيفة البناية ، هي البحث عن نماذج مماثلة بشكل مقنع ، اى بنايات من طراز مماثل او قريب وذات وظائف معروفة لا جدال فيها .

ان خط المقارنة الاول يقودنا بعيدا الى ما وراء حدود آسيا الوسطى . فنحن نجد بنايات من هذا النوع فى آسيا الصغرى . ومنها ، على سبيل المثال ، ناووس الاسود في كنيدا (انشئ بعد عام ٣٩٤ قبل الميلاد) والضريح المعروف على نطاق واسع في غاليكارناس (اواسط القرن الرابع قبل الميلاد) الذى دفن فيه الملك موصول وعقيلته ارتيميسيا ، وكان في الوقت ذاته معبدا لاداء الطقوس على روح الملك والملكة اللذين منحا صفة الالوهية . ولكن لا يجوز التفكير بان هذه الفكرة المعمارية ذات اصل غربـي فقط . ففي آسيا الوسطى نفسها نجد آثارا شبيهة «بالمعبد الدائرى» في نيسا من حيث الفكرة المعمارية الاساسية . فان التوفيق بين الدائرة في الداخل . وبين المربع في الخارج نصادفه فى طائفة كاملة من الاضرحة في مدفن تاغيسكين (في دلتا سردريا) العائد الى احدى القبائل الساكية في القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد . ويتسم خط المقارنة هذا بأهمية مزدوجة . فالتقاليد التاريخية القديمة تحتفظ باصرار بالفكرة القائلة بان اصل البارثيين

اسقوثي (اى ساكى) وانهم نزحوا من الشمال ، اى من المناطق التي اقامت فيها قبل عدة قرون قبيلة خلفت اضرحة شبيهة من حيث التخطيط «بالمعبد الدائرى» . هذا اولا ، وثانيا ـــ ساعدت دراسة مدفن تاغيسكين على الكشف عن التصورات الدينية التى ولدت هذا المخطط المعمارى الذى يتسم بأهمية رمزية واضحة . وبينت الدراسات ان ظهور هذا المخطط كان امرا طبيعيا تماما في تلك البيئة الروحية التى كانت تنتمي اليها تلك القبيلة الساكية ، والتى يمكن ان نسميها اصطلاحا ببيئة «افيستا» والقريبة كثيرا من البيئة الهندية . فالمدافن والاضرحة عند الفرس والهنود القدامى كانت تعتبر مسكنا لارواح الموتى ، وبالتالي فالضريح الذى هو التفاتة سحرية من الآخرة انما يمثل فى بنائه مخططا كونيا للعالم ، اى ان مربعه يرمز الى جهات الارض الاربع وقبته ترمز الى السماء والخلود . اما وجود المدافن ذات التخطيط المماثل عند اليونان والرومان فهو يمكننا من ان ننسب هذه الفكرة الى عهد الوحدة الهنداوربية ، اى لبضع الآف من السنين قبل الميلاد .

وهكذا يمكننا ذلك كله من اعتبار «المعبد الدائرى» ضريحا لاحد ملوك البارثيين . وهذا الاستنتاج تؤكده فكرة اخرى .

ففي العصر الهليني كان الملوك غالبا ما يبنون اضرحة لهم فى وسط المدن التي كانت عواصم لدولهم او التي بنوها وصارت تحمل اسماءهم . ففي وسط الاسكندرية

في مصر كان ينتصب ضريح الاسكندر المقدوني ، وفي بيريا ، العاصمة الاولى لدولة السلوقيين ، كان يوجد ضريح مؤسس الدولة سلوقوس الاول . ولما كانت ستارايا نيسا ، كما اتضح في الوثائق التي عثر عليها هنا ، تحمل اسم مثرداتكرت ، تكريما للملك مثردات ، فمن المعقول تماما الافتراض بان «المعبد الدائرى» يمكن ان يكون ضريحا لهذا الملك الا ان هناك معطيات تناقض هذا الافتراض . ففي منطقة بالاتيتسا في مقدونيا تم فى القرن الماضي اكتشاف بناية (داخلة ضمن تشكيلة كبيرة ربما كانت قصرا) ، وفي مخططها يمكن ان نرى نفس الملامح — التوفيق بين الداخل الدائرى والخارج المربع . واكد علماء الآثار الفرنسيون الذين درسوها انها تعود الى «عهد فيليبوس الثاني والاسكندر» . اما الغرض منها فقد ظل مجهولا خلال امد طويل . وفي عام ١٩٢٥ اثبت العالم الفرنسي المعروف شاربونو ، استنادا الى المقارنة مع الهيرون في الاولمب ، ان هذه البناية هي هيرون لملوك مقدونيا .

والهيرون ، بالمعنى القديم لهذه الكلمة ، حرم لتكريم البطل ، اى الانسان الذى يشبه الآلهة من حيث سجاياه . ويعتبر مؤسسو المدن من الابطال . وكان اضفاء صفة البطولة على الملوك في العصر الهليني واحدا من طرق تأليههم . ويمكن ان يوجد الهيرون في ضريح البطل او في اماكن بعيدة عنه كثيرا . ولذا فان «المعبد الدائرى» هو ، في اغلب الظن ، اما ضريح واما هيرون

لواحد من اوائل ملوك البارثيين . ويدل معمار «المعبد الدائرى» على ثبات التقاليد المحلية القديمة جدا التي ترسبت عليها تقاليد النازحين اليونانيين والمقدونيين القديمة ايضا والعائدة فى الواقع الى نفس تلك المنابع .

وفي سياق الدراسات الاثرية للمناطق الاصلية فى بارثينا تم اكتشاف مجموعة اخرى من المباني العامة . فقد درس في ستارايا نيسا المعبد ذو الابراج ودار الكنوز . وفي موضع نوفايا نيسا درس المعبد الواقع قرب سور المدينة . وعلى مسافة بضعة كيلومترات من تشكيلة نيسا تمت دراسة معبد يطلق الاهالى حاليا على انقاضه اسم منصور تبه . لن نتناول هذه المباني بنفس التفصيل الذى تناولنا به «المعبد الدائرى» و«القاعة المربعة» اللذين قدما لنا اسطع الامثلة لفهم السمات الاساسية المميزة للمعمار البارثي الصرف فى المرحلة المبكرة جدا من تطوره . ومع ان عدد الآثار ، على العموم ، غير كبير بعد ، ومع ان دراستها غير كافية بعد ، فيمكن ان نقدم الآن وصفا عاما للمعمار البارثي . وهو يبدو امام انظارنا كظاهرة اصيلة جدا مستندة الى التقاليد المحلية القديمة والى التأثيرات القادمة من الغرب والخاضعة لمعالجات وتحويرات ابداعية . ان تأثير الخصائص الهلينية يتجلى ، اقوى ما يتجلى ، في عمارة المباني العامة ، الا انه لا يظهر في الواقع فى مجال التخطيط ، بل فى مجال الديكور وحده . فالمعماريون البارثيون لم يستخدموا ولا مرة تقريبا النمط المعمارى اليوناني بوصفه نظاما فعالا ، بل ، على العموم ،

كوسيلة لتزيين الجدران . وهذا لا يمكن اعتباره من قبيل التوليفة . فالتوليفة تعني الخلط بين مبدئين متعارضين في هيكل او مخطط واحد ، في حين يدل استخدام البناة البارثيين للنظام المعمارى على نضوجهم الابداعي وقدرتهم على تلقى وتحوير التأثيرات القادمة من الخارج دون ان يخلوا بمبادئهم الخاصة بل يغنوها بامكانيات تعبيرية جديدة . لقد جرى بصورة فنية تحوير مقومات النظام المعمارى اليوناني وادراجها عضويا في نظام معمارى جديد عليه . ومما له دلالته ان الحلول المعمارية النمطية تميل الى الهندسة المسطحة ، الامر الذى كان يستجيب بشكل اكمل الى دورها الجديد في تكوين الصورة الفنية . فالنمط المعمارى كأنما يرسم على الجدار ، وهو تعبير ليس عن الهيكل ، بل عن اسس الرسم المدرجة ببسالة ضمن المعمار .

ولا يجوز الظن بان اتباع التقاليد المحلية يعنـــي المحاكاة العمياء للنماذج السلفية القديمة . فقد كيف المعماريون البارثيون التقاليد القديمة وفقا للظروف المستجدة وللامكانيات الجديدة في تكنيك البناء وكانوا يبحثون عن وسائل تعبيرية جديدة . ويرى المرء ولع المعماريين البارثيين بفكرة التطوير العمودى للمباني ، تلك الفكرة التى تجلت في مختلف صيغ حلول الداخل ذى الصعيدين وتكوين الملامح والهياكل التعبيرية للمنشآت الضخمة وهلمجرا . وكان استخدام النظام المعمارى المحتفظ بالنسب اليونانية قد غير المقياس المستخدم في فن العمارة . فقد تنازل

المعماريون عن الولع بالكتل الضخمة الملازم للشرق القديم . وصارت احجام القصور والمعابد تناسب الانسان ، ولم تعد ضخامة العمارة البارثية تثقل عليه كثيرا .

وتقدم التماثيل التي عثر عليها فى حفريات نيسا معلومات هامة عن طابع تطور الحضارة البارثية المبكرة . فاثناء حفريات «المعبد الدائرى» و«القاعة المربعة» عثر على اجزاء من تماثيل كثيرة كانت في زمن ما متواجدة في هذين المبنيين . ووصلنا بشكل سليم نسبيا تمثال واحد يصور امرأة واقفة فى ثوب فضفاض . وجهها وجنبها منحوتان ، اما ظهرها فهو مسطح غير منحوت لانها كانت لصق الجدار . وكانت تماثيل نيسا تصور الرجال والنساء ، وربما هم آلهة او اجداد سلالة الارشاكونيين الذين يحملون صفة الالوهية . ومن حيث الاسلوب تندرج منحوتات نيسا ضمن التشكيلة العامة لمنحوتات آسيا الوسطى في العصر الهليني .

والى جانب التماثيل المحلية عثر اثناء حفريات نيسا على تماثيل واضح انها جلبت من الخارج ، من المراكز الفنية الغربية . ويعود احدها (ما يسمى «بآلهة نيسا») الى الاتجاه القديم في المنحوتات الهلينية ، ويمكن ان ينسب الى القرنين الثالث — الثاني قبل الميلاد . ولعل من الممكن ان تنسب الى النماذج الجدارية السلفية للعصر الكلاسيكي المتأخر . والمنحوتة الهامة الثانية هي تمثال ما يسمى بـ«رودوغونا» ، وهو على غرار تماثيل افروديت المتولدة من الموجة البحرية والمنتشرة على نطاق واسع

في العصر الهليني . بديهي ان هذه الآثار لا تقدم صورة عن الفن البارثي الصرف ، لكنها هامة بالنسبة لنا كدليل على اذواق الارستقراطية البارثية .

وتتميز بأهمية بالغة مواد الفن التطبيقي التى عثر عليها اثناء حفريات نيسا .

كل هذه الآثار والاكتشافات تمكننا من ان نتصور ، ولو بالخطوط العريضة ، السمات الاساسية للعملية التي ادت الى نشوء الفن البارثي كفن متطور اصيل وليس كفن بربرى كما تصوره لوقيانوس والباحثون الاوربيون الاوائل الذين درسوا تاريخ بارثينا وبفضل دراسات العلماء السوفييت قرئت بشكل جديد واحدة من اهم الصفحات في تاريخ حضارة آسيا الوسطى والشرق القديم عموما .

الفصل الثانى عشر

كنوز طلا تبه

المؤلف: ساريانيدي
ترجمة: خيري الضامن

كاد غسق المساء يهبط على سهوب باكتريا (طخارستان) والاستعدادات فى مدينة يمشى تبه القديمة تجرى لدفن احد الموتى خفية . فى التابوت الخشبى جثة محارب وجيه فى حوالى الخمسين بثياب الدفن الغنية فى ابهة الملــوك مطرزة بمئات ان لم يكن بآلاف النقوش الذهبية التزيينية . وتحت رأس المتوفى كأس ذهبية ثقيلة عليها كتابة يونانية ، وعلى حافتها نموذج مصغر لشجرة ذهبية وتمثال ذهبى رائع لماعز جبلى ، وهما يطلان معا على جبين المتوفى ويدلان على المنزلة الاجتماعية الرفيعة التى كان يحتلها المحارب عندما كان على قيد الحياة .

الصدر العريض للمحارب الذى يبلغ طوله مترين تقريبا فى قمصلة قصيرة مطرزة كذلك بمختلف الانواط الذهبية المنقوشة ، وعنقه مطوق ببطرشيل ذهبى مفتول يغطى كتفيه وهو مزين بحجر رائع عليه صورة احد ملوك باكتريا اليونانيين كل هذه المصوغات التى صاغها الصناع الهلينيون هى على الاكثر غنائم حربية غنمها هذا

المحارب الموفق فوضعت بعناية معه لترافقه الى مثواه الاخير . فكه الاسفل مشدود بشريطين ذهبيين ورسغا يديه مطوقان بسوارين ذهبيين ، فى حين شدت القمصلة بحزام ذهبى عليه تسعة انواط مستديرة وفى كل منها صورة مجسمة لالهة عالم الحيوان كيبيلا ممتطية اسدا .

وكما يليق بالمحارب وضعوا معه سلاحه الشخصى فعند جنبه الايمن خنجر فى قراب ذهبى مزين بمنحوتات لوحوش فعلية وخيالية ينهش بعضها بعضا . والى جنبه الايسر علق الى الحقيبة الميدانية ، مع السيف الحديدى الطويل خنجر ذهبى آخر زين قرابه بمنحوتتين لتنينين خياليين . وتقديرا لماضى المحارب وامجاده وضع عند قدميه رسن بانواط ذهبية تصور وحوشا خيالية ورقائق عليها وحوش كاسرة تنهش حصانا مقهورا وظبية وجلة . حذاء المتوفى مشدود بابزيمات ذهبية عليها صور متماثلة للوجهاء الجالسين تحت ظلة عالية فى عربات تجرها وحوش خرافية مجنحة شبيهة بالاسود .

وعندما انتهت الاستعدادات لفوا التابوت بشدة فى غلاف جلدى مطرز بنقوش زاهية ومزين باسطوانات ذهبية مثبتة عليه . وضع التابوت على ظهر الجواد المحبب الى المتوفى ، وتحرك الركب غير الكبير المحاط بعدد من اقارب الميت من القصر صوب التلة غير العالية الواقعة فى ضواحى المدينة . وهنا حفرت بسرعة حفرة مستطيلة بسيطة بعمق مترين تقريبا ، وانزل التابوت فى تلك الحفرة . ووضعوا عند رأسه آخر القرابين ــ وهو كرسى سفرى

حديدى مطوى تركوا عليه قرابين مليئين بالسهام . والى ظهر الكرسى وضعوا قوسا طويلا مزينا بمعلقات عظمية .

واثناء حفر القبر نحر الخدم جواد المحارب المحبب لديه ولفوا جمجمته وعظام قوائمه فى الجلد ووضعوها على عوارض خشبية فوق التابوت . واهيل التراب عليه وغطى بعناية بقطع من التربة المعشوشبة ، ولم يبق هناك اى دليل على ان تراب الهضبة يغطى الميت مع عدد هائل من الحلى القيمة وقرابين الدفن . اما الآن فان اقارب المتوفى يستطيعون ، بالقاء نظرة من نافذة القصر دون ان يغادروه ، ان يتأكدوا من صيانة مقبرة الاسرة التى تنطوى على ثروات لا تعد ولا تحصى كان قد نهبها وكدسها اوائل ممثلى الاسرة الملوكية الوليدة لامبراطورية قوشان العظمى المرتقبة .

. . . على هذا النحو تقريبا يتصور علماء الآثار نشوء المقبرة التى اكتشفتها البعثة الاثرية السوفييتية الافغانية فى باكتريا القديمة . وقد سبقت هذا الاكتشاف حادثة تكاد تكون من حوادث القصص البوليسية . ففى اواخر خريف ١٩٦٩ وصلت البعثة التى تشكلت توا الى شمال افغانستان وبدأت بدراسة الآثار القديمة حول مدينة شبرغان . ومنذ بداية التنقيبات اكتشف جنب مدينة يمشى تبه مرتفع غير كبير يحمل اسما محليا رنانا هو طلا تبه ، اى الهضبة الذهبية . ولم تكشف الحفريات التجريبية الاولى هنا عن اية مصنوعات ذهبية ، بل حتى الكسر الفخارية القديمة المهشمة كانت قليلة وتقرر مواصلة

الحفريات فى العام القادم ، وآنذاك بالذات ، فى عام ١٩٧٠ ، بدأ قرب شبرغان شق طريق معبد ، وكان ذلك يحتاج الى تراب اضافى لتمهيد الطريق . ومن سخريات القدر ان اختيار العمال وقع على طلا تبه بالذات من بين عشرات الهضاب المتناثرة حول الطريق ليأخذوا منه ما يحتاجون اليه من تراب .

وعندما وصل علماء الآثار الى المكان كان طلا تبه قد فقد نصف هضبته ، وبدلا من تلك الهضبة المخروطية كانت هناك حفرة عميقة . واتضح فيما بعد ان تدخل الاثريين النشيط قد اوقف الحفر فى اللحظة التى لم يبق فيها على الجارفة الضخمة الا ان تضرب عدة ضربات حتى تطبق انيابها الحديدية على ما كان مقدرا له ان يذيع قريبا امجاد طلا تبه فى العالم كله . وتوقفت الاعمال على مسافة متر ونصف فقط عن واحد من المدافن «الذهبية» فى مقبرة طلا تبه .

وفى عام ١٩٧١ استمرت الحفريات التجريبية فى طلا تبه ، لكن الاثريين فيما بعد تركوا التل اكثر من خمس سنوات ، ولم يعودوا اليه الا فى عام ١٩٧٧ حيث واصلوا الحفريات ، لكنهم لم يعثروا الا على انقاض المبانى القديمة

واخيرا ، فى خريف ١٩٧٨ ، جرت المحاولة الرابعة للكشف عن اسرار طلا تبه الذى منح الاثريين لقاء صبرهم وطاقاتهم هبة سخية تليق بالملوك . واتضح ان حكام مدينة يمشى تبه الواقعة قرب طلا تبه اختاروا

هذه الهضبة قبل حوالى الفى عام ، اى على تخوم التاريخ الميلادى لتكون مقبرة لعائلتهم .

فمن هم الذين خلفوا لنا مقبرة طلا تبه ؟ تقدم جوابا جزئيا على هذا السؤال بالدرجة الاولى قرابين الدفن الذهبية التى تجسد تقاليد بدو سيبيريا وألتاى البعيدة عن باكتريا واذا قارناها بالقطع النقدية الذهبية والفضية التى وضعت فى توابيت الموتى يتوضح لدينا وقت تأسيس المقبرة — فى حدود القرن الاول قبل الميلاد والقرن الاول الميلادى . وهى الفترة التى توافق وصول القبائل النازحة الى باكتريا والتى يعود تاريخها الى اواسط آسيا وجنوب سيبيريا وألتاى . وتمكننا المعطيات الشحيحة فى السجلات الصينية وروايات المؤرخين اليونانيين والرومانيين من الربط بين القبائل النازحة الى باكتريا وبدو سهوب اوراسيا .

ومعروف ان امبراطورية الاسكندر المقدونى قسمت بين انصاره بعد وفاته . وبعد ذلك نشأت دولة باكتريا اليونانية فى اراضى شمال افغانستان وقسم من المناطق الجنوبية فى آسيا الوسطى . وظلت هذه الدولة قائمة مائة عام (من اواسط القرن الثالث حتى اواسط القرن الثانى قبل الميلاد) ، لكنها تركت اثرا ساطعا فى مجمل تاريخ وحضارة هذه المنطقة الشاسعة لاحقا . لقد بدا وكأن مملكة باكتريا اليونانية ستظل مزدهرة ابد الدهر ، لكن الاحداث التى جرت حتى ذلك الحين فى الرحاب البدوية المترامية الاطراف قد اثرت على مصيرها اللاحق وقطعت حبله . ففى تلك الفترة بالذات تركت القبائل البدوية

التى سمتها السجلات الصينية فى البداية باليويجية ديارها وارتحلت الى مسافات بعيدة فى الغرب . ودخلت حدود سهوب آسيا الوسطى الشاسعة ، حيث كانت قبائل رعاة الغنم المترحلة تتنقل فى رحابها المترامية بين بحر الخزر وبحر آرال . ولا يتصور العلماء بوضوح كامل العلاقات المتبادلة بين البدو المحليين والنازحين ، لكن مما لا جدال فيه ان هذه الموجة البدوية بزعامة القبائل (التى اطلق عليها فى الكتابات المتأخرة اسم القوشان) قد توجهت فى اواسط القرن الثانى قبل الميلاد تقريبا الى الجنوب ، الى الواحات الزراعية المزدهرة التى توجد فيها من قديم الزمان حضارة مدنية متطورة جدا . ودخلت القبائل البدوية حدود باكتريا اليونانية وغدت المعابد والقصور وثرواتها غنيمة للبدو . مرت مائة عام اخرى فغدا بدو الامس انفسهم «اسرى» الحضارة الباكترية اليونانية التى دمروها فى زمن ما . فقد اخذ بدو الامس يعمرون المدن التى دمروها بل ويبنون مدنا اخرى . وسرعان ما ظهرت على انقاض دولة باكتريا اليونانية السابقة امبراطورية القوشان العالمية العظمى . والى تلك الحقبة «المظلمة» التى هلكت فيها مملكة باكتريا اليونانية وكانت امبراطورية القوشان العظمى فى طور النشوء ينسب العلماء مقبرة طلا تبه . ويمكن الافتراض بان مقبرة طلا تبه تعود الى احدى العوائل القوشانية الحاكمة التى لم تكن صلاتها مع التقاليد البدوية القديمة قد انقطعت بعد ، لكنها اخذت تنتقل الى الحياة المدنية الجديدة بانية حضارتها الخاصة جامعة التقاليد

القديمة والجديدة فى كل متكامل .

ولذا يمكن ان نتتبع فى كنوز طلا تبه مختلف التقاليد الحضارية . فبين هذه المجموعة الرائعة تبرز طائفة غير كبيرة مستوردة ، كما هو واضح ، من الصيـــن والهند ، الامر الذى لا يثير الدهشة اذا اخذنا بعين الاعتبار ان طلا تبه واقعة على طريق الحرير الكبير الممتد من الصين حتى روما . وهناك نتاجات قليلة ايضا للفن الباكترى اليونانى كانت بمثابة غنائم للنازحين . لكن الاكثر هى المصنوعات المعمولة فى باكتريا نفسها والتى تجسد التقاليد الفنية المحلية العميقة العائدة الى العصر البرنزى عندما كانت فى باكتريا فى الالف الثانى قبل الميلاد حضارة اصيلة خاصة بها . ان اندماج هذه التقاليد المختلفة يتجلى بوضوح لدى الاطلاع على الحلى والقرابين المدفونة فى مقبرة طلا تبه .

رؤوس جميع الموتى تقريبا تستقر فى آنية فضية او ذهبية ، علما بان احدها ، كما اسلفنا ، هو كأس يونانية صرف عليها كتابة باليونانية وعلى حافتها العليا ثبت موديل ذهبى لشجرة ، ومنحوتة ماعز جبلى تدحرجت الى جانب اثناء الحفريات . وللشجرة جذع مستقيم تتفرع منه اغصان ملتوية ملضومة باللؤلؤ الذى يرمز الى الثمار على ما يبدو . وينتهى الجذع من تحت بصليب مثقوب لغرض التثبيت ، وهو يشير الى «تكرار» استخدامه . ونذكر هنا ان مصنوعات مماثلة توجد فى المجموعة السيبيرية المحفوظة فى متحف الارميتاج فى لينينغراد .

ولكن تحفة فن الصياغة التى لا جدال فيها هى المنحوتة الصغيرة الخاوية للماعز الجبلى الذى يصور هذا الحيوان فى وضعية هادئة . بوز بانف محدودب بعض الشيء وعروق دقيقة وعضلات ناتئة على الخدين ، وعلى الرأس قرنان ملتويان متينان مائلان الى الوراء . والاذنان الرقيقتان تشيران الى الهيئة الملوكية لوضعية رأس الحيوان . والرقبة الملتوية جدا مزينة من الامام بلحية شعثاء ، والبدن المكتنز المكسو بشعر قصير يستقر على قوائم نحيفة . ومما لا جدال فيه ان منحوتة الماعز الجبلى ، شأن موديل الشجرة ، كانت جزءا من تشكيلة اكثر تعقيدا ، الامر الذى تدل عليه الحلقات التى تستقر عليها حوافر الماعز ، وكذلك الانبوب الخاوى المنصوب بين قرنيه . ولا يستبعد ان تشكل مع الشجرة المصغرة اكليلا يشبه بعض الشيء قبعة الملك الاسقوثى التى عثر عليها فى تل أسيق (كازاخستان) ، ويشبه بقدر اكبر الاكليل الذهبى المعروف الذى عثر عليه مع «كنوز نوفوتشيركاسك» العائدة الى عهد السارماتيين . ان منحوتة الماعز الجبلى الرائعة تختلف اختلافا كبيرا من حيث الاسلوب عن المجموعة الاساسية من الحلى فى مقبرة طلا تبه ، وهى على الاكثر تنتسب الى التقاليد الحياتية الواقعية للفن الباكترى اليونانى السابق عندما كان الملوك المحليون يرتدون الاكاليل بدلا من التيجان . ولا يستبعد انه فى تلك الحقبة بالذات صنع الاكليل المعقد من حيث التركيب والذى ضم موديل الشجرة وتمثال الماعز الى جانب الاجزاء الاخرى . ويحتمل

ان هذا الاكليل وقع غنيمة فى ايدى القبائل التى جاءت الى باكتريا فتقاسمه القادة المنتصرون .

. . . رأسا الميتين ، او على الاكثر الميتتين ، مكللان بتاجين ذهبيين مركبين . التاج الابسط مكون من عدة اشرطة عريضة مخرمة كانت تطوق رأس الميت فى زمن ما ، والثانى مكون من خمس نخلات متصلة على اغصان كل منها طيور . والنخلات والشريط مزينة بازهار ذهبية ومرصعة بالكثير من اللآلئ والفيروز . ومعروف ان النساء عند البدو فقط يشغلن ارفع منزلة فى المجتمع ، الامر الذى اثار منذ القدم دهشة المؤرخين اليونانيين والرومان . وفى الحالة موضوع البحث يتأكد الانتماء البدوى على الاغلب فى ان التيجان كانت مركبة من اجزاء وليس من كتلة واحدة . فالنخلات تركب بابسط الكلاليب على قاعدة التاج ــ الشريط وترفع منها بسرعة عند الاقتضاء وتوضع فى صندوق اثناء السفر والحملات . ويمكن ان تشير هذه الملاحظة الى عمق جذور التقاليد البدوية التى كان يتمسك بها المدفونون فى طلا تبه ، واذا اعتبرنا التاج عائدا الى امرأة فانه يشير الى المنزلة الرفيعة التى كانت تحتلها النساء عند البدو (السارماتيين فى هذه الحالة) .

. . . آذان الموتى مزينة باقراط ذهبية ، بينها اقراط مصبوبة على هيئة منحوتات اله الحب المجنح (آمور) . وجوه المنحوتات مكتنزة باسمة تذكرنا بالمنحوتات اليونانية والرومانية المأخوذة عنها ، ما عدا نقطة واحدة : فعلى الجبين نقش هلال . ان الرموز القمرية كانت منتشرة

على نطاق واسع فى بلدان العالم القديم (بما فيها اليونان وروما) ، لكن تلك الرموز اكثر انتشاراً فى الشرق . ويمكن الحكم على ذلك ، مثلا ، من الاختام الاسطوانية فى وادى الرافدين فى عهد السلالات المبكر . وكانت تلك الرموز معروفة فى باكتريا فى العصر البرنزى ايضا . وهكذا نجد توفيقا بين التقاليد اليونانية الدخيلة والتقاليد الباكترية المحلية الراسخة .

وعثر فى احد المدافن على مشط من العاج حفرت عليه صور رقيقة (بما فيها صورة انسان) تذكرنا كثيرا بالحفر الشهير على العاج من بهرام (افغانستان) ودلورزين (اوزبكستان) والذى يعود باصله الى الهند .

. . . من القبعات ، وربما من التيجان ، تتدلى رقائق او معلقات ذهبية ثقيلة ، لكن افضلها رقيقتين ذهبيتين عليهما صورتان متماثلتان لملك يصارع التنانين . ومما يشير الى مكانة الملك المتميزة وجود التاج العالى المتعدد الدرجات وبقعة على الجبين ، هى من تأثيرات الهند بلا جدال . ومن تحت التاج يتهدل على الكتفين بخصل خفيفة شعر طويل غزير ، والعنق مطوق بعقد . القفطان مشدود بطلاقة عند الخصر بحزام عريض يتدلى من تحته طرفا القفطان مفتوحين عريضا (هذا الثوب يشبه ثياب البدو الرحل فى آسيا الوسطى ، ويلاحظ تأثير هذه التقاليد فى تماثيل الحكام والقادة العسكريين فى فن ماتهورا فى الهند) . اليدان المنشورتان الى الجانبين ترتطمان بتنانين مجنحة وذات قرون وابوازها الشبيهة برؤوس الخيل

مكشرة عريضة . ابدانها الطويلة ذات القوائم الملوية الى الخلف بشكل غير طبيعى مزينة بنتوءات من الفيروز والعقيق الاحمر واللازورد . وفى اسفل هذه التشكيلة تتشابك على نحو مدهش سلاسل مفتولة تشكل شبكة مزينة بانواط تصويرية مطعمة بالياقوت الجمرى والفيروز واللازورد . ان صورة الملك الذى يقاتل التنانين ، تلك الصورة الشائعة لدرجة كبيرة فى العالم اليونانى والرومانى ، قد تعرضت فى باكتريا لتعديلات محلية مع تأثيرات ملحوظة من «اسلوب الحيوان الاسقوثى» . ويمكن ان نتتبع هنا اقتران الاساليب الباكترى واليونانى والاسقوثى والهندى .

. . وقد عثر على معلقات ذهبية تتدلى عند الصدغين كذلك فى مدفن النساء . وعلى ابزيمى المعلقتين نفس المشهد : فى الوسط تقف امرأة شبه عارية يدها اليسرى مع رمانة على الصدر ويدها اليمنى ممتدة الى جانب . ومن الفخذين ينساب الثوب بطيات ناعمة تاركا بقعة عارية مثلثة فى اسفل البطن مكسوة بنقوش دقيقة . ومن تحت طيات الثوب تلوح تقاسيم الساقين . وعلى كلا جانبى المرأة تقف حيوانات خرافية على رؤوسها (وهى على الاكثر ذئاب او كلاب) فاغرة الافواه ، وربما كانت عجيزاتها تنتهى بذيول الاسماك اسفل المعلقة مطعم بالكثير من الفيروز وينتهى برأسى سمكتين ، وفى زاويتى الجزء العلوى طيور . هذه اذن صورة الالهة اناهيد العظمى مع كل مستلزمات السلطة المشخصة فى صور حيوانات ربما هى سيمرغ ، اى الكلاب المجنحة ، وكذلك عالم

النبات والطيور . ومع ذلك فان هذه الالهة الفارسية الصرف قد تعرضت لتغييرات اسلوبية كبيرة . فبدلا من الالهة الشرقية العفيفة المتسربلة بثياب الحشمة نرى بدنا انثويا لا يكاد يغطيه الثوب المنساب عليه ، وهو منحوت وفقا لمبادئ النحاتين الاغريق والرومان ، الامر الذى يعكس تقاليد الفن الباكترى اليونانى المحلى . ويدل ذلك كله بلا ريب على تحوير الآلهة الفارسية الشرقية وفقا للتقاليد اليونانية مشيرا الى التبدلات العميقة التى تعرض لها بنثيون الآلهة الباكترى المحلى فى العهد الهلينى السابق .

وفى احد المدافن نرى رقبة محارب وجيه مزينة ببطرشيل ذهبـــى مفتول وفى وسطه حجر نقشت عليه صورة جانبية نصفية لرجل . وجه عليه مسحة الكبرياء بانف كبير وعينين واسعتين وشفتين مزمومتين ، وهو يشبه لدرجة كبيرة صور ملوك باكتريا اليونانيين ، وبالدرجة الاولى اوقراطيدس . ولا يستبعد ان هذه المنحوتة كانت من صنع نحاتيـــن باكتريين يونانيين ، وفيما بعد استخدمت ثانية بمثابة حلية صدر لامير قوشان

ثياب الموتى من اردية او جلابيات مشدودة على الصدر بابزيمات ذهبية على هيئة آمور يمتطى سمكة لها خصائص الدلفين . وعلى رؤوس الاسماك شراريب فخمة مطعمة بنتوءات كبيرة من الفيروز . وفى فم احدى السمكات كلاب وفى فم الاخرى عقدة وبهذا الكلاب والعقدة يزرر الرداء . آمور الممتطى السمكة يمسك بشراريب السمكة باحدى يديه ، بينما يده الاخرى مرفوعة . وجه آمور الممتلئ

بوجنتيه المتهدلتين وشفتيه المنتفختين بعيد عن صور آمور اليونانية التى تجسده مرحا وسط امواج البحر ، فهو فى الفن اليونانى والرومانى رمز الحب المعترف به . ويبدو ان الصناع الباكتريين المحليين لم يفهموا بشكل واضح المضمون الفعلى لهذه الصور التى كانت فى حين ما معروفة جيدا لمعلميهم اليونانيين ، ولذا فقد استنسخوا فقط النموذج العام للدلافين التى لا يعرفونها وحولوها الى الاسماك التى يعرفونها جيدا . وفى مصنوعات اخرى نجد آمور نفسه يمتطى دلفينا مجنحا ، مما يدل على اختلاف صيغ رسم هذه الصورة عند الاوساط الباكترية المحلية . ويدل استبدال الدلفين بصورة السمكة دلالة لا جدال فيها على ان تلك المصنوعات باكترية محلية .

وتتكون الابزيمات ذات الصبغة الفنية الاعمق من رقيقتين مستطيلتين ذهبيتين مخرمتين مصبوبتين فى قالب معقد وفى تجسيم ناتئ . وعلى كلتا الرقيقتين صورة متماثلة لمحارب مدجج بالسلاح : صورة جانبية تقريبا ، رأس بانف مستقيم وعينين مرسومتين بدقة ووضوح تحت حاجبين منتصبين ، وفم مزموم بشفتين ممتلئتين وذقن يدل على قوة العزيمة وعلى الرأس خوذة بشراريب ملوية وقرنان منتصبان . ومن تحت الخوذة تنساب على الكتفين خصلات طويلة لشعر اجعد . وعلى الكتفين رداء تهبط طياتــه الناعمة حتى تبلغ الارض . يد المحارب ممسكة برمح طويل ، وفى اليد الاخرى ترس دائرى ، وعلى جنبه يتدلى من السير سيف بمقبض يمثل رأس نسر . ومن

تحت التنورة القصيرة الفضفاضة تبدو ساقان متباعدتان فى صندل عال مشدود بسيور حتى الركبة . ان تقاسيم النحت تعود باصولها الى صور الملوك الهلينيين المتشحين بوشاح البطولة ، مع ان هناك شبها معينا ببعض الصور التقليدية لاباطرة روما . الصور مؤطرة باطارات نباتية مزوقة ، وفى الركنين العلويين طيور ، ربما هى نسور ، تمسك فى مناقيرها باشرطة مرفرفة ، وفى الركنين السفليين تنانين مجنحة مصغرة ذات ابواز شريرة مكشرة . وفى اغلب الظن تصور الابزيمات اله الحرب آريس او صنوه الفارسى القديم فرتراغنا ، الا انها رغم كل التصورات المحتملة قد صنعت فى باكتريا على ما يبدو ، الامر الذى تدل عليه صور التنانين التى كانت منتشرة على نطاق واسع فى الفن الاسقوثى .

وهناك ابزيمات ذهبية اخرى ذات صور متماثلة تجسد مواضيع تتشابك فيها على نحو غريب العناصر المحلية واليونانية على حد سواء . وفى وسط الابزيم صورة كائن خرافى بجسم فيل ورأس اسد مكشر عن انيابه وعينين عابستين متوعدتين والرقبة الملتوية مزينة فى اعلاها بمشط مسنن ، ومن تحت الذقن تتلوى لحية شعثاء . وعلى ظهر الحيوان غطاء يتربع عليه رجل وامرأة متعانقان . ومن خلفهما الالهة نيكا تباركهما محلقة فى ثوب مرفرف وبيدها سعفة . وامام الحيوان الخرافى على الارض يتكئ سيلين مرتديا فرو الغنم وبيده عصا وباليد الاخرى كأس قرنية الشكل

ويؤخذ من تركيب اللوحة انها تمثل مشهدا لما يسمى «بالزفاف المقدس» الذى انتشرت التمثيليات اليـــونانية الديونيسيوسية بخصوصه على نطاق واسع فى العالم اليونانى ، بما فيه الشرق الهلينى حيث كثيرا ما يبدو ديونيسيوس مرتديا ثياب النساء . ومن بين التصويرات اليونانية والرومانية الكثيرة لمسلسل ديونيسيوس يبرز مشهد ديونيسيوس واريادنا متعانقين فى العربة التى تجرها الفهود برفقة حشد من الحوريات وآلهة الخصب والماشية والغابات ، والشخصية الحاضرة دوما فى مثل هذه المشاهد سيلين . واخيرا اشتهرت التصويرات اليونانية والرومانية التى يظهر فيهـــا ديونيسيوس (مثل شخوص طلا تبه) على ظهر الفهد . خلاصة القول ان موضوعات ديونيسيوس فى ابزيمات وازرار طلا تبه تدل على التحوير المحلى فى باكتريا لتلك الاساطير اليونانية والرومانية الصرف .

وبينت الحفريات ان كل الموتى تقريبا كانوا يرتدون على المعاصم والارجل اساور ذهبية ثقيلة بنهايات متسعة سائبة ، ومن بينها اساور مصاغة بشكل فنى وعليها منحوتات صغيرة . ويصور احد تلك الاساور ظباء تعدو بمنتهى السرعة : القوائم الامامية تنطلق ببسالة والابدان محنية بمرونة والقوائم الخلفية مقذوفة الى الوراء . شفاه غليظة وعينان واسعتان جدا وقرنان ملتويان . كل ذلك يشكل اضافة الى المنظر العام لهذه الحيوانات السهبية الشماء . ابدان الظباء مطعمة بنتوءات فيروزية كثيرة ، فى حين ان آثار الاحتكاك على ظاهر الاساور تدل دون ريب على

ان هؤلاء الناس استخدموها عندما كانوا على قيد الحياة . وهناك زوج آخر من الاساور الذهبية مزين برؤوس منحوتة لكائنات شبيهة باسود مكشرة عن أنيابها ولديها قرون معقوفة قصيرة بين الآذان المتقاربة . وذلك يذكرنا باساور كنز آمو دريا الشهيرة وكذلك اساور الملوك الاخمنيين والكنوز الاسقوثية فى مختلف ارجاء العالم القديم .

وكانت اصابع الموتى فى خواتم ذهبية ذات نتوءات . وعلى احد تلك الخواتم صورة الالهة «اثينا» مع كتابة اغريقية مقلوبة «اثينا» معكوسة عبر المرآة ، الامر الذى يميز فقط الاختام التى تصنع بواسطتها طبعات شخصية . وفى حالة اخرى نجد الهة اخرى من آلهة البنثيون الاغريقى وهى نيكا مرسومة وفقا للاصول اليونانية مع اكليل فى يدها ، فى حين نجد على حجر خاتم ذهبى آخر صورتها ليست محلقة فى الهواء ، بل على العكس تجرجر قدميها بخطوات ثقيلة متوكئة على عصا ، وهى تشبه بعض الشيء الصور المحفورة على الاحجار الثمينة الرومانية . وتستند «اثينا» الواقفة بكبرياء الى رمح وهى محفورة على حجر الخاتم الذهبى ، فى حين نجد صورتها مجددا على الاطار الذهبى الثقيل للخاتم بهيئة حربية فى خوذة المقاتلين وترس مزين بسخاء ورداء طويل ، وعلى ساعد يدها اليسرى الممدودة تستقر عباءتها الطويلة ، وفى ما تبقى من المكان كتابة يونانية معكوسة : «اثينا» . وهناك قطعة زجاجية مؤطرة بالذهب احتفظت بصور ثلاثة محاربين يقترعون فيما بينهم بواسطة ابريق . وذلك موضوع معروف جيدا

فى النقش الرومانى على الحجر . ولعل هذا الاثر مستورد من ايطاليا . وفى الوقت ذاته نجد على حجر ازرق لخاتم آخر صورة ربما تمثل كاهنا يقف بين مذبحين وبيده صولجان ملفوف باغصان الكرم . وفى احدى الحالات احتفظت القطعة الزجاجية بصورة ربما كانت لرجل ذى خصلات طويلة . ونشير هنا الى خاتم من عقيق ابيض نقشت عليه صورة الغريفون الخرافى برأس نسر وبدن اسدى قوى وقوائم متينة ذات مخالب حادة ومنطلقة الى الامام وجناحين طويلين وذيل سميك ملتو فى طرفه . رقبة الغريفون الملوية برفق مزينة بعفرة مسننة ، ومن رأسه النسرى يبرز منقار وحشى معقوف . ونجد اقرب الصور الى هــــذا الغريفون ، ان لم نقل الشبيهة به كل الشبه ، فى الاقربة الذهبية فى جنوب روسيا ، حيث تعتبر ذات اصل يونانى فارسى ، ولكنها كانت معروفة فى الفن الرومانى ايضا .

وتعتبر المنحوتة الذهبية الصغيرة للالهة المجنحة ذات الوجنتين العريضتين دليلا وثائقيا على اقتران التقاليد الثقافية اليونانية والباكترية . وعلى الرأس عمامة معقدة الشكل ينساب من تحتها شعر بخصلات طويلة . والبدن مشدود باحزمة متصالبة يبرز بينها نهدان غير كبيرين . كلتـا اليدين مخفضتان الى اسفل ، واليد اليسرى تمسك بثمرة لعلها رمانة . والقسم السفلى من البدن ملفع بثياب منسابة يشدها عند الفخذين حبل سميك مفتول وقرب الكتف اليسرى منحوتة منمنمة بهيئة اله الحب المجنح ايروس (آمور الرومانى) وبيده قوس ولا تدع منحوتة ايروس

هذه مجالا للشك بان امامنا صورة الهة الحب اليونانية افروديت ، او على الاصح نموذجها القوشانى «افروديت قوشان» ، الامر الذى يتجلى فى قصر قامتها لدرجة كبيرة وفى القسمات الغليظة لوجهها العريض الوجنتين ، وخصوصا فى الجناحين .

ونجد نموذجا اسلوبيا مغايرا تماما يجسد هذه الالهة فى تمثال ذهبى صغير آخر يسمى اصطلاحا «بافروديت باكتريا» . وجه متأمل هادئ بانف مستقيم وعينين واسعتين وشفتين جميلتين ، وعلى الرأس اكليل تاجى . اما النقطة على الجبين فهى بلا جدال من تأثيرات الجارة الهند . ويهبط الصدر بنهديه الصغيرين حتى يتحول الى خصر أهيف . حوض الفخذين ملفع بثياب مطوية منسابة الى تحت برفق . رسغا وعضدا اليدين مزينة بأساور ، علما بان اليد اليمنى مغروزة فى الفخذ البارز بعض الشىء ، فى حين تستقر اليد اليسرى بطلاقة على اسطوانة العمود . ومن وراء الكتفين يرتفع جناحان ملتويان . وعلى العموم تلوح على التمثال كله امارات الهدوء والسكينة . فهذه الالهة الواثقة من جمالها هى على الاكثر الهة الحب افروديت ، ولكن بصيغتها الشرقية ، الباكترية هذه المرة . ذكرنا ان احدى يدى كلا التمثالين مستندة الى اسطوانة العمود ، وهذا يدل على امكان نسبتهما الى صور افروديت من مدرسة النحات براكسيتيل ، ولكنهما فى الوقت ذاته يعيدان الى الاذهان المنحوتات الذهبية المشابهة لهما من حيث الطراز والتى عثر عليها فى تاكسيلا (شمال

باكستان) فالتقاليد الهلينية كانت قوية فى هذا المركز الثقافى الهندى القديم الهام .

. . . ثوب المحارب الوجيه مشدود بوثوق بحزام ذهبى مضفور مزين بتسعة انواط ذهبية مستديرة مصبوبة بتجسيم ناتئ دائرى تقريبا . وعلى كل الابزيمات نفس الموضوع — امرأة تمتطى اسدا وتمسك احدى يديها برأسه بتسلط ، بينما تمسك يدها الثانية بقارورة ذات عروتين . ومن تحت التنورة القصيرة تلوح ساقاها المتباعدتان الى الجانبين وهما فى نعل عال ذى سيور . ويبدو ان امامنا صورة سيدة عالم الحيوان ، وصاحبة الحيوانات مثل الالهة كيبيلا او نانا . الا ان هذه الصورة تعرضت لتغيرات اسلوبية ارضاء للاذواق اليونانية والرومانية . فهى ترتدى ثيابا يونانية — رومانية صرفا وليس شرقية

النعل مثبت بابزيمات ذهبية يبرز من بينها ابزيمان احتفظا بصورتين متماثلتين بشكل حلقة ذهبية فى داخلها عربة ذات عجلتين بخمسة اشعة وبطيخة مطعمة بالفيروز . وفوق العربة ظلة بشكل الفطر بنصف دائرة خاوية ومثبتة على زانتين من الخيزران يرتكز طرفاهما السفليان على العربة نفسها

وقد جلس فى العربة شخص يرتدى ثيابا طويلة . وجه نحيل ضيق فى طرفه حور وانف صغير بمنخرين واضحين وفم شبه مفتوح ودقيق التقاسيم ، كل ذلك فى رأس مشرئب الى الاعلى . وعلى اليافوخ ضفيرة بارزة ، وعلى اسفل العنق ياقة مستديرة قائمة مزينة بالفيروز ،

والبدن ملفع بثوب ذى طيات وردفين عريضين طويلين بكمين مطعمين بالفيروز . ومن الكتف يمتد شريط عريض مائل عبر الصدر حتى يلتقى بالحزام ، والشريط مزين بقطع فيروزية مستطيلة . احدى يدى الرجل محجوبة عن الرائى ، وقبضة يده الاخرى تمسك بطرف عنان كائنين خرافيين مجنحين يشبهان الاسد مشدودين الى العربة ، وهما فى هيئة رسوم الانواط والشعارات فان احدى قوائمهما مرفوعة الى اعلى . وفى بوزيهما المقيدين بالاعنة والمكشرى الانياب تبدو سورة الغضب ونفاد الصبر . والعيون المطعمة بالاحجار الكريمة الزرقاء والحمراء تكاد تكون مغمضة . وينتهى رأساهما وجبهتاهما العريضتان بآذان مائلة الى الوراء ومطعمة بالفيروز . وبين الاذنين شعر طويل غير عال مطعم بمستطيلات فيروزية صغيرة جدا يتحول الى عفرة متميزة تطوق الرقبة الملتوية بشدة .

ان العربات ، بما فيها ذات المظلات ، معروفة فى الشرق منذ عهد الآشوريين على اقل تقدير . الا ان بعض التفاصيل ، ومنها القماش المنسدل من وراء المظلة تميزها عن عربات باكتريا . وبالعكس نجد حالات مماثلة تماما ، تصل احيانا الى حد التطابق ، فى العربات الصينية التى كانت معروفة منذ القرن التاسع قبل الميلاد . وبالنسبة لموضوعنا هذا تتسم بدلالة كبيرة العربات ذات المظلات الفطرية الشكل المثبتة على نوابض طويلة والتى نجد صورها على قرميد القبور والنقوش المجسمة العائدة لعصر سلالة هان الصينية ، اى اننا نرى وقائع تشير

الى ان صور باكتريا تعود باصولها الى الشرق الاقصى . وتزداد اوجه التشابه اذا اخذنا بعين الاعتبار تفصيل الثياب بشكل اردية فضفاضة ذات ياقات منتصبة واردان عريضة ذات طيات والتى نجد مثيلا لها فى ثياب منغوليا والصين من قديم الزمان . ان اوجه التشابه المذكورة واضحة للعيان تماما (فلنتذكر ان قبائل اليويجى نزحت الى باكتريا من اواسط آسيا) ، الا ان هناك استدراكا واحدا لكنه جوهرى . ففى كل الحالات بلا استثناء تجر العربات الصينية خيول فقط ، وذلك يشكل خاصية مميزة للتقاليد الصينية . وعلى هذه الخلفية تبرز بشكل مدهش الابزيمات التى تشد فيها الى العربة ليس خيول ، كما تنص عليه التقاليد الصينية ، بل الغريفون اى الكائنات الخرافية الشبيهة بالاسود . كل ذلك يمكن ان يدل على التحوير الباكترى للتقليد الدخيل ، اما تكنيك تطعيم عيون هذه الحيوانات الخرافية بالطريقة الملازمة لصياغة الذهب المحلية فهو يدل بلا ريب انها من صناعة باكترية .

وقرب الابزيمات توجد رقائق ذهبية مطولة احتفظت صفحات وجوهها بصور رقيقة الحفر لوحش مجنح شبيه بالنمر الارقط او الفهد برأس مطول . قائمتاه الاماميتان ممتدتان الى الامام وعليهما يستقر الرأس المكشر عن انيابه باذنيه المضغوطتين الى الوراء . والقائمتان الخلفيتان ملويتان الى الوراء بشكل غير طبيعى ، والذيل الطويل المعقوف فى نهايته مضغوط تحت البطن . ان هذه الصور من حيث الاسلوب والحبكة كثيرة الشبه بمنحوتات الوحوش

على الطريقة السيبيرية وبمقبض قوس السرج المحفور من القرون ووصلات السيور والاحزمة فى منطقة التاى الجبلية . وعثر فى القبر على رقيقة اخرى احتفظ جانبها العلوى بصورة محفورة لتنين مجنح . فمه مفتوح عريض وانفه ناتئ الى اعلى وعيناه مفتحتان واسعتان تحت حاجبين بارزين والرأس مزين من الاعلى بقرنين صغيرين واذنين طويلتين ، وتتدلى من الرقبة لحية جعداء . بدنه الملتوى كالافعى يستند الى قوائم مثنية وينتهى بذنب معقوف الى ما تحت البطن . ان الوضعية العامة للتنين ، شأن صورته نفسها ، تشبه لحد مدهش الصورة المجسمة على القراب الذهبـى لخنجر عثر عليه فى مدفن آخر . ولكن تتسم بأهمية خاصة بلا جدال صورة تنين مماثل من حيث الوضعية والاسلوب ومرسوم على اكليل ذهبـى يعود بالاصل الى قرغيزيا . ويبدو انه كانت توجد فى باكتريا فى ذلك الحين صور اصولية للكائنات الخرافية المجنحة الشبيهة بالثعابين ، اى التنانين المخيفة التى اضفت عليهـا الميثولوجيا المحلية معنى معينا واستنسخها مرارا الصاغة المهرة فى نتاجاتهم التى انتشرت فيما بعد على نطاق واسع فى اطراف الاقاليم القريبة . وتقدم توضيحا مباشرا لابزيمات الاحذية الدائرية منحوتة حجرية عثر عليها فى شرخ كتل ويعتقد بانها تمثل الملك كانيشكا الذى يثبت سرواله الطويل ذو الطيات بابزيمات دائرية من هذا النوع عند الكاحل .

. . . ويتسم بأهمية خاصة نوطان ذهبيان مقوسان

ربما هما من زينة عدة الحصان . وفى احدهما صورة مجسمة ناتئة لظبـى رابض على الارض متدلى الرأس وعلى ظهره فهد محنى كالقطة وقد غرز انيابه المرعبة فى بدن الحيوان المغلوب . وعلى النوط الآخر فرس رابضة ذات عفرة مشعثة ورأسها ملوى الى الوراء . وقد انقض عليها من الاعلى تنينان مجنحان هائجان غرزا بوزيهما فى رقبة الفرس وبدنها مكشرين عن انياب متعطشة للدماء بعيون جاحظة . والمشهدان مفعمان بالمأساوية الداخلية والغرض من صبغتهما التخويفية ان تمجد حاملى النوطين وتشير الى قوتهما التى لا تقهر .

وعلى الجنب الايمن من المحارب الشهير خنجر حديدى بمقبض ذهبـى ملبس فى قراب من الذهب ، والقراب مصبوب بشكل مجسم ومزين فى طرفه بنقوش نباتية كالبراعم الملتوية بطلاقة والمطعمة بنتوءات دقيقة من الفيروز . ويأتى بعد ذلك على طرف القراب خطان متوازيان من الفيروز الناتئ الاكبر حجما وبينهما مشهد مجسم لوحوش تنهش حيوانات اخرى

والقراب الثانى موجود عند الجنب الايسر من المحارب ذاته ، وهو عبارة عن رقيقة او قاعدة برنزية ضيقة الطرف تنتهى بنتوئين . التلبيس الذهبـى الامامى للقراب مزين الحواف بقلوب فيروزية ناتئة ومتواجدة فى تجويفات خاصة . وعلى طرفى القسم الاوسط المحدب من القراب نقش مسلسل مكون من اشكال متناوبة لصلبان معقوفة وزهور ذات اربعة اوراق مطعمة باحجار الفيروز وبعجينة سوداء .

والقسم المحورى البارز من القراب مزين بصورتين مجسمتين لكائنين خرافيين احدهما ينهش الآخر . والمشهد كله كأنما «يبرز» من الطرف الضيق للقراب ويتسع حتى ينتهى عند المقبض فيملأ كل القسم الاوسط من القراب . وعلى الجزء العلوى العريض صورة كائن خرافى مأخوذة من الظهر برأس كرأس ذئب ملتفت بنظرة جانبية .

ان المشهد الذى نحن بصدده فريد من نوعه ، حيث لم يعثر له على مثيل فى ايما مكان ، ما عدا مشاهد شبيهة به بعض الشىء وجدت فى تلال بازيريك فى التاى حيث ظلت سليمة قطع خشبية مزخرفة من عدة حصان بشكل صور مجسمة لنمور رقطاء ابدانها مرئية من فوق وقوائمها بهيئة جانبية . وفى كلتا الحالتين نجد القائمتين الاماميتين ، باصابع ثلاثة ، ممدودتين الى الامام ، واحدى القائمتين الخلفيتين تحت البطن بينما تمتد الثانية بعيدا الى الوراء . وهناك اوجه شبه اخرى بين المشهدين من حيث الاسلوب فضلا عن طبيعة الرسم . ومما له دلالته ايضا وجود ملامح اسلوبية مماثلة فى المصوغات السيبيرية* . ان هذا التشابه يدل بلا شك على وجود ارتباط فعلى بين الحالتين . فان التشنج العضلى المتوتر والنحت المتين لابدان التنانين فى قرابات باكتريا انعكاس للاسلوب الشرقى (الآشورى اصطلاحا) ، وهناك ،

---

* راجع رودينكو . حضارة سكان التاى الجبلية فى عهد الاسقوثيين . موسكو ـــ لينينغراد ، ١٩٥٣ ، جدول رقم ٧ (٨٨) .

على ما يبدو ، ينبغى البحث عن منابع الصور التى نحن بصددها . الا ان رأس الذئب بقرنى الآيل يعيدنا من جديد الى فن المنطقة الغابية الشمالية ويشير الى الطابع المتنوع لنشوء الفن الاسقوثى ــ السارماتى البدوى ذى الاسلوب الحيوانى

ان هذا العرض السريع لمصوغات طلا تبه يدل بلا جدال على وجود مركز متميز فى باكتريا لصياغة الذهب التى تعود اصولها الى العصر البرنزى حيث نشأت هنا قاعدة باكترية خاصة للفن القديم . ونجد فى الكثير من مصوغات مقبرة طلا تبه موضوعات وحبكات عديدة للفن التطبيقى الباكترى العائد للعصر البرنزى ، وهى تجسد عالما غنيا من التصورات الميثولوجية للناس الذين عاشوا هنا فى الالف الثانى قبل الميلاد ، وان كانت محورة . زد على ذلك ان الصاغة المحليين فى سهل باكتريا الشاسع قد صنعوا فى ذلك الزمان ايضا مصنوعات ذات قيمة فنية كبيرة . والدليل على ذلك هو المصوغات الذهبية والفضية العائدة الى قبور باكتريا المنهوبة . وتتجلى الفترة الزمنية التالية لتطور المركز المحلى لصياغة الذهب فى كنوز آمودريا* : ففيها نجد توارثا اسلوبيا واضحا فى بعض المصوغات يربطها من جهة بالفن الاخمنى فى ايران ،

* كنوز من المصوغات الذهبية والفضية (وعددها ١٧٧ قطعة) والنقود المعدنية (١٣٠٠ قطعة) عائدة الى القرون الخامس ــ الثالث قبل الميلاد . وقد عثر عليها بالصدفة عام ١٨٧٧ عند مخاضة على نهر آمودريا .

ومن جهة اخرى بمصوغات طلا تبه . وفى الوقت الحاضر تقدم كنوز «الجنينة» فى بيرسيبول (ايران)* دليلا اضافيا على الصلة بين فن الصياغة الاخمنى والباكترى فى اواسط الالف الاول قبل الميلاد . فان مواد طلا تبه لا تواصل هذه التقاليد فحسب حتى بداية التاريخ الميلادى ، بل تشير وثائقيا الى صنعها المحلى فى اطار مركز صياغة الذهب الباكترى الذى كان قائما آنذاك . ويبدو انه كانت هناك فى عهد تواجد «الفن الامبراطورى» الاخمنى «مراكز اطراف» الى جانب «مركز العاصمة» ، وكان احد مراكز تلك الاطراف موجودا فى باكتريا . ومع احتفاظ تلك المراكز الاقليمية بتقاليدها المحلية العميقة فقد كانت جميعها لدرجة معينة فاقدة الهوية ومتأثرة بالاسلوب الامبراطورى العام لفن الصياغة فى «عاصمة» الاخمنيين فى ايران .

ان الفاصل الزمنى بين كنوز آموداريا وكنوز طلا تبه قد ملأته كنوز المعابد فى تخت سنكى (جنوب طاجكستان) ** وبددت الشكوك فى وجود مركز خاص لصياغة الذهب فى باكتريا .

زد على ذلك ان الفرضية القديمة حول الاصل الايرانى

---

* كنوز من المصوغات الذهبية والفضية (١١٦٢ قطعة) عثر عليها فى ابريق اثناء الحفريات الاثرية فى باسارغادى ، وهى تعود الى القرنين الخامس ــ الرابع قبل الميلاد .

** المقصود تشكيلة المعابد التى اكتشفت على الضفة اليمنى لنهر آموداريا فى موضع تخت سنكى (طاجكستان) .

لمجموعة المصوغات السيبيرية الموجودة فى متحف الارميتاج * قد حظيت باثبات استنادا الى مواد طلا تبه حتى جعلت من حق الباحثين ان يفترضوا بان مركز صياغة الذهب فى باكتريا هو الموضع الاكثر احتمالا لصنع القسم الاكبر من المصوغات السيبيرية الآنفة الذكر .

ومما لا جدال فيه ان مصوغات طلا تبه هى من نتاج السلالات المتأثرة بالفن الهلينى فى طور انحطاطه . وبدلا من الفن اليونانى الباكترى المفعم بالحياة والحيوية والمتميز برشاقة الشكل الفنى والواقعية المعيشية المدهشة ظهر اتجاه جديد تسوده الاشكال الميتة الجامدة . ويتميز فن الانحطاط عند القوشانيين الاوائل فى مطلع التاريخ الميلادى برسم الشخوص والحبكات الجامدة المهيبة والافراط فى الشكلية والامعان فى التطعيم الملون .

فما هو سبب تدنى المستوى الفنى لمصوغات طلا تبه بصفة عامة ؟ يعود السبب بالدرجة الاولى الى تدنى المتطلبات الجمالية للزبائن انفسهم . فان بدو الامس القوشانيين الذين صاروا حكاما فى باكتريا كانوا قليلى الاطلاع على منجزات الحضارة الهلينية . وكانت اذواقهم ومشاربهم الفنية متخلفة جدا عن منزلتهم الاجتماعية الرفيعة كحكام بلد متطور مثل باكتريا . فهم ، على طريقة

* مجموعة المصوغات الذهبية من حفريات النهب فى تلال سيبيريا . وكانت قد وضعت فى متحف الطرائف كونستكاميرا بامر شخصى من بطرس الاكبر . وهى محفوظة الآن فى متحف الارميتاج فى لينينغراد .

الهمج ، يخيطون على بزات المراسيم مئات وآلاف المعلقات الذهبية اللامعة الرنانة التى لا تترك فى ثيابهم موضعا خاليا من النقوش . كلا ، لم تكن باكتريا تفتقر الى الفنانين الموهوبين ، لكن «المتطلبات الاجتماعية» لدى الحكام الجدد هى السبب فى تدهور المستوى الفنى الذى صار الصناع المحليون يلتزمون به .

تبين الدراسات الحديثة ان التوفيق الفعلى بين الفنين الشرقى واليونانى قد حدث بعد مائتى عام تقريبا من سقوط سلطة اليونانيين السياسية فى الشرق ، اى عندما بدأت دولة قوشان بالنهوض . الا ان الاكتشافات التى تمت فى طلا تبه توفر الفرصة الآن لاعادة النظر فى هذه القضية بشكل جديد . فقد كان الرأى السائد عادة هو ان التوفيق او التركيب الفنى هو نتيجة لتفاعل بين ثلاثة مصادر : فن اليونانيين الدخلاء وفن اهالى باكتريا المحليين وفن البدو الرحل . ولكن اذا كان هذا العنصر الثالث يعتبر فى السابق مساهمة طفيفة فان فن بدو السهوب يكتسب الآن اهمية جديدة تماما . فان قسط هذا الاتجاه الفنى فى التركيب العام الذى نشأ مع اقتراب التاريخ الميلادى يتجلى فى التعبيرية الساطعة والحركية (المؤثرة مع انها اصطلاحية) والبساطة التى تبلغ احيانا حد السذاجة وهذه الخواص بالذات هى التى انعشت تقاليد الفن الباكترى التى يبلغ عمرها الآلاف السنين ، كما انعشت الصبغة الاكاديمية الملازمة للفن الهلينى فى فترته المتأخرة . ويمكن الافتراض بان فن البدو الرحل بالذات هو الذى

صار مادة حفازة امنت ثبات التفاعل بين التيارين الفنيين القديمين الغنيين بالتقاليد والاشكال والحبكات الثابتة والرموز الرهيفة : التيار الباكترى القديم والتيار اليونانى .

يتعذر علينا ان نذكر كل الآثار التى تم العثور عليها اثناء الحفريات فى طلا تبه . فهى ، بالاضافة الى ما ذكرناه ، تتضمن احقاقا ذهبية للزينة والتجميل عليها كتابات يونانية ، ومرايا صينية فضية عليها كتابات ومختلف الحلى من الفيروز والعقيق الاحمر واللازورد والياقوت الجمرى . ونشير هنا خصيصا الى تفرد القطع النقدية الذهبية والفضية البارثية والهندية والى جانبها نقود طبريوس الرومانية المعروفة جيدا لدى هواة جمع النقود والتى سكت فى بلاد الغالّ وحط بها المطاف فى باكتريا .

كانت اغلبية المصوغات مصنوعة محليا على ايدى الصناع الباكتريين ، وذلك على الاغلب بطلب من القوشانيين الذين كانوا من البدو فى السابق ، الامر الذى تدل عليه الصفة «الهمجية» العامة لتماثيل الآلهة من البنثيون اليونانى والرومانى . ولا يستثنى من ذلك الا مصنوعات ومواد قليلة مخصصة للتصدير وقد اعدت فى العهد الباكترى اليونانى عندما كان الصاغة المحليون يبدعون وفقا لمقتضيات التقاليد الكلاسيكية الصارمة للفن الهلينى .

واخيرا هناك نقطة اخرى هامة للغاية تدل على الاصل المحلى فى الغالب للمصنوعات التى نحن بصددها فالى جانب الحبكات والصور اليونانية البحتة توجد حبكات وصور مختلطة تعكس تأثير التقاليد الباكترية المحلية العائدة

الى العصر البرنزى . فان الإلهات المجنحات السالفات الذكر اللواتى تصورن بلا جدال افروديت انما يعدن باصولهن الى إلهات باكتريا حيث كانت توجد فى الفن المحلى للنقش على الحجر فى الالف الثانى قبل الميلاد الهات نسوية مجنحة . وكذلك الالهة الممتطية ظهر الاسود فى الحزام الذهبى السالف الذكر لها اصول مقنعة فى النقش على الحجر فى شرق إيران وكذلك بخاصة فى باكتريا فى العصر البرنزى . كما ان الالهة (وربما هى اناهيد) التى ترافقها الاسماك والطيور والوحوش لها اصول واضحة فى الاختام الباكترية العائدة للعصر البرنزى ، حيث توجد إلهات تحيط بها نفس تلك الطيور والوحوش . ومن الممكن ايضا مقارنة بعض الشخوص (الخرافية بالدرجة الاولى) مع الرسوم المحفورة على الاختام الحجرية فى العصر البرنزى . فان الاسود المجنحة على القراب الذهبى تشبه صورا مماثلة لها فى باكتريا ، وان الغريفونات الخرافية من نفس ذلك القراب تكاد تكون اشارة الى كائنات محلية مماثلة اكثر قدما . وهناك تنينان على قراب ذهبى آخر احدهما قابض على قائمة الآخر ، وهما من حيث الموضوع قريبان من حبكة التنانين التى تلتهم بعضها البعض فى النقش على الحجر فى باكتريا . ان مشاهد افتراس الوحوش ، رغم تجاوبها الذى لا جدال فيه مع الاسلوب السيبيرى لرسم الوحوش ، انما تتميز بفارق واحد هام للغاية . فالمشاهد المرسومة على الاقربة الذهبية الباكترية ليست فردية ، بل تمثل سلاسل كاملة

لهذا النوع من الكائنات تذكرنا بالاساليب الفنية الملازمة بقدر اكبر للرسوم المجسمة الاخمنية فى بيرسيبول والاوانى الطقوسية فى باكتريا . ثم ان التاج الذهبى الذى يصور طيورا جاثمة على الاشجار قريب ، ان لم نقل مطابق تماما ، لموضوع مماثل لوحظ فى طلاسم باكتريا فى العصر البرنزى .

خلاصة القول ، هناك كل المبررات لافتراض وجود تعاقب على مدى آلاف السنين بين التقاليد الفنية فى باكتريا خلال العصر البرنزى والتقاليد الهلينية ، الا ان ضعف دراسة الفن التطبيقى فى المرحلة الاخمنية البينية يعيق التوصل الى نتائج اكثر تحديدا . ومع ذلك يمكن القول بان الاصل المحلى لمصوغات مقبرة طلا تبه قد ثبت بالبراهين ، بل ويمكن التأكيد على وجود تقاليد فنية محلية تعود الى منابع ايرانية شرقية وحتى آسيوية غربية فى آخر المطاف . ومن ناحية ثانية نلاحظ بوضوح تقاليد تقودنا الى عالم البدو حتى جنوب سيبيريا والتاى . والى جانب المراقبات الاثرية الصرف توجد تطابقات فنية اخرى لها دلالة كافية ، مثل تجسيد الحيوانات الخرافية الرابضة عند قدمى آريس فى الابزيمات السالفة الذكر . فان هذه الكائنات الخرافية غير معروفة فى فن آسيا الغربية او آسيا الوسطى ، ولكنها كانت منتشرة كثيرا فى الفن الاسقوتى فى التاى ، كما تدل عليه تلال بازيريك . واذا اضفنا الى ذلك نموذج الحاكم «المنغولى الشكل» على معلقات «الحاكم والتنانين» وتمثال «افروديت القوشانية»

وتماثيل الموسيقيين يحق لنا ان نستبدل المفهوم المائع للتأثيرات «البدوية» او «السارماتية» بمفهوم اكثر تحديدا هو التقاليد «القوشانية» التى جاء بها البدو الرحل من موطن الاجداد البعيد فى اواسط آسيا . وينشأ انطباع وكأن التسامح الديني الواسع لدى قبائل اليويجى او بعبارة اخرى لدى القوشانيين الاوائل قد ساعد على نشوء اتجاه جديد مختلط فى الفن تشابكت فيه بشكل معقد اساليب وتيارات فنية مختلفة . ولاول مرة فى الدراسات القوشانية الواسعة تهيأت الامكانية لصياغة الخواص الاساسية للفن التطبيقى القوشانى المبكر الذى يمثل مزيجا من التقاليد الفنية الهلينية والآسيوية المتوسطة (سيبيريا والتاى) التى نشأت على اساس باكترى محلى مع تأثيرات هندية ضئيلة . ان فن «السلالات» الرسمى هذا يتميز بالابتعاد عن التقاليد الواقعية السابقة فى الفن الهلينى وافساده واستبداله بتصويرات تجريدية مهيبة جامدة . الا ان هذا الاتجاه سرعان ما اختفى هو الآخر وكأنما انصهر فى الاسلوب البوذى العام مع انتشار البوذية ذات الوسائل والحبكات الفنية المغايرة تماما

وفى ختام هذا العرض السريع للكنوز الآنفة الذكر لا بد وان نتوقف عند السؤال التالي : من هم اصحاب تلك المدافن ؟ ولهذا الغرض نعود الى الحقيقة الثابتة وهى ان الابهة التى تشبه ابهة الملوك فى دفن هؤلاء الموتى تتعارض بشدة مع القبور البسيطة التى تكاد تكون بدائية . حقا ، فالموتى الذين زينوا ، وهم ينتقلون الى

جوار ربهم ، بثروات وروائع ملوكية ، كانوا فى قبـــور بسيطة هى عبارة عن حفر حفرت على عجل ولم تطل جدرانها حتى بطلاء طينى بسيط . والاكثر من ذلك ان تلك القبور ظلت بدون اضرحة ولا شواهد تدل على وجودها فوق سطح التربة ، الامر الذى يشير الى التخفى المتعمد اثناء الدفن . ان واقع كون كل القبور متواجدة فى جزء من هضبة طلا تبه مرئى من جهة قلعة يمشى تبه القريبة يجعلنا نفترض وجود ارتباط مباشر بينهما ويخيل الينا ان المدفونين فى مقبرة طلا تبه كانوا فى حينه حكاما لمقاطعة واسعة عاصمتها يمشى تبه . وخوفا من السرقة والنهب انشأوا مقبرة العائلة على هضبة قريبة لا يميزها شىء عن سائر الهضاب ، ويبدو انهم كانوا يدفنون الموتى من اقربائهم فى السر ليلا . وفى هذه الحالة يتمكنون من مراقبة المقبرة وصيانة الثروات المدفونة فيها مع الموتى دون ان يغادروا القلعة . وربما كان ذلك هو السبب الذى جعل كل القبور تصل الينا سالمة دون ان يتعرض احدها للنهب .

تحت تصرف العلماء مادة غنية جدا ، وسيستمر تحليلها ودراستها الدقيقة ، مما يثير مجادلات جديدة ويتطلب اعادة النظر فى الاستنتاجات السابقة . ولا يزال امامنا كشف اسرار تاريخ قوشان وحضارتها

الفصل الثالث عشر

المخطوطات تتكلم . . .

المؤلف: بونغارد – ليفين
ترجمة: خيري الضامن

يعتبر اكتشاف وقراءة النصوص باللغات البارثية والخوارزمية والصغدية والباكترية القديمة التى كانت منتشرة فى آسيا الوسطى من اكبر منجزات العلم السوفييتى والعالمى فى دراسة تاريخ آسيا الوسطى وحضاراتها فى العصور الغابرة وفى مطلع العصر الوسيط . وبفضل هذه الدراسات تمت قراءة العديد من صفحات تاريخ الحضارة فى آسيا الوسطى واعيد النظر فى الاراء السابقة وجرى تدقيق الوقائع التاريخية وارتدت ظواهر الثقافة والفن عند شعوب آسيا الوسطى حلة جديدة واتضحت لدرجة كبيرة بنية المجتمع فى تلك الحقبة وعلاقاته الاقتصادية وهلمجرا .

بديهى ان النجاح الرئيسى قد تحقق بفضل النطاق الواسع للدراسات الاثرية والتاريخية واللغوية التى جرت فى الاتحاد السوفييتى ، بما فيه جمهوريات آسيا الوسطى نفسها ، فى العقود الاخيرة . فان امورا كثيرة كانت متوقفة على مواهب العلماء وجهودهم طوال السنين وتوفيقهم فى فك رموز الابجديات القديمة ودراسة اللغات القديمة

فى آسيا الوسطى . كما لعبت دورا له وزنه تقاليد دراسة آسيا الوسطى فى العلم السوفييتى .

تعود بداية دراسة التاريخ القديم لآسيا الوسطى وتاريخ حضاراتها فى العلم الروسى الى النصف الاول من القرن الثامن عشر . فقد درست معطيات المصادر المكتوبة عن تاريخ آسيا الوسطى فى مؤلفات عدة اجيال من العلماء الروس قبل الثورة ، وبالدرجة الاولى فى مؤلفات بيتشورين وغريغوريف وبارتولد . الا ان الدراسة المبرمجة لاثار آسيا الوسطى وتحليل المواد الاثرية والنقودية على نطاق واسع ، وكذلك اكتشاف اثار الكتابات المحلية القديمة فى آسيا الوسطى — كل ذلك لم يتحقق الا فى العهد السوفييتى .

وفى الثلاثينات بدأت المرحلة الجديدة فى دراسة اثار آسيا الوسطى بمؤلفات الجيل الاقدم من العلماء السوفييت بيرنشتام وماسون وتريفير وتولستوف وغيرهم .

وفى الاربعينات والخمسينات صدرت مؤلفات تعميمية فى تاريخ جميع جمهوريات آسيا الوسطى وعدد من الدراسات الاخرى وبينها مؤلف تولستوف «خوارزم العريقة» (١٩٤٨) ، وهو كتاب يستند الى مواد العقد الاول من اعمال بعثة خورازم الاثرية الاثنوغرافية . وقد لعب دورا كبيرا فى دراسة تاريخ آسيا الوسطى القديم وتاريخ حضاراتها عموما .

وخلال العقود الاخيرة قامت بعثات كبيرة متعددة الفصائل باعمال واسعة فى جميع جمهوريات آسيا الوسطى . واتسعت على نطاق لم يسبقه مثيل الدراسات الميدانية

التى تجرى ، عادة ، بالتعاون الوثيق بين علماء الاثار فى اكاديميات جمهوريات آسيا الوسطى ومعاهدها العالية ومتاحفها وبين علماء من موسكو ولينينغراد . وبفضل الحفريات المبرمجة الواسعة النطاق اكتشفت فى العديد من المشاريع مواضع قديمة كبيرة من حيث المساحة واثار كثيرة جدا للحضارة المادية واثار معمارية ورسوم دنيوية ودينية وتماثيل وقطع نقدية ، وكذلك وثائق وكتابات باللغات القديمة . وقد وسعت هذه الاثار لدرجة كبيرة قاعدة دراسة مصادر تاريخ آسيا الوسطى .

وتجدر الاشارة الى ان المصادر المكتوبة فى تاريخ آسيا الوسطى القديم شحيحة ، علما بانها غير متوازنة اطلاقا فيما يخص المراحل والاقاليم . وهناك عدد كبير نسبيا من المصادر المكتوبة الاجنبية ، وهى متنوعة من حيث طابعها وانتماءاتها اللغوية ومن هذه المصادر كتابات فارسية قديمة تعود لملوك الاخمنيين فى القرون السادس — الرابع قبل الميلاد ووثائق اقتصادية عيلامية واكدية (بابلية جديدة) صادرة اساسا من الادارات الاخمنية فى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد ومؤلفات الكتاب اليونانيين التى تعتبر حتى الان من اهم المراجع فى دراسة تاريخ آسيا الوسطى القديم ، وكتابات الملوك الساسانيين فى القرن الثالث قبل الميلاد والمؤلفات البهلوية (الفارسية المتوسطة) العائدة الى القرون السادس — التاسع الميلادية والنصوص المانوية العائدة للقرون الثالث — التاسع الميلادية بالعديد من اللغات (السريانية والقبطية وعدة لغات ايرانية

الاصل ـــ الفارسية المتوسطة والبارثية والصغدية والباكترية وكذلك باللغة الاويغورية القديمة واللغة الصينية) وسجلات السلالات الصينية ومذكرات الرحالة والمؤلفات التاريخية السريانية والمؤلفات التاريخية والجغرافية الارمنية والكتب التاريخية العربية ومراجع بلغات الهند . الا ان المراجع الاجنبية تتناول تاريخ شعوب آسيا الوسطى عادة بصورة عرضية ، واساسا اثناء وصف الحملات العسكرية للغزاة الاجانب او بمناسبة التطرق الى وقائع من تاريخ انتشار المذاهب الدينية (وهى وقائع اسطورية احيانا) . ان المعلومات الواردة فى المصادر الاجنبية عن التاريخ السياسى والاثنوغرافى لآسيا الوسطى والجغرافية التاريخية لهذه المنطقة محدودة جدا . وان بعض المراحل الطويلة للغاية لا تلقى فيها الا اهتماما قليلا (وخصوصا فترة القرون الثالث ـــ السابع الميلادية) . وان معطيات هذه المراجع شحيحة للغاية فيما يخص التاريخ الاقتصادى والاجتماعى والثقافى ولذا تتسم بأهمية بالغة لتاريخ آسيا الوسطى الوثائق والكتابات التى حررت فى اراضى هذه المنطقة باللغات المحلية القديمة .

وبفضل دراسات العلماء السوفييت ، وفى مقدمتهم البروفسور ليفشيتس امكن قراءة وتحليل وثائق عثر عليها فى آسيا الوسطى وكانت باللغات البارثية والصغدية والخوارزمية . وكان هذا الاكتشاف الكبير من حيث قيمته العلمية قد ساعد ليس فقط على قراءة صفحات كاملة من تاريخ شعوب آسيا الوسطى بشكل جديد ، وليس

فقط على ابراز العديد من سمات الثقافة والاديان والتنظيم الاجتماعى لحضارة آسيا الوسطى ، بل وعلى اجراء تعديلات هامة على التصورات الموجودة بشأن تطور الشرق القديم عموما

لقد تكلمت النصوص القديمة وقالت ما لا يستطيع ان يقوله اى مصدر آخر .

الوثائق البارثية

فى البداية سنتناول فك رموز الوثائق البارثية ودراستها . وقد حظيت تلك الدراسات بتقدير رفيع فى العلم العالمى ورسمت فى الواقع صورة جديدة لملامح الدولة البارثية وحضارتها .

فحتى الاونة الاخيرة كنا بالاساس نعرف اللغة البارثية التى كانت موجودة فى سالف الزمان وفى اوائل العصر الوسيط حتى القرنين الخامس والسادس الميلاديين تقريبا فى اراضى تركمانيا الاشتراكية السوفييتية حاليا وفى خراسان (ايران) من النصوص المانوية العائدة الى القرون الرابع — السادس الميلادية ومن كتابات الملوك الساسانيين العائدة الى القرن الثالث الميلادى والتى كانت الصياغات البارثية فيها عبارة عن ترجمة عن الفارسية المتوسطة ، وكذلك من كتابات النقود ومن الكتابات الموجزة على الاختام والانية الفضية والكتابات على الحجر التى عثر عليها فى السوسه وفى قلعة جنكل (منطقة بيرجند فى جنوب خراسان) . ويتسم بأهمية كبيرة جلد ابرومان رقم ٣ الذى عثر عليه

عام ١٩١٠ فى كردستان الايرانية . وهو عبارة عن صفقة موجزة لبيع وشراء قطعة من الارض تم الاتفاق عليها فى عام ٥٣ الميلادى . وكانت هذه الوثيقة حتى اكتشاف الاثار فى جنوب تركمانيا هى الوثيقة التجارية البارثية الوحيدة لعهد مملكة البارثيين بكامله

واعتبارا من عام ١٩٤٨ عثرت البعثة الاثرية المختلطة فى جنوب تركمانيا باشراف عضو الاكاديمية التركمانية البروفسور ماسون اثناء الحفريات فى انقاض نيسا على الكثير من النصوص المكتوبة بالدهان الاسود على كسر من القوارير والآنية الخزفية الاخرى

تقع انقاض نيسا عند سفح كوبيتداغ على مسافة ١٨ كيلومترا عن العاصمة التركمانية عشق آباد . واطلق علماء الاثار على موضعين هناك اسم ستارايا نيسا (القديمة) ونوفايا نيسا (الجديدة) . وصرنا نعرف من النصوص ان نيسا القديمة كانت فى القرن الاول قبل الميلاد تسمى «قلعة مهرداد كرت»

كانت النصوص الخزفية الستة الاولى قد اكتشفت فى موضع نيسا الجديدة فى ايلول (سبتمبر) ١٩٤٨ وسرعان ما عثر على نص من هذا النوع فى نيسا القديمة . وخلال الفترة ١٩٥١ — ١٩٥٥ اثناء الحفريات فى مستودعات النبيذ الملوكية فى نيسا القديمة عثر على اكثر من ٢٠٠٠ نص . واخيرا فى ١٩٥٩ — ١٩٦١ عثر وسط ركام الآنية المهشمة ، شمالى مستودعات النبيذ ، على اكثر من

٤٥٠ نصا آخر . ويتجاوز عدد النصوص الخزفية الآن ٢٧٠٠

وبعد اكتشاف النصوص الخزفية المثير فى جنوب تركمانيا طرحت بالطبع مسألة الابجدية ولغة النصوص . وتلك قضية ذات اهمية من الدرجة الاولى . وقد وفق العلماء السوفييت فى حلها بشكل باهر .

بدأ فك رموز نصوص نيسا الخزفية ونشرها ودراستها على يد البروفسورين م . دياكونوف وا . دياكونوف وليفشيتس منذ عام ١٩٥١ وبعد وفاة م . دياكونوف (فى عام ١٩٥٤) واصل الباحثان الاخران هذا العمل . وتنشر طبعة كاملة للنصوص الخزفية تضم البوما مصورا وصيغة صوتية للنصوص وترجمة لها وشروحا تاريخية ولغوية وقائمة المفردات فى السلسلة العالمية «دائرة الكتابات الايـــرانيـــة» * (Corpus inscriptionum iranicarum)

وكان من الضرورى فى المقام الاول تحديد لغة الوثائق وطابع التناسب فيها بين التراكيب الآرامية الاصطلاحية والكتابات الايرانية «المفتوحة» . وكانت المهمة الاولى باليوغرافية (تحريرية) ، اى التأكد من القراءة الصحيحة

---

* نشرت حتى الان ثلاثة مجلدات من الالبوم المصور ومجلد بالنصوص الصوتية وترجمتها .

Corpus inscriptionum iranicarum.
Part II: Inscriptions of the Seleucid and Parthian Periods and of Earstern Iran and Central Asia. Vol. II: Parthian Economic Documents from Nisa. Plates, I, by I. M. Diakonoff and V. A. Livshits, ed. by D. N. Mecdenzie. London, 1976; Plates, II. L., 1977; Texts, I. L., 1977; Plates, III. L., 1978.

للحروف ، ذلك لان اشكال الحروف ، رغم كون الابجدية الآرامية معروفة من زمان ، عرضة للتغيرات تبعا للزمان والمكان وحتى لخط الكاتب . ويجرى التأكد من صحة الحروف طبعا اذا حصل اثناء القراءة معنى مقبول . ومن السهل القول بان اغلبية الكلمات فى تلك الوثائق آرامية . وكان هناك ايضا عدد كبير من الكلمات الايرانية ، لكنها يمكن ان تكون مجرد اقتباسات واردة فى اللغة الآرامية . واثناء المناقشات حول لغة وثائق نيسا دافع عدد من العلماء ، وفى مقدمتهم اخصائيو اللغات السامية ، عن الرأى القائل بان تلك الوثائق مكتوبة بالآرامية . وكانت لتلك المناقشات اهمية كبيرة بالنسبة للبت فى مسألة طرق ظهور الكتابات الايرانية التركيبية الاصطلاحية

وتمكن المؤلفان ان يثبتا بان لغة الوثائق هى البارثية بالذات . وان الكلمات والعبارات الآرامية الواردة فيها صورية رمزية . وتتلخص الحجج الاساسية القائلة بان لغة الوثائق هى البارثية (البروفسور ليفشيتس خصوصا) فيما يلى : اولا — لا تلتزم الوثائق دوما بقواعد اللغة الآرامية (فالاسماء المؤنثة مثلا توصف بصفات مذكرة ، وزمن الفعل لا يطابق السياق ، وترتيب الكلمات يلازم اللغة البارثية وهو غريب على الآرامية) . ثانيا — لا توجد فى الكلمات البارثية (الايرانية) نهايات قواعدية آرامية ، فى حين تخضع الكلمات الدخيلة عادة لقواعد اللغة التى اقتبستها . وكل الكلمات البارثية فى الوثائق واردة بصيغ تطابق تماما قواعد اللغة البارثية . ثالثا — فى بعض الاحيان تتكرر فى

نفس التعبير من وثيقة الى اخرى كلمة تكتب بالآرامية تارة وبالبارثية تارة اخرى . واخيرا صادف فى نصوص الوثائق استعمال النهايات البارثية فى افعال آرامية . كل تلك الظواهر تلازم الكتابات الايرانية التركيبية .

وسرعان ما اعترف اخصائيون من بلدان كثيرة بصحة استنتاجات العلماء السوفييت وحظيت خدماتهم بتقدير رفيع . وقد انتخب البروفسور ا . دياكونوف والبروفسور ليفشيتس عضوين فى أكاديمية العلوم البريطانية تقديرا لاعمالهما فى فك رموز النصوص البارثية ودراستها

ولكى نتفهم بمزيد من الوضوح صحة حجج العلماء السوفييت لا بد من ان نتناول بايجاز وقائع التطور التاريخى والثقافى فى الشرق القديم والعصر الهلينى المبكر التى حددت خاصية تقاليد الكتابة فى الدول القديمة فى آسيا الوسطى ومنها بارثينا .

فخلافا لبلاد الرافدين والاناضول وغرب بلاد فارس وسائر بلدان غربى آسيا لم تكن توجد فى شرق بلاد فارس وآسيا الوسطى كتابة مسمارية ، كما لم تكن توجد التقاليد المرتبطة بتلك الكتابة لرسم الاشارات المسمارية على الواح الطين . وكانت الآرامية اقدم كتابة استخدمت فى آسيا الوسطى وشرق بلاد فارس . فمنذ القرن التاسع قبل الميلاد استخدمت فى اللغة الآرامية ابجدية فينيقية من **٢٢** حرفا يعبر عن كل منها اما صوت صامت او صوت صامت مع اى من الاصوات الصائتة . وكانت اربعة احرف تؤدى دورا اضافيا هو دور احرف العلة (الاصوات

الصائتة) . الا ان احرف العلة لم تكن تكتب دوما فى الواقع .

كان انتشار الابجديات ذات الاصل الآرامى فى بلاد فارس وآسيا الوسطى والهند مرتبطا بالظروف التاريخية والثقافية الخاصة . فاللغة الآرامية التى هى من لغات المجموعة السامية الشمالية قد تغلغت تدريجيا فى الدوائر والدواوين فى بلاد آشور وبابل منذ القرنين السابع والسادس قبل الميلاد . وفى عهد الاخمنيين صارت الآرامية لغة مشتركة للادارة فى الامبراطورية كلها ووسيلة للتخاطب بين رعاياها المختلفى اللغات وكانت تنافس بنجاح اللغتين الاكدية (البابلية الجديدة) والعيلامية فى الدواوين الاخمنية .

وقد اجرى الكتبة الآراميون بعض التحرير فى إشكال الحروف الفينيقية وفقا لحاجات الادارة والدواوين . وكانت الفواصل بين الكلمات منتظمة تماما فى النصوص المكتوبة بعناية . وكانت الكتابة الآرامية اسهل بكثير بالنسبة للدراسة والحفظ من اية كتابة مسمارية ، بما فيها الاكدية التى كانت اكثر انتشارا فى الشرق القديم سابقا .

وكان بعض كتبة الدواوين الآرامية فى الامبراطورية الاخمنية آراميين او من ابناء الشعوب الاخرى الذين اتقنوا اللغة الآرامية المكتوبة («الآرامية الامبراطورية» او «الرسمية») . الا ان اغلب كبار موظفى الجهاز الادارى كانوا من الفرس الذين لا يجيدون الآرامية . ولذا كان يتوجب على الكتبة ان يترجموا شفويا النصوص المكتوبة بالآرامية الى اللغة الفارسية القديمة او الى لغة ايرانية اخرى .

وكانت ممارسة الكتبة الآراميين للترجمة الشفوية لنصوص الوثائق باملاء الموظفين الفرس قد ساعدت على ظهور اقتباسات معنوية (او ترجمات حرفية) فى اللغة من تراكيب الجمل الفارسية القديمة واقتباس المصطلحات الادارية الفارسية القديمة فى اللغة الآرامية ، واحيانا اقتباس عبارات كاملة . وبالتدريج نشأ نظام المطابقات العادية بين المصطلحات والتعابير الآرامية وترجماتها الفارسية

وبعد سقوط الامبراطورية الاخمنية تحت ضربات جيوش الاسكندر المقدونى ظلت الدواوين الآرامية قائمة فى شرق بلاد فارس وآسيا الوسطى . ومن خلال الصراع مع الغزاة اليونانيين والمقدونيين ظهرت فى بلاد فارس وآسيا الوسطى عدة دول فى القرن الثالث قبل الميلاد . ففى اراضى تركمانيا السوفييتية الحالية ومقاطعات خراسان المتاخمة لها فى جنوب غربى آسيا الوسطى نشأت مملكة البارثيين التى سرعان ما تحولت الى دولة قوية ادعت بمواصلة تقاليد الاخمنيين . ويمتد تاريخ مملكة البارثيين حوالى خمسمائة عام (٢٥٠ قبل الميلاد تقريبا — ٢٢٧ ميلادية) . وكان حكامها من سلالة الارشاكونيين الفارسية الشرقية .

وظل الملوك البارثيون يتكاتبون باليونانية مع المدن الهلينية الطابع فى دولتهم وكانت على النقود البارثية المتداولة اساسا فى المدن كتابات يونانية الا ان اللغة الآرامية ظلت تستخدم فى دواوين بارثينا فى القرن الثالث وبداية القرن الثانى قبل الميلاد . بيد ان عدد الكتبة الآراميين

كان قليلا لان الدولة البارثية فى عهدها الاول كانت معزولة عن المقاطعات التى يقطنها الآراميون ودعت الحاجة الى استخدام كتبة من السكان المحليين — البارثيين المتكلمين بالفارسية الشرقية وليس معروفا كيف جرى اعداد الاداريين البارثيين فى مدارس الكتبة فى عهد الارشاكونيين المبكر فى بارثينا الا انه يستفاد من النصوص الاحدث ان معارف هؤلاء الكتبة فى مجال اللغة الارامية تقتصر على حفظ الصياغات الآرامية العادية واكثر الكلمات الآرامية انتشارا . وما كان بوسعهم ان يكتبوا بالآرامية دون اخطاء املائية سوى ابسط النصوص المترابطة المكونة من العبارات المعتادة منذ عهد الاخمنيين . فقد واصلت لغة هذه النصوص الآرامية من حيث القواعد والمفردات تقاليد اللغة «الارامية الامبراطورية» الاخمنية . وكانت تلك لغة ميتة تختلف عن اللهجات الآرامية الحية فى القرنين الثالث — الثانى قبل الميلاد . وكان الحال كذلك ليس فى بارثينا وحدها ، بل فى ارمينيا وبلاد فارس وفى اراضى افغانستان الحالية وشمال غربى باكستان .

وكان تعقد الشؤون الدواوينية ، ومنها ضرورة استحداث سجلات جديدة للوثائق ، وكذلك تقوى العناصر الايرانية البحتة فى الثقافة والايديولوجية قد حددا المسار اللاحق لتطور الكتابة واللغة المكتوبة فى مملكة بارثينا . وظل الكتبة يستخدمون الصياغات الدواوينية الآرامية لكنهم صاروا يلجأون اكثر فاكثر الى الوسائل التعبيرية من لغتهم الام ويضمنون النصوص كلمات وتعابير بل وحتى عبارات

كاملة من اللغة البارثية . وصار القسم الآرامى من الوثائق يكتب بلغة تعوزها معرفة القواعد الآرامية وتحشر فيها قواعد اللغة البارثية وترتيب كلماتها فى ترجمة حرفية الى الآرامية . وبالتدريج ظهرت عند الكتبة عادة قراءة النص كله ، باقسامه الآرامية والايرانية ، باللغة الام حتى مع انفسهم . وتحولت الكتابات الآرامية الى اشارات لفظية اصطلاحية بحتة بالنسبة للكلمات الايرانية ، اى الى ما يسمى بالتراكيب الاصطلاحية الغريبة (هيتيروغرام) .

وهكذا نشأت كتابة متميزة على اساس الابجدية الآرامية مع التراكيب الغريبة ، وهى اقتران اشارات الابجدية الصوتية مع الاشارات الكلامية . وكانت التراكيب الغريبة مكونة من نفس احرف النص المكتوب صوتيا ، لكن تلك الحروف لا تشكل الكلمة الايرانية المنطوقة بل تشير الى الكلمة الآرامية التى تطابقها من حيث المعنى . ولذا فان هذه الكلمات الآرامية لم تستخدم فى الكلام الايرانى المنطوق اطلاقا .

وظهرت الكتابات الاصطلاحية الغريبة على اساس الابجدية الآرامية كذلك ، فى نفس فترة ظهور الكتابة البارثية تقريبا (القرن الثانى قبل الميلاد) فى خوارزم والصغد وفى بلاد فارس . كما كانت هناك كتابات من اصل آرامى فى فرغانة (لا توجد آثار للفرغانية القديمة الا فى الكتابات على النقود) ، وفى باكتريا حيث كانت تستخدم الى جانب اليونانية ، وفى عدد من المناطق فى شمال غربى الهند .

كان للابجديات ذات الاصل الآرامى فى آسيا

الوسطى اساس خطى مشترك يتكون من ٢٢ حرفا ، لكنها تختلف فيما بينها فى بعض التفاصيل . ونجد شبها كبيرا جدا بين اقدم آثار الكتابات فى آسيا الوسطى وبين الاصل الآرامى من حيث رسم الحروف ، الا ان الفوارق الخطية تزداد بالتدريج . ويلاحظ فى الكتابة الصغدية اتجاه نحو التقلص التدريجى فى عدد التراكيب الاصطلاحية الغريبة ، فى حين نرى الكثير من تلك التراكيب فى الكتابات البارثية والخوارزمية حتى فى الاثار الاكثر حداثة .

ان النصوص البارثية التى اكتشفها العلماء السوفييت وفكوا رموزها مؤرخة ، كما بين التحليل ، وفقا للعهد الارشاكونى الذى يصادف عامه الاول سنة ٢٤٧/٢٤٦ قبل الميلاد . وتعود كل النصوص الخزفية المؤرخة تقريبا الى القرن الاول قبل الميلاد . ويتعلق مضمون نصوص نيسا التى عثر عليها اساسا اثناء حفريات مستودعات الخمور بحساب وجرد كميات النبيذ الواردة وحفظها . ولم تكن تلك النصوص تشكل ارشيفا فى الواقع . فقد عثر عليها فى مجموعات بالصدفة . هذا ما تؤكده مقارنة مضامين وتواريخ نصوص عائدة الى حفريات بعينها وكانت الاغلبية الساحقة من النصوص عبارة عن وثائق اولية لورود النبيذ (والخل فى حالات نادرة) من الضيعات ومزارع الكروم وكذلك من الاشخاص . وكانت تلك الوثائق فى الوقت ذاته بمثابة بطاقات لخوابى النبيذ والخل يشار فيها الى مقدار النبيذ المسلم من الخابية المعنية او مقدار ما اضيف منه الى تلك الخابية ، كما يشار

الى حموضة النبيذ وغير ذلك من المعلومات الى ان تنفد كمية النبيذ المذكورة فى النصوص . وكانت «الوثائق ــ البطاقات» تكتب فى اغلب الاحيان اثناء تسليم او استلام وجبة جديدة من النبيذ الذى ينقل الى الخوابى بالقرب على ما يبدو . واستنتج العلماء السوفييت من تحليل التواريخ ان تنظيفا شاملا فى مستودعات النبيذ فى نيسا القديمة قد جرى فى حوالى عام ٣٩/٤٠ قبل الميلاد . فقد نظفت تلك المستودعات من القلل المهشمة ومن الوثائق الاولية التى لم تعد ضرورية . وهناك ما يبرر الافتراض بان حملات التنظيف هذه جرت مرارا وان من المحتمل اكتشاف المزيد من النصوص الخزفية التى القيت فى المناطق المتاخمة للمستودعات مع قلل النبيذ المهشمة .

واغلبية نصوص نيسا الخزفية هى عبارة عن وثائق اقتصادية عادية اربعة اخماسها بطاقات جرد اولية تسجل فيها توريدات النبيذ من مزارع الكروم من فئة «اوزبارى» مما لا يقل عن ١٦ ضيعة . وبين تلك الضياع عدة ضيعات تتكون اسماؤها من الاسماء الاولى للملوك البارثيين مثل : مهردادكان (الملك مهرداد الاول او الثانى) فريابادكان (الملك فرياباد الاول او الثانى) وارتابانوكان . ويصادف ان ترد اسماء الملوك فى مسميات مزارع الكروم ، ومنها ارتخشاهركان باسم الملك الاخمنى ارتخششتا الثانى الذى يعتبره الارشاكونيون البارثيون جدا لهم او تتسم بأهمية كبيرة المسميات الجغرافية الاخرى التى تمكننا من الحكم على الاراضى التى يرد منها النبيذ والخل ، وهى مسميات

تعتبر فى الوقت ذاته مصدرا هاما للجغرافية التاريخية لبارثينا .

ان وثائق الجرد الاولية على نوعين — موجز وتفصيلى . وتتضمن الوثيقة الموجزة عادة تاريخ الورود واسم الضيعة . واحيانا يضاف اليها اسم مزرعة الكروم

وكانت الوثائق الموجزة منتشرة على الاكثر فى الخمسينات وبداية الستينات من القرن الاول للعصر الارشاكونى (تسعينات — ثمانينات القرن الاول قبل الميلاد) . وبعد ذلك حلت محلها الوثائق التفصيلية التى تتضمن معلومات اوسع

ويستنتج من الحد الادنى للمدة بين استخدام الكسرة الخزفية للمرة الاولى والثانية ان النص الخزفى كان سارى المفعول لفترة تتجاوز العام الواحد (وفى بعض الحالات ١٥ — ٢٠ عاما) . ويبدو ان معطيات الوثائق الاولية تنقل حتى ذلك الحين الى قوائم خاصة ويجرى تدقيق للموجودات (فقد عثر على مسودة لنتائج هذا النوع من تدقيق الموجودات) ، ثم تهمل الوثائق الاولية . وبدلا من الوثيقة الاولية توضع مع الوعاء الملىء كسرة خزفية عليها كتابة موجزة : «فى هذه الخابية خمر معتق» او «فى هذه الخابية نبيذ طازج» . ولا تشير هذه الكتابة الى كمية النبيذ لان حجم الخابية يشير اليها فى اغلب الظن . واذا تحول النبيذ الى حمض فان الكتابة تقول : «فى هذه الخابية خل» . وقد وصلتنا عدة مئات من هذه النصوص وكانت هناك نصوص مماثلة كتبت للعنب

والزيتون والسمسم . تلك هى الممارسة الادارية لمستودعات النبيذ فى نيسا

ان المعلومات التى حصل عليها العلماء السوفييت استنادا الى تحليل الوثائق البارثية ذات اهمية بالغة ، لانها تمكننا من تصور الحياة الاقتصادية فى المجتمع البارثى وبنيته الاجتماعية وقوام جهاز ادارة الدولة . وتكشف هذه المعطيات عن الكثير من الامور الجديدة فى تاريخ آسيا الوسطى عموما .

وتهيـئ الوثائق الامكانية للحصول على معلومات عن اقتصاد المملكة . ومما له دلالته ان مثل هذه المعطيات لم تبق محفوظة فى اى مصدر آخر عن تاريخ مملكة البارثيين

كانت الاراضى المتاخمة لقلعة مهردادكرت (نيسا) مقسمة الى ضياع (ما لا يقل عن ١٦ ضيعة) تناسب من حيث الموقع ، على ما يبدو ، المراكز السكنية المحيطة بالقلعة . وكان قسم من الضيعة يوزع على مزارع الكروم . ويمكن ان نستنتج من رتب الموظفين الوارد ذكرهم فى الوثائق ان السلم الادارى يضم ثلاث درجات : آمر القلعة (او القرية المحصنة) والعامل (وفى الغالب لا يذكر اسمه ، لان المنطقة المعنية يحكمها ، على ما يبدو ، عامل واحد . وفى عدد قليل من الوثائق فقط توجد اشارة الى ورود النبيذ «من العاملين» ، فالمعروف ان المقاطعات البارثية ليست كبيرة من حيث المساحة) والمرزبان (كان الرأى السائد حتى الان ان رتبة المرزبان ظهرت فقط

فى عهد الساسانيين) . وكانت تجبى من الضياع ومزارع الكروم مختلف انواع الاتاوات . وكانت اراضيها تقسم الى عدة فئات تبعا لنوع الاتاوات التى تجبى منها او الايرادات مثل ١) «الاوزبارى» — مداخيل الاراضى الاميرية و٢) «الباتباج» — الضريبة العينية و٣) الايرادات الشخصية من كبار الموظفين مثل «كبير آمرى الخيالة» او «مدير الخزينة» (وهناك عدة اشخاص يحملون هذا اللقب) وكذلك عامة زارعى الكروم والمعصرانيين . وتلك الواردات اقرب الى بدلات الايجار التى يسددها المستأجرون كبارا كانوا ام صغارا . والاقل احتمالا هنا هو تقديم التبرعات للعبادات (فالمفروض ان نيسا القديمة كانت مركزا لعبادة الارشاكونيين بعد وفاتهم) . و٤) ضريبة «الباتسيك» النقدية التى كانت تستبدل فى الواقع بضريبة عينية و٥) احتمال وجود الريع .

وكان النبيذ يصل ايضا من مزارع المعابد . وقد ورد فى بعض الوثائق ذكر لمعابد بلا اسماء ومعبد «مصلى ناناى» وهى الهة من غرب آسيا تحولت عبادتها فى بارثينا وباكتريا والصغد الى تبجيل للمعبودة الفارسية القديمة اناهيد . كما ورد فى احد الوثائق ذكر «معبد فرهات» الذى كان يجرى فيه تبجيل الملك فرهات بعد وفاته .

ويبين التحليل الذى اجراه العلماء السوفييت (وخصوصا ليفشيتس و . ا . دياكونوف) ان وثائق نيسا تحتوى على معلومات فى منتهى الاهمية عن الاقتصاد فى مملكة بارثينا . ان التحليل الاحصائى للارقام الواردة فى الوثائق الخزفية يواجه صعوبة مبعثها ان تلك الوثائق وصلتنا فى

مجموعات بالصدفة ، وهناك تفاوت كبير فيما تورده من اخبار عن التوريدات من ضيعات معينة وعن الانواع الاخرى من الضرائب فى سنين مختلفة . ومع ذلك فان المادة المتوفرة والتى هى غير كاملة اطلاقا وتشمل فترة مائة عام قد هيأت للعلماء السوفييت امكانية الاستنتاج بان الاقتصاد فى عهد الارشاكونيين كان قريبا بنوعيته من الاقتصاد فى مملكة الاخمنيين وكان استمرارا لتقاليد هذا الاخير (فان الاراضى الاميرية من فئة «اوزبارى» و«باتباج» وتأجير الاراضى الاميرية وقوائم تسليم المؤن شبيهة بما كان عند الاخمنيين من حيث الشكل والمصطلحات) .

لقد وفر اكتشاف العلماء السوفييت لهذه الوثائق وفك رموزها مادة هامة للحكم على ديانة البارثيين فى القرن الاول قبل الميلاد . فالوثائق تورد اكثر من مائتى اسم لاشخاص بارثيين ، والاغلبية الساحقة من تلك الاسماء ذات دلالة لاهوتية . وهناك الكثير من الاسماء الزرادشتية بلا جدال . وما من اسم الا ويمكن ان ينسب الى الزرادشتية القويمة . ويبين تحليل اسماء الاشخاص الواردة فى وثائق نيسا انه الى جانب الالهة المعروفة من اناشيد «افيستا» والمصادر الزرادشتية الاخرى كان الناس فى بارثينا يعبدون الاله ساسان (ولعل الطائفة الفارسية التى تحدرت منها سلالة الساسانيين كانت تعبده هى ايضا) . وورد فى احدى الوثائق الخزفية ذكر «كاهن النار» وذلك بمناسبة ايصال كمية كبيرة من النبيذ . ويمكن الافتراض بأنه

اوصل النبيذ من المعبد الى المستودعات الملوكية . وتذكر الوثائق الشهور والايام حسب التقويم «الزرادشتى» . والرأى السائد ان هذا التقويم طبق فى بلاد فارس رسميا فى عام ٤٤١ قبل الميلاد . الا ان وثائق نيسا تسوق اقدم دليل مباشر على التاريخ بموجب هذا التقويم . فان معطيات هذه الوثائق قد مكنت العلماء السوفييت من اعادة النظر فى الرأى الذى كان سائدا فى السابق والقائل بان الزرادشتية دخلت الى بارثينا فى فترة لا تتجاوز النصف الثانى من القرن الاول او فى القرن الثانى الميلادى . وبين تحليل النصوص ان الزرادشتية التى انعكست فى اسماء الاشخاص وفى تقويم وثائق نيسا قد تعايشت مع الموضوعات الاسطورية والدينية اليونانية المتجسدة فى رسوم كؤوس النبيذ القرنية الشكل التى كانت محفوظة (فى نفس ذلك الوقت !) مع المنحوتات اليونانية فى قصر نيسا القديمة وغيره مقابل مستودعات النبيذ الملوكية تماما .

ان لقب طغمەدار الوارد فى احدى الوثائق والذى يحمله اثنان من البارثيين يعود فى الاصل الى كلمة تعنى فى العصر الرومانى «فيلق» . وربما يرتبط ظهور لقب طغمەدار بوجود جنود رومانيين فى بارثينا كانوا قد اسروا فى معركة كارى (٦ ايار/مايو عام ٥٣ قبل الميلاد) . وربما كان الطغمەدارون آمرى فصائل الاسرى من الرومان ورؤساء مراكز سكن هؤلاء الاسرى الذين استخدموا فى الاعمال الزراعية ، بما فى ذلك العمل فى مزارع الكروم الملوكية .

وتشغل مكانة خاصة ثلاث وثائق تتضمن كتابات

تاريخية تذكارية بمناسبة اعتلاء الملوك البارثيين العرش . وقد وصلت الينا بالكامل وثيقة واحدة فقط من تلك الوثائق ، وهى عن تتويج هوترز (عام ٩١ قبل الميلاد) . ومن الناحية التاريخية يتضح من هذه الوثيقة ان هوترز الاول كان بالفعل من سلالة الارشاكونيين (وكان ذلك مثارا للشكوك قبل اكتشاف الوثيقة) ، لانه حفيد فرياباد الثانى وان والد هذا الاخير ، ارتابان الاول ، كان بالفعل ابن اخى مؤسس سلالة ارشاك (الذى كانت هناك ايضا شكوك فى وجوده تاريخيا) . ان هذه الوثيقة التذكارية ذات اهمية بالغة كذلك لتقييم روايتين اساسيتين وردتا فى المصادر اليونانية عن اصل الارشاكونيين وتاريخ سلالتهم المبكر — رواية بومبايوس تروغوس (ويوسطينوس) وسترابون من جهة ، ورواية اريانوس (والمؤرخين المعتمدين عليه) من جهة اخرى . فان الوثيقة المذكورة اعلاه تثبت صحة الرواية الاولى (راجع التفاصيل فى بحث «موطن البارثيين : تاريخه وحضارته») .

ان الوثائق الخزفية والكتابات التى عثر عليها فى جنوب تركمانيا قريبة جدا ، من حيث تسجيلاتها وخصائص تحريرها ، من اثار الكتابة البارثية التى عثر عليها خلال السنوات الاخيرة فى وادى الرافدين . فاثناء الحفريات البارثية فى نيبور التى اجرتها بعثة المعهد الشرقى التابع لجامعة شيكاغو باشراف كيل عثر على اربع كتابات منقوشة على اوعية فخارية وحوالى ٢٠ نصا خزفيا . وبناء على اقتراح من كيل قام العالم السوفييتى البروفسور ليفشيتس

بفك رموز هذه النصوص . وكشف التحليل عن التطابق فى الممارسات الدواوينية البارثية فى جميع اراضى دولة الارشاكونيين من جنوب تركمانيا حتى وادى الرافدين . وتدل الاستعانة بالعالم السوفييتى على المنزلة الرفيعة التى تتمتع بها مدرسة الاستشراق السوفييتية

وعلى العموم فان قراءة ودراسة النصوص البارثية التى عثر عليها فى تركمانيا قد فتحتا صفحة جديدة فى تاريخ احد مراكز الحضارة فى آسيا الوسطى ، ونعنى بارثينا التى حظيت حضارتها من قديم الزمان باهتمام المؤرخين اليونانيين ، كما حظيت باهتمام العلماء فى عصرنا .

الوثائق والكتابات الصغدية

تتسم اعمال العلماء السوفييت فى فك رموز وثائق اللغة الصغدية ودراستها بأهمية علمية بالغة . فقد اوضحت تلك الدراسات امورا كثيرا فى تاريخ وحضارة بلاد الصغد العريقة التى تمثل مركزا هاما آخر للحضارات فى آسيا الوسطى . الا ان اهمية دراسة الوثائق الصغدية اوسع ، فهى نافعة لفهم السمات المميزة للتطور الحضارى ليس فقط فى آسيا الوسطى ، بل وفى مناطق اخرى من الشرق القديم .

كانت اللغة الصغدية طوال الفى عام — من بداية الالف الاول قبل الميلاد حتى القرن العاشر الميلادى — لغة سكان وادى زرافشان وقشقه دريا . (ظلت احدى اللهجات الصغدية التى تختلف عن الصغدية الفصحى فى

عدة خواص قائمة حتى اليوم فى عدد من قرى وادى ياغنوب الجبلى ، وتسمى هذه اللهجة بلغة ياغنوب التى يتكلم بها الان حوالى ٢٠٠٠ شخص) .

وكان الصغد ، وهم تجار شطار وحرفيون مهرة ، قد اسسوا مراكز سكنية لهم فى مناطق اخرى من آسيا الوسطى — فى شاش (واحة طشقند) وفى وادى فرغانة وفى سيميريتشيه (منطقة السبعة انهار) . وفى فترة لا تتجاوز القرنين الثانى والثالث الميلاديين ظهرت مستوطنات صغدية فى شرق تركستان ، وفى الصين خصوصا — فى تون هوانغ وجانغ آن وعدد من المدن الاخرى . وفى القرنين السابع والثامن كانت هناك فى ضواحى تون هوانغ عدة قرى صغدية زراعية .

وكان التجار الصغديون يسيطرون على عدة مواضع فى الطريق الحريرى الكبير الذى هو الطريق الرئيسى للتجارة الدولية الممتد من الامبراطورية الرومانية حتى الصين . كما كانوا يسيطرون على تجارة آسيا الوسطى مع مناطق الاورال («طريق الفراء») . وفى القرون الثالث — السابع كانت الصغدية هى اللغة الاساسية للتجارة الدولية والتبادل الثقافى فى مساحات مترامية من بخارى فى الغرب حتى سور الصين . وكان البوذيون الصغديون يقطعون طريق الحجيج من شرق تركستان الى المزارات المقدسة فى سفات ويخلفون الكثير من الكتابات على الصخور فى اعالى هندوس .

وبعد تأسيس اول خاقانية تركية فى اواسط القرن

السادس الميلادى لعب الصغد دورا هاما فى الحياة السياسية والثقافية والدينية للدولة وتزعموا المبعوثين الاتراك الى بيزنطة . واطلعوا الاتراك على البوذية وفيما بعد اطلعوهم على المانوية والمسيحية . وتوضح الاتصالات الصغدية التركية الوثقى المسيرة الطويلة التى اجتازتها الكتابة الصغدية فقد اقتبسها الاويغوريون وانتقلت منهم الى المغول ومن هؤلاء الى المنشوريين . وبين البروفسور ليفشيتس ان الكتابة التركية القديمة الرونية قد نشأت على الاكثر وفقا للابجدية الصغدية .

ولقد عثر على اولى النصوص الصغدية فى مطلع القرن العشرين فى واحة تورفان (مقاطعة سينزيان فى جمهورية الصين الشعبية حاليا) وفى ضواحى تون هوانغ . والاغلبية الساحقة من هذه الاثار ذات مضمون دينى . فهى عبارة عن ترجمات صغدية لنصوص بوذية ومانوية ومسيحية . وامكن التأكد من لغة هذه الاثار الصغدية بفضل احتواء بعض النصوص المانوية على مصطلحات تقويمية وفق العلماء فى مقارنتها بالمسميات المماثلة الواردة فى مؤلفات البيرونى العالم الموسوعى الذى الف كتبه بالعربية على تخوم القرنين العاشر والحادى عشر . فقد اورد البيرونى معلومات تفصيلية عن تقويم الصغد وهى مطابقة لمعطيات النصوص الصغدية التى عثر عليها فى تركستان الشرقية .

ولكنه لم يكن معروفا حتى ثلاثينات القرن العشرين ولا اثر واحد للغة الصغدية يعود بالاصل الى اراضى الصغد نفسها . وفى ربيع **١٩٣٢** عثر اهالى قرية خيرآباد فى

ناحية زحمة آباد (ناحية عينى حاليا) فى جمهورية طاجكستان الاشتراكية السوفييتية فى انقاض قلعة موغ («قلعة السحرة») القديمة على سلة مضفورة ومعها وثيقة مكتوبة على ورق حريرى بلغة لم تكن مفهومة آنذاك . وكانت الوثيقة طوال عدة شهور تنتقل من يد الى يد فى قرى اعالى زرافشان الى ان ارسلت الى دوشنبه حيث تأكد بانها مكتوبة باللغة الصغدية . وارسلت صورة فوتوغرافية للوثيقة الى لينينغراد الى العالم السوفييتى الكبير فرايمان المختص بالدراسات الايرانية . وهكذا بدأت دراسة الوثائق الصغدية التى عثر عليها فى آسيا الوسطى . وكانت نتائج تلك الدراسة مساهمة ذات شأن فى العلم العالمى .

الجبل الذى تتواجد عليه انقاض قلعة موغ ينتصب كجلمود ارتفاعه ثمانون مترا على الضفة اليسرى لنهر زرافشان عند مصب نهر قوم فيه . النهر يطوق الجبل من ثلاث جهات . والوصول الى القلعة فى منتهى الصعوبة حتى من الجهة الرابعة . وفى ايار (مايو) ١٩٣٣ ، اثناء الحفريات فى القلعة عثر على حوالى ٤٠ وثيقة صغدية . وبعد ذلك اجرت بعثة فرايمان حفريات ادق . واتضح ان البناية كانت تتكون من اربع غرف ضيقة ذات طيقان ، وهى ممتدة من الشمال الى الجنوب . وربما كان هناك طابق علوى كانت الوثائق محفوظة فيه فى بادئ الامر وقد وقعت فى الاسفل بسبب الدمار . وفى سياق الحفريات عثر على اكثر من ٤٠٠ اثر للحضارة المادية مثل المصنوعات الفخارية ــ الخوابى والقلل والقدور والاباريق ، والمصنوعات

المضفورة مثل السلال والاغطية ، والمصنوعات الخشبية الرائعة مثل الاطباق المحفورة والصناديق وزارات النرد والازرار ، وكذلك ترس خشبى فريد مغلف بالجلد وعليه صورة فارس مسلح مطلية باصباغ صقيلة ، ومصنوعات جلدية مثل القرب والاحذية ومختلف انواع الاقمشة القطنية (حوالى ١٥ صنفا) والحريرية والحبال الصوفية والبسط ومواد زجاجية . وعثر كذلك على مصنوعات معدنية انصال حديدية للسهام وسكين حديدية وانواط والخ . ومن الاسلحة عثر على سهام من القصب والخشب ودرع وكذلك قراب خشبى لخنجر ملبس بالجلد (مواد الحضارة المادية التى عثر عليها اثناء حفريات القلعة محفوظة الان فى متحف الارميتاج وفى معهد التاريخ والاثار والاثنوغرافيا التابع لاكاديمية العلوم الطاجيكية) كما عثر على ست قطع نقدية . الا ان الشىء الاهم هو العثور على الوثائق المخطوطة — ٧٤ وثيقة باللغة الصغدية وواحدة باللغة العربية وواحدة باللغة التركية القديمة الرونية (وكتابتها تختلف كثيرا عن اللغة التركية القديمة الرونية الينيسية الاورخونية) و٨ وثائق صينية (استخدم الصغد صفحتها الخلفية كمادة يكتبون عليها)

وفى عام ١٩٣٤ اعد فرايمان وصفا تفصيليا للوثائق تضمن تحليلا تحريريا لها ، كما تضمن عرضا موجزا لمضمون بعض الوثائق الصغدية ودرس الاكاديمى كراتشكوفسكى الوثيقة العربية التى عثر عليها فى القلعة وحدد بدقة وعلى جناح السرعة تاريخ الوثيقة ، بل ورسم

ابعاد الموقف التاريخى لعهد انهيار القلعة . وتأكد ان كل الوثائق التى عثر عليها ينبغى ان تنسب الى فترة لا تتجاوز عام ٧٢٢ اما الوثيقة العربية فهى رسالة من ديو آشتيج الى عامل عربى . وبينت دراسة الوثائق الصعدية ان الكثير منها يذكر اسم ديو آشتيج وانه كان حاكما فى بنج ، وهى مقاطعة مدينتها الرئيسية بنجقند التى تبعد ٦٠ كيلومترا عن سمرقند شرقا . ويسبغ عدد من الوثائق على ديو آشتيج لقبا اكثر فخامة هو «ملك الصغد وحاكم سمرقند» ، الامر الذى يستنتج منه انه كان يتوق الى اعتلاء عرش سمرقند . وفى القرن السابع وبداية القرن الثامن كانت الصغد السمرقندية تمثل ، على ما يبدو ، اتحادا لامارات صغيرة تابعة (بصورة شكلية جدا احيانا) الى اكبر الحكام ، اى حاكم سمرقند الذى يحمل ايضا لقب «ملك الصغد» .

فى صيف ٧٢٢ التجأ بعض اهالى بنجقند بزعامة ديو آشتيج الى القلعة التى ذكرها الطبرى فى تاريخه وسميت فيما بعد باسم قلعة موغ . واخذ ديو آشتيج وانصاره كثيرا من الحاجيات القيمة وكذلك الرسائل الصغدية واخباريات المبعوثين والوثائق الحقوقية والاقتصادية . وقد ظلت ذكرى ديو آشتيج محفوظة فى التقاليد التاريخية العربية امدا طويلا (حيث ورد اسمه آخر مرة فى معجم عربى صدر فى القرن الثامن عشر) . وهو يعتبر فى الانساب الشهيرة الواردة فى المراجع العربية ، كما بين البروفسور ليفشيتس ، من احفاد الملوك الساسانيين .

وقد اصدر فرايمان ١٣ وثيقة صغدية من مجموعة موغ ، وهى عبارة عن تسجيلات اقتصادية واوامر وقائمة مصطلحات تقويمية . وشكلت اعمال فرايمان مضمون المجلد الاول من سلسلة «وثائق صغدية من جبل موغ» . واعد المجلدين الاخرين تلاميذ فرايمان وهم سميرنوفا وبوغولوبوف وليفشيتس .

ان الوثائق الصغدية التى عثر عليها فى جبل موغ مكتوبة على الجلد (القضيم) وعلى ورق صينى وعلى عصي من اغصان الصفصاف نظفت من القشرة وشطرت شطرين . وكان كتبة دواوين بنجقند وغيرهم ممن كتبوا تلك الوثائق قد استخدموا الخط التجارى . وهذا النوع من الخطوط الصغدية سريع الكتابة ويختلف كثيرا عن الخطوط المتقنة المتأنية للمخطوطات الصغدية البوذية . ويواجه فك رموزه صعوبات كبيرة . والكتابة السريعة صعبة بخاصة للقراءة . ففى اواسط الكلمات يمكن ان تتشابه كتابة ٨ حروف من الابجدية الصغدية التى كانت تتكون من ١٨ حرفا لا غير فى القرن السابع وبداية القرن الثامن الميلاديين (وهناك اربعة احرف اخرى تستخدم بصورة نادرة جدا ويقتصر استخدامها على التراكيب الاصطلاحية الغريبة) . بديهى ان الصغد انفسهم كانوا يقرأون الخط السريع ليس باحرف منفردة . فهم يقرأون الكلمات بين الفواصل الفراغية فى السطور . وعلى الباحث المعاصر ان يقرأها بنفس الصورة ، لكنه ، خلافا للصغد ، لا يعرف الكلمات التى تواجهه لاول مرة فى النص الذى امامه . ان قراءة

الوثيقة المكتوبة بالخط السريع تشكل فى هذه الظروف احجية معقدة . فيجب ، اولا ، تجريب كل القراءات المحتملة ومقارنتها كل مرة بالمعنى المستنبط اشتقاقا ، اى حسب مواد مفردات اللغات الايرانية الاخرى (الحية منها والميتة) ، واحيانا اللغات الهندواوربية المنتمية الى مجموعات لغوية اخرى . ثانيا — يجب التثبت من كل تلك الاحتمالات بمقارنتها مع سياق الوثيقة فذلك هو المعيار الرئيسى للتثبت من صحة القراءة . والحال ففى نصوص موغ كمية كبيرة من المفردات غير الواردة فى الاثار الصغدية المعروفة سابقا : ففيها تسميات كثيرة للاسلحة والادوات المنزلية وغيرها ، ومصطلحات حقوقية واجتماعية والقاب ورتب واسماء شخصية ومسميات جغرافية ، واخيرا هناك عدد كبير من الافعال والظروف التى يصادفها الباحث لاول مرة وواجه دارسو وثائق موغ صياغات قواعدية لم تكن معروفة سابقا ، وفى مقدمتها صياغات الافعال وكذلك تراكيب الجمل الجديدة . وتجدر الاشارة كذلك الى ان هناك نصوصا ظلت محفوظة بشكل ممتاز على الجلد (واكبرها يضم ٥٠ سطرا) وعلى العصي ، ولكن يوجد بين الوثائق ما تضرر كثيرا بفعل النار او الديدان . وهذا هو سبب الخلافات بين الباحثين فى قراءة وتفسير نصوص بعينها . الا ان الاهم هو تكلل القراءة بنجاح باهر . ان طبع وقراءة ودراسة الوثائق الصغدية انجاز بارز فى العلم السوفييتى . فقد بعثت بشكل جديد ، واحيانا لاول مرة ، المراحل التاريخية والبنية الاجتماعية والثقافة

فى بلاد الصغد وفى آسيا الوسطى عموما .
واتضح ان الوثائق الصغدية التى عثر عليها فى اراضى الصغد نفسها اثار لغوية ممتازة (فالاغلبية الساحقة من النصوص الصغدية التى عثر عليها فى تركستان الشرقية هى ترجمات لمؤلفات دينية) ، بل ومن اهم المراجع التاريخية . فقد وضعت تحت تصرف الباحثين مادة فى التاريخ الاجتماعى والاقتصادى والثقافى والسياسى للبلاد فى العصر القديم وفى اوائل القرون الوسطى
ان الوثائق الصغدية التى عثر عليها فى قلعة جبل موغ تقسم من حيث المضمون الى عدة مجموعات . وتضم المجموعة الاولى ثلاثة عقود حقوقية عقد زواج وعقد بيع ضريح وقطعة من المقبرة المجاورة له وعقد ايجار طاحونة . وهناك مجموعة خاصة من الايصالات الموقعة عادة كوثائق حقوقية باستلام الجلود . وهناك مجموعة كبيرة من الاوامر الاقتصادية بشكل رسائل صادرة عن حاكم بنجقند ومدير شؤون البلاط حول تسليم المؤن (القمح والدقيق والنبيذ وغيرها) والاسلحة (الاقواس والسهام والخوذ والزرد) وغيرها من العدد الحربية والادوات المنزلية . وهناك تسجيلات كثيرة عن ايصال وتسليم المواد الغذائية والعدد الحربية والادوات المنزلية بشكل وثائق جرد اولية حررها المحاسبون وغيرهم من صغار الموظفين وكذلك الحسابات الاجمالية . وبين هذه التسجيلات عدة وثائق عن تسليم مبالغ نقدية فيها اشارة الى مناصب والقاب موظفى الادارة فى بنجقند ، وتتضمن كذلك معلومات عن الاسعار وعن

بعض خصائص التداول النقدى فى الصغد .

وتتسم بأهمية بالغة بالنسبة لتاريخ الصغد القديمة السياسى والعسكرى المعروف سابقا من المصادر العربية فقط الوثائق التى عثر عليها فى جبل موغ والخاصة بالمراسلات الدبلوماسية : الاخباريات التى ارسلها المبعوثون الى ديو آشتيج حاكم مقاطعة بنج وعاصمتها بنجنقد فى الفترة ٧٠٨ — ٧٢٢ ، ومراسلات ديو آشتيج مع اتباعه من اصحاب المقاطعات الزراعية غير الكبيرة الواقعة اساسا فى المناطق الجبلية على مقربة من بنجقند ، ورسالة بعثها الى ديو آشتيج الامير العربى عبد الرحمن بن صبح ، وتعود ، على ما يبدو ، الى سنة ٧١٩ او ٧٢٠ ميلادية وتكشف عن العلاقات المعقدة بين الادارة العربية والاقطاعيين الصغديين ، ومنهم حكام المقاطعات شبه المستقلة ، أثناء الفتح العربى لآسيا الوسطى .

وتتسم بأهمية خاصة وثيقة ذات مضمون فلكى . فهى تورد المسميات الصغدية لايام الشهر الثلاثين فى التقويم الزرادشتى واسماء ايام الاسبوع (وقد اخذت الصغد هذه الاسماء عن بلاد فارس فى عهد الساسانيين ، وعن طريق الصغد وصلت الى الصين والى الاتراك القدامى) وتسميات بروج القمر . ان المصطلحات التقويمية الصغدية واسماء الاشخاص ذات الدلالة الدينية الواردة فى وثائق قلعة موغ ، وكذلك الاشارة الواردة فى احدى الوثائق (لاول مرة فى الاثار الصغدية) الى كبير الكهنة الزرادشتيين — «مغباد» (وترجمتها الحرفية «كبير السحرة») انما تبين ان

الديانة المهيمنة فى الصغد عشية الفتح العربى هى الزرادشتية . وتجدر الاشارة الى ان هذا الحكم تعرض للجدل مرارا فى المطبوعات العلمية . وبفضل دراسة وثائق موغ يمكن القول بانه صار حكما ثابتا . وتتجلى الفوارق بين الديانة الزرادشتية فى الصغد وبين زرادشتية الساسانيين فى ايران ، بقدر ما يمكن الحكم عليه من وثائق موغ ، اوضح ما تتجلى فى البنثيون . فالى جانب ارمزد المعبود الزرادشتى الاعلى ، وكوكبة الالهة المعروفين لدينا من «افيستا» ، كان الصغد يبجلون معبودين آخرين : شيش وخشوم (يتضح من اسماء الاشخاص الخوارزمية القديمة والمصطلحات التقويمية ان هذا المعبود كان مبجلا ايضا فى خوارزم) ونانا (نانايا) ، وهى الهة ذات اصل آسيوى غربى وقد اندمجت عبادتها فى الصغد وبارثينا وباكتريا مع عبادة الهة الماء والخصب الايرانية القديمة اناهيد ، والاله تهسيج وبعض الآلهة الاخرين .

لقد احتفظت المصادر المكتوبة بمعلومات قليلة عن الطقوس والمراسيم الزرادشتية فى الصغد . ويبين عقد بيع الضريح الذى عثر عليه فى قلعة موغ والعائد الى اواخر القرن السابع او بداية القرن الثامن انه كانت هناك مقبرة فى ضواحي بنجقند . وهيأت الدراسات الاثرية الفرصة لاثبات وجود نواويس فى المقبرة توضع فيها اوعية رفات طينية . وعلى اية حال فان قسما من تلك النواويس كان بشكل مدافن للعوائل والافخاذ . (لم يكن زرادشتيو بلاد فارس الساسانية ولا الفارسيون من الزرادشتيين المعاصرين

المقيمين فى الهند يعرفون الدفن فى اوعية الرفات) .
ويستفاد من عقد البيع الذى عثر عليه فى قلعة موغ ان مأتم الدفن — وهو من الطقوس التى تنكرها نصوص افيستا المتأخرة والكتابات الدينية الساسانية — كان يجرى فى المقبرة

والى جانب ذلك يمكن ان نلاحظ بان الزرادشتية فى الصغد ، كما فى بلاد فارس فى عهد الساسانيين قد تأثرت كثيرا بالذروانية التى هى تعاليم دعية بشأن مبدأ الزمن اللامتناهى الذى هو اصل ارمزد ، مبدأ الخير ، واهريمان ، مبدأ الشر . ويمكن ان نلاحظ الصبغة الذروانية فى الزرادشتية الصغدية بمقارنة وثائق قلعة موغ مع التراجم الصغدية للمؤلفات البوذية والمانوية التى عثر عليها فى تركستان الشرقية .

وتهيئ وثائق قلعة موغ الفرصة للتأكد من بنية الادارة فى المناطق الريفية الصغدية فى مطلع القرن الثامن :
١) حاكم المنطقة وتوابعها ؛ ٢) عمدة القرية ؛ ٣) الارسبان (وظيفته غير معروفة) ؛ ٤) الشيخ (ربما هو رجل الدين) .
وبناء على امر من اصحاب السلطة هؤلاء كان افراد او جماعات من اهالى الريف يؤدون اعمال السخرة ويحملون او ينقلون الاحمال ويرعون الماشية

وتشير الوثائق الاقتصادية الى «العاملين بالسخرة» ، ولكنها تشير ايضا الى الاجراء . وكان اهالى القرية او الطوائف القروية يدفعون الاتاوات والضرائب بصورة عينية على الاكثر : قمحا وشعيرا وماشية . وكان موظفو الادارة

فى بنجقند (وفى القرى ايضا على ما يبدو) يستلمون اجورهم من خزينة حاكم بنجقند او من الاتاوات التى يتعين على القرى ان تسددها . وهذه الاجور نقدية او عينية . فالسجلات تشير الى تسليم حاجيات مع ذكر اسعارها النقدية . وتشير الوثائق الى مسؤولى الادارة فى المدن ومنهم الطرخان (رتبة تركية لاحد كبار الموظفين) و«الكاتب» وكبير الخبازين وكبير موزعى النبيذ ومدير الصيد والقنص والجلاد (المنفذ القضائى) وجابـى الاتاوات . وكان مدير شؤون البلاط المعاون الاول لامير بنجقند . ويمكن ان نلاحظ عموما ان بلاط امير بنجقند والجهاز الادارى قد حافظا فى بنيتهما على التقاليد القديمة جدا التى ربما تعود اصولها الى عهد العمال الاخمنيين فى شرق بلاد فارس وآسيا الوسطى .

وتتضمن وثائق قلعة موغ كذلك معطيات تمكننا من الحكم على مكانة اهالى المدن . ويبدو انهم يمثلون كل سكانها الاحرار المتكافئين حقوقيا .

وتبين احدى وثائق موغ ان اهالى المدن الصغدية يتكونون من ثلاث فئات او شرائح اجتماعية : الوجهاء والتجار والعاملين . ومما له دلالته ان فئة متميزة للتجار كانت موجودة فى الصغد وتشغل فى سلم المراتب الاجتماعية المرتبة الثانية بعد الوجهاء ، وذلك خلافا لبلاد فارس فى العهد الساسانى حيث كان الباعة والتجار يعتبرون بمثابة الفئة الثالثة الاقل منزلة بين عامة الناس .

وبالنسبة لتحليل البنية الاجتماعية وحقوق العائلة فى الصغد فى مطلع القرن الثامن يتسم بأهمية بالغة عقد

الزواج الذى عثر عليه فى قلعة موغ ويعتبره هينينغ «من اهم اثار الحضارات الايرانية القديمة» . ويتكون هذا العقد (وفيه ٩٠ سطرا) من جزئين : عقد الزواج البحت (الوثيقة رقم ٣) وملحق يتضمن التزامات العريس ازاء الوصى على العروس (الوثيقة رقم ٤) . ان عقد الزواج هو النص الوحيد بين نصوص موغ من حيث تاريخه الذى يشير الى عهد ملك سمرقند طرخون . فقد حرر العقد فى الثلاثاء المصادف ٢٥ اذار (مارس) عام ٧١٠ بحضور «الرئيس» (الروحى ؟) فى المعبد على ما يبدو . ويستفاد من تاريخ العقد فى عهد طرخون انه قد وقع فى سمرقند .

ويسجل عقد الزواج قران وجيه تركى اسمه اوت تكين بفتاة صغدية اسمها دوغدغوزتشا التى كانت تحت وصاية هير حاكم نويكت ، وهى مدينة صغدية فى منطقة سميريتشيه . ومن هذه الوثيقة فقط نعرف انه كانت فى الصغد اربع فئات من الناس غير الاحرار — العبيد ورقيق الديون واسرى الحرب (؟) والزبائن . علما بان اى شخص حتى وان كان من الوجهاء يمكن (نظريا على الاقل) ان يتحول الى واحد من افراد تلك الفئات .

وهناك ما يدعو الى الافتراض بان عقد الزواج والتزامات وحقوق الطرفين الواردة فيه امر شائع ليس فقط فى بداية القرن الثامن ، بل وفى القرون السابقة ايضا . وهذا ما يدل عليه اسلوب الوثيقتين ودقة الصياغة واستخدام المصطلحات الحقوقية الخاصة التى تفترض وجود تقاليد

طويلة الامد لوضع وثائق من هذا النوع . وتدل عليه ايضا الاشارة الى اله الوئام ميترا والاله الاعلى (ارمزد) ، مما يؤكد على هيبة التزامات الزواج . ويمكن الافتراض بان وثيقتى موغ هاتين تمثلان عقد زواج شائعا بين وجهاء الصغد . ان عقد الزواج الذى عثر عليه فى قلعة موغ هو المصدر الاصلى الوحيد فى تاريخ الاحوال الشخصية ليس فقط بالنسبة لآسيا الوسطى كلها قبل الاسلام ، بل بالنسبة لبلاد فارس القديمة

وعلى العموم فان مجموعة وثائق موغ الصغدية مصدر فريد فى تاريخ آسيا الوسطى كلها ، وكذلك فى الاقتصاد والحياة المعيشية والثقافة والدين فى الصغد فى اواخر القرن السابع وبداية القرن الثامن . وتقدم هذه الوثائق اضافة جوهرية الى المعلومات الشحيحة فى المراجع التاريخية العربية والصينية عن الصغد فى بداية القرون الوسطى . وهى تتضمن معلومات عن التاريخ السياسى والاجتماعى والثقافى لهذا البلد يصعب عادة او يستحيل عمومـــا استنباطها من المواد الاثرية

واثناء الحفريات فى انقاض بنجقند القديمة عثر على عدد كبير من الكتابات الصغدية الموجزة على الخزف والعظام والعيارات الصخرية وعلى جدران المنازل جنب مشاهد الرسم الجدارى عادة بل وحتى على رسوم شخوص تلك المشاهد . وكل تلك الكتابات تقريبا وصلتنا بصورة رديئة . واهمها الكتابات على كسر القلل المهشمة وعلى العظام والتى عثر عليها اثناء حفريات المعبد الاول فى

بنجقند وتحتوى على عدد كبير من اسماء الاشخاص . وتشغل مكانة خاصة الابجديات الصغدية المكتوبة على الكسر الخزفية والتى عثر عليها فى بنجقند ، وهى من بقايا ارشيف مدارس الكتبة (قام ليفشيتس بقراءة ودراسة تلك الكتابات) . وتتضمن الابجدية الكاملة التى عثر عليها عام ١٩٦٥ فى حفريات القلعة ٢٣ حرفا هى حروف الاصل الآرامية الـ٢٢ ، مع ترتيب الاحرف الآرامى ، وحرف اضافى (هو تكرار الحرف ١٢) للاشارة الى الصوت المعنوى الصغدى «س» . وتكمن اهمية هذه الابجديات فى احتوائها لاول مرة على ثلاثة حروف كانت تستخدم فى الكتابة الصغدية المبكرة فى الكلمات التى اقتبست اشكالها الكتابية من الآرامية ، ثم بطل استعمالها ولم نصادفها ولا مرة فى النصوص الصغدية التى وصلتنا . وقد هيأ تحليل اشكال الحروف الصغدية فى ابجديات بنجقند الامكانية للتدليل على الفرضية المطروحة من زمان والقائلة بان الكتابة التركية القديمة الرونية تعود اصولها الى الابجدية الصغدية

اثناء الحفريات فى انقاض افراسياب (سمرقند القديمة) فى عام ١٩٦٥ عثر على قاعة مربعة كبيرة (١١×١١ م) برسوم على جدرانها الاربعة . وعلى الجدار الجنوبى صور لعدة اشخاص يرتدون ثيابا فاخرة ويمتطون الجياد والجمال وفيلا يتقدم المسيرة . وتبين الكتابة الصغدية على صورة طير من مشهد الجدار الجنوبى (قرأها البروفسور ليفشيتس) ان المشهد كله يصور وصول بعثة من صغانيان —

وهي مقاطعة في حوض سرخان‌دريا كانت في القرن السابع وبداية القرن الثامن دويلة شبه مستقلة تعتبر من اعمال طخارستان (باكتريا) — الى بلاط برهمان ملك الصغد في سمرقند (في اواسط القرن السابع) . وعلى الجدار الغربي مشهد يمثل مراسيم استقبال ملك سمرقند للمبعوثين والسفراء الاجانب . وبينهم المبعوثون القادمون من صغانيان . وامكن فهم مضمون كل الرسوم على هذين الجدارين بعد ان قرأ ليفشيتس كتابة صغدية عمودية من ١٦ سطرا نقشت على رداء احد شخوص الجدار الغربي . وفي اعلى الكتابة الصغدية آثار سطرين افقيين لخط سريع باللغة الباكترية (من اصل يوناني) وهي الكتابة الرسمية في صغانيان المعروفة الان من نقود حكام تلك المقاطعة . والكتابة الصغدية هي كلمة مبعوث صغانيان الموجهة الى الملك برهمان والمبعوث هو كبير كتبة صغانيان جاء ينقل رسالة من حاكم دويلته . ويعتقد ليفشيتس بان الرسوم والكتابات تجسد احداثا حقيقية في تاريخ سمرقند ، وهي على ما يبدو احداث مسجلة في تاريخ مدينة سمرقند .

آثار الكتابة الخوارزمية القديمة

يرتبط اكتشاف اثار الكتابة الخوارزمية القديمة اساسا باعمال بعثة خوارزم الاثرية الاثنوغرافية التي بدأت منذ الثلاثينات باشراف تولستوف . ودرس العلماء السوفييت الكتابات على نقود حاكم خوارزم قبل الاسلام والكتابات

على الاوعية الفخارية والنصوص الخزفية والكتابات على الطاسات الفضية والوثائق المكتوبة على الجلد والخشب من حفريات قصر قلعة طبرق والكتابات الكثيرة على اوعية الرفات فى مقبرتى قلعتى طوق وميزدهقان .

وقد بدأ نشر صور نقود خوارزم القديمة منذ القرن التاسع عشر . وفى عام ۱۹۰۹ نشرت صور الطاسات الفضية ذات الكتابة الخوارزمية (عثر عليها فى منطقة نهر كاما) . ولكن فى عام ۱۹۳۸ فقط اثبت تولستوف ان هذه الكتابات والكتابات على النقود مسجلة بالابجدية الخوارزمية القديمة . واستند تولستوف اثناء قراءة اسماء الملوك على القطع النقدية الى شجرة نسبهم وترتيب توليتهم فى كتاب «الاثار الباقية من القرون الخالية» لابـى الريحان البيرونى . وفيما بعد اقترح ليفشيتس قراءات جديدة لكل الكتابات على النقود الخوارزمية وبين ان تطابق الاسماء على القطع النقدية مع شجرة النسب التى اوردها البيرونى ليس كبيرا جدا ، وهو يخص الملوك الذين حكموا فى اواخر القرن السابع والنصف الاول من القرن الثامن ، وان معلومات البيرونى عن المراحل الاقدم فى تاريخ خوارزم تستند الى مصادر غير موثوقة . فلا يوجد على النقود مثلا اسم الملك افريغ الذى يعتبره البيرونى مؤسسا لسلالة جديدة باستلامه السلطة وحلول عهد جديد (ولذا ينبغى اعتبار المصطلح المنتشر فى علم الاثار «العهد الافريغى» فى خوارزم غير دقيق) .

وفى ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩ عثر اثناء حفريات البلاط

فى قلعة طبرق على ارشيف من الوثائق الخوارزمية . وقد بدأ تولستوف بفك رموزها وواصل هذا العمل ليفشيتس حتى انجزه على اروع ما يكون . لقد عثر على الوثائق الخوارزمية فى الجزء الجنوبى الشرقى من التشكيلة الوسطى للبلاط فى اربعة مبان فى الطابق السفلى . وكانت الوثائق المحفوظة فى البلاط مكتوبة على الجلد والخشب (على الواح وعصي) . ويمكن اعتبار حروفها من اللغة الخوارزمية المبكرة السريعة التى كان يستخدم فيها الادغام بانتظام . وتختلف اشكال الحروف اختلافا كبيرا عن الاشكال الملازمة لاقدم الكتابات الخوارزمية .

وامكن حتى الان اكتشاف ٢٠ حرفا من حروف الاصل الآرامى الـ٢٢ فى وثائق قصر قلعة طبرق .

وعثر فى البلاط على ثمانى قطع من وثائق جلدية . وهى تتضمن نصوصا اقتصادية : سجلات ايصال الدقيق والنبيذ وتسليم الادوات المنزلية .

ويحتوى قسم من الوثائق الاقتصادية الجلدية على تاريخ يبدأ بكلمة «سنة» رمزية الشكل . وظلت ارقام السنين محفوظة فى وثيقتين جلديتين وفى اربع طبعات من الوثائق المنقوشة على الطين والسنين المذكورة — ١٨٨ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٢٣ ، ٢٣١ ، ٢٥٢ — تعكس تقويم التاريخ الخوارزمى . ويبدو ان التقويم الخوارزمى الذى استمر ما لا يقل عن ثمانية قرون قد طبق بمناسبة استلام سلالة جديدة لمقاليد الحكم فى خوارزم . وقد يشير هذا التقويم الى استقلال البلاد واستقرارها

سياسيا . (تجدر الاشارة الى ان التقويم البارثى الارشاكونى الذى استمر حوالى ٤٧٠ عاما فى آسيا الوسطى وشرقى بلاد فارس هو الوحيد الذى يمكن ان ينافس التقويم الخوارزمى : ففى الصغد وفى استروشنة الجبلية كان حساب السنين يجرى بموجب حكم امراء معينين ، ولم يكن هنا تقويم صغدى عام . وفى باكتريا الطخارستانية وفى العهد القوشانى ، وفيما بعد استخدمت عدة تقاويم — التقويم السلوقى و«الساكى القديم» والكانشكى وغيرها من التقاويم التى لم يتأكد تاريخها الدقيق حتى الان . والى جانب ذلك استخدم هنا فى عهد القوشانيين وما بعدهم تاريخ الاحداث بموجب سنوات حكم بعض الحكام ، وحتى فى امبراطورية الساسانيين المركزية كان الحساب يجرى بموجب حكم الشاهنشاهات ، ولم يستخدم فى الواقع التقويم «الساسانى العام») .

وقد اختلف الباحثون فى تحديد بداية التقويم الخوارزمى . فقد اعتبره تولستوف مطابقا «لتقويم شاكه» (الذى يخلط الكثيرون من الباحثين بينه وبين «تقويم كانيشكا» دون مبرر) ، وهو تقويم هندى يبدأ من سنة ٧٨ ميلادية . الا ان الكتابات على اوعية الرفات التى عثر عليها فى قلعة طوق والمؤرخة حسب التقويم الخوارزمى ، مع القطع النقدية ذات التاريخ الدقيق تبين ان بداية هذا التقويم ينبغى ان تطابق سنة ما من النصف الاول من القرن الاول الميلادى ، وتفيد حسابات ليفشيتس ان التقويم الخوارزمى طبق بين عامى ١٠ و٣٠ للميلاد . ويفترض

هيننيغ ان هذا التقويم طبق فى فترة لا تتجاوز عام ٤٢ قبل الميلاد . وترى الباحثة السوفييتية واينبيرغ ان التقويم الخوارزمى بدأ فى الاربعينات او فى مطلع الخمسينات من القرن الاول الميلادى . ومما له دلالته ان البيرونى لم يكن يعرف هذا التقويم . فهو يشير الى تقويم خوارزمى محلى وينسب بدايته الى افريغ (الذى يعتبره مؤسس سلالة ملوك خوارزم) ، علما بانه يذكر ما يقابل عام ٣٠٤ الميلادى على انه بداية لذلك الحادث . (اورد البيرونى تواريخ خوارزم القديمة بموجب التقويم السلوقى) . وتدل الوثائق والكتابات الخوارزمية المؤرخة على ان «تقويم افريغ» هو على الاكثر من بنات الخيال شأن افريغ نفسه .

واكتشف علماء الاثار لفائف طينية انكب ليفشيتس على قراءتها . وتأكد له ان الاغلبية الساحقة هى لفائف جلدية وصلتنا طبعات منها على الطين وتحتوى على وثائق اقتصادية شبيهة من حيث التركيب والصياغة بقطع النصوص الجلدية التى ظلت محفوظة . واكثر ما يتردد فى تلك الطبعات هو الدقيق والنبيذ . ووردت فى احدى الطبعات كلمة «جدى» ، ولذا يمكن الافتراض بان الوثائق تضمنت تسجيلا لارسال وتسليم الماشية . ووردت مرتين كلمة «الالهة» رمزية الشكل . واذا قارنا ذلك بمحاضر القاب الشاه فى العهد الساسانى يمكن الافتراض بان الوثيقة المذكورة تتحدث اما عن الشاه او عن صفقات ذات علاقة بالمعابد .

ولم يعثر الاثريون على كثير من الكلمات التى تشير

الى مناصب الموظفين واسماء المهن فى طبعات قلعة طبرق . ومما عثروا عليه : «موزع المؤن» و«المدير» و«الاسكافى» . والاغلبية الساحقة من الاشخاص المذكورين فى الوثائق واردة بالاسماء الاولى فقط . والاسماء ذات الدلالة الدينية قليلة نسبيا ، لكنها جميعا زرادشتية فى اغلب الظن .

وبفضل دراسات العلماء السوفييت لقراءة الوثائق والكتابات الخوارزمية (وخصوصا دراسات ليفشيتس) امكن التأكيد ان الزرادشتية كانت الديانة السائدة فى خوارزم القديمة منذ القرنين الثانى والثالث الميلاديين على اية حال .

وتشكل الوثائق الخشبية مجموعة خاصة من النصوص الخوارزمية القديمة التى عثر عليها فى قلعة طبرق . ومنها عدة اجزاء من وثائق اقتصادية تتضمن بقايا حسابات تسليم وايصال الماشية والعجلات (؟) وادوات منزلية اخرى . ومن اهم مجموعات الوثائق الخشبية قوائم اسماء الاحرار والعبيد الداخلين ضمن «العوائل» الكبيرة . وقد وصلتنا خمس قوائم كاملة من هذا النوع . وهى الوثائق الخشبية الوحيدة التى ظلت سالمة بالكامل بين وثائق قصر قلعة طبرق . وتم العثور كذلك على ١٠ اجزاء من «قوائم العوائل» وكان تولستوف قد شرع بطبع وثائق هذه المجموعة ، حيث نشر صورا فوتوغرافية ونسخا كتابية صوتية اولية للوثيقتين ١ و٢ ، الا ان ليفشيتس تمكن من التأكد من مضمونهما بعد قراءة الكتابات الهيتيروغرافية «العائلة» ، «العبيد» ، «الزوجة» ، «النسيب» .

واجرى هيننغ الباحث الانجليزى البارز المختص بالدراسات الايرانية تدقيقا جوهريا على قراءة عدد من الوثائق .

وبين «قوائم العوائل» الخمس التى ظلت محفوظة بالكامل اربع قوائم تورد اسماء الرجال الداخلين ضمن العوائل الكبيرة والذين يشكلون ثلاثة اجيال من احفاد الوالد ، وكذلك عبيد تلك العوائل . وبعد ذكر اسماء رب الاسرة واثنين من ابنائه (لا اكثر من اثنين فى كل وثيقة من الوثائق التى وصلتنا) غير المتزوجين بعد ، على ما يبدو ، او غير المنفصلين عن عائلة الاب على اية حال ، يأتى اسم النسيب . ويبدو ان ذكر نسيب واحد يدل على ان البنات يمكن ان يبقين فى دار الوالد بعد الزواج ، الا انهن ينتقلن فى الغالب الى دار الزوج .

وبعد تعداد الاسماء نجد فى القوائم عنوان «العبيد» تليه قائمة اسماء جديدة . انهم عبيد الدار العائدون الى رب الاسرة ، وربما الى ولديه الكبيرين ونسيبه المذكورين فى القوائم . وبعد ذلك يأتى فى عدد من الوثائق قسم بعنوان «عبيد زوجته» (او «وصائف زوجاته») والمقصود ، على ما يبدو ، زوجة رب الاسرة . وبعد هذه المجموعة ورد فى الوثيقة رقم ١ عنوان «عبيد الابناء» (وربما يقصد بهم عبيد احفاد رب الاسرة ؟) . وتختتم الوثيقة رقم واحد بـ «عبيد ابن المحظية» .

ومما لا جدال فيه ان هذه الوثائق تمثل العوائل الثرية . وهذا ما يدل عليه عدد العبيد الكبير ، وخصوصا اذا اخذنا بعين الاعتبار نسبتهم الى الرجال الاحرار الراشدين

(٤:١٧ ، ٣:١٢ ، ٢:١٥ ، ٣:١٢) . الا ان انعدام الالقاب او الرتب فى ذكر اسماء ارباب الاسر لا يمكننا من الحكم على فئة الوجهاء التى تنتمى اليها هذه العوائل . وليس واضحا كذلك ما اذا كان هؤلاء من وجهاء الريف ام من وجهاء المدن من اهالى عاصمة خوارزم فى القرن الثالث (المعلومات المذكورة اعلاه عن بداية التقويم الخوارزمى جعلت ليفشيتس ينسب الوثائق المؤرخة التى عثر عليها فى قلعة طبرق ومعها مجمل ارشيف القلعة الى اواخر القرن الثانى والقرن الثالث الميلاديين) .

وبعد تحليل تفصيلى توصل ليفشيتس الى استنتاج هام مفاده ان اسماء العبيد الواردة فى هذه القوائم تنسب فى اغلبيتها بثقة الى عبيد خوارزم ولا تختلف من هذه الناحية عن افراد العوائل الاحرار (الكاملى الحقوق) . ولذا يمكن الافتراض بان المقصود هنا هم العبيد الخوارزميون الداخلون فى اطار العائلة الابوية ، اى عبيد الدار الذين تعود اصول تبعيتهم ، على ما يبدو ، الى العلاقات الابوية فى العائلة .

ويتسم استنتاج ليفشيتس بشأن الطابع الابوى للعبودية فى خوارزم فى القرنين الثانى والثالث الميلاديين بأهمية علمية بالغة ، الامر الذى يكمل ويوسع التصورات الموجودة عن البنية الاجتماعية للمجتمع الخوارزمى القديم والمجتمعات القديمة الاخرى فى آسيا الوسطى

ويرى ليفشيتس ان «قوائم المنازل» هى ، من حيث الغرض منها ، على الاكثر وثائق احصاء النفوس تضم

الذكور البالغين من اجل التعبئة للعساكر او المتطوعة .

ان الاهمية التاريخية لهذه المجموعة من وثائق قلعة طبرق كبيرة للغاية . ففى العلم السوفييتى انتشر من زمان الاستنتاج القائل بان اولى المجتمعات الطبقية التى نشأت فى آسيا الوسطى فى منتصف الالف الاول قبل الميلاد كانت مجتمعات عبودية وان التشكيلة العبودية ظلت سائدة فى آسيا الوسطى طوال الف عام كاملة . الا ان حركة تطورها وخواصها المميزة ظلت غير مدروسة من حيث الجوهر. ولا تستطيع المواد الاثرية ان تبت فى الكثير من القضايا — الهامة جدا — فى التاريخ الاجتماعى والاقتصادى للمجتمع العبودى فى آسيا الوسطى

ولذا تزداد اهمية الوثائق المكتوبة الصادرة عن آسيا الوسطى نفسها والتى تختلف جذريا عن الروايات الموجزة والمتناقضة التى توردها المراجع الاجنبية . فان عقد الزواج الصغدى الذى عثر عليه فى قلعة جبل موغ وأكد لاول مرة وجود اربع فئات من الناس غير الكاملى الحقوق اجتماعيا وقانونيا (فى مقابل افراد المشاعة الاحرار ، بمن فيهم العاملون بالاجرة) وكذلك «قوائم المنازل» الاقدم التى عثر عليها فى ارشيف بلاط الملك فى خوارزم القديمة تتضمن معلومات عن العبودية فى آسيا الوسطى قبل الاسلام اكثر مما تحتويه كل المصادر المعروفة سابقا .

وبالنسبة لدراسة تاريخ الكتابة واللغة الخوارزمية وكذلك دراسة مراسيم الدفن الزرادشتية فى خوارزم فى القرن السابع والنصف الاول من القرن الثامن تتسم باهمية بالغة

اوعية الرفات التى عثر عليها اثناء حفريات مقبرتى قلعتى طوق وغياور الواقعتين فى اراضى كيردير شمال خوارزم . واسفرت حفريات المقبرة فى انقاض قلعة طوق التى اجرتها الباحثة غودكوفا فى ١٩٦٢ و١٩٦٤ عن اكتشاف عدد كبير من اوعية الرفات الجبسية والحجرية على هيئة صناديق واحتفظت جدران تلك الاوعية بحوالى مائة نص مكتوب بخط اللغة الخوارزمية المتأخرة السريع والصعب جدا بالنسبة للقراءة بسبب كثرة الادغام وتطابق خطوط عدد من الحروف . ولم تنشر هذه الاثار بالكامل بعد ، الا ان الكتابات التى نشرها ليفشيتس قد وسعت معارفنا كثيرا عن اللغة الخوارزمية وعن تاريخ الكتابة والدين فى خوارزم فى الفترة التى سبقت الفتوحات الاسلامية .

ان كثرة الكتابات التى اكتشفت فى قلعة طوق وتجانس صياغات اغلبية تلك الكتابات واحجامها الكبيرة قد مكنت من التعجيل فى قراءة الاثار الاخرى الاقدم عهدا للكتابة الخوارزمية القديمة . وكان مفتاح تلك القراءة هو المصطلحات التقويمية التى تتكرر كثيرا فى الكتابات على اوعية الرفات او النواويس — تسميات اشهر وايام التقويم الزرادشتى باشكالها الخوارزمية المحددة تاريخيا ولغويا . فهذه التسميات بالذات مكنت تولستوف وليفشيتس من تحديد قوام واشكال خطوط الاحرف الخوارزمية ثم الشروع بقراءة نصوص اوعية الرفات وساعدت هذه الكتابات كما اسلفنا على الاقتراب من تحديد التاريخ الدقيق للتقويم الخوارزمى . فالكتابات تبين بمنتهى الدقة

ان الزرادشتية الخوارزمية ومصطلحاتها قريبة من «افيستا» .
واتضح ان فى قلعة طوق «مكتبة» من نصوص اوعية الرفات فريدة من نوعها ومضمونها واهميتها بالنسبة لتاريخ شعوب آسيا الوسطى وتاريخ حضاراتها وبالنسبة لعلم اللغات الايرانية

وتتضمن اغلبية الكتابات تاريخا (اليوم والشهر والسنة حسب التقويم الخوارزمى) وأشارة الى نوع وعاء الرفات (حرفيا «صندوق او تابوت صغير») وكونه عائدا الى روح المرحوم ، واسم المتوفى واسم ابيه ، واحيانا صيغ التمنيات المرتبطة ، كما هى العادة بالنسبة للزرادشتية ، بالتصورات عن مصير الروح فى الآخرة . والكتابات عمودية فى الاغلب ، والكثير منها يبدأ من غطاء الوعاء ويستمر الى هيكله . وتمكن ليفشيتس من ان يقرأ فى بعض الكتابات مصطلحات تشير الى المكانة الاجتماعية والعائلية للمتوفى واقربائه وتتسم بأهمية كبيرة دراسة اسماء الاشخاص . فهى قد تلقى الضوء على القوام الاثنوغرافى لسكان كيردير فى القرنين السابع والثامن (تلك القضية التى تشغل بال العلماء من زمان) .

لقد حظيت دراسات العلماء السوفييت (وبالدرجة الاولى ليفشيتس) فى فك رموز النصوص الخوارزمية بتقدير رفيع فى العلم العالمى . وكتب البروفسور هينينغ ، وهو من أكبر المتخصصين بالدراسات الايرانية كما اسلفنا ، عن دراسات ليفشيتس وقال ان النتائج التى توصل اليها هذا العالم السوفييتى تثير الاعجاب

وبالفعل فالاهمية العلمية للاعمال فى قراءة ودراسة النصوص المحلية فى آسيا الوسطى تفوق التقدير . فقد تمت قراءة صفحات جديدة تماما فى تاريخ الحضارات فى آسيا الوسطى

ان الاعمال فى مجال دراسة النصوص القديمة مستمرة ، ولدينا امل كبير فى اكتشافات جديدة ونجاحات جديدة .

الفصل الرابع عشر

مواد جديدة عن التاريخ القديم والحضارات العريقة فيما وراء القوقاس

المؤلفان: غامكريليدزه و كوشيلينكو
ترجمة: خيري الضامن

الهدف من هذا الكتاب ، كما جاء فى المقدمة ، ليس تقديم عرض كامل لتاريخ حضارة من حضارات الشرق القديم ، بل استعراض اهم الاكتشافات والنظريات الجديدة لدى العلماء السوفييت الذين يدرسون تلك الحضارات . وسنتناول فى هذا الفصل الحضارات القديمة فيما وراء القوقاس

اورارتو . تتسم دراسة حضارة اورارتو التى هى من اقدم الحضارات فى اراضى الاتحاد السوفييتى بأهمية نظرية وعرفانية كبيرة . ولقد نشأ كيان الدولة على الهضاب الارمنية فى اواخر الالف الثانى قبل الميلاد ، حيث ظهرت هنا اولى الدويلات الصغيرة (توشبا وموساسير وغيرهما) . وفى القرن التاسع قبل الميلاد توحدت هذه الدويلات وتشكلت منها مملكة اورارتو الكبرى . ومنذ البداية غدت مملكة اورارتو من اهم القوى السياسية فى منطقة غربى آسيا بكاملها . وكانت الدولة الآشورية القوية اقرب جارة ومنافسة

لها   فان تاريخ اورارتو كله مشبع بالصراع مع الدولة الآشورية

في عهد الملك ساردوري الاول بدأ الاورارتيون ينافسون الآشوريين   وسرعان ما شن الاورارتيون بعد عام ٨٠٠ قبل الميلاد حملة قوية باتجاه الجنوب واستولوا على عدة مقاطعات كانت تحت سيطرة الآشوريين . وفيما بعد بسطت اورارتو سلطتها على مناطق شاسعة في جنوب ما وراء القوقاس وانشأت فيها المدن ــ القلاع مثل ايريبوني وارجيشتيهينيالي وغيرهما من المنشآت التي استخدمتها الحكومة المركزية للتحكم في المناطق المحتلة

وغدا الصدام الحاسم بين اورارتو وبلاد آشور امرا لا مفر منه في اواسط القرن الثامن قبل الميلاد . وتمكن الآشوريون من الحاق عدة هزائم جسيمة باورارتو ، مما ولد ازمة سياسية داخلية في البلاد . وما كاد الملك روسه الاول يذلل هذه الازمة ويبعث دولة اورارتو الموحدة حتى واجه خطرا جسيما جديدا هو ظهور البدو الكيميريين فيما وراء القوقاس . وتخلص روسه الاول من هذا الخطر حيث وجه زحف البدو صوب آسيا الصغرى   الا ان الخطر الآشوري اشتد من جديد في تلك الاثناء . وسدد الملك الآشوري سرجون الثاني ضربة قاصمة الى اورارتو حيث جرى نهب الدويلات الاقليمية الاساسية وتم الاستيلاء على موساسير التي هي المركز المقدس في البلاد . واستعاد الاورارتيون قواهم بعض الشيء في عهد الملك روسه الثاني الذي بذل جهودا كبيرة لاعمار الاقتصاد في البلاد

وفى عهده مثلا بنيت فى جنوب ما وراء القوقاس مدينة تيشيباينى . الا ان قوة حربية خطيرة جديدة ظهرت آنذاك فيما وراء القوقاس هى الاسقوثيون الرحل الذين اقتحموا هذه المنطقة قادمين من شمال البحر الاسود على امتداد ساحل بحر الخزر . وكان تدخل الاسقوثيين قد غير لدرجة كبيرة الموقف كله فى غرب آسيا ، وكان هذا التدخل من اسباب سقوط الدولة الآشورية . وفى سياق الصراع مع بلاد آشور تعززت الدولة الميدية التى سددت ضربة قاصمة الى اورارتو . وينسب سقوط هذه الاخيرة الى اعوام ٥٩٣ — ٥٩١ قبل الميلاد

بدأت دراسة تاريخ اورارتو منذ القرن التاسع عشر . الا ان المعارف عن هذا الكيان الدولى الهام جدا والمتميز بوزن كبير للغاية كانت حتى الآونة الاخيرة نسبية ذات طابع مبتور ومهلهل تماما . وكانت الحضارة المادية ، وعموما الاسس المادية لحياة المجتمع الاورارتى ، غير مدروسة الا فيما ندر . وكان تاريخ اورارتو قد كتب اساسا بالاستناد الى المراجع الآشورية . وهذه المراجع عبارة عن سجلات تاريخية ورسائل تبليغية . وبعض الروايات الواردة فى السجلات التاريخية مزينة برسوم مجسمة للاحداث (مثل احتلال ونهب اهم مركز للعبادة فى اورارتو — موساسير — من قبل الآشوريين) . وتلعب المصادر الاورارتية ايضا دورا هاما . الا ان الكتابات الاورارتية متماثلة ورتيبة للغاية ، واغلبها روايات عن الانتصارات مصحوبة احيانا باوصاف ضافية للغنائم الحربية (مثل سجلات الملكين

ارجيشتى وساردورى) ، وكتابات مكرسة لاعمال البناء ، وهناك عدد قليل جدا من النصوص الدينية .

بديهى ان هذا النوع من المصادر لا يساعد الا على كتابة التاريخ السياسى لاورارتو ، بل فى الواقع تاريخ السياسة الخارجية فقط ، واساسا المتعلق بمسائل العلاقات الاورارتية الآشورية . والتنقيبات الاثرية هى الوحيدة التى تستطيع ان تقدم مواد للحكم على طابع الحياة الاقتصادية لمجتمع اورارتو وحضارته وكثير من الامور الاخرى . وتم الحصول على المواد الاولى اثناء التنقيبات التى اجراها فى منطقة وان (١٨٩٨ — ١٨٩٩) ليمان — كاوبت وبيلك ثم بعثة اكاديمية العلوم فى روسيا باشراف مارّ واوربيلى (١٩١٦) . الا ان تلك الاكتشافات التى هى اولى اكتشافات اثار الحضارة المادية فى اورارتو كانت على الاصح قد طرحت الاسئلة دون ان تقدم جوابا عليها . وبنتيجة هذه الدراسات تم الحصول على عدد كبير من نتاجات الفن وغيرها من المواد التى تدل على المستوى الرفيع للحضارة فى اورارتو ، الا ان شرحها كان صعبا جدا بسبب عدم توفر مادة المقارنة ، ولم يكن بالامكان استنادا اليها رسم لوحة متكاملة لمجتمع اورارتو ، لانه لم تكن معروفة فى الواقع المواد الخاصة بحياة عامة الناس فى ذلك المجتمع .

ولم يبدأ الوضع بالتغير الا فى اواخر الثلاثينات حيث شرع العالم السوفييتى الكبير بيوتروفسكى بالتنقيبات فى مدينة تيشيبايني الاورارتية (كارمير بلور فى اطراف يريفان) . وكانت الحرب العالمية الثانية قد اوقفت تلك التنقيبات .

وعندما وضعت الحرب اوزارها استؤنفت التنقيبات وغدت دراسة كارمير بلور بالذات نقطة انعطاف فى دراسات الحضارة الاورارتية . ولم يكن الامر يقتصر فقط على اكتشاف كمية هائلة من الاثار ، بما فيها نتاجات فنية رائعة عثر عليها اثناء دراسة كنوز الملوك . ومع ان تلك الكنوز كانت قد نهبت فى حينه ، فقد ظل فيها حتى بعد نهبها كثير من الاشياء التى غدت بمثابة مكافأة للاثريين على عملهم . والاهم بكثير ان هذه التنقيبات اسفرت لاول مرة عن وجه المدينة الاورارتية الحقيقية بقصورها ومنازل اهاليها ، بحصونها وبمستودعات المؤن الملوكية التى تتسع لـ ٥٠٠ الف لتر من النبيذ . وتم الحصول على مواد كثيرة القت الضوء على معيشة واشغال عامة الناس فى المدينة وعلى نمط حياة وجهاء مجتمع اورارتو وعلى المعمار وشؤون البناء والنحت والرسم والنقش على المعادن عند الاورارتيين . واخيرا ساعدت دراسة آثار تيشيباينى على طرح وحل الكثير من المسائل بشأن علاقات اورارتو الخارجية ومكانة الحضارة الاورارتية فى تاريخ غرب آسيا ومصير التراث الاورارتى بعد سقوط دولة اورارتو . وساعدت حفريات تيشيباينى على تصنيف مراحل التاريخ الاورارتى وعلى ايضاح طائفة من المسائل الجوهرية بشأن بنية المجتمع فى اورارتو .

ولعبت حفريات تيشيباينى دورا بارزا فى مجال آخر ايضا ، فقد حفزت الاثريين ، وسرعان ما بدأت فى اراضى ارمينيا تنقيبات فى المراكز الاورارتية الاخرى

ودرست ايريبونى وارجيشتيهينيالى وارمافير وغيرها . وبفضل هذه التنقيبات اتضح ان مملكة اورارتو كانت من اكبر واهم الدول فى الشرق القديم . وحثت اكتشافات الاثريين السوفييت البارزة العلماء الاجانب على دراسة آثار الحضارة الاورارتية المتواجدة فى اراضى تركيا وايران حاليا . وبنتيجة هذه الجهود الموحدة بوسعنا الآن ان نأخذ فكرة كاملة تماما عن الحضارة الاورارتية .

ويتعذر علينا بالطبع ان نحلل طابع الحضارة الاورارتية من جميع الوجوه فى بحث موجز ، فان مهمتنا اكثر تواضعا ، حيث نتوخى استعراض اهم نتائج هذه الدراسات فى رأينا . على تخوم القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد بدأ ملوك اورارتو يستثمرون بهمة ونشاط القسم الشمالى من دولتهم . وفى تلك الفترة انشئت هنا طائفة كاملة من المدن الجديدة مثل تيشيباينى ورساهينيلى وغيرهما . وطرح افتراض يبدو صائبا تماما ، وهو ان هذه السياسة الهادفة املتها الرغبة فى ايجاد مركز اقتصادى ثان بعيد عن الحدود مع بلاد آشور ويتعين عليه ان يغدو سندا للدولة فى حالة تسديد الآشوريين للضربات الى المدن الاورارتية القديمة الواقعة حول بحيرة وان . ولم يرد فى المراجع المكتوبة ذكر او صدى لهذه السياسة ، الا ان المواد الاثرية تدل عليها بلا جدال .

وتم الحصول على مواد هامة جدا لتحليل الحرف الاورارتية ، وخصوصا تعدين ومعالجة المعادن . ويرى بيوتروفسكى ان اورارتو ، مثلا ، كانت من المراكز التى

جرى فيها استثمار الحديد قبل غيرها من البقاع . وكان لتطور تعدين ومعالجة الحديد وانتشار ادوات العمل الحديدية والاسلحة على نطاق واسع تأثير حاسم على كل ميادين الاقتصاد . والى جانب ذلك ظلت اورارتو مركزا هاما لتعدين البرنز . ففى تلك الفترة ظلت ادوات العمل والاسلحة البرنزية تستخدم على نطاق واسع فى الشؤون الحربية وفى الاقتصاد على حد سواء

وتوفرت لصناعة التعدين الاورارتية موارد خامية محلية غنية كالحديد والنحاس والذهب والرصاص والقصدير وغيرها . وتشير المراجع الآشورية الى المستوى الرفيع لتطور التعدين والنطاق الواسع لانتاج المعادن فى اورارتو وتتحدث عن الاستيلاء على كمية كبيرة من مختلف المعادن والمصنوعات المعدنية أثناء احتلال المدن الاورارتية

ومما يؤسف له ان مناجم اورارتو لم تكتشف بعد . وقد عثر فى انقاض ارجيشتيهينيالى على ورشة لصنع المصنوعات المعدنية ، فدرست بدقة وهيأت الامكانية للخروج باستنتاجات هامة عن مستوى تطور الحرف فى اورارتو . صحيح انه عثر على مصاهر حجرية وفخارية اثناء الحفريات فى مدن اخرى ، الامر الذى يجعلنا نقول بان مثل هذه الورشات كانت موجودة فى المراكز الاخرى ايضا .

تعود ورشة ارجيشتيهينيالى (وتسمى بدار الحداد صاهر البرنز) الى اواخر القرن الثامن قبل الميلاد . وهى تتميز بعدة خصائص هامة : ١) انها ليست من ضمن عائدات

البلاط او المعابد ، بل هى «مؤسسة خاصة» تلبى حاجات اهالى المدينة عموما ؛ ٢) تتجسد فيها كل مراحل معالجة المعدن ، ما عدا المرحلة الاولى (التى تجرى ، على ما يبدو ، قرب المنجم مباشرة) ؛ ٣) فى الورشة كانت تجرى معالجة البرنز والحديد على حد سواء ؛ ٤) كانت تنتج تشكيلة واسعة من المصنوعات ، وكانت تلبى فى الواقع كل الحاجة الى الادوات المعدنية العادية اللازمة لمعيشة واقتصاد البسطاء من سكان المدينة ؛ ٥) تدل المواد الاثرية على نجاح نشاط الورشة ، وهذا يتضح من توسع رقعتها بالتدريج

ويبدو ان الفلزات كانت تصل من مناجم كاغزمان او كُلك الواقعتين على بعد ٣٠ — ٤٠ كيلومترا من ارجيشتيهينيالى . وتضم الورشة معدات تركيز الفلزات عن طريق السحن والغسيل . وتتكون تلك المعدات من مجموعة من الطسوت المصنوعة من الحجر والاوعية التى توصل بينها . وكان هذا الجهاز يشغل ردهة كبيرة . وفى مبان اخرى عثر على اساس مدخن مسود لاتون تعدينى مع بقايا كثيرة من الفحم والرماد وكسر من قلال ومصاهر كبيرة مفخورة ومحروقة ، كما عثر على وعاء كبير فيه رمل ناعم مما يستخدم فى الصبابة ، وعلى خبث معدنى وقوالب معدنية للصب ومستخلصات حديدية .

كان فرن الصهر مصنوعا من الفخار بشكل اسطوانى فيه ثقوب لدخول الهواء ومنفذ للمعدن المصهور . وبيّن تحليل بقايا الخبث ان مختلف انواع المواد المساعدة

(الصهورات) استخدمت اثناء الصهر . ويبدو ان بالامكان الافتراض بان صنّاع اورارتو كانوا يجيدون اعداد عدة اصناف من الحديد والبرنز تبعا لنوعية الادوات التي يراد صنعها منهما . وهذا ما يؤكده كذلك تحليل تلك الادوات وبقايا البرنز المصهور الذى ظل محفوظا فى المصاهر .

وتقدم نتاجات الفن وادوات العمل والاسلحة التى عثر عليها اثناء الحفريات مادة لها وزنها فى فهم طابع معالجة المعادن فى اورارتو . فقد كان المستوى التقنى للحرف فى اورارتو رفيعا للغاية . وكانت المنحوتات البرنزية تصب حسب نموذج من الشمع . وبعد الصب كانت المصنوعات تزين بالنقش على المعدن احيانا وبالتلبيس الذهبى احيانا اخرى . وكانت طريقة التلبيس بالذهب كالآتى : تبسط الرقائق الذهبية على سطح المصنوعات وتثبت اطرافها بالتطعيم المعدنى فى حزوز تعد لهذا الغرض خصيصا . وكان الطرق يستخدم على نطاق واسع ، علما بان المطروقات كانت تصنع ليس فقط بواسطة الطرق البسيط ، بل وكذلك بواسطة ربط وتوثيق الصفائح المطروقة .

ان المستوى الرفيع لمعالجة المعادن فى اورارتو جعل المصنوعات المعدنية فيها تحظى باقبال واسع فى العديد من البلدان فقد عثر الاثريون على مصنوعات حرفية اورارتية ، وخصوصا القلال البرنزية ذات الرسوم المجسمة ، فى آسيا الصغرى (حيث عثر على الكثير منها بخاصة فى غورديون) وفى عدد من جزر بحر ايجه (رودوس وساموس)

وفى الجزء القارى من اليونان (دلف واولمب) وحتى فى ايطاليا (اترووريا)

ووفرت التنقيبات الاثرية فى السنوات الاخيرة مادة كثيرة بخصوص المعمار السكنى فى اورارتو . واهم ما فى هذه المواد انها قدمت معلومات كبيرة بخصوص بنية مجتمع اورارتو . وساعد الجمع بين معطيات المصادر المكتوبة ومعطيات علم الاثار على تصور مستوى وطابع حياة مختلف الفئات الاجتماعية فى مجتمع اورارتو بصورة واضحة للعيان .

وعثر فى ارجيشتيهينيالى على مجموعة كبيرة من المنازل (العزبات) العائدة على ما يبدو الى اهالى المدينة الاحرار الكاملى الحقوق الذين لديهم استثمارات خاصة بهم الجدران الخارجية لهذه المنازل مرصوفة من الواح البازلت الكبيرة (فى الاسفل) واللبن (فى الاعلى) وكثيرا ما تستخدم الاسانيد الناتئة . والجدران الداخلية معمولة من الاحجار الصغيرة والطابوق ، ومطلية بالطين . وهذا النوع من المنازل يتكون من عدد كبير من الحجرات (حوالى ٢٠) بمساحة اجمالية تبلغ ٧٠٠ متر مربع . ونواة المنزل قاعة مربعة او مستطيلة كبيرة (مساحتها ٧٠ — ٨٠ مترا مربعا) وفى وسطها ، بين عمودين ، موقد هو عبارة عن مكان خاص لطقوس العبادة وحوله مصطبات حجرية . وحوالى هذه القاعة تتواجد الغرف السكنية والمطابخ والمستودعات وغيرها من المنشآت المنزلية . وامكن التأكد من ان بعض هذه المنشآت كانت تضم ٣٠ — ٤٠ رأسا من الماشية ومستودعات

لحفظ ما لا يقل عن ١٢ ـ ١٣ الف لتر من النبيذ وهلمجرا . وسجلت اثريا دلائل تشير الى اعمال اصحاب هذه المنازل والحرف (صناعة الخزف ومعالجة المعادن وغيرهما) . ويعتقد ان كل منزل كانت تقطنه عائلة كبيرة (لا تقل عن ثلاثة اجيال) تشكل طائفة او مشاعة تمارس عملا مشتركا . وكانت القاعة المركزية مكانا لاجتماع الطائفة او المشاعة . الا ان الاستهلاك داخل هذه المشاعة موزع منفصل . وهذا ما يدل عليه وجود عدة مطابخ فى كل منزل .

ويبدو ان المنزل الكبير الواقع فى جنوب غربى مدينة تيشيبايني هو مقر تواجد كبار العسكريين والاداريين فى المدينة . فان مساحة المنزل تتجاوز ٢٠٠٠م متر مربع (٦٢×٣٣ م) ، وهو يقع على هضبة كبيرة . جدرانه الاساسية تستند الى قواعد وهى مبنية من الواح البازلت المصقولة بعناية كبيرة ، ومادة البناء خليط من الطين والحصى وكسر الطابوق . والقسم العلوى من الجدران مرصوف من اللبن واركانها معززة بابراج مصغرة ، والجدران نفسها معززة باسانيد ناتئة . والمبنى كله مقسم الى اربعة «اجنحة» متماثلة كليا من حيث الابعاد وتنظيم البناء . وكل جناح يتكون من عشر بنايات مختلفة الاحجام . وتبلغ المساحة الاجمالية لكل جناح ٥٠٠ متر مربع . والخاصية المميزة لتنظيم بناء هذا المنزل هى وجود قاعة باربعة اعمدة فى كل جناح تشكل مركز التشكيلة السكنية . ولم يعثر فى المبانى على اى اثر للشؤون المنزلية ، ومع

ذلك توجد مستودعات ضخمة جدا مما يدل على المستوى الرفيع لرفاهية سكان هذه المنازل . وهناك احتياطيات كبيرة من الاغذية لعلها من المؤن التى تسلمها الدولة الى كبار مستخدميها من مستودعات البلاط .

وقد عثر فى تيشيباينى كما فى ارجيشتيهينيالى على منازل السكان ذوى المكانة الاجتماعية والمالية الاوطأ . ففى المدينة الاولى عثر على مجموعة متميزة من المنازل التى تحتل حيين كاملين . ويتكون كل منزل من ثلاثة مبان احدها رئيسى . وفيها تنانير من طين ومواقد حجرية ومختلف الادوات المنزلية واستنتج الباحثون من عدم وجود مبان للماشية ولحفظ المحاصيل الزراعية بان هذه المنازل كان يقيم فيها اناس ليست لديهم استثمارات خاصة بهم ، بل كانوا يعيشون على حساب الدولة وربما هم جند يحرسون القلعة . ونلاحظ لوحة مماثلة تقريبا فى ارجيشتيهينيالى حيث انشئت بنايات متماثلة تماما (٤,٨٤×٤ م) على كل جوانب باحة القلعة والناس الذين كانوا يقيمون هنا (وهم على الاغلب جند الحامية) يتلقون ايضا مؤنهم من الدولة ، لكن مرتبتهم اوطأ من جند تيشيباينى ، لان لكل واحد منهم غرفة واحدة فقط .

واخيرا درس الباحثون منازل اوطأ فئات السكان الاجتماعية فى ارجيشتيهينيالى ، وهى ذات تخطيط بسيط للغاية : غرفة واحدة مع مستودع يفصله عنها جدار غير سميك . وكل تلك البنايات «ملاصقة» للمبانى الكبيرة او لجدران القلعة . وجدرانها غير السميكة مبنية من صغار

الحصى والطابوق (فى الاسفل) واللبن الصغير ذى المقياس غير الموحد (فى الاعلى) . وتتجلى بوضوح فى كل هذه البنايات آثار النشاط الانتاجى (دوارات الخزف واثقال آلات النسيج وادوات النساجين العظمية وكسر ادوات العمل الحديدية) . ويمكن الافتراض بان هذه الفئة من السكان كانت تعيش هى ايضا على المؤن التى تخصصها الدولة . ومما له دلالة كبيرة ايضا موقع هذه المساكن — فى منطقة القلعة ، فى اسفل الجدار الثانى . وساعد ذلك كله على تحديد المكانة الاجتماعية لهذه الفئة من السكان — فئة الحرفيين التابعين للدولة والذين يخدمون حاجات البلاط .

وهكذا قدمت المواد الاثرية كثيرا من الامور الجديدة فى فهم التركيب الاجتماعى لمجتمع اورارتو .

- **كولخيدا** . قدمت دراسات العلماء السوفييت فى السنوات الاخيرة معلومات كثيرة لدراسة تاريخ كيان دولة اخرى فيما وراء القوقاس هى كولخيدا . وقد اطلق المؤرخون اليونان والرومان هذا الاسم على جورجيا الغربية (اراضى الاتحاد السوفييتى حاليا) . وتمتد حدودها جنوبا على طول نهر تشوروخ (بيتيونت القديم) وشرقا فى منطقة سلسلة جبال سورام (ليخ) التى تربط بين جبال القوقاس الكبرى والصغرى .

ان المسائل الاكثر تعقيدا ومثارا للجدل فى تاريخ كولخيدا المبكر هى المسائل المرتبطة بموضوع «الاستيطان اليونانى الكبير» ومستوى تطور مجتمع كولخيدا فى فترة

ظهور الاغريق فيها . ومن المعروف ان «الاستيطان اليونانى الكبير» (القرون الثامن ـــ السادس قبل الميلاد) كان حركة جبارة للاغريق الذين انتشروا طوال ثلاثة قرون على نطاق واسع فى سواحل البحر الابيض المتوسط . وكان من الاتجاهات الهامة لحركة الاستيطان الاتجاه الشمالى صوب المضايق المؤدية من البحر الابيض المتوسط الى البحر الاسود وصوب سواحل البحر الاسود . وقد استثمر الاغريق سواحله ، وبلغتنا (من معطيات المصادر المكتوبة) ثلاثة مواضع او مستوطنات اغريقية فى اراضى كولخيدا هى : فاسيس وديوسكوريادا وغينيوس

ونجد فى المطبوعات الحديثة نقاشا متحمسا بشأن طابع الاستيطان اليونانى فى كولخيدا . واكثر وجهات النظر تطرفا هى القائلة بان سكان كولخيدا فى فترة الاستيطان اليونانى كانوا لا يزالون فى ظل النظام المشاعى البدائى ، ولذا كان من السهل على الاغريق ان ينشئوا مستوطناتهم فى سواحل كولخيدا وهى مستوطنات لم تكن تختلف اطلاقا عن المستوطنات اليونانية التى ظهرت حينئذ على الساحل الشمالى للبحر الاسود ، اى انها كانت مستوطنات ذات اتجاه زراعى فى الاقتصاد ولديها اراض زراعية شاسعة ، وفيها دوائر وانظمة كالتى فى المدائن اليونانية . وتتلخص وجهة نظر متطرفة اخرى فيما يلى : فى فترة الاستيطان اليونانى كانت فى اراضى كولخيدا دولة قوية عرقلت تأسيس مدائن اغريقية صرف على الساحل . الا ان مصلحة الاغريق والكولخيديين المشتركة فى الاتصالات

التجارية ادت الى ظهور مستوطنات تجارية اغريقية على الساحل لا تتمتع بالاستقلال السياسى وتفتقر بالطبع الى الاراضى الزراعية الخاصة بها ، وربما كانت تمثل فقط «حارات» اغريقية ضمن المدن المحلية .

ولما كانت المراكز السكنية الاغريقية نفسها فى كولخيدا غير مدروسة فى الواقع من الناحية الاثرية فان المعلومات الاساسية بشأن هذه القضية ينبغى ان تقدمها دراسة طابع تطور المجتمع الكولخيدى المحلى . ومن هذه الناحية تتسم باكبر الدلالة دراسة الحرف ، وخصوصا التعدين فى كولخيدا . فقد توضح حاليا ان لتعدين الحديد ومعالجة المعادن عموما اهم مكانة فى الانتاج الحرفى فى كولخيدا . فهنا كانت تتوفر كل الظروف اللازمة لتطوير هذا النوع من الانتاج بشكل مكثف : وجود المكامن الغنية بفلزات الحديد ووفرة الغابات التى تؤمن موارد الوقود التى يحتاج صهر الحديد الى كميات كبيرة منها ، ووجود التقاليد القديمة جدا لاستخراج ومعالجة المعادن .

ويؤخذ من المعطيات الاثرية ان انتاج الحديد فى كولخيدا صار ذا نطاق واسع اعتبارا من الالف الاول قبل الميلاد . وعثر اثناء التنقيبات الاثرية فى اطلال قرية دابنار على بقايا فرن ارضى مستدير لصهر الحديد عائد الى القرن الخامس قبل الميلاد ومبنى من الواح كبيرة من هشيم اللبن . وبالاضافة الى ذلك عثر هنا على قموع وخبث ومستخلصات معدنية اسفنجية (نسبة الحديد فيها ٦٣,٢٪) . ويعتقد ان مصدر الفلزات هو

مكامن نثار المغنيتيت . وهذا ما تدل عليه بعض النتاجات الادبية ايضا . وعثر فى مقبرة نيغفيزيانى على نصف قالب لصب فأس كولخيدية . ويمكن الافتراض بان معالجة الحديد فى كولخيدا كانت تجرى كذلك منذ القرنين السادس ـــ الخامس قبل الميلاد فى اماكن بعيدة عن مناطق استخراج الحديد . ويدل ابلغ دلالة على النطاق الواسع لانتاج الحديد ايضا العثور على مختلف انواع الادوات الكثيرة للاغراض المنزلية والاقتصادية والعبادية وغيرها .

وقدمت الدراسات الاثرية فى السنوات الاخيرة مادة هامة كذلك للحكم على البنية الاجتماعية والاحوال المالية لطبقات المجتمع فى كولخيدا . وفى هذا المجال تتسم باكبر الاهمية دراسة المقابر . ففى المقابر المبكرة فى كولخيدا لا توجد اية فوارق فى كمية ونوعية الادوات المدفونة فى القبور . وفيما بعد ظهرت تلك الفوارق . ففى «كراسنى مayak» ، وهى من مقابر القرن الخامس قبل الميلاد ، نصادف لاول مرة قبورا خالية تقريبا من الادوات او خالية منها تماما .

وتوجد مقبرتان فى بيجفنارى احداهما يونانية والاخرى محلية . وربع المدفونين فى المقبرة المحلية تخلو قبورهم من الحاجيات والادوات . وفى الوقت ذاته ظهرت قبور فيها ادوات تفوق المستوى العادى كثيرا من حيث الكم والكيف . وتتسم بعض هذه القبور بسمات تشير الى تأثير البدو الرحل . فالى جانب الميت دفنت فرسه ، الامر الذى يدل ، فى اغلب الظن ، على المكانة الاجتماعية

المتميزة للمتوفى ويتسم بدلالة كبيرة جدا واقع ان الحاجيات اليونانية موجودة فقط فى المدافن الغنية . وبالاضافة الى ذلك تصادف لاول مرة قبور عائدة الى اواسط الالف الاول قبل الميلاد ويمكن ، على ما يبدو ، اعتبارها مدافن لعبيد او اماء قتلوا عنوة .

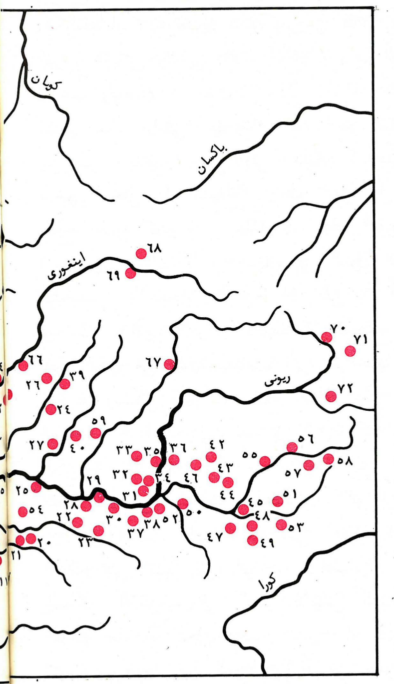
ومما له دلالته بخاصة فى دراسة عمليات التمايز او الفرز الاجتماعى خصائص مدافن ممثلى الطبقة العليا فى المجتمع — الوجهاء . فتلك المدافن تختلف اختلافا كبيرا عن قبور عامة الناس من حيث الترتيب ومن حيث نوعية الادوات المدفونة فيها . فالمدافن الغنية فى فانى التى كانت من اهم المراكز السياسية والاقتصادية فى كولخيدا فى عهدها المبكر هى عبارة عن نواويس خشبية كبيرة (ربما تحاكى المنازل الدنيوية) منصوبة فى حجرات محفورة فى الصخور ومغطاة بنثار الحجر . والادوات المدفونة فيها كثيرة وهى حلى ذهبية وفضية (تيجان وحلقات للصدغين واقراط وقلائد واساور وهلمجرا) وحاجيات منزلية (آنية فضية وخزفية) وحقاق زجاجية لحفظ العطور وقدور برنزية ضخمة . ويتميز هذا النوع من القبور بدفن الافراس الذبيحة .

وهكذا بلغ مجتمع كولخيدا حتى اواسط الالف الاول قبل الميلاد ، كما تفيد المعطيات الاثرية ، درجة رفيعة جدا من الفرز الاجتماعى .

ويعتبر طابع التداول النقدى دليلا بالغ الاهمية على المستوى الرفيع لتطور المجتمع . ففى كولخيدا استخدمت على نطاق واسع فى التداول اعتبارا من القرن السادس

قبل الميلاد نقود يطلق عليها هواة جمع النقود اسـم «الكولخيديات» . وهناك عدد كبير من فئات تلك النقود : الدرهم الرباعى والثنائى (ثلاثة انواع) والدرهم العادى ونصف الدرهم (نوعان) ثم ان منطقة انتشار «الكولخيديات» تطابق تماما اراضى كولخيدا . فقد عثر عليها اساسا ما بين نهرى اينغورى وريونى وفى المنطقة الساحلية من مدينة سوخومى حتى نهر تشوروخ . وقلما يعثر على تلك النقود خارج حدود كولخيدا . ولذا فان هذه النقود كانت بلا ادنى ريب تسك لاجل التجارة فى السوق المحلية داخل كولخيدا . ولا يجدر بنا طبعا ان نظن بان النقود تغلغلت فى كل ميادين الحياة الاقتصادية للمجتمع . الا ان العدد الكبير من «الكولخيديات» التى عثر عليها فى الطبقات الاثرية وبشكل كنوز ، وتنوع فئاتها دليل على الطابع البضاعى للانتاج وعلى المستوى الرفيع لتنظيم التجارة . ولكن لا تزال مثار جدل مسألة الجهة التى اصدرت تلك النقود : اهى سلطات كولخيدا ام المدائن اليونانية ؟

ومن المصادر الهامة للرد على السؤال المطروح اعلاه الادلة التى تشير الى الروابط الاقتصادية بين كولخيدا والمدائن الاغريقية فى البحر الابيض المتوسط . ففى المرحلة المبكرة يتجلى بوضوح الدور البارز للمدائن اليونانية الشرقية . وتوجد بين المواد الاثرية من حفريات المواضع الساحلية فى كولخيدا مختلف انواع الخزفيات التى يعود اصلها الى مدائن آسيا الصغرى وجزر بحر ايجه . وعلى العموم لم يكن التوريد الى كولخيدا يختلف بشىء عن



التوريد الى المناطق الاخرى على سواحل البحر الاسود .
ولذا يمكن اعتبار هذا التوريد احد عناصر الشبكة العامة
للروابط الاقتصادية بين اليونان ومناطق البحر الاسود .



ومن المعروف ان مدينة ميليت لعبت دورا بارزا فى هذه الشبكة ، كما لعبت جزيرتا خيوس وساموس دورا اقل بعض الشيء . واعتبارا من اواسط القرن السادس قبل

38–1173

الميلاد بدأ التوريد من اثينا يتغلغل فى كولخيدا . وبعد الضعف الطفيف الذى طرأ على العلاقات التجارية فى مطلع القرن الخامس قبل الميلاد (ويبدو ان ذلك حدث بسبب الحروب بين اليونان وبلاد فارس) لوحظ ابتداء من سبعينات القرن الخامس نهوض جديد فى تجارة العالم اليونانى مع كولخيدا ، استمر حتى الربع الاخير من القرن الرابع قبل الميلاد بهيمنة تامة من جانب اثينا .

وليس فى هذه الملاحظات ما هو خارق للعادة ، فهى من حيث المبدأ لا تختلف بشىء عن اللوحة التى نراها فى اماكن اخرى من منطقة البحر الاسود . ولكن لدينا ، بخصوص فترة هيمنة اثينا ، بعض المواد التى تمكننا من افتراض وجود تنظيم للتجارة الدولية فى كولخيدا . وهذه المواد الجديدة مستقاة من مقبرة كوبوليتى — بيجفنارى . فقد عثر الباحثون على عدد كبير من قبور اهالى كولخيدا المحليين ، لكنهم عثروا فى منطقة المقبرة فى الوقت ذاته على قطاع فيه قبور اغريقية صرف . ووجدوا فى هذه القبور قوارير من خيوس وفاسوس ، وانواعا كثيرة جدا من السيراميك (الخزف) اليونانى . وقد ظهر القطاع الاغريقى المنعزل فى مقبرة كوبوليتى — بيجفنارى فى حوالى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، وانتهى امره فى اواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، اى انه كان يؤدى وظيفته فى الفترة التى هيمنت فيها اثينا على التجارة مع كولخيدا .

وافترض الباحثون ان تركيب المقبرة يعكس تركيب السكان المدفونين فيها . ومع الاسف ان موضع المدينة

لم يعثر عليه ، لكننا نعتقد بان رأى الباحثين صائب . فأهم العناصر فى تنظيم المقبرة هى التالية : أ) مقبرة عامة للسكان المحليين والاغريق ؛ ب) قطاع خاص للاغريق داخل هذه المقبرة العامة . واذا قارنا تركيب المقبرة بتركيب السكان نتوصل بالطبع الى الافتراض التالى عاش الاغريق والسكان المحليون اكثر من مائة عام فى اوثق اتصال ، وربما كانوا يعيشون فى موضع واحد . لكن الاغريق كانوا فى الوقت ذاته منعزلين بشكل ما عن السواد الاعظم من الكولخيديين . ويبدو محتملا تماما افتراض وجود حارة اغريقية خاصة داخل المدينة الكولخيدية ، ومن المحتمل تماما ان تلعب تلك الحارة دور المركز التجارى .

واذا صح هذا الافتراض فيمكن سحبه على زمان اقدم . واذا كان الاثينيون الذين هاجروا الى كولخيدا فى فترة الهيمنة الاثينية (بما فيها فترة وجود الاتحاد البحرى الاثينى عندما كانت اثينا اقوى دولة فى منطقة البحر الابيض المتوسط كلها) لا يشكلون مركزا سكنيا مستقلا بل يقيمون فى المركز الكولخيدى الموجود من قبل ، فلا يستبعد اطلاقا ان امورا مماثلة لوحظت فى العلاقات المتبادلة بين الكولخيديين والاغريق فى اراضى كولخيدا فى ازمان اقدم .

واذا اخذنا بعين الاعتبار كل المواد الخاصة بمستوى وطابع تطور مجتمع كولخيدا فى فترة بداية الاستيطان اليونانى ، وكذلك الاعتبارات بشأن تنظيم السكان اليونانيين

فى عهد احدث قليلا ، يمكننا ان نتناول القضية الرئيسية المطروحة فى بداية هذا البحث ، ونعنى قضية الاستيطان اليونانى فى كولخيدا .

وفى اغلب الظن كان فى كولخيدا فى عهد الاستيطان اليونانى مجتمع طبقى ونظام للدولة . فان المستوى الرفيع للقوى المنتجة المرتبط بالاستثمار المبكر والمكثف لتعدين الحديد لا بد وان يكون بلا ريب حافزا جبارا للتقدم الاقتصادى والاجتماعى وكانت المشاركة الواسعة فى التبادل الدولى قادرة على رص صفوف مجتمع كولخيدا . وتبين المواد الاثرية وجود تمايز فى الملكية ، وهو يرتبط ، على ما يبدو ، بالتمايز الاجتماعى . وكل هذه الملابسات تؤكد افتراض وجود مجتمع رفيع التنظيم فى كولخيدا . ومن جهة اخرى تؤكد معطيات التقاليد الكتابية الاغريقية بلا جدال على ان الاغريق توجهوا صوب كولخيدا طمعا فى ثرواتها الطبيعية ، ومنها الذهب . وكان التبادل حافزا لتعزيز الاتصالات الاغريقية الكولخيدية . ويعتبر انتشار النقود فى كولخيدا (الكولخيديات) ، مع انها ربما كانت تسك فى المدائن الاغريقية ، لكنها بلا شك تسد حاجة السوق فى كولخيدا كلها ، دليلا هاما على الدور الكبير للتبادل فى الحياة الاقتصادية للبلاد . وكل هذه الملابسات تجعلنا نفكر بان «موديل» الاستيطان اليونانى فى كولخيدا يختلف عن «موديل» الاستيطان فى شمال البحر الاسود . وتبين الدراسات الحديثة ان المنطقة الساحلية فى شمال البحر الاسود كانت فى بداية ظهور الاغريق فيها قليلة

السكان ان لم نقل خالية . وكان تغير الموقف الاثنوغرافى فى هذه المنطقة فى بداية الالف الاول قبل الميلاد وظهور البدو الكيميريين ، ثم الاسقوثيين ، اى الشعوب الرعوية المترحلة وليس الزراعية ، قد جعلا المنطقة الساحلية خالية ، فتمكن الاغريق باستثمارها بسهولة نسبيا . اما فى كولخيدا فالموقف يختلف ، حيث بقى السكان الزراعيون فى اماكنهم ولم يحل البدو محلهم .

وكان بالامكان الافتراض بان المواضع الاغريقية هنا كانت تتسم بطابع المراكز التجارية فقط . الا ان الادلة الصريحة الواردة فى المصادر المكتوبة لا تسمح بمثل هذا الافتراض . ويمكن التفكير بان المراكز السكنية الاغريقية الناشئة هنا (فاسيس وديوسكوريادا وغينيوس) كانت مدائن ، لكنها مدائن تختلف بعض الشىء عن مدائن شمال البحر الاسود . ويبدو ان عدد سكانها كان قليلا ، وكانت مساحة اراضيها الزراعية محدودة جدا . ويمكن التفكير بان تأسيسها فى اراضى كولخيدا قد جرى بسماح من السلطات المحلية التى لها مصلحة فى تطوير التجارة مع بلدان البحر الابيض المتوسط . وبحكم تطور مجتمع كولخيدا غدت هذه المدائن عنصرا ضروريا من عناصر الحياة الاقتصادية فى كولخيدا ، الامر الذى امن ، على ما يبدو سلامتها وازدهارها .

ايبيريا . اطلق المؤرخون الاغريق والرومان اسم ايبيريا على المملكة الجورجية الشرقية التى كانت قائمـــة فى القرن الثالث قبل الميلاد ــ القرنين الثالث والرابع ــ بعد

الميلاد . اما المصادر الجورجية فى القرون الوسطى فتسميها كارتلى . •كانت ايبيريا تشغل بالاساس القسم الشرقى والجنوبى من جورجيا حاليا الا ان ايبيريا تمكنت بمرور الزمن من الاستيلاء على بعض مناطق كولخيدا . وتتعلق الاكتشافات المكثفة جدا التى حققها العلماء السوفييت فى السنوات الاخيرة بالمعمار والفن فى ايبيريا .

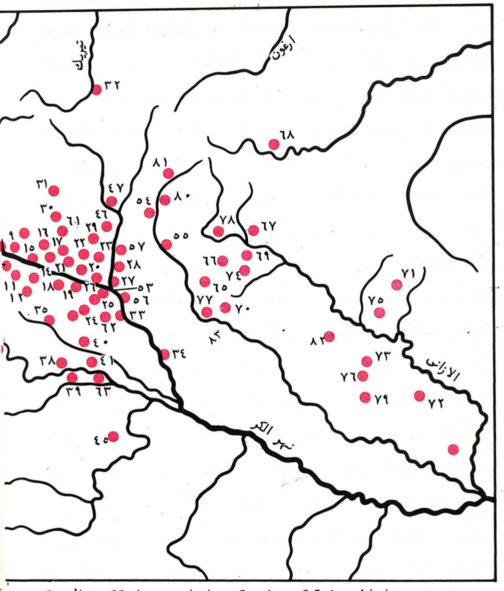
فقد اكتشفت فى اراضى ايبيريا مدن مبكرة من عهد نشوء المجتمع الطبقى والدولة . ومن تلك المدن سيخياغورا (الهضبة — القلعة باللغة الجورجية) . وتقع نواة سيخياغورا على هضبة ارتفاعها ١٢ مترا ومساحتها ١٠٠×٤٠ مترا وقد انشئت عليها بناية تثير الاهتمام جدا ، وفى القسم الاوطأ حول الهضبة مركز سكنى واسع

وتمثل تلك البناية معبدا مطوقا بسياج خاص . والمعبد مربع تقريبا (٨×٧,٥ م) وبين جدار المعبد والسياج مبان عثر فيها على اسطوانات طينية بصلبان مجسمة واختام طينية وفى الباحة امام المعبد مذبح حجرى مربع عال ويتصل بسياج المعبد من جهة الشرق «العنبر المقدس» المكون من ثمانية مبان ستة منها عبارة عن مستودعات لخزن الحبوب . ويتصل بالجدار الشمالى للمعبد بناء مستطيل من طابقين (١٨×٤,٥ م) وفيه ثلاثة مستودعات عثر فى احدها على شعير محروق ، وفى المستودعين الثانى والثالث اوعية بيضوية صغيرة . وعلى امتداد احد الجدران مخابز الرغيف .

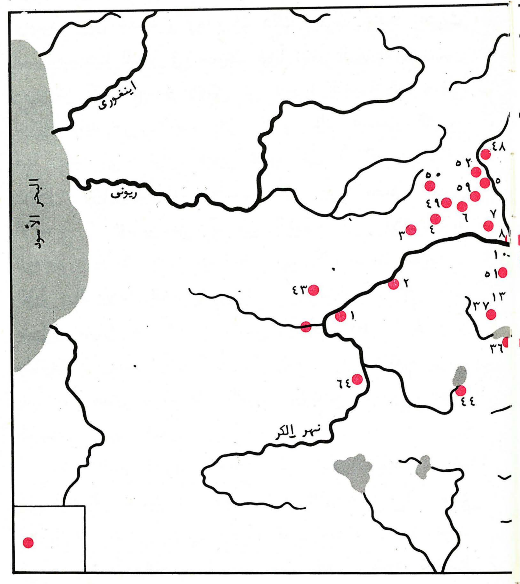
ويفترض بعض الباحثين ان ذلك هو معبد النار الذى

كان مركزا دينيا وسياسيا لطائفة كافتيسخيفى التى كانت وحدة اقليمية واقتصادية وسياسية منفصلة فى فترة نشوء الدولة فى ايبيريا . وبالفعل فان التشكيلة كلها وفى مقدمتها المعبد بعنابره ومخابزه وغيرها من المبانى يشبه كثيرا الموقف المعروف جيدا فى الشرق القديم ، حيث تتحلق المشاعات او الطوائف الريفية حول المعابد . وتثبت وجود هذه الظاهرة فى جورجيا المعطيات الاثنوغرافية بشأن بقايا طائفة المعبد فى جورجيا الجبلية .

وجرت دراسة تشكيلة هامة من المعابد العائدة الى القرنين الثانى والاول قبل الميلاد قرب قرية اراديتى فى منطقة تسمى ديدوبليس ميندورى («حقل الملكة» باللغة الجورجية) وكشفت الحفريات عن شبكة هائلة من المبانى التى انشئت فى وقت واحد وتمثل مستطيلا مساحته حوالى ٦ هكتارات وهو مطوق بجدار . ومحوره الطولانى متجه صوب خط الشمال — الجنوب . وفى القسم الجنوبى من التشكيلة تقع المعبد الرئيسى (٤٦×٣٠ م) . وهو عبارة عن حجرة مربعة باربعة اعمدة وقاعدة مربعة للمذبح فى الوسط . والحجرة والممر الواسع المؤدى اليها مطوقان من ثلاث جهات بشبكة من الاروقة . وتتصل بالمعبد المستطيل الاساسى من جهة الشمال بناية على غرار الايوان ، وهى رواق بعمودين . وعلى بعد ٩٠ مترا الى شمال المعبد الرئيسى يقع المعبد الصغير ذو الرواق المفتوح من الجنوب والحجرة المربعة مع مذبح فى الركن الجنوبى الغربى وغاليرى (ممر) التفافى على الجانبين



وتوجد بوابتان شرقية وغربية بابعاد متناسقة بالنسبة للمعبدين . وهما عبارة عن منفذين تزيينيين واسعين بستة اعمدة ناشئة عن رواقين غير متساويين ، خارجي وداخلي . وعلى جانبي الرواق الداخلي بنايات مستطيلة غير كبيرة فيها ابواب تطل عليه . وتؤدي البوابتان الى الباحة المربعة الداخلية التي عثر فيها على عدد من البنايات الاخرى .



وفى القسم الشمالى الشرقى من المنطقة المقدسة عثر على ٣ معابد منفصلة عن بعضها البعض ولها باحات خاصة بها . ويرى الباحثون السوفييت (ومنهم المشرف على التنقيبات غاغوشيدزه) ان تشكيلة المعابد الشاسعة هذه كانت مكرسة للالهة المازدية التى اندمجت لدرجة كبيرة بالالهة الجورجية الفلكية المحلية ، وان المعبد الرئيسى مكرس لالهة على

غرار اناهيد الوارد ذكرها فى افيستا . وقد دمر المعبد بسبب حريق شديد . ويبدو ان ذلك حدث عندما اعتبرت المسيحية دينا للدولة فى جورجيا فبدأ تدمير المعابد القديمة .

ولئن كان المعمار الدينى فى ايبيريا القديمة قد تعرض لتأثير شديد من جانب بلاد فارس فان المعمار المدنى فيها يشير الى اتجاه مغاير تماما فى العلاقات الثقافية ويتجلى هذا الاتجاه باوضح شكل فى معمار القصور الايبيرية . فهنا يتجلى بمنتهى الوضوح تأثير الامبراطورية الرومانية . الا انه ينبغى ان نأخذ بعين الاعتبار هنا نقطتين : الاولى ان هذا التأثير لم يبدأ من البداية ، بل اخذ يتجلى اعتبارا من القرنين الثانى والثالث بعد الميلاد ، والثانية ان هذا التأثير كان ذا طابع محدود فلم يمس بمبادئ معمار تشكيلات القصور بالكامل ، بل بعض المنشآت فيها فقط .

ومن اقدم القصور المعروفة فى ايبيريا القصر القائم على هضبة باغينيتى . ويبدو انه كان هناك مقر ملوك ايبيريا فى القرنين الثانى والاول قبل الميلاد . ولا توجد فى معمار هذا القصر اية سمات رومانية . وتعود تشكيلتا القصور فى ارماخيسخيفى ودزاليسى الى فترة احدث . والى جانب منشآت القصور نفسها تضم هاتان التشكيلتان حمامات ذات معمار رومانى صرف . فالحمامات تسخن بالهواء الحار عبر شبكة من القنوات الخاصة المتواجدة تحت ارضية البنايات . ويتكون المخطط من ثلاثة حمامات : ساخن ودافئ وبارد

وكانت بعض بنايات الحمامات مزينة بالفسيفساء . وحظيت فسيفساء دزاليسى باكبر الاهتمام ففى القسم البارد من الحمام هنا يوجد حوض بارضية مزينة بالفسيفساء (من مكعبات صغيرة زاهية) . والافريز بارز بشكل خطين بينهما نقوش نباتية . وفى المجال الاساسى الذى تضرر كثيرا ظلت محفوظة رسوم سمكة ورأس دلفين ومحارة مطولة . كما ان ارضية البناية الاخرى المخصصة للمشلح مزينة بالفسيفساء . وفيها نقوش نباتية وهندسية .

الا ان الفسيفساء موجودة ليس فقط فى الحمامات . ففى دزاليسى نفسها عثر على فسيفساء رائعة اثناء حفريات القصر . وهناك لوحة جدارية فسيفسائية ضخمة جـدا (٦×٨,١ م) فيها صور لديونيسيوس . ففى الوسط يجلس ديونيسيوس واريادنا على العرش وبالاضافة الى ذلك توجد كائنات اخرى من حاشية ديونيسيوس ونقوش نباتية كثيرة (اغلبها من الدوالى واللبلاب) ونقوش هندسيـة وكتابات . وتعود تلك الفسيفساء الى القرن الثانى الميلادى .

ان عبادة ديونيسيوس امر طبيعى تماما فى ايبيريا . وتدل على علو منزلته هنا الاثار الفنية الاخرى التى عثر عليها . فاثناء الحفريات فى ساركين ، مثلا ، عثر على اقنعة ومنحوتات تراكوتية جيدة تماما . وتصور احدى هذه المنحوتات (ارتفاعها ٣٨,٥ سم) تمثالا نصفيا لديونيسيوس فى شبابه وعلى جبهته قرنان صغيران ، كما تصور منحوتة اخرى (ارتفاعها ٣٨ سم) اريادنا . والدليل على ان الاقنعة الثلاثة التى عثر عليها هناك تعود الى شخوص ميثولوجية

من حاشية ديونيسيوس هو ان عنقودى عنب يتدليان من اذنى احد تلك الاقنعة ، والاذنان بشكل ورقتى عنب . وتختلف عن هذه الاقنعة من حيث الاسلوب صورة وجه رجالى بملامح خشنة وتعابير متجهمة . واذا كانت صور ديونيسيوس واريادنا مرتبطة بصور الميثولوجيا الهيلينية فان بعض الاقنعة التراكوتية تمثل ، على ما يبدو ، الوجهاء المحليين . والأكثر احتمالا ، فى اغلب الظن ، ان الاقنعة التراكوتية كانت تزين داخل المبانى العامة وكانت موزعة فى صف واحد ، الامر الذى تدل عليه الثقوب الصغيرة للخيوط التى علقت بها على الجدار .

وحقق الباحثون السوفييت طائفة اخرى من الاكتشافات الهامة جدا فى اراضى ايبيريا القديمة . ولكن من المتعذر الحديث عن كل تلك الاكتشافات فى اطار بحث محدود . ولذا اكتفينا بجانب واحد فقط ، هو بعض الاكتشافات الجديدة فى الميدان الفنى التى تبين مدى تعقد الظاهرة الفنية فى ايبيريا حيث تتشابك التأثيرات القادمة من الشرق والغرب .

ارمينيا . كان سقوط اورارتو فى مطلع القرن السادس قبل الميلاد قد اسفر عاجلا عن نشوء المملكة الارمنية (فى نفس تلك الاراضى فى الواقع) . وكانت تلك المملكة فى بادئ الامر تابعة للميديين ثم لدولة الاخمنيين . وكان سقوط بلاد فارس الاخمنية تحت ضربات جيش الاسكندر المقدونى قد هيأ الظروف اللازمة لقيام دولة ارمنية مستقلة تحكمها سلالة الارونديين وتضم كل اراضى الهضاب

الارمنية . وسرعان ما وقعت البلاد فى تبعية للسلوقيين . الا ان ضعف السلوقيين (بسبب الصدام مع روما) قد مكن ارمينيا من كسب الاستقلال مجددا . وفى العهد الهلينى المتأخر غدت ارمينيا من اهم القوى السياسية فى غرب آسيا ، الا ان بسط روما سلطتها على آسيا الصغرى وبلاد الشام اسفر عن اضعاف الدولة الارمنية . وفى القرون الاولى الميلادية كانت ارمينيا دوما «قميص عثمان» للنزاع بين الدولتين العظميين آنذاك — الامبراطورية الرومانية والمملكة البارثية .

وينكب الباحثون السوفييت على دراسة تاريخ ارمينيا القديمة وحضارتها . وتستحق قضية المدن الارمنية القديمة اهتماما خاصا . فقد حظيت مدن ارمينيا بدراسات قام بها الاثريون والمؤرخون على حد سواء . وتناولت الدراسات بالاساس المدن الارمنية القديمة الواقعة فى اراضى ارمينيا السوفييتية حاليا ، وبقدر اقل بكثير المدن الواقعة خارج حدودها .

ومما لا جدال فيه ان سقوط اورارتو قد ادى الى تدهور كبير فى المدن ، مع انه لا داعى للكلام عن انقراض المدينة عموما . ولعل ارمافير ظلت قائمة بعد سقوط اورارتو وان بحجم تقلص كثيرا . كما ظلت الحياة تنبض فى مدينة وان . فان الكتابة التى تركها الملك الاخمنى احشويرش على صخرة فى وان تشير الى اعمال انشائية هناك . ويفترض بعض الباحثين ان هذه المدينة بالذات كانت عاصمة للمملكة الارمنية الاولى كما

ظلت ايريبوني على قيد الوجود . وهناك افتراض بان المدينة كانت مركزا للولاية الثامنة عشرة من المملكة الاخمنية . وفى تلك الفترة استخدمت عدة بنايات اوارتية من قلعة المدينة بدون ترميم تقريبا (مثل جدران القلعة) وتعرض بعضها لترميمات كبيرة ، كما انشئت بنايات جديدة .

الا ان انتعاش الحياة فى مدن ارمينيا لم يبدأ من جديد الا فى العصر الهليني . وفى بعض الاحيان يطلق مصطلح «الانفجار العمراني» على الوضع فى غربى آسيا اثناء العصر الهليني . وهذا المصطلح يصلح تماما لارمينيا .

ويهيئ اقتران معطيات المصادر المكتوبة والمواد الاثرية الجديدة الامكانية للكشف عن ملامح العديد من مدن ارمينيا فى العصر الهليني .

وكانت مدينة ارمافير من المراكز الهامة فى ارمينيا . وقد جرت الحفريات الاساسية فى قلعتها فمواضع السكن الصرف فى المدينة معروفة بقدر اقل . وكانت تلك المواضع تشغل المجال الواسع جدا بين هضبتين (هضبة ارمافير والهضبة المطلة على ارمافير) جنوبى هضبة ارمافير تشكيلة من المعابد كانت تضم ، على ما يبدو ، اجمة من الدلب فيها صنم الفأل الامر الذى يشير اليه المؤرخ موفسيس خوريناتسى ، وتؤكده الكتابات اليونانية الموجودة هنا والعائدة الى القرن الثالث قبل الميلاد . وفى الطرف الغربى من المدينة عثر على اسس منازل سكنية ذات تخطيط مستطيل ، كما عثر على منازل

مماثلة فى قلعة ارمافير . ومواقد التدفئة فى تلك المنازل تشبه من حيث البناء المواقد التى عثر عليها اثناء التنقيبات فى مدينة آى خانم العائدة الى العصر الهلينى والواقعة فى افغانستان كما عثر اثناء الحفريات على معصرة نبيذ

وتهيـئ عدة معطيات الامكانية للقول بان مدن ارمينيا القديمة انشئت وفق كل قواعد بناء المدن الهلينى . فان مدينة ارتاكساتا ــ ارطاشات سميت باسم الملك المؤسس كما جرت العادة فى العصر الهلينى . وكانت المدن الارمنية فى تلك الحقبة تتميز بالتخطيط المنتظم الملازم للعصر الهلينى ايضا . فالمدينة تتكون عادة من قلعة واحياء مدنية وربما ضواح شبه ريفية . وكانت توجد فى بعض المدن شبكة من الاحياء المتميزة بتخطيطها الخاص ، مما يلازم المدن الكبيرة فى مملكة السلوقيين (مثـل انطاكية) . كما يوجد فى ارمينيا نظام بناء عثر على مثيل له فى بارثينا فى عهدها المبكر : المدينة السكنية وجنبها قلعة الملك .

وكانت المدن محصنة جيدا . وفى المدن التى نشأت على اساس اورارتى استخدمت منشآت دفاعية اورارتية كما فى ارمافير . ومن المعروف ان هذه المنشآت قد كيفت لخصائص التضاريس المحلية . وهى فى بعض الاماكن تتكون من صفين من الجدران ولها مدخل محصن جيدا ، واسانيد جدارية مستطيلة وابراج متينة فى الاركان . وكانت قلعة ارمافير معرضة للخطر نسبيا من الشمال الغربـى .

آثار ارمينيا خلال القرن السادس قبل الميلاد ــ القرن الثالث الميلادى

نهر الكر

بحيرة سيوان

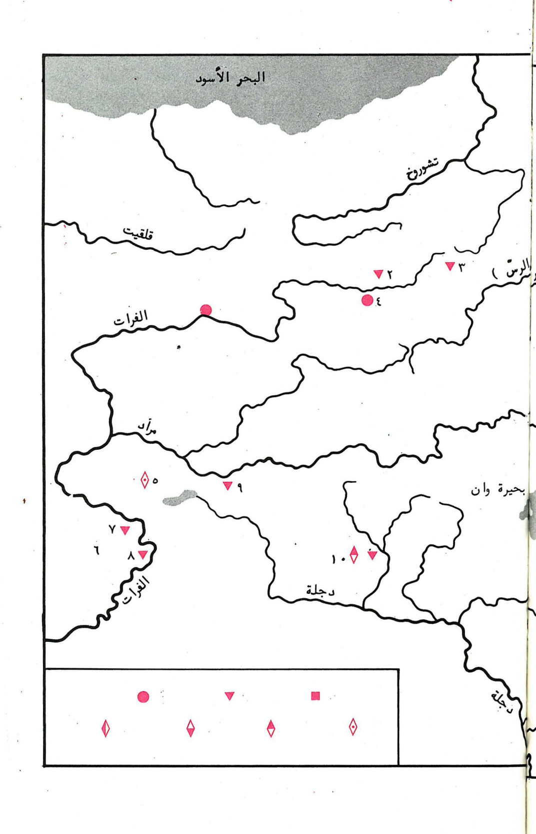
نهر أراكس

مراد

نهر الرس

بحيرة رزايه
(اورميا)

١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣ ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨


البحر الأسود
تشوروخ
قلقيت
الفرات
الرسّ)
٢
٣
٤
مراد
٥
٩
بحيرة وان
٧
٦
٨
الفرات
١٠
دجلة
دجلة

39–1173

فاقيم هنا فى العصر الهلينى برج متين نصف دائرى تقريبا يحمى هذا المكان المعرض للخطر .

لقد كان البناء الواسع للمدن الجديدة فى العصر الهلينى تعبيرا عن حاجة المجتمع . وكان الملوك الارمن يدركون هذه الحاجة تماما ، ولذا شغل بناء المدن مكانة هامة فى سياستهم . ومما يؤسف له ان معارفنا قليلة عن مضمونها الداخلى . ولدينا بعض المعلومات عن ذلك مأخوذة من مدينة واحدة فقط هى تيغراناكرت التى بناها تيغران الثانى . وكانت مدينة هلينية تماما ومركزا تجاريا وحرفيا كبيرا . وكانت للمدينة فى نفس الوقت ادارة ذاتية وفيها بلدية مثلما فى مدائن الدولة الهلينية الصرف . ومما لا شك فيه ان هذا الاتجاه العمرانى فى تطور المجتمع قد نشأ فى ارمينيا عن الحاجات الداخلية لذلك التطور . الا ان اشكال العمران فى الوقت ذاته تأثرت بالعالم الهلينى الذى عاشت ارمينيا بجواره وكانت لها معه اتصالات دائمية

ان دراسة دور ارمينيا فى التجارة العالمية للازمان القديمة واحد من المواضيع التقليدية فى الدراسات التاريخية . وفى السنوات الاخيرة بذل العلماء السوفييت جهودا كبيرة لحل هذه القضية . وترتبط الحلول الجديدة للمسائل التقليدية بتجميع معطيات جديدة من المصادر . وتتسم بأهمية كبيرة بخاصة مواد علم النقود . وبنتيجة جمع هذه المواد الجديدة يطرأ تعديل على بعض النظريات التى كانت ثابتة . فقد اقيم الدليل الان ، مثلا ، على

خطأ وجهة النظر القديمة القائلة بان النقود البرنزية البارثية لم تكن فى التداول فى اراضى ارمينيا القديمة . واتضح الان ان تلك النقود شاركت فى التداول النقدى فى ارمينيا . وذلك يثبت وجود روابط اقتصادية بين بارثينا وارمينيا اوثق مما كان متصورا فى السابق . هذا اولا ، وثانيا يدلل على ان العلاقات البضاعية النقدية كانت اكثر تطورا مما هو مفروض .

ان دور ارمينيا فى التجارة العالمية يعود الى مكانتها البينية الهامة فى المنظومة العامة للعلاقات الاقتصادية بين الغرب والشرق . واخذت ارمينيا تلعب دورا هاما فى هذه التجارة اعتبارا من عهد امبراطور روما اوغسطس . وكان ذلك يتوقف بقدر كبير على سياسة روما . فاعتبارا من عهد الامبراطور اوغسطس تخلى الرومان لفترة طويلة نسبيا عن المجابهة المباشرة ضد بارثينا وانهمكوا اساسا بتعزيز حدودهم الشرقية . والى جانب ذلك كان الرومان يجهدون للسيطرة على الطرق التجارية التى تربط البحر الابيض المتوسط بالشرق ، لان التجارة الشرقية غدت عنصرا ضروريا جدا فى الاقتصاد . الا ان الطرق المباشرة الى الشرق تعترضها بارثينا التى لم تكن تعرقل تطور التجارة ، لكنها تحصل على اكبر المنافع من التجارة عن طريق الوساطة وكان الرومان يبحثون عن طرق تجارية الى الشرق تتحاشى بارثينا . فى بادئ الامر حاولوا الاستيلاء على الطريق الجنوبى المؤدى الى اليمن السعيدة . الا ان حملة ايلياس غالّ (عام ٢٧ قبل الميلاد) . قد منيت

باخفاق ذريع . وبعد ذلك وجه الرومان اهتمامهم اساسا صوب الطريق الشمالى — عبر ارمينيا . وبذلك يرتبط العدوان الرومانى فى عام ٢٠ قبل الميلاد والذى اسفر عن مقتل الملك ارطاشيس وتولى الملك تيغران الثالث ، كما اسفر عن طائفة من الاحداث الاخرى .

اكتشف الباحثون الطرق التجارية الاساسية التى كانت تمر عبر اراضى ارمينيا القديمة وساعد على اكتشافها تحليل المصادر المكتوبة وكذلك تحليل الاماكن التى عثر فيها على القطع النقدية . فقد اكتشف ، مثلا ، الطريق التجارى الهام الذى كان يبدأ من كولخيدا قرب مدينة فاسيس ، ويمتد على طول شاطئ نهر ريونى الى مضيق سورام الجبلى ، وهناك ينعطف رأسا صوب الجنوب ، الى اباستومانى واخالتسيخى ، ثم يستمر فى اراضى ارمينيا حتى ارطاشات . وكانت ارطاشات من اكبر المراكز التجارية . فبالاضافة الى الطريق التجارى المذكور يمتد منها طريق الى آسيا الصغرى وآخر الى تيغراناكرت حيث يلتقيان بشبكة متشعبة من الطرق التجارية فى شمال وادى الرافدين ، وطريق الى عاصمة الميديين . واخيرا يحتمل تماما ان يكون هناك طريق آخر من ارطاشات الى بحر قزوين يمتد على طول شاطئ اراكس

وثبت حاليا ان دور ارمينيا فى تجارة بلدان البحر الابيض المتوسط والشرق كان فى ازدياد مستمر . وقد جرت تلك العملية بلا انقطاع من اواخر القرن الاول قبل الميلاد حتى العقود الاولى من القرن الثالث الميلادى .

وتلك بالذات هى فترة اكبر انتعاش فى التجارة .

وتدل على ذلك الحاجيات الرومانية التى عثر عليها فى الشرق ووجود عدد كبير من التجار هناك من المناطق الشرقية للامبراطورية الرومانية (الاغريق والشاميين والمصريين) والجو السياسى الملائم عموما على امتداد الطريق ، وكذلك النقود الرومانية التى عثر عليها فى بلاد فارس وافغانستان وشمال الهند . وثبت ايضا ان كمية النقود التى عثر عليها ليست بحد ذاتها دليلا على حجم التجارة ، لان البضائع التى كانت تنقل فى الطريق التجارى كانت تباع مرارا وتكرارا . وكانت القطع النقدية الرومانية تستقر اساسا فى نقاط الحدود حيث كان يشتريها التجار المحليون وبعد ذلك تجرى الحسابات بالعملة المحلية

البانيا القوقاسية . لقد اسفرت دراسة العلماء السوفييت لاثار البانيا القوقاسية فى السنوات الاخيرة عن طائفة من الاكتشافات الهامة للغاية . ويرتبط اهمها بقضية نشوء وتطور المدن فى اراضى البانيا القوقاسية . وعلى امتداد عقود كثيرة لوحظ هنا ما يسمى بالمنشآت الحجرية التى هى عبارة عن بقايا اسوار متينة مبنية من صخور هائلة غير مشذبة . وكانت اكثر انتشارا فى منطقة القوقاس الصغرى . وقد دار جدل طويل خلال سنين عديدة حول وظيفتها . فقد اعتبرها الباحثون منشآت عبادة ونقاط توقف فى الطرق التجارية وملاجئ محصنة للناس والماشية اثناء المخاطر والنوائب وهلمجرا . الا ان كل تلك الافتراضات

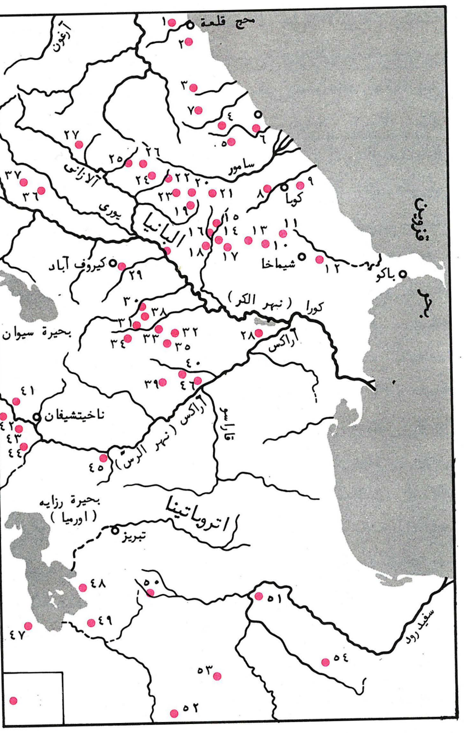
قيلت على اساس الدراسات المنظورة فقط بدون تنقيبات اثرية صرف . ولم تجر التنقيبات الاثرية الا فى السنوات الاخيرة حيث اتضح ان «المنشآت الحجرية» هى اطلال مواضع سكنية من العصر الحديدى المبكر (النصف الاول من الالف الاول قبل الميلاد) فى اراضى البانيا القوقاسية . فان الاسوار الحجرية نفسها هى تحصينات للمواضع السكنية التى كانت قائمة بالاساس على الربايا . وفى بعض الاحيان يوجد حول الموضع المحصن موضع آخر غير محصن هو بمثابة الضاحية .

وعثر فى المواضع السكنية على اطلال منازل من مختلف الانواع ومنشآت اقتصادية ، واحيانا بقايا الصناعات الحرفية . وعثر بين اطلال قره تبه على منزل ربما كان عائدا الى كبير وجهاء العشائر . وهو منزل مبنى من اللبن وفيه غرف كثيرة . وعثر على اسس حجرية لاعمدة خشبية وبقايا تنانير وهلمجرا . وفى سارى تبه تحقق اكتشاف اهم . فقد درست هنا بناية على غرار القصور (وهى مع الاسف بناية متضررة كثيرا) . ومركزها صالة هائلة مساحتها زهاء ٣٠٠ متر مربع ، وعثر فيها على قواعد لاعمدة ذات شكل ناقوسى مما يلازم المعمار الاخمنى والقاعة مطوقة بـ ١٢ حجرة ، وبابها يؤدى الى الباحة الداخلية شرقا ، والباحة بدورها مطوقة بـ ٢٣ حجرة و ٩ ابراج مستطيلة . وكان المدخل الرئيسى متواجدا فى الجدار الشرقى وعلى جانبيه برجان

ونجد اقرب مثيل لهذه البناية فى معمار بلاد فارس

فى عهد الاخمنيين . وفى بعض الاحيان يطرح افتراض بانها كانت مقرا لعامل بلاد فارس ، ولكن هذا الافتراض ضعيف الاحتمال . فهذه البناية ، على الاكثر ، كانت مقرا لحاكم محلى تابع للاخمنيين ويحظى بدعمهم . ومن المحتمل تماما ان هذا القصر بنى بمساعدة المعماريين الفرس لزيادة هيبة تابعهم .

وفى اغلب الظن ان كل تلك الاثار تشير الى عملية نشوء المدن فى اراضى البانيا القوقاسية . وقد ظهرت المدن الصرف فى الفترة التاريخية التالية التى شملت القرون الاولى قبل الميلاد والقرون الاولى الميلادية . وفى هذه الفترة نشأت الدولة الالبانية . ويفترض وجود الدولة تكوين المجتمع الطبقى ونشوء المدن بالتالى . وقد حصلنا على مصادر مكتوبة ايضا لالقاء الضوء على هذه الفترة . فالجغرافى بطليموس ، مثلا ، يتحدث عن ٢٩ مدينة كانت قائمة فى البانيا القوقاسية . وهو يخصص بينها اربع مدن : تيليبا وغيلدا والبانا وغيتيرا . ويقول بيلينيوس الكبير ان مدينة كابالا كانت عشية العصر الميلادى المدينة الرئيسية فى البانيا القوقاسية . وبينت الدراسات الاثرية ان هذه المدينة كانت واقعة على مقربة من قرية تشوخور — كابالا فيما بين نهرى كاراغاى وغوغالانغاى وتتجاوز المساحة الاجمالية للمدينة ٥٠ هكتارا . وتعتبر مدينة شيماخا التى يسميها بطليموس كيماخا المدينة الكبيرة الثانية فى البلاد . وتقع انقاض هذه المدينة غربى مدينة شيماخا حاليا . وتتجاوز مساحة شيماخا القديمة ٥٠


محج قلعة
آرغون
سامور
آلازانى
يورى
البانيا
كوبا
شيماخا
باكو
بحر قزوين
كيروف آباد
بحيرة سيوان
كورا (نهر الكر)
آراكس
ناخيتشيفان
آراكس (نهر الرس)
قارا سو
اتروباتينا
بحيرة رزايه
(اورميا)
تبريز
سفيد رود

هكتارا ايضا . وعثر الاثريون على اطلال مدن البانية قديمة كذلك فى منطقة مينغيشاور ، قرب قرية تيزابيت وغيرها . كما عثر فى جنوب داغستان على انقاض مدينة دربند واطلال اوربيلك العائدة الى العهد الالبانى .

كانت المدن الالبانية محصنة عادة . وامامها من كل بد جدران وخنادق . وللجدران عادة قواعد حجرية ، واقسامها العليا مبنية من اللبن . وكشفت الدراسات الاثرية عن وجود منازل وبنايات عامة وورشات حرفية فى المدن . وتتسم بأهمية خاصة البناية العامة الكبيرة التى عثر عليها اثناء الحفريات فى كابالا . وهى عبارة عن تشكيلة كاملة من القاعات والابهاء والمستودعات . وفى القاعات والابهاء استخدمت الاعمدة الخشبية القائمة على قواعد حجرية ناتئة دائرية الشكل ، والسقوف مغطاة بالقرميد . وبينت الحفريات فى مينغيشاور ان الاحياء الحرفية مفصولة عن حارات السكن . ودرس الاخصائيون فى هذه المدينة مثلا منطقة واسعة للحرفيين الخزافين . وكان جنبها حى خاص بمعاصر النبيذ . وتدل المواد الاثرية على التطور الواسع للحرف والصنائع فى المدن الالبانية . وبالاضافة الى صناعة الخزف والفخار السالفة الذكر يمكن ان نشير الى التعدين ومعالجة المعادن والدباغة والنسيج والنجارة وهلمجرا . وتوجد معطيات عن تطور صناعة الزجاج . فى البداية انتشر فى البانيا الزجاج الدخيل ، وبعد ذلك اتقن الالبانيون فن المصنوعات الزجاجية . واعتبارا من

القرن الاول الميلادى بدأ صنع الخرز فى البانيا ، وفى القرن الثالث الميلادى بدأ صنع الانية الزجاجية . وبلغت الصياغة مستوى عاليا نسبيا . واستخدم الصناع الالبانيون كل الاساليب المعروفة انذاك تقريبا للصياغة وكذلك الصب حسب النماذج الشمعية والنقش على المعدن والقولبة والتشكيل بالكبس وغيرها .

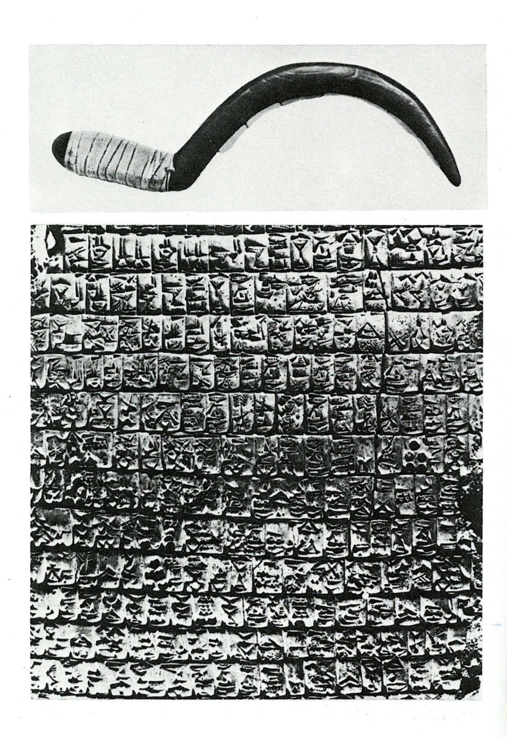
وكان تطور التداول النقدى من نتائج عملية نشوء وارتقاء المدينة . ومما يؤسف له ان قضايا النقد فى البانيا غير مدروسة بالقدر الكافى . والمسألة التى تثار حولها اشد المجادلات هى مسألة بداية سك النقود المحلية . والتاريخ الاكثر احتمالا لسك النقود هو القرن الثانى قبل الميلاد ، مع انه عثر فى اراضى البانيا القوقاسية على قطع نقدية اقدم ، اعتبارا من الدراهم الرباعية ودراهم الاسكندر المقدونى . وفى البداية انتشرت هنا على نطاق واسع النقود السلوقية ثم البارثية . ومن الملابسات الهامة جدا ان النقود السلوقية تمثلها فقط النماذج التى سكت فى دور السك الشامية . اما النقود التى صدرت عن دار السك فى ايكباتانى التى هى اقرب كثيرا الى البانيا فلا اثر لها هنا اطلاقا . وفى العهد البارثى شاعت هنا الدراهم المسكوكة فى ايكباتانى . ويدل ذلك ، فى اغلب الظن على التبدل الكبير فى اتجاهات الصلات الاقتصادية .

ان قضية نشوء وتطور المدن فى البانيا القوقاسية رغم بعدها عن الحل الكامل تتسم بأهمية من الناحية النظرية العامة ، وذلك لان عملية العمران والتمدن قد

جرت هنا فى ظروف تعرضت لاقل قدر من التأثيرات الخارجية .

وعلى العموم فالدراسات الاثرية الجديدة التى اجراها العلماء السوفييت فى مختلف مناطق ما وراء القوقاس تشير بوضوح الى المستوى الرفيع لتطور الحضارات القديمة . وتبين هذه الدراسات انه من المتعذر فهم العمليات العامة لنشوء وتطور الحضارات فى الشرق القديم بدون المواد الخاصة بما وراء القوقاس .

منجل خشبي القبضة ذو نصل صوّاني . الالف التاسع قبل الميلاد .



قطعة من ارشيف تل مرديخ (ما يسمى بالمعاهدة بين ايبلا وآشور) .

اطلال مدينة ريبون ــ المستوطنة الرئيسية للمشاعة الزراعية فى وادى دوعن (حضرموت الغربية) . القرن الثامن قبل الميلاد ــ القرن الرابع الميلادى .



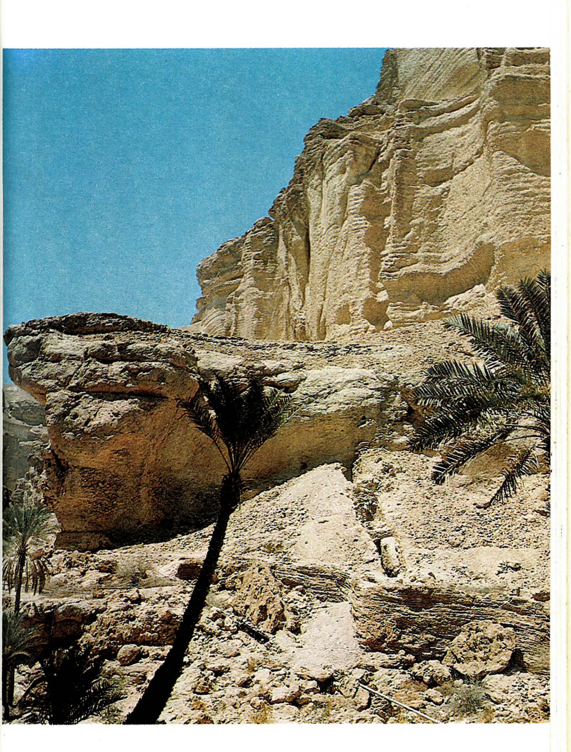


اطلال مدينة ريبون . حفريات قصر لاحد وجهاء المدينة (مبنى رقم ٥) . حفريات اكوبيان .

اطلال مدينة ريبون . كسوة جدار المعبد : حفريات بيتيرس .



شعب الغوزة . حفريات مغارة من العصر الحجرى القديم .
حفريات اميرخانوف .



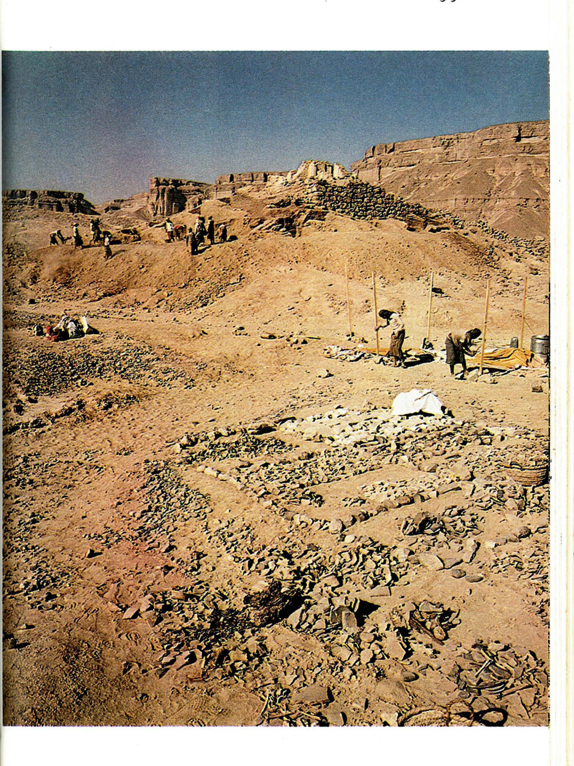
حضرموت الغربية . وادى الغبرا . غرافيتى ورسومات صخرية .





حضرموت الغربية . وادى الغبرا . رسومات صخرية .

اطلال مدينة قنا القديمة الميناء التجارى الرئيسى لحضرموت .



حفريات منزل فى ميناء قنا القديم . حفريـــات فينوغرادوف .



صولجان من حجر البورفيريت برأس حيوانى .





ادوات صوانية : سكين ، سهام ، مقاشط ، فأس .

شفرات صوانية (فى الاعلى) . مخارز ، ازميل .

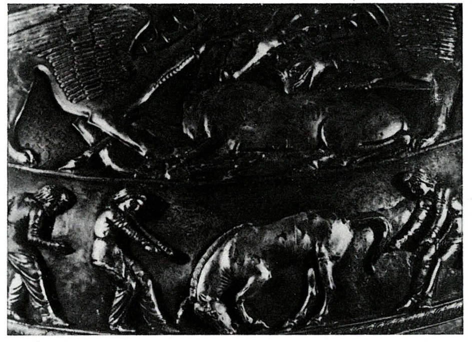




اصنام معلقة من احجار شبه كريمة .

قارورة فضية من تل تشيرتومليك .



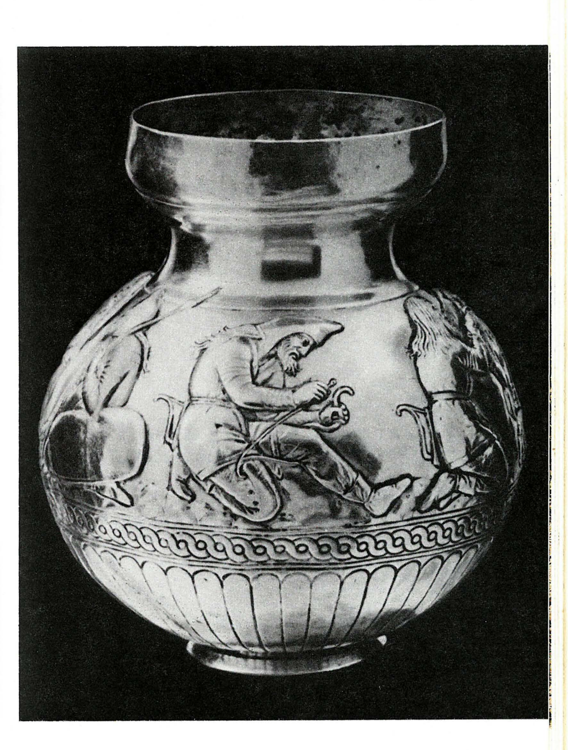


نفس القارورة (مقطع من افريز) : نحر الحصان قربانا .

اناء فضي من فورونيج . تارغيتاي يسلم القوس الى ابنه الاصغر .



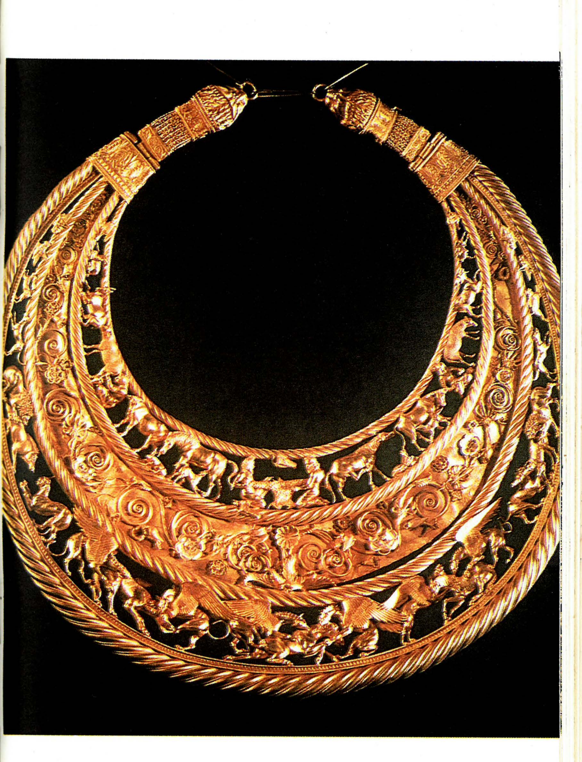
كأس من الفضة والذهب من تل كول-ابا . امتحان ابناء تارغيتاى .



مشط ذهبي من تل سولوخ . اقتتال ابناء تارغيتاي .



بطرشيل ذهبي من تل تولستايا موغيلا .



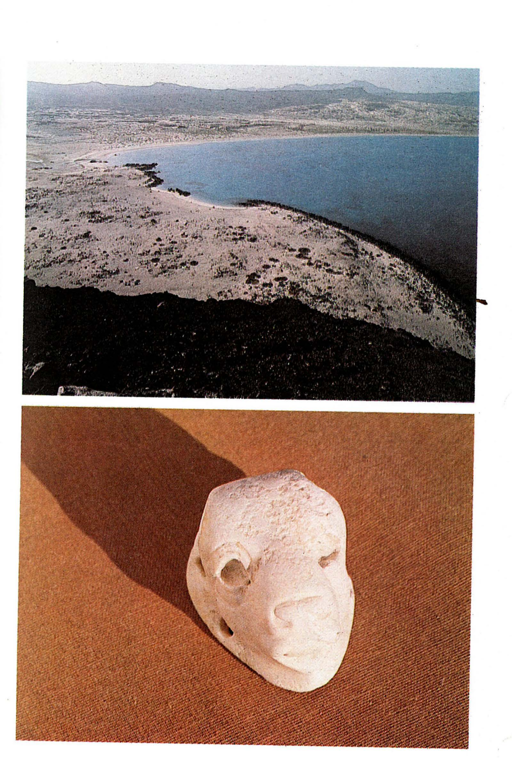
نفس البطرشيل (مشهد من الافريز العلوى) : خياطة الثياب الطقوسية من صوف الضأن .





نفس البطرشيل (مشهد من الافريز الاسفل) : الغريفونات تنهش الحصان .

منظر عام لنشر الصوان فى موضع غونور . مرغيانا .



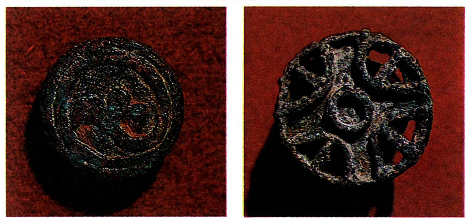
رأس ثور حجرى . مرغيانا .

ختم نحاسي برؤوس طيور . مرغيانا .



وعاء طقوسي من موضع توغولوك ـــ ١ .

غونور — ١ . وعاء فخاري .



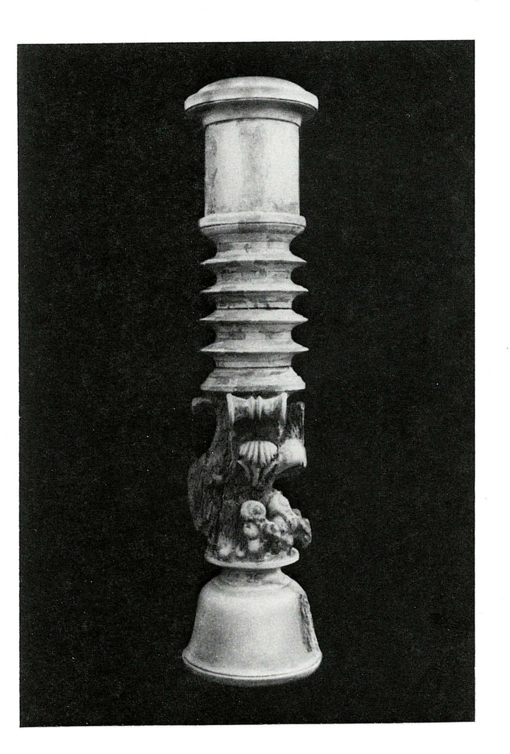
غونور — ١ . نوط نحاسي .

غونور — ١ . ختم نحاسي .

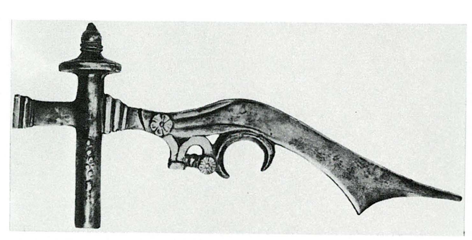
كسرة من وعاء الرفات ، من حفريات مونون تبه (جنوب تركمانيا . واحة مرو) . القرن الاول قبل الميلاد .



عاج محفور . قطعة من اثاث من حفريات نيسا
(جنوب تركمانيا) . القرن الثانى قبل الميلاد .



فأس صغيرة فضية مذهبة للمراسيم . من حفريات نيسا (جنوب تركمانيا) . القرن الثانى قبل الميلاد .



افريز كأس قرنية الشكل من العاج . من حفريات نيسا (جنوب تركمانيا) . القرن الثالث ـ القرن الثانى قبل الميلاد .

منحوتة كبش وموديل شجرة . ذهب .





معلقتان للرأس «ملك وتنينان» . ذهب .

قلادة . ذهب مطعم بالفيروز .



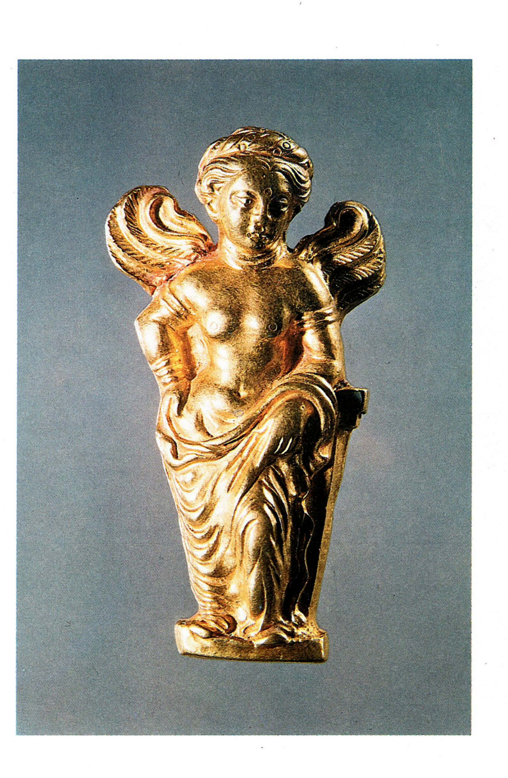
بطرشيل . فى وسطها جوهرة منقوشة . ذهب .



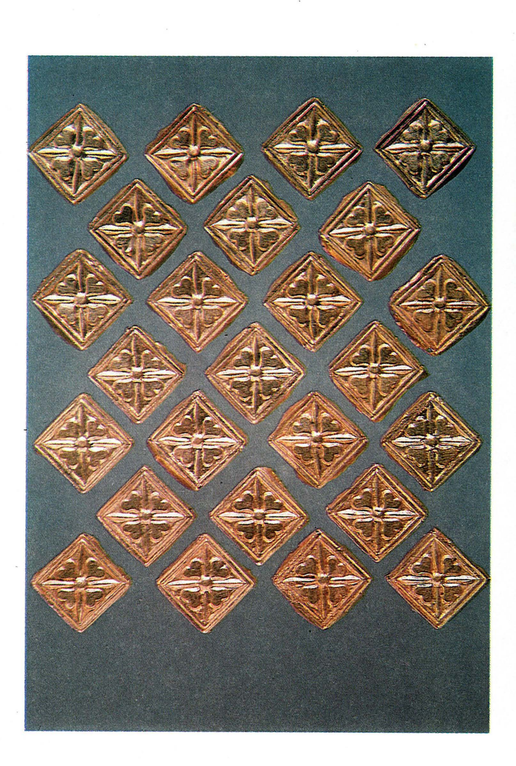
معلقات . ذهب وعقيق .



«افروديت باكتريا» . ذهب .



انواط مثبتة على القماش . ذهب .



خنجر . ذهب .





قرطان على شكل اله الحب (آمور) المجنح . ذهب .

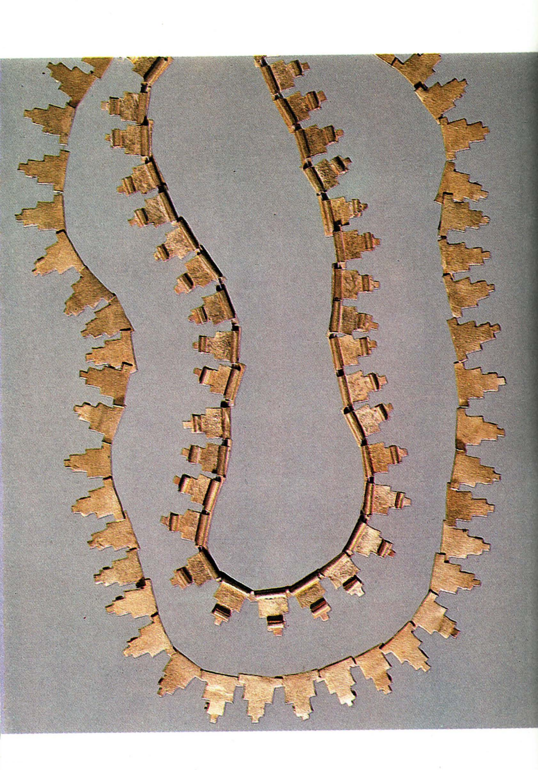
معلقة رأس عليها صورة المعبودة اناهيد . ذهب .



ابزيمان بشكل محاربين . ذهب .



انواط مثبتة على القماش . ذهب .



حزام . ذهب .



ابزيمان بشكل «آمور على ظهر الدلفين» . ذهب .

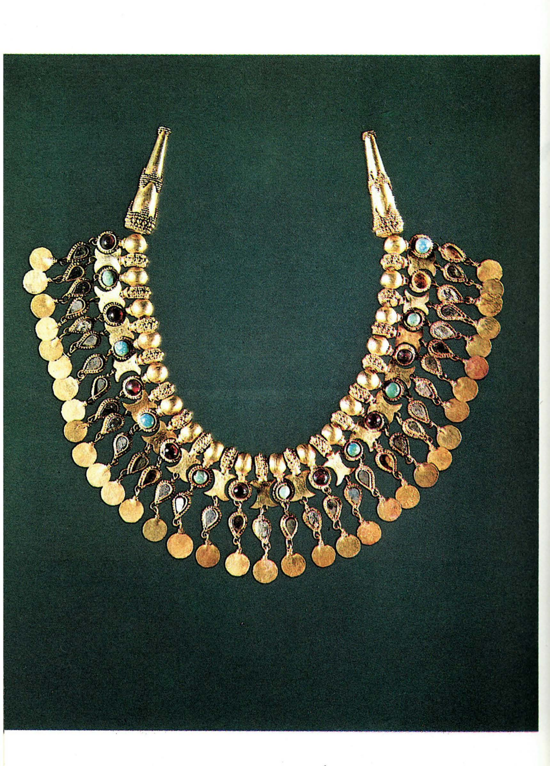


تاج . ذهب .

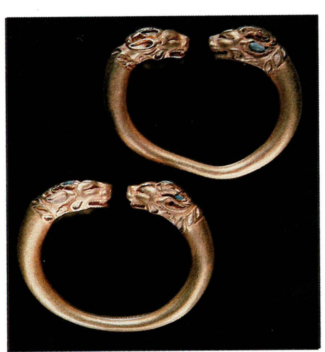
وعاء . ذهب .



قلادة .



اسواران برؤوس اسود ذات قرون . ذهب .



اسواران عليهما رؤوس ظباء .

ابزيما احذبة .



ابزيمان مع «مشهد ديونيسيوس» . ذهب .

قلادة . ذهب .



خواتم . ذهب

نوط بمشهد «الفهد ينهش الظبى» . ذهب .



رقائق «رجل ودلفين» . ذهب .

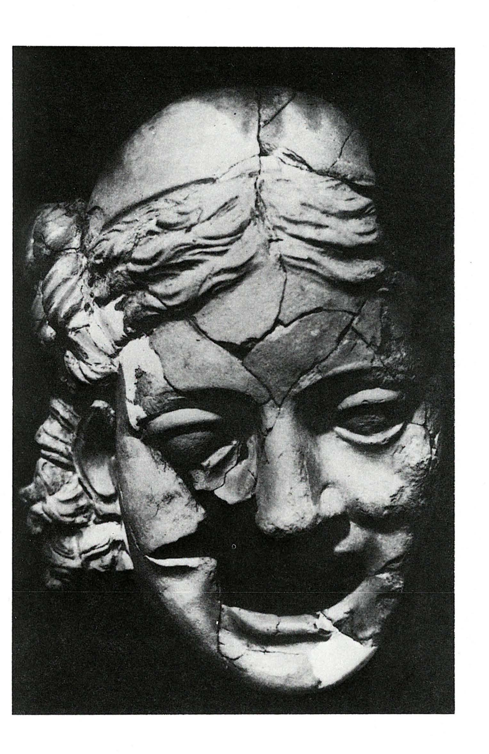


كولخيدا . ملعقة فضية . القرن الثالث قبل الميلاد .

كولخيدا . قرطان ذهبيان . القرن الخامس قبل الميلاد .



ايبيريا . قناع من الفخار الاحمر (التراكوتا) . القرن الثانى — القرن الاول قبل الميلاد .



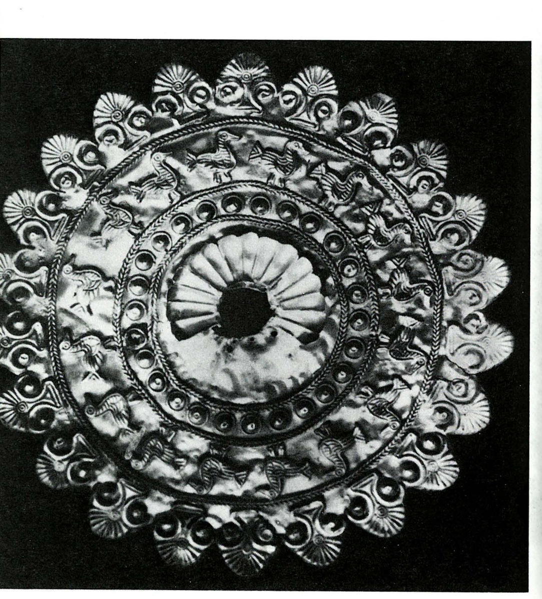
ايبيريا . قناع من الفخار الاحمر . القرن الثانى — القرن الاول قبل الميلاد .



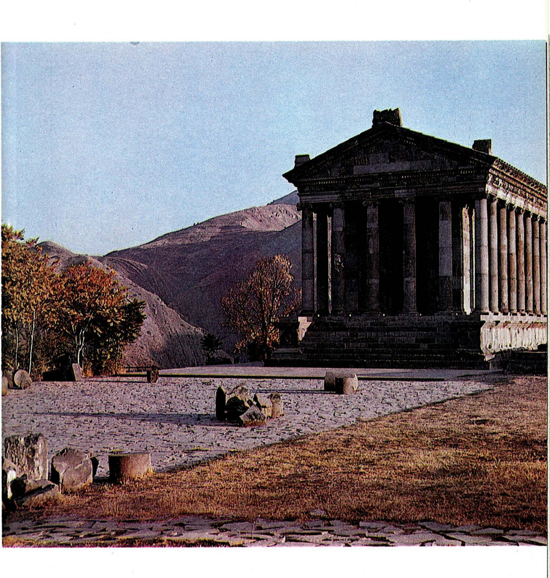
كولخيدا . طاس ذهبى . القرن الثانى قبل الميلاد .



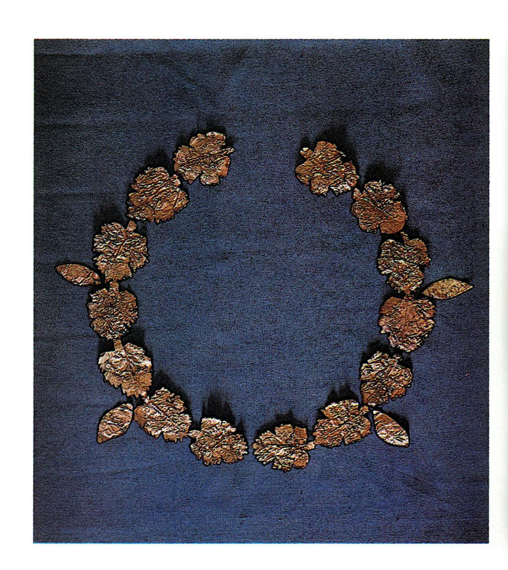
ايبيريا . نوط ذهبى من اخالغورى . القرن الرابع قبل الميلاد .



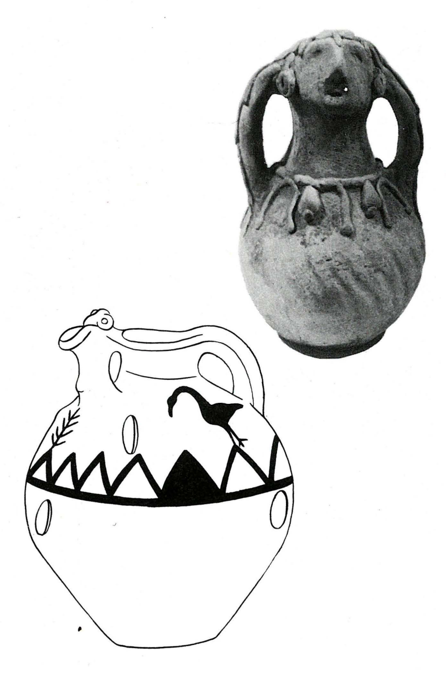
ارمينيا . معبد فى غارنى . القرن الثانى قبل الميلاد .



ارمينيا . اكليل ذهبى من سيسيان . القرن الاول قبل الميلاد .



البانيا القوقاسية . وعاء فخارى . القرون الأولى الميلادية .



البانيا القوقاسية . وعاء برسوم . القرون الاولى الميلادية .

محتويات